297
A13
C

A.U.B. LIBRARY

297.207
A133t A
C.1
EMORY UNIVERSITY LIBRARY

تفسير القرآن العظيم

جزء عم يتساءلون

تأليف
محمد محيي الدين عبد الحميد
المدرس فى قسم التخصص بكلية اللغة العربية
بالجامع الأزهر

يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بشارع محمد على بمصر
لصاحبها : مصطفى محمد

مطبعة حجازى بالقاهرة
تليفون ٥٥٤٨٠

[جميع حق الطبع محفوظ للمؤلف]

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عِوَجاً قَيِّماً ؛ لينذر بأساً شديداً من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا ماكثين فيه أبدا ، وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا مالهم به من علم ولا لآبائهم ، كَبُرَت كلمةً تخرج من أفواههم ، إن يقولون إلا كذبا .

والحمد لله الذى بعث رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم وَالْعَرَبُ على شر دين وفى شر دار ، منيخون بين حجارة خُشْن وَحَيَّاتٍ صُمٍّ ؛ يشربون الْكَدِرَ ، ويأكلون الْجَشِبَ ، ويسفك بعضهم دماء بعض ، الأصْنَامُ فيهم منصوبه مَعْبُودَة ، والآثام بأعناقهم مَعْصُوبة مَوْدودة ؛ فأبدلهم الله به خير دين وخير دار ، وهداهم به الصراطَ السوىّ والسبيل الواضح ، وجعلهم ببركة اتباعه خير الأمم ، والشهودَ على الناس ، وآتاهم من كل ماسألوه .

والحمد لله الذى علم خفيات الأمور ، وشهدت بربوبيته أوضح الآيات ، الذى امتنع على عين البصير وظهرت آثاره فى كل شىء ؛ فلا عين من لم يره تنكره ، ولا قلب من أثبته يبصره ، والذى سبق فى العلو فلا شىء أعلى منه ، وقرب فى الدنو فلا شىء أقرب منه ، وما باعده علوُّه عن شىء من خلقه ، ولا ساواه قربه بشىء منهم .

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد عبده ورسوله الذى أرسله بالدين والهدى والحكمة ؛ إزاحةً للشبهات ، واحتجاجا بالبينات ، وتحذيرا بالآيات ، وتخويفا

بالمثلات، فسارت به أعلام الدين، وقام ببركته عمود اليقين، ورفرفت بسببه بنود الايمان وارتفعت أعلام المسلمين، وشمل بعدْله وحلمه وهُدَاه الناسَ أجمعين

أما بعد؛ فان كتاب الله تعالى هو البحر الزاخر، والعلم الشامخ، الذى تبلى الأيام ولا تبلى عجائبه، وينفد المدادقبل أن يُبَيِّنَ بعضَ مافيه كاتبهُ، وهو الحبل المتين الذى من تمسك به نجا، وهو المورد العذب الذى من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدا، فيه نبأ من قبلنا وحكم مابيننا، وهو الشاهد يوم القيامة لنا أو علينا، اللهم اجعلنا من حزبه، وَبَصِّرنا بما فيه، واجعله شاهدا لنا بين يديك يارب العالمين.

وإنى منذ مدة أفكر فى كتابة تفسير ثلاثة الأجزاء الأخيرة من القرآن الكريم إذ كانت أكثر مايحفظه ناشئة البلاد الاسلامية اليوم، تفسيرا على قدْر استطاعة مثلى: لاأزعم أنه متين التحقيق، ولكن أقول سهْل المأْخذقريب المنال؛ وإنى كنت كلما فكرت فى الأمر خشيتُ أن تزل القدم أو يطغى القلم فأقول على الله تعالى ماليس لى به من علم، فيَهُولنى الأمر، ويَفْدَحنى الخطب، فأحجم ثانيا لعنان الفكر، طالبا لنفسى النجاة من المزال والمزالق.

وما زال هذا الخاطر يعاودنى حتى تجاسرت واجترأت على الإقدام، سائلا الله تعالى أن يوفقنى ويهدينى بقدر إخلاصى وحسن نيتى؛ إنه لايهدى إلى خير العمل سواه.

ثم رأيت أن أبدأ بتفسير الجزء الثلاثين من القرآن الكريم الذين أوله سورة (عمَّ يتساءلون) لأنه أول مايحفظه الناشىء من الكتاب العزيز، وأنا أرجو أن أكون قد وُفِّقت إلى ماأردت، وأن يتقبل الله منى هـــذا العمل قبولا حسنا.

ربنالاتكلنا إلى أنفسنا، ربنا ولاتؤاخذنا إن نسيناأو أخطأنا، ربنا ولاتحمل

علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به . واعف عنا واغفر لنا وارحمنا ، أنت مولانا ، فانصرنا على القوم الكافرين

ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة ، إنك أنت الوهاب . ربنا إنك جامع الناس ليوم لاريب فيه ؛ إن الله لا يخلف الميعاد .

ربنا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار .

رب هب من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء ؟

كتبه : أبو رجاء

محمد محيي الدين عبد الحميد

القاهرة فى : { المحرم ١٣٥٧
مارس ١٩٣٨

سورة النبأ *

[وهى مَكِّيَّة ، نَزَلت بعد سورة المَعارج ، وآياتها أرْبَعُون آية [1]]

* وتسمى سورة « عم يتساءلون » وتسمى أيضا «سورة التَّساؤل » وتسمى أيضا « سورة الْمُعْصِرَات »

(١) ويقال : إحدى وأربعون آية ، ذكره قوم منهم الزمخشري .

أرسل الله تعالى رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم بشيرا ونذيرا ، وداعيا إلى الله باذنه وسراجا منيرا ، وأمره أن يبلغ الناس ماأرسله به إليهم ، وآتاه المعجزة الباقية على الدهر وهى القرآن الكريم ، وكلفه أن يتحدى به فُصَحاءهم ، وأعلمه أنهم لايأتون بمثله ولا بعشر سور منه ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا .

وقد أبلغ الرسول قومَهُ ما أمره الله بإبلاغه ، وحَضَّهم على اتباعه والإيمان به ، وسَفَّه ما كانوا عليه من عبادة غير الله تعالى ، وبشَّر من آمن به جنات تجرى من تحتها الأنهار يوم لايخزى الله النبي والذين آمنوا معه يسعى نورهم بين أيديهم ؛ وحذَّر من عصاه نارا وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غِلاظ شِدَاد لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون مايؤمرون ، يوم يَعَضُّ الظالم على يديه ويقول ياويلتا ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا . وأعلمهم الرسول أن الخلق سيبعثون بعد موتهم ليلاقوا جزاء أعمالهم ، فأما من آمن وعمل صالحا فى هذه الحياة الدنيا فإنه يأتى يوم البعث والعَرْض على الله مستبشراً فَرِحاً ، وأما من عصى الله ورسوله وأساء فى هذه الحياة صنيعه فإنه مُلاقٍ أشد العقاب جزاء وِفاقاً

فأما من هداه الله ووفَّقه وكتب له السعادة فقد بادر إلى الايمان وأطاع الله ورسوله فيما دُعى إليه ، وأما من كتب الله عليه الشقاء وأعمى بصيرته فقد عصى

الله ورسوله وأنكر ماجاء به النبي صلى الله عليه وسلم، وقال : ما هى إلا حياتنا الدنيا ولن يبعث الله أحدا بعد الموت

وكان هؤلاء الكفار كلما اجتمعوا فى نادٍ من نواديهم أخذوا يتحدثون فى شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم وما جاءهم به ، ويسأل بعضهم بعضا عن مقدار تصديقهم مايسمعون منه ، يريدون بذلك أن يقوى بعضهم من عزائم بعض ، وأن يتواصوا على تكذيبه وجَحْد دلائل نبوته ، يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون

كانوا يتحدثون فى شأن القرآن : أسحر هو أم شعر أم كهانة أم اختلاط الجنون ؟ فيقول كل واحد منهم ماشاء له الضلال البعيد أن يقوله ، والقرآن حجة الله البالغة إلى رسوله الأمين ، وهو النور الذى يبهر الأنظار سناه ، ولا ينكره إلا أعمى البصر سقيم الوجدان

وكانوا يتحدثون فى شأن الرسول : أساحر هو أم شاعر أم كاهن أم اعتراه بعض آلهتهم بسوء ؟ فيزعم كل واحد منهم من ذلك مَزْعَماً ومحمد بن عبد الله رسول الله الذى اجتباه واختاره لحمل أمانة النبوة وطهره من رذائل الجاهلية وأدرانها ، والله بالغ أمره وإن جحد أهل الزيغ والبهتان

وكانوا يتحدثون فى شأن البعث ويأخذ الجدل فى أمره بينهم مأخذا عظيما ؛ فمنهم من ينكر البعث إنكارا كلياً ، ويزعم أنهم إذا ماتوا انقطع شأنهم ، وما هى إلا هذه الدنيا ، ومنهم من كان يزعم أنه إنما يبعث الله أرواحهم ، ولن يبعث أجسادهم بعد أن تأكلها الأرض وتعبث بها يَدُ الْبِلَى

وَرُبَّمَا لقى أحدهم بعض من آمن بالنبى صلى الله عليه وسلم فيسائله عن ذلك استهزاء به وسُخْرِيَةً منه ، والله يستهزىء بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون

بسم الله الرحمن الرحيم

عَمَّ يَتَسَاءلُونَ [١] عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ [٢] الَّذِى هُمْ فِيه

وفى هذا الشأن نزلت هذه السورة الكريمة ، رَدًّا عليهم ، وتكذيبا لهم ، وإقامة للحجة على أن الله تعالى قادرٌ على أن يبعثهم بعد موتهم ، وإنْ صاروا ترابا ، وإن أكلتهم السباع ، وإن احتوَتْهُمُ البحار فكانوا طعاماً للأسماك ، وإن حرقتهم النيران فطاروا مع الريح

(عَمَّ) أصل هذه الكلمة « عن ما » فأدغمت النون فى الميم ، وحذفت ألف « ما » الاستفهامية ، كما تحذفها فى نحو قولك « بِمَ اشتريت هذا الثوبَ » ونحو قولك « إلامَ أنتَ لاَهٍ عن واجبك » وذلك للفرق بين الاستفهام والخبر فى نحو قولك « سررت بما سررت به » أى بالذى سررت به ، ونحو قولك « سألتُ عمَّا سألتَ عنه » أى عن الذى سألت عنه (يتساءلون) أى : يسأل بعضهم بعضا ، والمراد الكفار فانهم على ماقدمنا لك كانوا إذا اجتمعوا خاضوا فى الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم وعما جاء به ، وكان أهمَّ شىء يأخذون فى الحديث عنه هو البعث . وقيل : المراد أن الكفار كانوا يسألون المؤمنين سؤال المستهزىء الساخر ، أو سؤال المنكر المتعنت (النبأ) هو الخبر الذى يُعْنَى به وَيُهْتَمُّ له ، ويقال : هو الخبر مطلقا (العظيم) وصف للنبأ ، ووصفه تعالى بهذه الصفة لعظمة شأنه وتفخيم أمره ، والمراد بالنبأ العظيم خبر البعث من القبور والعرض على مالك يوم الدين وجزاء الناس على ما عملوا فى الحياة الأولى من الأعمال ، ويقال : المراد به القرآن ، ويقال : المراد به نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكلاهما بعيد عن السياق ، ثم وصف الله تعالى النبأ ثانيا بقوله (الذى هم فيه مختلفون) فان جعلت الضمير فى قوله « يتساءلون » وقوله « هم » راجعا إلى الكفار وحدهم كان معنى اختلافهم فى شأن البعث أن منهم من يجزم بانكاره

مُخْتَلِفُونَ [٣] كَلَّا سَيَعْلَمُونَ [٤] ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ [٥] أَلَمْ

ويؤكد أنه لا يكون ، ومنهم من يتردد فى أمره ويشك فيما جاءهم به النبى عنه ؛ أو يكون معنى اختلافهم فيه أن منهم من يجحده بالكلية ، ومنهم من يجحد بعث الأجسام ولا ينكر بعث الأرواح فقد كان ذلك عقيدة لبعض الناس قبل البعثة المحمدية . وإذا جعلت الضمير فى قوله « يتساءلون » وفى قوله « هم » راجعا إلى الكفار والمسلمين جميعا ، لأن الكفار كانوا يسألون المؤمنين على ما قدمناه كان معنى اختلافهم ظاهرا لأن المؤمنين يجزمون بحصوله تصديقا لخبر النبى عن ربه ، والكفار يجزمون بعدم وقوعه تكذيبا للرسول واستبعادا للامر ؛ ويبعد أن تجعل الضمير فى «يتساءلون» راجعا إلى الفريقين ثم تجعل الضمير فى « الذى هم فيه مختلفون » راجعا إلى الكفار وحدهم ، وكذلك العكس

ثم أخذ سبحانه وتعالى فى الرد عليهم ، وبيان أنهم أخطأوا المَحَجَّة ، وضلُّوا طريق الاستدلال ، وكان عليهم أن ينظروا فى ملكوت السموات والأرض ، ويتدبَّرُوا مافيه من مظاهر القدرة ، والدلائل التى تنبىء عن عظمة الخالق وقَهْرِه ، وشدة تمكنه من أن يفعل ما يريد ، وبدأ سبحانه هذا الردَّ بزجرهم عما ذهبوا إليه من الجحود ، وتقريعهم على ما أهملوا من إعمال العقل والرَّوِيَّة ، فقال : (كلا) وهو حرف رَدْع وزَجْر ، أريد به ههنا رَدْعُهم عن مزاعمهم الباطلة ، وقوله تعالى (سيعلمون) معناه سيعلمون حقيقة الحال إذا ماعاينوا بأنفسهم وشاهدوا بأعينهم ما كانوا ينكرون وقوعه ، أو معناه سيعلمون مقدار ماينالهم من أليم العقاب على هذا الإنكار ، أومعناه سيعلمون أن الله تعالى ينصر رسوله عليهم فى هذه الدنيا فينالهم منه أذى شديدٌ كالذى يؤذونه به أوأشد فيكون على الوجه الأخير إنذاراً لهم بما وقع عليهم من الهزيمة والقتل والأسر فى

نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا [٦] وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا [٧] وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا [٨]

مغازى الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهذا الوجه بعيد . ثم أكد سبحانه وتعالى هذا الوعيد بقوله (ثم كلا سيعلمون) وصدَّره بثم للاشارة إلى أن الثانى أشد من الأول وأبعد منه فى الإيلام وإيصال الضرر والأذى إلى المنكرين الجاحدين .

ثم أخذ سبحانه يذكر بعض مظاهر قدرته الغالبة التى غفل عنها هؤلاء المنكرون مع أنها بين أعينهم فى كل وقت فقال : (ألم نجعل الأرض مهادا) والهمزة للاستفهام التقريرى ، والمراد بها حَمْلُ المخاطب على الاقرار بما بعد النفى : أى اعترفوا بأنا جعلنا الأرض مهادا ، لأن الدلائل فوق ماتستطيعون معه الانكار ، والمهاد — بكسر الميم — المكان الموطأ الممهد المذلَّل ، ومثله المهد فى نحو قوله تعالى : «الذى جعل الأرض مَهْدًا » والأصل فى ذلك كله المهد ، وهو ما يُهيَّأ للصبى لينام فيه (أوتادا) جمع وَتِد ، وهو قطعة من الخشب تدق فى الأرض ليربط إليه حَبْلٌ يشد الخيمة والبيت الذى يبنونه من الشَّعَر ، والمراد أن الله جلت قدرته جعل الجبال بالنسبة للأرض كالأوتاد بالنسبة لبيوت الشعر والأخبية ؛ كى لا تميد الأرض بأهلها وتضطرب بسكانها فلا يتم كون الأرض مهادا لهم (أزواجا) جمع زوج ، وذلك مثل ثوب وأثواب ونَوْل وأنوال ، والمراد بالزوج ههنا الذكر والأنثى ، كما يدل عليه قوله تعالى : « وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى » ويقال : المراد بالزوج كل شيئين متقابلين يضاد أحدهما الآخر ، مثل القبيح والحسن ، والطويل والقصير ، والأبيض والأسود ، كما يرشد إليه قوله تعالى : « ومن كل شىء خلقنا زوجين » والحكمة فى الامتنان علينا بذلك الاشارة إلى مواطن الدليل ، فان الضد ينجلى أمره وينكشف حاله

وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا [٩] وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا [١٠] وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا [١١] وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا [١٢] وَجَعَلْنَا سِرَاجًا

تمام الانكشاف إذا قورن بضده (سُباتا) بضم السين — أصله القطع، تقول: سَبَتَ الرجلُ السَّيْرَ، إذا قطعه، وتقول: سبت الرجلُ شَعْره، إذا حَلَقَه، والمراد أن الله تعالى جعل نومنا فى الليل قَطْعاً للمتاعب التى نكابدها فى النهار من السّعى لتحصيل الرزق ونحوه، أو المراد أنه جعل النوم متقطعا ولم يجعله دائماً سَرمَداً، لأن دوام النوم من أضر الأشياء بالانسان، إذ الفرق بين الإنسان والجماد إنما هو بالحركة، فلا تظهر ميزة الإنسان على الحجر إلا باليقظة التى تكون فيها الحركة، فلما كان انقطاع النوم وحصوله آنا بعد آن نعمةً جليلة لاجرم ذكره الله سبحانه فى مظاهر قدرته ومَوْطِن تعداد نعمه (الليل لباساً) أصل اللباس الشىء الذى يلبسه الإنسان ليستر به جسده ويغطيه، ولما كان الليل بظلامه يستر الناس ويغطى عليهم جُعِلَ لباساً، على التشبيه بالثوب ونحوه، ووجه الامتنان بذلك علينا أن الليل يُتيح الفرصة لمن يخاف عدوا أو نحوه أن يهرب من وجهه، وكما أن الإنسان بسبب اللباس يندفع عنه أذى الحر والبرد فكذلك هو بسبب الليل ومايحدث فيه من النوم يندفع عنه أذى التعب البدنى والفكرى، أفلست ترى أن المريض إذا نام وجد بَرْدَ الراحة (النهار معاشا) أى وقتا لتحصيل أسباب الحياة، وذلك لأن الخلق إنما يمكنهم التقلب فى حوائجهم ومكاسبهم فى النهار، دون الليل (سبعا شداداً) أى سبع سموات قوية محكمة التدبير، لايؤثر فيها مَرُّ الغَداة ولا كرُّ العشىّ، لاترى فيها من فُطُور ولاتصدُّع. والشِّدَاد: جمع شديدة (سراجا وهاجا) أصل السراج مايضىء بفتيلة ودهن، ويعبر به عن كل

وَهَّاجاً [١٣] وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجاً [١٤] لِنُخْرِجَ بِهِ حَبّاً
وَنَبَاتاً [١٥] وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً [١٦] إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاً [١٧]

مضيء منير حِسًّا كان كالمصباح والقمر والشمس ، أو معنى كما تقول : فلان سراج هذه الأمة ، إذا كان جيد الرأى مُتَّبَعًا . والوَهَّاج : صيغة مبالغة من الوَهَج ، وهو حصول الضوء والحرارة من النار ونحوها . والمراد ههنا من السراج الوهاج هو الشمس ، وهى بالغة أقصى الغايات من هذه الأوصاف ؛ فهى مضيئة إلى أبعد غايات الاضاءة ، وهى بالغة أقصى الغايات فى الحرارة ، وقد جعل الله تعالى فى هذا الكوكب العظيم سرَّ الحياة ، وأودع فيه من القُوَى المجددة للدم الطاردة للأمراض مالا يقدر كنهه ولا يدرك مداه إلا من رأى كيف تفتك الأمراض بمن يعيش فى مَنْأَى عن ضوء الشمس وحرارتها ، وعلم أن الجراثيم الطفيلية من عناصر الأوبئة لا تتولد إلا حيث تحجب الشمس وَهَجَها ، وأنها تفر من وجه الشمس مثلما يفر الجبان الرِّعْديدة من الشجاع الباسل (المعصرات) السحائب التى قارَبَتْ أن تثيرها الرياحُ فتمطر ، وقريب منه قولك : أعصرت الفتاة ، إذا دنا وقت حيضها ، وقولك : أَحْصَدَ الزرع ، إذا قرب وقت حصاده (ثجاجا) كثير السيلان ، عظيم الانصباب ، والمراد المطر ، ونزولُ المطر نعمة من نعم الله تعالى العظيمة النفع الجليلة الفائدة ، فهو الذى يُبَدِّل جدب الأرض خصبا ، ويثير ما كمن فيها من الحيوية فيظهر النبات وتبدو به الأرض فى زينتها البديعة (حَبًّا) المراد به ما يكون طعام الإنسان كالحنطة (ونباتا) المراد به الحشائش التى تكون طعاما لأنواع الحيوان (جنات ألفافاً) حدائق ملتفة الأغصان ، والألفاف : جمع لف ـ بكسر

اللام – مثل جِذع وأجذاع ، والَّلفّ : صفة مشبهة ، وقد ورد هذا المفرد فى نحو قول الشاعر :

جَنَّةٌ لِفٌّ ، وَعَيْشٌ مُغْدِقٌ ، وَنَدَامَى كُلُّهُمْ بِيضٌ زُهُرْ

وقيل : مفرد الألفاف لفيف ، مثل شريف وأشراف . وقد جمع الله تعالى فى هذه الآيات جميع أنواع ماتنبته الأرض ، وذلك أن مايخرج منها إما أن يكون ذا ساق وإما أن يكون بغير ساق ، وما يكون له ساق إذا اجتمع بعضه إلى بعض وكثر حتى التف فهو الحديقة ، وما يكون بغير ساق إما أن تكون له أكمام فيها حب ، وإما أن يكون بغير أكمام ولا حب ، فالأول هو المراد بالحب والثانى هو المراد بالنبات ؛ والحكمة فى تقديم الحب أنه الأصل فى غذاء أشرف أنواع الحيوان وهو الانسان ، وعقبه بذكر النبات لأنه شارك الحب فى كونه أصلا للغذاء ، وأخر ذكر الحدائق لأن الفاكهة التى هى نتاج الحدائق مما يستغنى عنه كثير من الناس فليست هى بمنزلة الحب فى الحاجة إليه وعدم الاستغناء عنه .

ذكر الله جلت قدرته فى هذه الآيات تسعة أمور من مظاهر القدرة البالغة والحكمة الفائقة ، وكل هذه الأمور مما يشاهده كل أحد ، ولا يخفى أمره على إنسان مهما يكن من بساطة العقل وضعف التفكير ، فانبساط الأرض وتمهيدها وتذليلها لتصلح لسير الناس والأنعام ، وسُمُوق الجبال صاعدة فى الجو ، وتنوع الآدميين إلى ذكر وأنثى أو تقابل المخلوقات وتضادها ، وكون النوم سببا فى راحة الانسان من عناء الأعمال التى يزاولها عامة نهاره ، وكون الليل ساترا للخلق ، والنهار وقتا للحياة ، وارتفاع السموات فوقنا ارتفاعا يدل على عظمة الصانع ، ووجود الشمس المنيرة المتوهجة ، ونزول المطر وما ينشأ عنه من أنواع النبات ؛ كل ذلك مما لايغفل عنه ذهن ولا يستطيع أن ينازع فيه ذو بَصَرٍ وسمع . ذكر الله تعالى

يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً [١٨] وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ

ذلك داعياً لهم أن يعترفوا بأنه من صنعه وأنه الموجد له ، وكأنما قال لهم : هذه لأمور التى ترونها وتشاهدونها هى من صنعتى وأنا الخالق لها على هذا النحو البديع الذى يدل على سمو الحكمة وعظيم التدبير ، وإن من خلق ذلك لايعجزه شىء ولا تضعف قدرته أمام شىء .

ثم لما نبههم إلى هذه المظاهر الباهرة ، ولفت أنظارهم إلى آياته القاهرة ؛ أخذ فى بيان ما اختلفوا فيه ونازعوا فى إمكان حصوله ، فبين لهم أنه بعلمه وحكمه وتقديره ، وبين لهم بعض مايكون فيه ؛ تخويفا لهم من الاستمرار على التكذيب بعد ماوضحت الدلالة وبانت الحجة ؛ فقال : (إن يوم الفصل) هو يوم القيامة ، وإنما سمى بذلك لأن الله تعالى يفصل بين الناس فيه ؛ فيأخذ للمظلوم ممن ظلمه ، أو لأن الناس يومذاك تمايز وتكون طبقات على حسب أعمالهم فى الدنيا ؛ ألا ترى إلى قوله تعالى « وامتازوا اليوم أيها المجرمون » (ميقاتا) أى حدا تنتهى عنده الدنيا ، وينتهى إليه الخلائق ؛ فيجتمعون ليرى كل واحد ماعملت يداه ، وكيف يجازى المحسن باحسانه ويعاقب المسىء على إساءته (يوم ينفخ فى الصور) هو بدل من « يوم الفصل » أو عطف بيان عليه ، والصور فى الأصل البوق الذى ينفخ فيه فيحدث صوتا ، وقد جرت عادة الناس إذا سمعوا ذلك أن يجتمعوا عند النافخ ويهرعوا إليه ، ويجب على كل مسلم أن يؤمن بأمور الآخرة على ماوردت فى كتاب الله تعالى لأنها من الأمور التى لاتحيط العقول بكنهها ولا تقف على حقيقتها وسرها ؛ وليس لأحد أن يناقش فيها ولا أن يستبطن ماأخفاه الله من تفصيلها (أفواجا) جمع فَوْج ، وهو الجماعة : أى تجيئون جماعات من قبوركم (فتحت السماء) أى انشقت وتصدعت ، ويدل عليه قوله تعالى « إذا السماء انشقت » وقوله « إذا

أَبْوَابًا [١٩] وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا [٢٠] إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ

السماء انفطرت » والمراد أن هذا العالم الذى تشاهدونه يتغير يومئذ نظامه وتتبدل هيأته (فكانت أبوابا) أى أنها لكثرة صدوعها صارت كالأبواب (سيرت الجبال) زالت من أماكنها وتفتتت صخورها وذرتها الريح فى الهواء كالهباء (فكانت سرابا) أى أنها تشاهد فى الهواء على صورة الجبال وليست فى الحقيقة جبالا ، وإنما هى غبار تطاير وتراكم بعضه إلى بعض ، فمثلها عند الرائى الذى لا يحقق المرئى كمثل السراب يراه الانسان من بعيد فيحسبه بحرا وليس ببحر. وذلك كله تمثيل لاضطراب أمر هذه الكائنات يومئذ ، وأنها لا تكون على حالها الذى تراه اليوم « يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات »

ثم لما أبان لهم سبحانه وتعالى قدرته على خَلْق مااختلفوافيه وكذبوا رسوله من أجله ، وبين أن هذا اليوم الذى يكذبون به هو اليوم الذى يفصل بينهم وبين الرسول فيما كانوا فيه يختلفون ، وأنه اليوم الذى يبين فيه فضل الرسول ومن اتبعه ويظهر فيه حقارة شأن من خالفوه ولم يؤمنوا به ، وأنه يوم شأنه عظيم ، وأمر الكائنات فيه على غير ماهى عليه الآن ، بعد أن بين ذلك كله أخذ فى بيان منزلة المكذبين الذين جحدوا آيات الله واتخذوها سخرية وهزؤا ، فقال : (إن جهنم كانت مرصادا) والمرصاد : صيغة مبالغة ، مثل المِطْعَان والمِعْطَار والمِعْمَار ، أى إن جهنم شديدة الترصد والانتظار والارتقاب للذين استأهلوها بخبيث أعمالهم تكاد تميز من الغيظ منهم والحَنق عليهم ، ويقال : المرصاد اسم مكان ، أى إن جهنم مكان يرتقب فيه خزنتها المستحقين لها ، ويقال : اسم مكان يُرْصَد فيه الناس جميعا مؤمنهم وكافرهم ، فأما المؤمنون فيرصدهم خزنة النار ليدفعوا عنهم

مِرْصَاداً [٢١] لِلطَّاغِينَ مَئَاباً [٢٢] لٰبِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً [٢٣] لَايَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَلَا شَرَاباً [٢٤] إِلَّا حَمِيماً وَغَسَّاقاً [٢٥] جَزَآءً وِفَاقاً [٢٦]

حرها ولفح نارها حين مرورهم بها ، وأما الكافرون فيرصدهم خزنة النار لينزلوهم فى منازلهم منها (الطاغين) الذين تكبروا على ربهم ، وطَغَوْا فى مخالفته ومعارضته (مآبا) مصيرا ومقرا وموضعا يرجعون إليه ويصيرون فيه (لابثين) مقيمين (أحقابا) جمع حقب ، والحقب : جمع حِقْبَة ؛ والصحيح أن الحقبة مدة من الزمان مبهمة والمراد أنهم ما كثون فيها دهوراً متلاحقة يتبع بعضها بعضاً ، كلما انقضى عليهم زمن تجدد لهم فيها زمن آخر مثله ، وهكذا مادام الزمن « يريدون أن يخرجوا من النار وماهم بخارجين منها ، ولهم عذاب مقيم » وليس المراد توقيت لبثهم فيها بمدة ولو تطاول أمدها . ويقال : الأحقاب جمع حَقِب — بفتح الحاء وكسر القاف — والحقِبُ : هو الذى مسّه الجدب وأصابه البؤس ، فيكون منصوبا على أنه حال من الضمير المستتر فى « لابثين » وقوله تعالى (لايذوقون فيها برداً) المراد به أنهم لايذوقون مع مايجدونه من شدة الحر مايكون فيه راحة : من ريح باردة ، أو ظل يمنع لفح النار عنهم ، ويقال : البرد هو النوم ، ومن أمثال العرب « منع البردُ البردَ » أى أصابه من شدة البرد مامنعه النوم (ولاشرابا) يسكن عطشهم ويزيل الحرقة عن بواطنهم (إلا حميا) الحميم : هو الماء الحار المغلى جدا (وغساقا) الغساق : هو مايسيل من جلودهم من الصديد والقيح والعرق وسائر الرطوبات المستقذرة (جزاءا وفاقا) أى أنه تعالى أنزل بهم عقوبة شديدة بسبب أنهم أتوا بمعصية شديدة ؛ فيكون العقاب وفاقا للذنب : لم يزد على قدر الاستحقاق ، ولم ينقص عنه «وجزاء سيئة سيئة مثلها» «ولايظلم ربك أحدا» ، ثم لما بين على طريق الإجمال أن هذا الجزاء الذى أُعِدَّ لهم على وفق جُرْمهم شرح أنواع جرائمهم

إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا [٢٧] وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا [٢٨]
وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا [٢٩]

بعد الاجمال ، وبين أنها على نوعين : أولهما ماذكره بقوله تعالى : (إنهم كانوا لا يَرْجُونَ حسابا) يعنى أنهم ما كانوا يخافون الحساب ، أو المراد أنهم ما كانوا يتوقَّعونه . وإنما ذكر هذا الذنب أولا لأنه سبب ومنشأ ترتبت عليه سائر ذنوبهم ؛ وذلك لأن رغبة الانسان فى فعل الخيرات وترك المحظورات إنما تكون — فى الغالب الكثير من أحوال الناس — بسبب اعتقاده أنه ينتفع بذلك فى الآخرة ، فمن كان لأمر الآخرة منكرا لم يقدم على شيء مما يحسن عمله ، ولم يحجم عن شيء مما يقبح فعله ، والنوع الثانى من جرائمهم ماذكره سبحانه بقوله : (وكذبوا بآياتنا كذابا) والكذاب : التكذيب ، وانتصابه على أنه مفعول مطلق مؤكد لعامله ، والمراد أن هؤلاء الكفار قد بلغوا من رداءة الحال مبلغا ليس بعده مزيد ، فانهم قد اعتقدوا أفسد العقائد ، وقد عملوا أقبح الأعمال ؛ وقد أشار إلى فساد أعمالهم بقوله « إنهم كانوا لايرجون حسابا » أى كانوا مقدِمين على جميع القبائح والمنكرات غير راغبين فى شيء من الطاعات والخيرات ، تعبيرا بالملزوم عن اللازم ، وأشار إلى فساد نظرهم وعقائدهم بقوله « وكذبوا بآياتنا كذابا » أى كانوا منكرين بقلوبهم للحق مصرين على الباطل (وكل شيء أحصيناه كتابا) تقدير الكلام أحصيناه إحصاء ؛ فوضعت كلمة « كتابا » موضع « إحصاء » فهو مفعول مطلق مؤكد لعامله ، وإنما عُدِل عن لفظة الاحصاء إلى لفظة الكتاب لأن الكتابة هى النهاية والغاية فى قوة العلم ، أو لست ترى أنك إذا أردت أن تحصى كلام متكلم لئلا يضيع عن ذهنك منه شيء فانك تكتبه ؟ فكأنه تعالى قال : وكل شيء أحصيناه إحصاء مساويا فى القوة والثبات والضبط لما يكتب . والمراد أنا علمنا كل شيء علما ثابتا لا يزول ولا يعتريه الخلل ولا التحريف ؛ فليس يمكنكم أن تجحدوا ماتصنعونه

فَذُوقُوا فلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّاعَذَابًا [٣٠] إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفازًا [٣١] حَدَائِقَ
وَأَعْنَابًا [٣٢] وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا [٣٣] وَكَأْسًا دِهَاقًا [٣٤] لَايَسْمَعُونَ فِيهَا

فى الحياة الدنيا عند ماترون ما أعددناه لكم من أنواع العقوبات لأنا قد علمنا مافعلتم وأحصيناه إحصاء لا يزول ولا يغيب عنا وإن زال عن أذهانكم ونسيتموه ، وذلك مثل قوله تعالى : « أحصاه الله ونَسُوه »

وقوله تعالى (فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا) يدل على شدة عذابهم وأليم ما يلاقونه جزاء لأعمالهم التى سبق ذكرها ، ألست ترى أنه جىء فيه بلن التى تدل على تأكيد النفى ؟ وأنه عدل عن الحكاية عنهم على طريق الغيبة إلى مشافهتهم وتوجيه الكلام إليهم ، وهذا يدل على كمال الغضب . ولاتنافى بين هذه الآية وبين قوله تعالى : « ولايكلمهم ولاينظر إليهم » لأن المنفى هوكلامهم الذى يكون فيه نفع لهم ، ويدل على العناية بشأنهم .

ثم إنه تعالى بعد أن بين حال الكفار الذين كذبوا رسول الله وأعرضوا عما جاءهم به ؛ بَيَّنَ حال المؤمنين وذكر أنهم سيفوزون يوم القيامة بعظيم الأجر وينالون عندربهم أكرم المثوبة ، لأن فى ذلك استنهاضا لهممهم الشريفة العالية بأن تثابر على أعمال الخير ، وتزداد من البر والقربات ، وفيه مع ذلك إيلام لأنفس المكذبين الضالين ، وقوله تعالى (مفازا) معناه الفوز ، وهو الظفر بالمطلوب وإدراك ماتميل له النفس ، وقيل : الخلاص من العذاب والنجاة من أليم العقاب ، والأول أولى (حدائق) جمع حديقة ، والحديقة كل بستان أحيط بسور ، والأصل فى اشتقاقه قولهم « أحْدَقُوا به » ومعناه أحاطوا به (وأعنابا) جمع عنب ، وإنما خص هذا النوع من الفاكهة بالذكر مع أنه مما يكون فى الحدائق اهتماما بأمره ثم نكره دلالة على تعظيم حاله ، والجمع لتعدد أنواعه (وكواعب) وهى جمع كاعب ، والكاعب هى التى نَهَدَ ثديها وتكَعَّبَ (أترابا) جمع تِرْب وهى التى سِنُّها من سن صاحبتها (وكأسا) هو إناء من بَلّور (دهاقا) ممتلئة ، ويقال : متتابعة ، ويقال : صافية ،

لَغْواً وَلَا كِذَّاباً [٣٥] جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَاباً [٣٦] رَبِّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً [٣٧]

(لا يسمعون فيها) هذا الضمير راجع إلى الكأس : أى لا يجرى بينهم حين يشربونها لغو الكلام وكاذبه ، كما يجرى بين الذين يشربون الخمر فى هذه الحياة ؛ وذلك لأن أهل الجنة إذا شربوا لم تتغير عقولهم ولم تفتر أعصابهم « لا يُصَدَّعُون عنها ولا هم ينزفون » ويقال : الضمير فى « فيها » راجع إلى الجنة نفسها : أى أنهم لا يسمعون شيئا يكرهونه (ولا كذابا) هو التكذيب ، واللغو والكذاب من أشد ما تتألم منه نفوس الصادقين المخلصين فلذا بين الله تعالى أنهم لا يسمعونهما (جزاء من ربك) على ما عملوا فى حياتهم الأولى من الأعمال الصالحة ؛ بمقتضى وعده إياهم أنه من عمل عملا صالحا يؤته أجره ولا يبخسه شيئا (عطاء) مِنَّةً منه تعالى عليهم ، لأنه لا يجب عليه شىء . ولا تنافى بين كونه جزاء أعمالهم وكونه بمنه تعالى وكرمه ، على ما هو مختار أهل السنة والجماعة (حسابا) أى كافيا لهم ، تقول : أعطانى فلان حتى أحسبنى ، تريد أعطانى حتى كفانى بعطائه . ويقال : أى كثيرا ، ومنه تقول : أحْسَبْتُ فلانا ، إذا أكثرت له العطية ، ومنه قول الشاعر :

وَنُقْفِى وَلِيدَ الْحَىِّ إِنْ كَانَ جَائِعاً ... وَنُحْسِبُهُ إِنْ كَانَ لَيْسَ بِجَائِعِ

وقوله تعالى (رب السموات والأرض) معناه أنه سبحانه المالك لشؤونهما المدبر لأمورهما المهيمن عليهما (لا يملكون) الضمير راجع إلى أهل السموات والأرض فإن أحداً من المخلوقين لا يملك مخاطبة الله تعالى ومكالمته ، ويقال : الضمير راجع إلى المؤمنين الذين ذكرت أحوالهم فى الآيات السابقة عليه ، ويقال : بل هو راجع إلى الكفار الذين مضى ذكر حالهم ، وهذا الأخير وجه بعيد من السياق (الروح

يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا [٣٨] ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ

والملائكة) وهى من مخلوقات الله تعالى التى غيبها عنا ولم يجعل لنا القدرة على رؤيتها ، فيجب علينا أن نؤمن بها و إن لم نرها ونصدق بكل ما جاء فى كتاب الله سبحانه من أوصافها غير باحثين عن حقيقتها (لايتكلمون) إجلالا لربهم وخوفا منه وخضوعاً له ووقوفا عند قَدْرهم (أذن له الرحمن وقال صوابا) المراد أنهم لايتكلمون إلا عند حصول شرطين : الشرط الأول أن يأذن الله تعالى بالكلام ومثله قوله تعالى : « من ذا الذى يشفع عنده إلا باذنه » والشرط الثانى أن يكون ما يقولونه صدقا وصوابا ، والمراد أنهم يجتهدون غاية الاجتهاد فى أن يكون ما يتكلمون به صحيحا . وقد دلت هذه الآية الكريمة على أنهم مع قربهم من الله تعالى لايستطيع أحد منهم أن يشفع لأحد أو يطلب منحة إلا بعد أن يأذن الله له ولا يأذن إلا لمن علم أنه سيجاب لكونه يقول الصواب .

ثم إنه سبحانه وتعالى بعد أن قرر أحوال المكلفين ، و بين أنهم على نوعين : نوع يستحق ما وصفه من العقاب ، ونوع يُجزى بما بَيّنَه بعد ذلك من الثواب ، وَقَرَّرَ بعد هذا عظمة شأن يوم القيامة ؛ قال بعد كل ذلك : (ذلك اليوم الحقُّ) أى هو اليوم الذى يظهر فيه كل حق وَيندفع فيه كل باطل ، فهو من باب الوصف بالمصدر على تقدير « ذو » أى هو صاحب الحق ، وذلك كما تقول : فلان خير كله ، إذا أردت أنه صاحب خير كثير . ويقال : الحق هو الثابت (فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا) أى مرجعا ، أى يعمل عملا صالحا يقربه إلى ربه ويدنيه من كرامته وثوابه و يباعد بينه وبين عقوبته وعذابه ، ثم زاد سبحانه فى تخويف

مَئَابًا [٣٩] إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَاقَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا [٤٠]

الكفار ماأنذرهم به فقال : (إنا أنذرناكم) خوفناكم وحذرناكم (عذابا قريباً) المراد به عذاب يوم القيامة ، وكل ماهو آت قريب ، أنظر إلى قوله تعالى : « كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها » ، ويقال : هو عذاب القبر ، وكل واحد من هؤلاء الكفار سيجد بعض جزائه فى قبره متى مات ، وما تزال نفسه فى ألم شديد حتى يبعث يوم القيامة فيجد جزاءه معدًّا له حاضراً بين يديه (يوم ينظر المرء) المراد به كل إنسان : ذكرا كان أو أنثى ، مؤمنا كان أو كافرا (ماقدمت يداه) ماصنعه فى حياته الأولى من الأعمال ؛ فان كان قد آمن بربه وعمل عمل الأبرار فطوبى له ، وإن كان قد كذب بالله ورسوله فالويل له وأليم العذاب ، ويقال : المراد بالمرء هنا المؤمن بخصوصه لأن الكافر سيذكر بعد ، ويقال : المراد به هو الكافر بخصوصه لأن المؤمن إنما ينظر إلى عفو الله ورحمته وعظيم ثوابه لا إلى ماقدمت يداه . والذى قدمناه أولى ، وتصديق ذلك قوله تعالى : « يوم تجد كل نفس ماعملت من خير محضراً وماعملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيداً ، ويحذركم الله نفسه ، والله رءوف بالعباد » وكأنه تعالى قد طوى فى هذه الآية ذكر مايكون على المؤمن من الاستبشار والسرور بما رآه لأن ذلك معلوم من السياق ، وهو معلوم فوق ذلك من ذكر حال مقابله ، وقوله تعالى (ويقول الكافر) المراد به كل من كفر بالله وبرسله وبما جاءوا به من عند ربهم ، ويقال : المراد به إبليس (ياليتنى كنت ترابا) إن كان المراد بالكافر كل من جحد الله ورسوله فالمعنى أن كل واحد من هؤلاء يتمنى أنه لم يكن من المكلفين ، بل كان حجرا أو ترابا لا يجرى عليه تكليف

فيتثاقل عن القيام به فيعاقب بهذا العقاب ، أو معناه أنه يتمنى أن لو كان الله تعالى قد هداه فى الحياة الدنيا فكان متواضعا ولم يتجبر ولم يتكبر على الايمان بالرسول والانقياد لكل ماجاء به . وإن كان المراد بالكافر إبليس وهو قول فيه بعد فالمعنى أنه يومئذ يتمنى أن لو كان كآدم وذريته قد خلق من تراب ، ولم يكن من نار ، وذلك حين يرى ثواب الله تعالى الذى يَنْعَمُ به المؤمنون من ذرية آدم والله سبحانه وتعالى أعلى وأعلم .

سورة النازعات *

[وهى مَكِّيَّة ، نَزَلت بعد سورة النبأ ، وآياتُها ست وَأرْبَعُون آية] (١)

---

* وتسمى أيضا « سورة الطَّامّة » وتسمى أيضا « سورة السَّاهِرة »

(١) لاخلاف فى أن هذه السورة مكية . واختلف فى عدد آيها : فقيل : ست وأربعون آيةً ، وقيل : خمس وأربعون آيةً .

صَدَّر الله تعالى هذه السورة الكريمة بالحَلِف بأشياء من مخلوقاته على صحة ما جاء به رسوله الأمين صلى الله عليه وسلم من أمر البعث وعَرْض الخلائق على ربهم لينال كلٌّ واحد منهم جزاء أعماله التى أزلفها فى حياته الدنيا .

وقد جرت عادة الله سبحانه فى كتابه العزيز أن يقسم بأشياء مما خلَق وذرأ ؛ على ماجرت به عادة العرب الذين نزل الكتاب بلغتهم من توكيد الأمر المُخْتَلَفِ فيه أو الذى هو بصَدَد أن يختلف فيه لغرابته عن السامعين باليمين .

والأصل فى الحامل على اليمين الرغبة فى أن يُوثِّق المتكلم الأمر ويؤكده ويحمل المخاطَبَ على تصديقه فيه وينفى عن نفسه خَلَجَاتِ الشك ، إن كان المحلوف عليه خبرا قد وقع قبل اليمين ، كما تقول : « والله لقدزارنى محمد » ، أوالرغبة فى أن يحمل المتكلم نفسه على إيقاع أمرٍ مّا ويُلْزِمها فعلاً لم يقع مخافة الحِنْث بيمينه فيناله من ذلك عقاب أومَسَبَّة ، وهذا إن كان المحلوف عليه لم يقع قبل الكلام نحوقولك « والله لأَزُورَنَّ عليا »

والأصل فى المحلوف به أن يكون مُعظما عند المتكلم بحيث يخاف سطوته وعقابه أن ينزل به إذا هو كذب فيما حلف أنه قد حدث أو إذا هو حنث فيما حلف أنه سيفعله ،

وهذان الأصلان بالنسبة إلى الله جلت قدرته وتعالت كلمته محالان ؛ فلا يمكن أن يكون الحامل له سبحانه على القسم واحدا مما ذكرنا ، ولا يمكن أن المحلوف به — وهو من مخلوقاته الخاضعة لقهره وجبروته — بالمنزلة التى قدمنا بيانها

ولكنا نجد فى الكتاب العزيز أقساما بأشياء من مخلوقاته سبحانه فيأخذ بنا البحثُ والتفكير مأخذا ، ونحن لو تدبرنا أمر هذه الأيمان لوجدناه يرجع إلى أحد سببين : أولهما أن تكون هذه الأشياء المحلوف بها قد عَظُمت فى أعين بعض الناس وقوى سلطانها على نفوسهم حتى عبدوها ودانوا لها واتخذوها آلهة من دون الله تعالى ، وفى مثل هذه الحال يذكر الله تعالى بجانب الحلف بها بَعْضَ صفاتها التى تدل على تغيرها وأنها بعُرْضِ الفناء والزوال ؛ ليكون أول الأمر داعيا إلى الاستماع والاصاخة إلى ما يذكر ، ويكون آخره قارعا للعقول ومُنَبِّهًا لها على ما هى عليه من الضلال وفساد النظر ؛ لأن الحقيق بالألوهية والجدير بالعبادة لا يحول أمره ، ولا يعتريه النقص ، ولا يشوبه الفساد ؛ انظر مثلا إلى قوله تعالى : « والشمس وضحاها ، والقمر إذا تلاها ، والنهار إذا جلّاها ، والليل إذا يغشاها ، والسماء وما بناها والأرض وما طحاها » ثم تدبر ما ذكرناه لك فانك ستجد أن الشمس قد وَجَدَت من عقول بعض الناس غفلةً حتى عبدوها ، ثم تجد أن الله تعالى قد ذكر بجوار الحلف بها ما يعتريها من التغير من حال إلى حال ، وما يطرأ عليها من الأفول والانتقال ، مما لا يكون من شأن الآلهة المستحقة للعبادة ؛ والأمر الثانى أن يكون المحلوف به فى الكتاب أمرا جليلا من مظاهر القدرة الالهية ، وقد غَفَلَ الناسُ عنه ، وأعرضوا عن التدبر فيه ، ولو أنهم تدبروا أمره ، وفكروا فيما هو عليه من جليل الصنعة وباهر الحكمة ، لاهتَدَوْا به إلى معرفة خالقه ، ونعتوه بما هو له أهل من صفات الجلال والقدرة ، انظر إلى قوله تعالى : « والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى ، وما خلق الذكر والأنثى » وتدبر الأمر فَضْلَ تدبر ، فليس

ههنا تنديد بعقول قد غاب عنها رشدها بذكر صفاتٍ تدل على تحول الأحوال بالمقسم به واختلال شأنه بعد الكمال ، ولكنك تجد هنا لفتاً إلى مظاهر قدرة الخالق فى هذا المخلوق الذى أغفل المخاطبون تدَبُّر شأنه والاستدلال به على عظمة صانعه ، ولو أنهم فكروا فى ذلك لسهل قيادهم ، ولانَ ما تحجّر من قلوبهم ، ولأسلسوا لطاعة داعيهم العِنان

وإذا عرفت هذا فاعلم أنه سبحانه يقسم على أصول الايمان التى يجب على الخلق معرفتها : تارة يقسم على التوحيد ، وتارة يقسم على أن القرآن حق ، وتارة يقسم على أن الرسول صادق فيما يحكيه عن ربه ، وتارة يقسم على الجزاء وأن الخلق مبعوثون إلى ربهم وكل واحد منهم مُلاقٍ جزاء أعماله ، وتارة يقسم على حال الانسان.

فمن حَلِفِهِ سبحانه على التوحيد قوله تعالى : « والصافاتِ صفا ، فالزاجرات زَجرًا ، فالتاليات ذكرا ؛ إن إلهكم لواحد »

ومن حلفه جل شأنه على أن القرآن حق قوله تعالى : « فلا أقسم بمواقع النجوم ، وإنه لقسم لو تعلمون عظيم ؛ إنه لقرآن كريم » وقوله سبحانه : « حٰمۤ ، والكتاب المبين ، إنا جعلناه قرآنا عربيا »

ومن حلفه تعالت كلماته على أن الرسول صادق فيما يحكيه عن ربه قولهُ تباركت أسماؤه : « يٰسۤ ، والقرآن الحكيم ؛ إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم » وقوله سبحانه وتعالى : « نۤ والقلم وما يسطرون ، ما أنت بنعمة ربك بمجنون » وقوله سبحانه : « وَالنَّجْمِ إذا هوى ، ما ضَلَّ صاحبكم وما غَوَى ، وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى علّمه شديد القُوَى »

ومن حلفه على الجزاء والوعد والوعيد قوله جل ذكره : « والذاريات ذَرْوًا ، فالحاملات وقرًا ، فالجاريات يسرا ، فالمقسمات أمرًا ؛ إنما تُوعَدون لصادق ، وإن الدين لواقع »

ومن حلفه على أحوال الانسان قوله تبارك وتعالى : « والليل إذا يغشى ، والنهار إذا تجَلَّى ، وما خلق الذكر والأنثى ، إن سعيكم لَشَتَّى »

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّزِعَٰتِ غَرْقًا [١] وَالنَّشِطَٰتِ نَشْطًا [٢] وَالسَّبِحَٰتِ سَبْحًا [٣]
فَالسَّبِقَٰتِ سَبْقًا [٤] فَالْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا [٥] يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ [٦]

(والنازعات) المراد بهذه الصفة وما بعدها النجوم ونحوها من الكواكب كالشمس والقمر ، ومعنى كونها نازعاتٍ أنها جارياتٌ على سيرٍ مُقَدَّرٍ وحد معين ؛ كما تقول : « نزعتِ الخيلُ » إذا جرت ، و (غرْقًا) أي مُجِدَّةً في سيرها ، مسرعة في جريها ؛ لكي تقطع مسافة فلكها حتى تصل إلى أقصى الغرب ، ومعنى (الناشطات نشطا) أنها تخرج من بُرْج إلى بُرْج ، كما تقول : « نشط النور » إذا خرج ، ومعنى (السابحات سبحا) أنها تسبح فى أفلاكها ، والمراد أنها تسير فيها سَيْرًا هادئًا لااضطراب فيه ولا اختلال ، وذلك على تشبيه مرورها فى جوها بالسَّبح فى الماء ، ومثله قوله تعالى : « كلٌّ فى فلك يَسْبَحُون » وقوله (فالسابقات سبقا) إشارة إلى أن بعضها أسرع سيرا من بعض ، وقوله (فالمدبرات أمرا) ليس المراد أنها تدبر أمر المخلوقات على نحو ما كان يعتقده الصابئة من عبدة الكواكب ، ولكن المراد أنه بسبب سيرها وحركاتها المختلفة يتميز عند الناس بعض الأوقات عن بعضٍ ، فيعرفون بذلك مصالحهم الدينية والدنيوية . ويدل لهذا قوله تعالى : « يسألونك عن الأهلة قل هى مواقيت للناس والحج » وقوله تعالى : « لتعلموا عدد السنين والحساب » أفلست ترى أنه بسبب حركة الشمس اليومية يختلف الوقت فى أغلب جهات الأرض من ليل إلى نهار وعكسه ، وأنه بسبب حركة القمر يتعرف الناس الشهورَ ، وبسبب شدة ضوئه فى بعض الليالى يتعرفون مصالح لهم ، وأنه بسبب حركة الشمس السنوية تختلف فصول السنة من

ربيع إلى صيف إلى خريف إلى شتاء ، وللناس فى كل فصل من هذه الفصول مصالح ليست لهم فى غيره من الفصول ، فاذا تدبرت ذلك أمكنك أن تدرك أن الناس إنما يعرفون أوقات عباداتهم من صوم وصلاة وزكاة وحج ، بسبب حركة هذه الكواكب ، أفلست ترى أن أوقات الصلاة مرتبطة بحركة الشمس اليومية وأن أوقات الصيام مرتبطة بحركة القمر وبحركة الشمس اليومية أيضا ، وأن أوقات الزكاة وأوقات الحج كذلك . وكذلك أحوال الناس فى معايشهم مرتبطة أوثق الارتباط بهذه الحركات ، فالزراعة والنُّقْلة من بلد إلى بلد وأداء الديون والأمانات ومعرفة صحة أزواجهم وطلاقهم وتوارثهم موقوفة شرعا فى بعض أحوالها على معرفة الشهور ، وغير ذلك من أحوال الناس ، كل أولئك مما له أشد الروابط بما ذكرنا

ويقال : إن هذه الأمور صفات للملائكة ، فالنازعات هى التى تنزع نفوس بنى آدم : فاذا نزعوا نفوس الكفار نزعوها بشدة فأغرقوا فى نزعها وبالغوا فى ذلك ، وإذا نزعوا نفوس المؤمنين جذبوها برفق وهوادة ، وهى الناشطات نشطا ، وأما السابحات فالملائكة التى تنزل من السماء بأمر ربها ، وأما السابقات فهم الذين إذا جاءهم أمر ربهم تسابقوا إلى تنفيذه فكان بعضهم أسبق إليه من بعض ، وأما المدبرات أمرا فانما وصفهم الله بذلك لأنه قد وكل إلى كل طائفة من طوائف الملائكة تدبير أمر من الأمور والقيام عليه بما أمره الله به

ويقال : بل هذه صفات للغزاة فى سبيل الله ولآلات حربهم : فالنازعات أيديهم ؛ لأنها تنزع القَوْس وتُغْرِق فى نزعه لتستوفى مَدَّه ، والناشطات هى السهام ونشطها خروجها عن أيدى الغزاة ونفوذها فى صدور أعدائهم ، والسابحات هى خيلهم ، وسَبْحُها جَرْيُها نحو العدوّ ، والمدبرات الأمور التى تأتى فى أعقاب هذه الأفعال من النصر والفَلَج على الأعداء وغنمهم الغنائم ونحو ذلك

وجواب القسم محذوف ، وتقدير الكلام « والنازعات غرقا لَتُبْعَثُنَّ بعد الموت » ويدل لهذا أنه سبحانه حكى عنهم بعد ذلك قولهم « أئذا كنا عظاما

تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ [٧] قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ [٨] أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ [٩]

نخرة » أى : أنُبْعَثُ إذا صرنا كذلك ؟ . ويقال : تقدير الكلام « والنازعات غرقا إن يوم الفصل لواقع » ويدل لذلك مجيئه في مثل هذه العبارات فى القرآن الكريم : قال الله تعالى : « والمرسلات عرفا ، فالعاصفات عصفا ، والناشرات نشرا ، فالفارقات فرقا ، فالملقيات ذكرا ، عذرا أونذرا ، إن ما توعدون لواقع » وقال الله تعالى : « والذاريات ذروا ، فالحاملات وقرا ، فالجاريات يسرا ، فالمقسمات أمرا ؛ إن ما توعدون لصادق » ونحو ذلك

وقوله تعالى (يوم) يتعلق بذلك الجواب المحذوف ، وقوله (ترجف الراجفة) معناه تتحرك الأرض وتضطرب الجبال حتى يسمع لذلك صوت شديد ، و(الرادفة) التابعة التالية ، وكل شىء جاء بعد شىء فهو رادف له ، والمراد بالراجفة الأرض وماعليها من جبال وغيرها ، ويدل لذلك قوله تعالى : « يوم ترجف الأرض والجبال » والمراد بالرادفة السماء وما فيها من كواكب لأن السماء تنشق وتنتثر كواكبها على إثر اضطراب الأرض وَمَيَدَانها . ومن قال المراد بالنازعات ومابعدها صفات الغزاة فى الحرب وآلات حربهم ذهب إلى أن الراجفة والرادفة طائفتان من خيول المشركين ومحاربيهم ترجف قلوبهم وتضطرب أفئدتهم ويَهْوُونَ إلى الموت وتتبع طائفةٌ منهم فى ذلك طائفةً . وهذا بعيد . بل المراد وصف حال يوم القيامة ومايكون الناس عليه ، تخويفا لمن كذب رسول الله وتثبيتا لقلوب المؤمنين

وقوله تعالى (قلوب يومئذ واجفة) المراد به أن قلوب الكفار مضطربة قَلِقَةٌ خائفة فانهم بعد أن يعاينوا ما كان الرسول يذكره لهم ويشاهدوه بأبصارهم ولم يكونوا آمنوا به فى دنياهم ؛ تضطرب قلوبهم مخافة مايلاقونه ، وذلك شأن كل إنسان تهدَّدته بنوع من العقوبة إن لم يقلع عن جرائره متى شاهد بوادر التنفيذ وقوله تعالى : (أبصارها خاشعة) المراد أن أبصار الكفار حينئذ خاشعة خاضعة

يَقُولُونَ ءَإنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى الْحَافِرَةِ [١٠] ءَإذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً [١١]
قَالُوا تِلْكَ إذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ [١٢]

ظهرت فيها الذلة ، ولكنه جعل الأبصار للقلوب فأضافها إلى ضميرها لأنه أراد من وجيف القلوب شدة الخوف الواقع بأربابها ؛ فالقلوب حينئذ كناية عنهم

وقد حكى الله تعالى عن الكفار ثلاثة أقوال يقولونها : أولها ماذكره بقوله : (يقولون أئنا لمردودون فى الحافرة) أى : أنُرَدُّ إلى أول حالنا وابتداء أمرنا فنصير أحياء كما كنا ، تقول : رجع فلان فى حافرته : أى فى طريقه التى جاء منها فحَفَرَها بقدمه وأثَّرَ فيها بمشيه ، وهى فى الحقيقة محفورة وليست حافرة ، ولكنها سميت حافرة على نحو قوله تعالى : « فى عيشة راضية » وتقول لكل من كان فى أمر ثم خرج منه ثم عاد إليه : قد رجع فلان إلى حافرته ، تريد إلى أمره الذى كان عليه أولا . والقول الثانى من الأقوال التى حكاها الله تعالى عنهم قوله : (أئذا كنا عظاماً نخرة) والعظام النخرة : هى البالية التى لو لمستها لتفتتت ، ويقال : هى التى فرغت مما فيها من المخّ حتى يحصل من هبوب الريح فيها صوت يشبه نخير النائم والمخنوق ؛ والقول الثالث من الأقوال التى حكاها الله تعالى عنهم قوله : (قالوا تلك إذاً كرة خاسرة) والكرة : الرَّجْعة ، وهى المرة من الكر بمعنى الرجوع ، والخاسرة هى التى يخسر أصحابها ، كقولك « هذه تجارة رابحة » أو « هذه تجارة خاسرة » فانه لا يمكن أن يتصور الربح والخُسْرَان واقعا من نفس التجارة ، وإنما هى وسيلة بها يربح أربابها أو يخسرون ؛ ولهذا ساغ نسبة الربح والخسران إليها والمعنى أنه إن صح مايذكره الرسول من أننا نبعث يوم القيامة بعد أن نصير عظاما نخرة فنحن إذا خاسرون لأننا كذبنا بهذا ولم نعمل من الأعمال ماثاب عليه .

فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ [١٣] فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ [١٤]

وحاصل القول الأول من هذه الأقوال الثلاثة استبعاد أمر البعث ، وحاصل القول الثانى إلقاء شبهة لهم ظنوا أنها تجعل أمر البعث محالا ، وأما القول الثالث فانما قالوه استهزاء بالرسول وبالمؤمنين ، وهو يتضمن مع ذلك الاستبعاد

وقد ردّ الله تعالى عليهم قولهم الذى حكاه عنهم بقوله : (فانما هى زجرة واحدة فإذاهم بالساهرة) أما الفاء التى فى أول هذا الكلام فانها مرتبطة بمحذوف ، وتقدير الكلام « لا تستبعدوا ذلك ولا تظنوه عسيرا شاقا علينا فانما هى زجرة الخ » وأما الزجرة فهى الصيحة ، تقول : زجر بَعِيرَهُ ، إذا صاح به ، والمراد من هذه الصيحة النفخة الثانية التى يبعث الله بها الموتى ، ويدل لهذا قوله تعالى : « وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة مالها من فواق » . وأما الساهرة فهى الأرض البيضاء المستوية سميت بذلك لأن السراب يجرى فيها ، ويقال : إنما سميت ساهرة لأن شدة الخوف التى تعتريهم يومئذ تطير النوم عن أعينهم فلا يذوقون عليها نوما ؛ فهى ساهرة بمعنى ساهر مَنْ عليها

يقول سبحانه : لا تحسبوا أن هذه الرجعة التى أنكرتموها صَعْبَةٌ علينا ليس فى قدرتنا فعلها ؛ فانها سهلة هينة لا مشقة فيها ولا صعوبة ، وليس أمر إعادتكم الذى ظننتموه صعبا إلا كأبسط ما نصنعه من مخلوقاتنا ، ولن نكابد فى ذلك عسرا ، بل إنا نأمر ملكا من ملائكتنا أن يصيح صيحة واحدة فاذا أنتم جميع لدينا محضرون لا يتخلف منكم أحد ولا يجسر على التخلف إن أراد

ثم إنه تعالى لما حكى عن كفار مكة الذين بعث إليهم رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم إصرارهم على إنكار البعث وتماديهم فى عتوهم على الله ورسوله وطغيانهم فى كفرهم حتى انتهى بهم الأمر إلى الاستهزاء بالرسول فيما حكاه الله عنهم من

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى [١٥] إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى [١٦]

قولهم « تلك إذا كرة خاسرة » وكان ذلك يشق على النبى صلى الله عليه وسلم ويصعب على نفسه ؛ ذكر له قصة موسى عليه السلام مع فرعون طاغية مصر وبين فى هذه القصة أن فرعون قد بلغ فى الجبروت والطغيان حدا لم يبلغه أحد من قوم النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فإنه استعلى إلى أن ادعى الألوهية ، وألَّب قومه على موسى ، وكان موسى عليه السلام — مع ذلك كله — يتحمل المشقات العظام فى دعوة فرعون وقومه إلى الإيمان بالله وخَلْع عبادة غيره ؛ ليكون ذلك كله كالتسلية للرسول صلى الله عليه وسلم ، ويرشد إليه قوله تعالى : « فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل »

وشىء آخر يرشد إليه سياق هذه القصة ، وهو أن فرعون مع أنه كان أقوى من كفار قريش ، وأكثر أتباعا ، وأشد شوكة ، وأعظم سلطانا ، وأصعب شكيمة ، لما تمرد على موسى وعصَى أوامره وطغى عليه أخذه الله نكال الآخرة والأولى ، ولم يعجزه أن يهلكه ويجعله لمن خلفه آية ؛ فهؤلاء الكفار مهما عظمت حالهم وقوى شأنهم لن يبلغوا مبلغ فرعون ، فأَخْذُهم أهون على الله تعالى منه ؛ فيكون المقصود بسياق هذه القصة تهديد الكفار وإنذارهم بأنهم إن لم يؤمنوا بالله ورسوله أصابهم مثل ما أصاب فرعون وقومه ، ويرشد إلى ذلك نحو قوله تعالى : « فان أعرضو فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا إلا الله قالوا لوشاء ربنا لأنزل ملائكة ؛ فانا بما أرسلتم به كافرون ، فأماعاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة ، أولم يروا أن الله الذى خلقهم هوأشدمنهم قوة ، وكانوا بآياتنا يجحدون ، فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لاينصرون »

اذْهَبْ إِلَي فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى [١٧] فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى [١٨]
وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى [١٩] فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى [٢٠]

و (الوادى المقدس) المبارك المطهر ، يدل له قوله تعالى : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله » وقوله (طُوىً) يجوز أن يكون اسم الوادى ، ويجوز أن يكون معناه مرتين ، أى بالوادى الذى قدسه الله و بارك فيه مرة بعد مرة ، ويجوز أن يكون معناه الوقت الذى بعدَ ساعة من الليل ، أى ناداه ربه بعد أن انقضى مقدار ساعة من الليل (طغى) تجاوز الحد ، فتكبر على الله تعالى وكفر به ، وتكبر على بنى إسرائيل واستعبدهم واستذلهم، وكان فى آخرة أمره معهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم (هل لك إلى أن تزكى) التزكية الطهارة من العيوب ، والمعنى هل ترغب فى أن تطهر نفسك من العيوب التى انغمست فيها ، وذلك بأن تعمل ماأدلك عليه من الخيرات وتجتنب كل ما من شأنه أن يبعد بين العبد وربه ، وهذا استفهام يقصد منه العَرْضُ ، وهو المناسب للطف والأدب واللين الذى أمر الله تعالى به موسى أن يصنعه مع فرعون حيث يقول فى سورة طه : « فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى » ، وذلك من قبلِ أنه لو خاطبه بصيغة الأمر لم يمتثل فقد علم أن الأمر إنما يكون من الاعلى كما علم أن من كان فى منزلة فرعون من الطغيان والتمرد لم يكن ليخضع لموسى وقد رباه صغيرا وعرف لنفسه عليه المنة

وقوله تعالى (وأهديك إلى ربك فتخشى) معناه أدلك على ربك فتؤمن به ، فإنك متى آمنت بربك وعرفت قدرته و بطشه خشيته وخفته ، ومتى خفت الله وخشيته عملت بما يكافئك به من الطاعات ، ومتى عملت ذلك أمنت عقابه (فأراه الآية الكبرى) المراد أنه أخذ يقيم له البراهين ويذكر له من الحجج ما فيه غناء لو أنه لم يكن معاندا مُصِرًّا ، ولكنه لم يقتنع بما أقامه له من الحجج فأراه الآية الكبرى والعلامة الدالة على صدق دعواه النبوة

فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ [٢١] ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ [٢٢] فَحَشَرَ فَنَادَىٰ [٢٣] فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ [٢٤] فَأَخَذَهُ اللهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ [٢٥] إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَىٰ [٢٦]

وهى انقلاب العصا حية ، ومع ذلك كله لم يؤمن ، بل كذب بدلالة هذه الآية على صدقه فى دعوى النبوة ، وعصاه فيما يدعوه إليه وأظهر تمرده عليه (فحشر) أى فجمع السحرة الذين فى بلاده وتحت سلطانه ، وذلك كقوله تعالى : « فأرسل فى المدائن حاشرين يأتون بكل سحار عليم » وقوله تعالى (فأخذه الله نكال الآخرة والأولى) يجوز فيه أمران : أولهما أن يراد بالأولى الدنيا و بالآخرة يوم القيامة ، ويكون إضافة نكال إليهما على معنى « فى » ، وعلى ذلك يكون معناه أن عذاب الله إياه ليس قاصرا على ما أنزل به فى الدنيا وهو الاغراق ، بل إنه يعذبه فى الآخرة عذابا شديدا أيضا ، ويرشد إلى هذا قوله تعالى : « مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا » وقوله تعالى « النار يعرضون عليها غدوا وعشيا و يوم القيامة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب » ويكون قوله تعالى « الآخرة والأولى » على هذا الوجه اسمين بمعنى الدنيا والآخرة ، والأمر الثانى أن يكون معناه أن الله تعالى عذبه العذاب الذى تستحقه حالته الأولى وهى تكذيب الرسول والذى تستحقه حالته الثانية وهي طغيانه المتجاوز حده فى قوله « أنا ربكم الأعلى » فاضافة نكال إلى الآخرة والأولى من إضافة المسبب إلى سببه ، والآخرة والأولى صفتان لموصوف محذوف ، والتقدير نكال الحالة الآخرة والحالة الأولى

ثم إنه سبحانه وتعالى بعد أن قصَّ عليهم شأن موسى عليه السلام مع فرعون ، وأشار لهم بهذه القصة إلى أنهم لا يُعجِزُون الله الذى أخذ فرعون ، ونـكَّلَ به ، وجعله ومَنْ وافقه من قومه عِبْرَةً لمن يأتى بعدهم من الأمم ، وأشار بالقصة نفسها

ءَأَنْتُمْ أَشَدُّ خلقًا أَمِ السَّماءُ بَنٰها [٢٧]

إلى ما يُطمْـئن نفسَ الرسول صلى الله عليه وسلم حتى لا يحزن لتكذيب قومه له ، ولا يجزع لعدم إيمانهم بما جاءهم به ؛ لأن هذا دَأبُ الأمم مع أنبيائهم : أن يـكذبوهم ، ويعادوهم ، ويؤَلِّبُوا عليهم إن استطاعوا ، وقد جرت عادة الله تعالى أن ينتقم لرسله ويعاقب المُصِرّين على تكذيبهم ، ولن يخلف الله عادته مع نبيه ؛ بعد أن انتهى سبحانه من ذكر هذه القصة بما تضمنته من التحذير والتخويف للمكذبين، ومن التسلية والتخفيف عن رسوله ؛ أخَذَ سبحانه فى مخاطبة منكرى البعث ، وَنَبَّهَهُم بما خاطبهم به إلى أمرٍ لا ينبغى لهم أن يجحدوه لأنه ظاهر بالمشاهدة ، وأقام لهم بهذا الأمر الدليل الواضح على أن أمرَ بَعْثِهِمْ هَيِّنٌ ليس فيه مَشَقة ولا إعجاز ، وبيانه أن خلقَ الانسان يسيرٌ هَيِّنٌ ، وبخاصة إذا أضيف إلى خلق هذه السموات العظيمة الشأن الجليلة الأحوال الدالة بحسن نظامها وجلالها على أن مُبْدِعَها وموجدها قادر عظيم القدرة حكيم واسع الحكمة ؛ فقال تعالى : (ءأَنْتُمْ أشدُّ خلقًا أَمِ السَّماءُ) فكأنه سبحانه يقول لهم : إنكم قد خُلِقتم من ماءٍمَهِينٍ وأنتم مع ذلك ضِعافٌ عاجزون : لا تملكون لأنفسكم موتا ولا حياةً ، وليس فى مقدوركم أن تدفعوا عن أنفسكم الشر ولا أن تجلبوا لها النفع ، وأنتم مع ذلك كله قليلو الخطر ضعيفو الشأن ؛ وهذه السموات التى تَرَوْنَ حُسْنَ خلْقها وبديع تركيبها ، وتشاهدون عظمة شأنها ، أعْظَمُ منكم خَلْقاً ، وأدلُّ على قدرة صانعها ، وقد خلقنا هذه السموات ولم نعجز عن إبداعها ، فكيف تظنون أنا نعجز عن إعادتكم بعد موتكم ؟ ويدل لهذا المعنى الذى بَيَّنَّاه قوله تعالى : « لَخلْقُ السموات والأرض أكبرُ من خلْقِ الناس » وقوله سبحانه : «أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم » ؟ وبعد أن أشار الله سبحانه وتعالى إلى عِظَم خلق السموات إجمالا أخذ فى بيان ذلك تفصيلا فقال : (بناها ،

رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا [٢٨] وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا [٢٩] وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا [٣٠]

رفع سمكها) أما البناء فأصله ضمُّ الأجزاء المتفرقة بعضها إلى بعض ورَبْطها بماعسكها حتى يحصل عن جميعها بِنْيَةٌ واحدة ، وأما السَّمْكُ فهو امتداد الشيء إذا أخذته من أسفله إلى أعلاه ، وبيان ذلك أنك إذا أردت أن تعرف امتداد جدار أو نحوه فان قِسْتَ من أعلى إلى أسفل سمَّيتَ ذلك عُمْقًا ، وإن قِسْتَ من أسفل إلى أعلى سميت ذلك سمكا، وقد صنع الله تعالى بالكواكب فى خلقها و إبداعها ما يشبه البناء ، فقد وضع كل واحد منها على نِسْبَةٍ من الآخر ، وجعل لكل واحد مايمسكه فى مداره ، فكان من مجموع الكواكب بنية واحدة هى هذا العالم المحكم النظام البديع التركيب الذى نسميه بالسماء ، والمراد بقوله تعالى « رفع سَمْكها » الاشارة إلى شدة علوها ، وقوله تعالى (فسوّاها) معناه عدّلها فوضع كل جزء منها فى موضعه الذى يستحقه ويحسن أن يكون فيه (وأغطش ليلها) أى : جعله مظلما (وأخرج ضحاها) أظهره وأبرزه ، والمراد من الضحى النهار ، وإنما أطلق اسم هذا الجزء على ما هو كُلٌّ له لأن الضحى أكمل أجزاء النهار فى النور والضوء ، وهما المقصودان هنا ؛ وأضاف الليل والنهار إلى السماء لأنهما يحدثان بسبب غروب الشمس وطلوعها ، وغروبها وطلوعها إنما يحصلان بسبب حركة الفلك ؛ ولما كان مكانه السماء ناسب أن يضيف الليل والنهار إلى السماء التى هى مقره ، ثم لما بَيَّنَ الله خَلْق السموات ومافيه من الدلالة على قدرة الصانع أخذ فى بيان خَلْق الأرض فقال : (والأرض بعد ذلك دحاها) ومعنى « دَحَاهَا » بَسَطها ، ويدل لذلك قول زيد بن عمرو بن نُفَيْل :

دَحَاهَا فلمَّا رَآهَا اسْتَوَتْ ... عَلَى المَاءِ أَرْسَى عَلَيْهَا الجِبَالَا

وقول أمية بن أبي الصَّلت :

دَحَوْتَ الْبِلَادَ فَسَوَّيْتَهَا وَأَنْتَ عَلَى طَيِّهَا قَادِرُ

ويقال : معنى «دحاها» مَهدها وأزال ما فيها من اعوجاج لتصلح لسير الناس والأنعام ويَسْهلَ عليهم سكناها والاقامة فيها ، فان قلت : ظاهر هذه الآية يدل على أن خلق الأرض بعد خلق السماء لقوله تعالى « بعد ذلك » أي بعد خلق السماء ، وهذا يخالف قوله تعالى فى سورة السجدة : « قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أندادا ذلك ربُ العالمين . وجعل فيها رواسى من فوقها ، وبارك فيها ، وقدّر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواءً للسائلين ، ثم استوى إلى السماء وهى دُخَان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كُرْها قالتا أتينا طائعين» فان هذه الآية تدل على أن خلق السموات إنما كان بعد خلق الأرض . فالجواب عن ذلك أن آية السجدة التى تلونا عليك تدل على أن خلق السموات كان بعد خلق الأرض ، فأما هذه الآية التى نحن بصددها فلا تدل على أن خلق الأرض كان بعد خلق السماء ، وإنما تدل على أن الله تعالى دَحَا الأرض وبَسَطها ومَهّدَها لسكنى الناس بعد أن خَلَق السماء ؛ فيكون الذى دلّ عليه الكتاب العزيز أنّ الله سبحانه خلق الأرض أولا ، ثم خلق السموات بعد ذلك ، ثم عاد إلى الأرض فَمَهّدَهَا وَذَلَّلهَا ودحاها ؛ فآية السجدة ونحوها حكاية لأول الخلق ومبدئه ، وهذه الآية حكاية للاصلاح الذى كان بعد الخلق ؛ فان قلت : فهذه الآية تدل على أن الأرض مَبْسُوطة ، وقد قامت البراهين على أن الأرض كروية الشكل ؛ فالجواب عن ذلك أنه لاتنافى بين انبساطها وبين كونها كروية ؛ لأن انبساطها إنما هو فيما يظهر للرائى لعظم حجمها وكبير جرمها ، فأما إن قلنا إن معنى دحاها هَيَّأها وَأَعدّهَا لاقامة الناس وأنواع الحيوان والنبات فلا محل لهذا السؤال . وقوله تعالى :

أُخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَـٰهَا [٣١] وَالْجِبَالَ أَرْسَـٰهَا [٣٢] مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ [٣٣] فَإِذَا جَآءَتِ الطَّآمَّةُ الْكُبْرَىٰ [٣٤]

(أخرج منها ماءها ومرعاها) تفسيرٌ وبيان للدحو الذى هو التمهيد ، وذلك أنه لابد لإمكان سكنى الأرض من تسوية أمر المشارب والمآكل وإمكان الاستقرار عليها ، وذلك يكون باخراج الماء ، وإنبات المرعى ، وإرساء الجبال وإثباتها لتكون أوتاداً للأرض فتمنعها من الاضطراب ، والمراد بقوله : « أخرج منها ماءها » العيون التى تتفجر من الأرض ، وَنُسب الماء إلى الأرض وإن كان أصله من السماء لأن الأرض مكان استقراره ومَوطِن استنباطه ؛ وقوله : « ومرعاها » أراد به ما يعم جميع ما أخرجه الله تعالى من الأرض سواء أكان قوتا لبنى آدم كالحب والثمر أم قوتا للأنعام كالعشب ، وسواء أكان للاقتيات أم للترفُّه أم للتداوى أم كان لغير هولاء جميعا ، يدل لذلك قوله تعالى : (متاعا لكم ولأنعامكم) والمعنى إنا إنما خلقنا هذه الأشياء مُتْعةً ومنفعةً لكم ولأنعامكم

ثم بعد أن انتهى سبحانه وتعالى من ذكر كيفية خلق السموات والأرض وأشار بذلك إلى كونه قادرا حكيما عليما ، وأن حشر الخلائق وإعادة أجسامهم أمر هين على من أبدع هذا العالم بما فيه من عجائب وغرائب ؛ بعد أن انتهى من ذلك أخذ فى الإخبار عن وقوع الحشر والنشر وما يحدث يومذاك من الأهوال فقال : (فاذا جاءت الطامة الكبرى) وأصل الطامة فى لسان العرب الداهية الكبرى التى لا يستطاع احتمالها وينسَّى الانسان بها جميع ما نزل به قبلها ، والمراد بها ههنا يوم القيامة ؛ لأن كل أحد يشاهد فيه من الموقف الهائل ، ومن الآيات الباهرة الخارجة عن العادة ؛ ماينسى معه كل هَوْلٍ ، وَوَصف

يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى [٣٥] وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى [٣٦] فَأَمَّا
مَنْ طَغَى [٣٧] وَآثَرَ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا [٣٨] فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى [٣٩]

الله تعالى ذلك اليوم بوصفين : أحدهما ماذكره بقوله: (يوم يتذكر الانسان ماسعى) يعني إذا رأى أعماله مُدَوَّنَةً فى كتابه وكان قد نسيها عاودته الذكرى ، والوصف الثانى ما ذكره سبحانه بقوله : (وبرزت الجحيم لمن يرى) بُرِّزَتْ: معناه أُظْهِرَتْ وكانت فى مكان بارز ظاهر فكلٌّ من له عَيْنَانِ يَرَاهَا ، وهذا يفيد أن جميع الناس يرونها ، سواء فى ذلك المؤمنون والكفار ، غير أنها تكون مَقَرًّا ومأوًى للكافرين ، وينجى الله الذين آمنوا ، فان قلت : قول الله تعالى فى سورة الشعراء « وأزلفت الجنة للمتقين ، وبرزت الجحيم للغاوين » يدل على أن إظهار النار وتبريزها لا يكون للناس جميعا مؤمنهم وكافرهم لتخصيصه سبحانه وتعالى تبريزها فى سورة الشعراء بالغاوين ؛ فكيف قال هنا « لمن يرى » وكيف قلتم إن الناس عامة يرونها ، فالجواب أنه لاتنافى بين الكلامين ؛ لأن النار تُبَرَّزُ وَتُكْشَفُ للغاوين ليدخلوها وتكون لهم مُسْتَقَرًّا ومكانا، وَالمؤمنون ـ مع ذلك ـ يرونها، والله تعالى ينقذهم منها ويقيهم أهوالها . وجواب الشرط الذى هو قوله تعالى « فاذا جاءت الطامة » محذوف ، وتقدير الكلام إذا جاءت الطامة فَصَل الله تعالى بين الخلائق فأدخل الطائعين الأبرار الجنة ، وأدخل الكفرة المتمردين النار ، ويدل لذلك قوله تعالى : (فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فان الجحيم هى المأوى) ومابعده ، وذلك لأن هذا الكلام تفصيل وإيضاح لهذا الجواب المحذوف ، والمأوى : المكان الذى يأويه ويكون مسكنا له ، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى فى هذه الآية وَصْفَين يَسْتَحِقُّ بهما من كانا فيه الْقَرَار فى النار ، أحدهما ماذكره بقوله « طغى » ومعناه تكبر وعتا وتجاوز الحد ، وهو إشارة إلى فساد القوى العاقلة التى

وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى [٤٠] فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى [٤١]

بها يتهيأ للانسان حسن التفكير وجودة النظر ؛ والمراد أنه لم يعرف ربه حق معرفته ؛ لأن كل من عرف الله عرف حقارة نفسه وضآلة شأنه وأنه خاضع لجبروت الله تعالى وقهره فيعرف استيلاء قدرة الله عليه فلا يكون عنده أثارة من طغيان أو تكبر ، والوصف الثانى ما ذكره سبحانه بقوله « وآثر الحياة الدنيا » وهذا إشارة إلى فساد القوة العملية ، وذلك لأن الانسان إذا أحب الدنيا وجعلها أكبر همه وأعطاها كل التفاته ـ وهذا معنى « آثر » — فانه يرتكب كل موبقة ولا يتحاشى قبيحا ، وانظر إلى قوله عليه الصلاة والسلام « حُب الدنيا رأس كل خطيئة » تُدْرِكْ سرّ الكناية عن ارتكاب جميع الموبقات وإتيان جميع المعاصي وترك أعمال الآخرة بإيثار الحياة الدنيا ؛ ومتى كان الانسان ـ والعياذ بالله سبحانه وتعالى ـ موصوفا بهذين الأمرين ، وهما طغيانه ومجاوزته حدود نفسه ، وارتكاب المعاصى ؛ كان بالغا فى الفساد أقصى الغايات ، لاجَرَمَ كانت الجحيم مأواه ومستقره الذى لا يزايله ولا يخرج منه ، وهذا إنما يكون بسبب الكفر ، فأما الفاسق الذى لا تبلغ حاله هذا المبلغ فانه لا يكون بهذه المنزلة من العذاب ، ولا تكون الجحيم له دار قرار . وقوله تعالى : (وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هى المأوى) بيان لحال السُّعَداء بعد بيان حال الأشقياء ، وقد ذكر الله تعالى للسعداء وصفين يُضَادّان الوصفين اللَّذَيْن ذكرهما فى بيان حال أهل الشقاء والعذاب ، فقوله تعالى : «وأما من خاف مقام ربه » ضد قوله «فأما من طغى» وقوله سبحانه « ونهى النفس عن الهوى » ضد قوله فى الحال السابقة « وآثر الحياة الدنيا » ومعنى « خاف مقام ربه » حَذَر قيامه ووقوفه بين يَدَيْ ربه يوم القيامة ، فاضافة

المقام إلى الرب لأدنى ملابسة ، وقد يقال : المعنى خشى الله تعـالى ، وكلمة « مقام » على هذا الوجه صلة مثلها فى قول الشَّمَّاخِ بن ضرار الغطفانى : —

وَماءٍ قَدْ وَرَدْتُ لِوَصْلِ أَرْوَي عليه الطيرُ كالوَرَق اللَّجين

ذَعَرْتُ به القَطا ، ونفيتُ عنه مَقَامَ الذئب كالرجل اللَّعين

يريد ونفيت عنه الذئب ؛ واعلم أن الخوف من الله تعالى إنما يحدث لمن عرف الله تعالى وأدرك مقدار عظمته سبحانه وقهره ، وغلبة جبروته وسطوته ، على ما أشار إليه جل ذكره بقوله «إنما يخشى الله من عباده العلماء» وإذا علم العبد ربه ، وعرف قدرته وعِلمَهُ ، وأدرك عظيم قهره وسطوته ؛ خشى عقابه ، وحَذِرَ جزاء عصيانه ؛ فكفَّ نفسه عما تنزع إليه ، وجنبها الوُقُوعَ فى محارم الله ، وباعد بينها وبين غضب الله ؛ ومن هنا تعلم أن الخوف من الله سبب لدفع النفس وزجرها عن هواها ، ولهذا ناسب فى الكتاب الحكيم أن يُقَدَّم الخوفُ من الله على نَهْيِ النفس عن اتباع الهوى تقديماً للسبب على المسبَّب ؛

واعلم أن المشركين كانوا يسمعون من النبي صلى الله عليه وسلم إثبات القيامة ووصفها بالأوصاف الشديدة المخيفة مثل أنها طامة وصاخة وقارعة وحاقة ؛ فيهولهم ذلك ويخيفهم ، ثم تأخذهم حمية الجاهلية ؛ فيخشون على أتباعهم وضعافهم أن يتأثروا بذلك ، فتَلَجّ بهم الغواية ، ويَشتد عُتُوهم على الله ورسوله فيطلبون إلى رسول الله أن يعجّل بهذا اليوم ، استهزاء به ، واستبعادا لما يقول ، ويدل لهذا قوله تعالى : «يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها» ، وربما سألوه عن الوقت الذى تكون فيه ، استبعاداً لحصوله أيضا ، فلما بَيَّنَ الله سبحانه وتعالى بالاشارة إلى البرهان العقلي أن الساعة أمرٌ ممكنٌ تتناوله قدرته سبحانه ، وبين بعد هذا وقوعها ، وذكر أحوالها العامة ، وذكر أحوال الناس فيها ؛ أخذ فى بيان فساد مايتعللون به فقال :

يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا [٤٢] فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا [٤٣]
إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا [٤٤] إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا [٤٥] كَأَنَّهُمْ يَوْمَ
يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا [٤٦]

(يسألونك عن الساعة أيّان مُرْسَاهَا) والساعة : هى ساعة يبعث الله الخلائق من قبورهم ، والمراد يومُ القيامة ، ومعنى « أيان مُرْسَاهَا » متى إرساؤها وإقامتها ، والمراد الاستفهام عن الزمن الذى تقع فيه وتحصل . وقوله تعالى : (فِيمَ أنت من ذكراها) معناه فى أى شيء أنت من أن تذكر لهؤلاء القوم وقت حصولها وتبين لهم الزمان المعين لوقوعها . ويقال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ لشدة رغبته فى هداية قومه ، وقوَّة حرصه على أن يؤمنوا به ـ يتمنى لو أن الله تعالى أعلمه بالوقت الذى تكون فيه الساعة ليجيبهم إلى ما سألوه ، فنهاه الله تعالى عن تمنى مالا مطمع فى حصوله ، وجاء بالنهى على صورة الاستفهام الانكارى : فمعنى « فيم أنت من ذكراها » ما هذه الذكرى الدائمة ، وما هذا الاهتمام الذى جعلك لا تزال تذكرها وتسأل عنها . وروى عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها « لم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر الساعة ويسأل عنها حتى نزلت هذه الآية » والمراد على هذا الوجه لا تَشْغَلْ نَفْسَكَ بهذا الأمر ، ولا تكلفها عناء البحث عنه واستكناه أسراره وما حجبه الله عن خلقه ، من شأنه . ثم قال تعالى : (إلى ربك منتهاها) أى : أن منتهى علمها عنده سبحانه لم يؤته أحدا من خلقه ، ثم قال جلت قدرته : (إنما أنت منذر من يخشاها) يعنى أنك إنما بعثت للانذار والتخويف وتحذير الناس من المعاصى والقبائح ، وهذا المعنى لا يتوقف على علمك بوقت قيام الساعة وتخصيص الانذار بمن يخاف الساعة لأنه هو الذى ينتفع بالانذار ، وقوله تعالى : (كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها) العشية : طرف النهار من

آخره ، والضحى : طرف النهار من أوله ، وإضافة الضحى إلى ضمير العشية إشارة إلى أن العشية والضحى جميعا من يوم واحد ؛ فهم يحسبون أنهم لم يقيموا فى هذه الدنيا إلا بعض يوم ، ومصداقُ ذلك قوله تعالى : « كأنهم يوم يَرَوْنَ مايوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار » والمعنى المراد إن هذا الأمر الذى أنكروه ولَجُّوا فى إنكاره سيقع البتة وسيرونه بأعينهم ، فاذا عاينوه توهموا أنهم لم يلبثوا فى الدنيا إلا ساعة من نهار ثم انقضت فاذا هم فيما أنكروه . والمراد تقريب وقتها وتحقيق حصولها ليرتدع من له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد . والله سبحانه وتعالى أعلى وأعلم .

سورة عَبَسَ *

[وَهى مكية ، وَآياتها اثنتان وَأربعون آية ، ونزلت بعد سورة النجم] (١)

---

* وتسمى سورة الصاخّة

(١) لاخلاف فى أن هذه السورة مكية ، واختلاف فى عدد آيها ؛ فقيل : هى ثنتان وأربعون ، وقيل : هى إحدى وأربعون ، وقيل : هى أربعون آية .

نزل صَدْرُ هذه السورة فى شأن ابن أم مكتوم . وابن أم مكتوم هو عمرو بن قيس ، ويقال اسمه عبد الله بن عمرو ، ويقال اسمه عبد الله بن شريح بن مالك بن ربيعة الفهرى ، أحد بنى عامر بن لؤى . وهو ابن خال خديجة بنت خويلد أم المؤمنين وزوج رسول رب العالمين . وأم مكتوم لقب أمه ، واسمها عاتكة بنت عبدالله المخزومية ، ويقال : أم مكتوم لقب أم أبيه . وكان ابن أم مكتوم أعمى ؛ فيقال : وُلد أعمى ، ويقال : بل ولد بصيراً ثم عمى .

وكان من شأن ابن أم مكتوم أنه جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده صناديدُ قريش وأشرافهم وذَوُو الوجاهة والمكانة فيهم ، منهم عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبو جهل بن هشام ، والعباس بن عبد المطب ، وأمية بن خلف ، والوليد بن المغيرة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوهم إلى الاسلام ويذكرهم بأيام الله ، ويحذرهم بطش الله وَجبروته ، وَيَعِدُهم حُسْنَ المثوبة إن أسلموا ، وهو شديدُ الحرصِ على أن يجيبوا إلى مايدعوهم ؛ لأنه يعلم أنه باسلامهم سيدخل فى دين الله كثير من الناس ؛ لأن بيدهم مَقَادَة العرب ؛ فكان رسول الله لذلك منصرفا تمام الانصراف إليهم ، وفى هذه الحال يناديه ابنُ أم مكتوم قائلا : اقرئنى يارسول الله

وعلمنى مما علمك الله ، يكرر ذلك ويعيده ، فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم قطعهُ لكلامه ، وعَبَس فى وجهه وأعرض عنه .

نزلت هذه الآيات عتاباً لرسول الله ، ولَوْماً له على مايوهمه ظاهر هذه الحادثة من تقديمه الأغنياء وإيثاره إياهم بانصرافه نحوهم ، لما يورثه ذلك من انكسار قلوب الفقراء ، ونظير هذه الآية فى الدلالة على أنه مُطَالَبٌ بتأليف الفقراء قوله تعالى : « ولاتطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى » وقوله تعالى : « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، ولاتعْـدُ عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ، ولاتطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا »

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ بعد نزول هذه الآيات ـ يكرم ابن أم مكتوم ويُقْبل عليه ، ويتفقّده ، ويقول له إذا رآه : « أهلاً بمن عاتبنى فيه ربى » ويسأله « هل لك من حاجةٍ » ؟ ، واستخلفه بعد الهجرة على المدينة مرتين (١)

فان قال قائل : إن معاتبة الله تعالى رسولَهُ على مجرد تعبيسه فى وجه ابن أم مكتوم وإعراضه عنه تدلُّ على تعظيم ابن أم مكتوم ، وإذا كان ذلك كذلك فكيف يليق أن يذكره باسم الأعمى ، مع أن ذكر الانسان بهـذا الوصف يقتضى تحقير شأنه جدا ؟ ؟

فالجواب عن ذلك أن نقول : إن ذكره بلفظ الأعمى ليس لتحقير شأنه ،

---

(١) ويقال : استخلفه على المدينة ثلاث عشرة مرة فى غزواته ؛ وابن أم مكتوم من المهاجرين الأولين ، وقيل : قتل شهيدا بالقادسية ، قال أنس ابن مالك : رأيته يوم القادسية وعليه درع ومعه راية سوداء ؛ والمنصف المتأمل فى هذه الآيات يدرك تمام الادراك كمال صدق رسول الله وأمانته فيما يبلغه عن ربه جل شأنه ، ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين

ولا للنيل منه والزراية به ، بل هو لذكر العلة التى اقتضت الاعراضَ عنه والتعبيس فى وجهه ؛ فكأنه قيل : إنه بسبب عَمَاه كان يستحق مزيد الرفق والرأفة فكيف يليق بك أن تخصه بالغلظة ، وهذا كما تقول لرجل جاءه رجلٌ فقير فانتهره وآذاه : أتؤذى هذا المسكين الذى يستحقُّ كامل الشفقة ومزيد الحنان ؟ لا تقصد بذلك أن تنال من المستهان به ، ولكنك تذكر ما يستوجب ضدَّ ماصُنِع به ؛

فإن قلت : إن ابن أم مكتوم كان يَسْتَحِقّ فى نفسه التأديب والتعنيف على على ما أقدم عليه من الفعل ؛ فكيف ينقلب الأمر إلى هذا الحد فيعاتب الله تعالى نبيه على تعبيسه فى وجهه ، فأما استحقاقه التأديب فلأنه كان يسمع مخاطبة الرسول صلى الله عليه وسلم مع مَنْ كان معه ، وكان يسمع أصوات جميعهم ، وكان يعرف من ذلك شدة اهتمام النبى بشأنهم ؛ فاقدامه على قطع كلام النبى وإلقاؤه برغباته فى أثناء ذلك الحِوَار إيذاء للنبي صلى الله عليه وسلم ، والمؤمنون مأمورون بألا يؤذوه ، وشىء آخر كان ينبغى لابن أم مكتوم ألا يجهله ، وذلك أن الأهمَّ فى طبيعة جميع الناس مُقَدَّمٌ على المهم ، وهو كان قد أسلم وتعلم مبادىء مايحتاج إليه من أمور دينه ، فأما هؤلاء فلم يكونوا أسلموا ، وكان إسلامهم داعياً عظيما إلى إسلام كثير غيرهم ؛ فيكون تعرضُ ابن أم مكتوم للنبى فى هذه الحالة أقل مايقال فيه إنه قَطْعٌ لخير عظيم كان ينتظر أن يجىء للاسلام والمسلمين ، فوق أنه قطعٌ للخير عن هؤلاء الذين كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجادلهم ويدعوهم إلى الله

فالجواب عن ذلك كله هو ما أشرنا إليه فى صدر هذه الكلمة من أن ظاهر الواقعة قد يتوهم منه بعض الحاضرين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقدم الأغنياء ويؤثرهم ، وفى ذلك انكسار قلب الفقراء ، فلدفع أمثال هذا التوهم عاتب الله رسوله على ذلك . على أنه يمكن أن يقال : إن هذا العتاب من باب اعتبار حسنات الأبرار سيئاتٍ للمقربين ، والله أعلم .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ [١] أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَىٰ [٢] وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ [٣] أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَىٰ [٤]

(عبس) الْعُبُوس : قُطُوب الوجه من ضيق الصدر ، وقرئ « عَبَّسَ » بتشديد الباء — للدلالة على المبالغة (وتولّى) معناه أعرض ، والتولّى قد يكون بالجسم ، وقد يكون معناه تَرْكَ الاصغاء (أن جاءه الأعمى) المصدر المنسبك من أن المصدرية وما بعدها مجرور بحرف جر محذوف ، وتقدير الكلام عبس وتولى لمجىء الأعمى إياه ، وهذا الجار والمجرور متعلق بأحد الفعلين السابقين : إما عَبَسَ ، وإما تولّى ، وفى ترجيح تعلقه بأحدهما خلاف معروف بين البصريين والكوفيين ، وفى التعبير بعبارة الْغَيْبَةِ فى هاتين الجملتين من إجلاله صلى الله عليه وسلم واللطف به ما لا يخفى ؛ لأن المشافهة والخطاب والمواجهة بذكر الذنب أشدُّ فى العتاب واللوم ؛ وقوله تعالى (وما يدريك لعله يزكى أو يذكر فتنفعه الذكرى) معناه أىُّ شىء يعلمُك بحال هذا الأعمى ؟ لعله يتطهر بما يسمعه منك وما يتلقاه عنك ، فيزول عنه الجهلُ أو الاثمُ ، أو يتعظ فتنفعه موعظتك . ويقال : الضمير فى «لعله» راجع إلى الكافر ، والمعنى أنك طمعتَ فى أن يتزكى الكافر الذى أقبلت عليه ويتطهر بالاسلام ، أو يتذكر بمواعظك فتُدنيه الموعظة من الحق وتقربه إلى قَبُولِهِ ، وما يُعْلمك أن هذا الذى طمعت فيه واقع على ما طمعت . والاتيانُ ههنا بالخطاب بعد أن أتى بعبارات الغيبة للقصد إلى الرفق به ولَفْتِهِ أولا إلى العمل فى ذاته ثم إذا التفت أقبل عليه عاتبا لائما ، وقوله تعالى : (أما من استغنى فأنت له تصدى) اختلف العلماء فى معنى استغنى ؛ فقال بعضهم :

أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى [٥] فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى [٦] وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى [٧]
وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى [٨] وَهُوَ يَخْشَى [٩] فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى [١٠]

معناه أثرى ، وإنما أخذ هذا المعنى من حال الذين ذكرنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحادثهم ويذكرهم ، ولكنه مع ذلك رأى فاسد لا يصح التعويل عليه ؛ لأن إقبال النبي على هؤلاء لم يكن لثرائهم وكثرة مالهم ، حتى يلزم أن يكون المعنى أما من أثرى فأنت تقبل عليه وتتعرض له ، وقال عطاء : المعنى أما من استغنى عن الايمان ، وقال الكلبي : أما من استغنى عن الله ، وهذان الوجهان مقبولان ، وتصدى : تتعرض له وتميل إليه وتقبل عليه ، وأصله تتصدى فحذفت إحدى التاءين ، وقرئ «تصَّدَّى» بتشديد الصاد والدال جميعا ، على أنه قلب التاء الثانية صادا ثم أدغم إحدى الصادين فى الأخرى .

وقوله تعالى : (وما عليك ألا يزكى) معناه أىُّ شىء عليك فى ألا يتطهر هؤلاء الذين تدعوهم ، وهو استفهام معناه النفى ، فكأنه قال : لا شىء عليك فى ألا يُسْلِم مَنْ تدعوه إلى الإسلام ، فما بالُكَ يشتدُّ بك الحرصُ على إسلامهم ، وأنت رسولٌ ليس عليك إلا تبليغ ما أمرك الله بتبليغه ، والمراد نهيه صلى الله عليه وسلم عن شدة الحرص على قبولهم دعوته ودخولهم فى دينه : أى لا يبلغَنَّ بك الحرصُ على إسلامهم إلى أن تُعْرِض عن الذين سبقت لهم الحسنى للاشتغال بدعوة هؤلاء

وقوله تعالى : (وأما من جاءك يَسْعَى وهو يخشى فأنت عنه تَلَهَّى) يَسْعَى : معناه يُسْرِع فى طلب الخير ، مثل قوله تعالى : « فاسْعَوْا إلى ذكر الله وَذَرُوا البيع » معناه سارعوا إلى ذكر الله واتركوا ما أنتم مشتغلون به من شؤون الدنيا ، ويَخْشَى معناه يخاف ويحذر ، وقد حذف المفعول فاختلف المفسرون فى تقديره ؛ فقيل : المراد يخشى الله ويخافه ، وقيل : يخشى الكفار ويخاف أذاهم ، وقيل : يخشي الكَبْوَةَ والتردى لأنه كان أعمى وليس له قائد ، والمختار الوجه الأول لأنه مقابل

بقوله « أما من استغنى » وقد اخترنا أن معناه استغنى عن الله ، فيكون المراد وأما من خاف الله وخشيه فهو يريد أن يعرف ما أوجبه الله عليه ليعمل به ويعرف ما نهاه الله عنه ليجتنبه . وتَلَهَّي : معناه تتشاغل ، وأصله تتلهى ، فحذفت إحدى التاءين ، وقرئ تتلهى ، باثباتهما جميعا . وقد ذكر الله تعالى فى هذه الآيات أن شأن الرسول صلى الله عليه وسلم فى هذه الحادثة منحصر فى أمرين : أما أحدهما فما ذكره بقوله « أما من استغنى فأنت له تصدى » وأما الثانى فما ذكره بقوله « وأما من جاءك يسعى وهو يخشى فأنت عنه تلهى » والمعنى إن ماصدر عنك كان على هذا التفصيل ؛ فالذى استغنى بماله ووجاهته وقوته عن استماع النصيحة والاهتداء بالقرآن فأنت تتعرض له وتقبل عليه وتنصرف إليه ، وأما من جاءك يطلب الهداية وهو يخاف الله ويحذره ولم يدفعه إليك إلا حُبُّه أن يتطهر من جهالته ويستضئ بضياء العلم فأنت تتلهى عنه وتتغافل عن إجابته إلى رغباته ، والمراد من ذلك كله على ما أسلفنا إنكار هذه الحال على الرسول ؛ لأن الرسول ليس عليه إلا البلاغ فمن غره ماله ، وظن أنه يَغْنَى به عن هداية الله ، ورضى لنفسه أن يبقى فى دَنَس الكفر وأوضاره ؛ فليس على الرسول عيب ولا لوم فى بقائه على حالته التى رضيها لنفسه واختارها على كل ما سواها .

ثم لما ذكر الله تعالى هذه الحادثة ، وما كان من الرسول فيها ، أخذ فى بيان قاعدة عامة فيها الاشارةُ إلى ما على الرسول من التذكرة والوعظ دون الحرص على إيمان مَنْ بُعث إليهم والشغف باجابتهم إياه ؛ وفيها بيان أن الهداية التى يسوقها الله إلى البشر على ألسنة رسله ليست من الأمور التى يحتال لتقريرها فى النفوس وتدعيمها فى القلوب ، وإنما هى تذكرة يقصد بها تنبيه الغافل إلى ما جَبَلَ الله الخلق عليه وما غرز فى فِطَرِهم من الخير ، فمن أعرض عن هذا فانه معاند يقاوم مايدعوه إليه سرُّه وتنازعه إليه نفسه ، فكأنه قيل : إن هذا القرآن قد بلغ من عظمة الشأن وجلال

كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ [١١] فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ [١٢] فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ [١٣] مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ [١٤]

الخطر الحدّ الذى لا يحتاج معه إلى التحايل على الناس لقبول دعوته والاقبال عليه فأى حاجة بك وبه إلى أن تُلْحف على هؤلاء الكفار ليتبعوه ويهتدوا به ، سواء أقبلوه أم لم يقبلوه ، لا تلتفت إليهم ، ولا تشغل قلبك بهم ، وإياك أن تعرض عمن آمن به ، وفى هذا من تطييب قلوب الفقراء المؤمنين بالقرآن ما فيه ، وهذا هو المراد بقوله تعالى : (كلا إنها تذكرة — الخ) وكلا : حرف يُقْصَد به رَدْعُ المخاطب عن الأمر الذى يعُاَتب عليه لئلا يعاوده . والضمير فى « إنها تذكرة » وفى « ذَكَرَهُ » يعودان إلى القرآن ، وكان من حقّ المرجع أن يقال : إنه تذكرة فمن شاء ذكره ، لكنه لما أخبر عن الضمير الأول بالتذكرة وهى مؤنثة ساغ أن يؤنث الضمير ، وذلك سائغ فى كل ضمير مرجعه يخالف الخبر عنه فى التذكير والتأنيث : إن شئت راعيت مرجعه ، وإن شئت راعيت الخبر ؛ والتذكرة : الموعظة ، والمعنى إن هذا القرآن تذكير ووعظ وتنبيه لمن غفل عن آياته ، فمن شاء ممن استمعه أن يتعظ به فليفعل ، ومن لم ينفعه تذكيره ووعظه فإنما جنى على نفسه . ثم إن الله سبحانه وتعالى وصف هذه التذكرة بأوصاف تدل على عظم شأنها : الوصف الأول ما يشير إليه قوله (فمن شاء ذكره) ومعناه إن هذه التذكرة بينة ظاهرة فلو أن إنسانا أراد أن يتدبرها وَيَتَفَهَّمَ جليل معناها و يتعظ بها و يعمل بموجبها لقدر على ذلك واستطاعه ، والوصف الثانى ماذكره سبحانه بقوله (فى صحف مكرمة مرفوعة مطهرة) والمعنى إن هذه التذكرة مُودَعَة فى صحف عالية شريفة مطهرة من النقص لا تشوبها شائبة الضلال ، والصُّحُف : جمع صحيفة ، وهى ما يكتب فيه ، وقوله

بِأَيْدِى سَفَرَةٍ [١٥] كِرَامٍ بَرَرَةٍ [١٦] قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ [١٧]
مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُ [١٨]

تعالى (بأيدى سَفَرة) السَّفَرة : جمع سافر، وهو اسم فاعل من « سَفَرَ » والعرب تقول : سَفَرَ الرجل بين القوم ؛ إذا نصب نفسه وسيطاً بينهم ليُصْلح من أمور صِلاَتِهم ما فَسَدَ ، والمراد هنا الملائكة والأنبياء ؛ لأنهم وسائط بين الله تعالى و بين خلقه فى البيان عما يريد الله تعالى من عباده وهدايتهم (كِرَام بررة) وهما وصفان للسفرة ؛ والكرام : جمع كريم ، والبررة : جمع بار ، والمراد أنهم كرام على الله تعالى ، كقوله تعالى : « بل عبادٌ مكرمون » وأنهم أبرار أطهار لا يقارفون ذنبا ولا يأتون منكرا كقوله سبحانه « لا يعصون الله ما أمرهم و يفعلون ما يؤمرون »

ولما انتهى الأمر إلى بيان حال القرآن وأنه كتاب الذكرى والموعظة ، وأنه بالمنزلة العالية ، وأن شأنه من أرفع الشؤون وأعظمها ، وأن فى استطاعة كل أحدٍ أن ينتفع بهذه العظات البالغات لو أراد الاتعاظ ؛ أخذ سبحانه فى بيان أنه لا يسوغ للانسان مهما كثر ماله ونَبُهَ شأنه وعَلَت منزلته أن يتكبر و يتعاظم و يُعْطى نفسه ما تهواه لأنه لو عرف حال نفسه فى ابتدائها وانتهائها لزجره ذلك عن التعالى والكبرياء ، وهذا هو المقصود بقوله سبحانه (قتل الانسان ما أكفره) وقوله « قتل الانسان » دعاء عليه ، وهذا الدعاء من أشنع ما يدعو به العرب ؛ لأن القتل غاية الغايات فى شدائد الدنيا ، وقوله « ما أكفره » تعجب من إفراطه فى كفران نعم الله عليه ، وفيه مع ما قبله التنبيه على أنهم اتصفوا بأعظم أنواع القبائح والمنكرات فاستحقوا أعظم أنواع العقاب ، وقوله تعالى : (من أى شىء خلقه) استفهام الغرض منه زيادة التقرير فى تحقير الانسان الذى هذا شأنه وقد

مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ [١٩] ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ [٢٠] ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ [٢١] ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ [٢٢] كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ [٢٣]

أجاب عن هذا الاستفهام بقوله : (من نطفة خلقه) والنطفة : الماء ، والغرض أن من كان أصل خلقه من مثل هذا الشيء القليل الشأن فلا يليق به أن يتجبر أو يتكبر، وقوله (فقدَّره) معناه جعله أطوارا وأحوالا، طَوْراً بعد طور ، وحالا بعد حال ، وقوله (ثم السبيل يسره) معناه جعله متمكنا من سلوك سبيل الخير أو الشر؛ فآتاه قدرة العمل ، ووهبه العقل الذى يميز به بين الأعمال ، وعرفه عاقبة كل عمل ونتائجه بما بعث إليه من الرسل مبشرين ومنذرين وبما أنزل معهم من الكتب المشتملة على المواعظ الحسنة والدعوة إلى أنواع البر والتحذير من الشرور كلها ، وقوله سبحانه (ثم أماته فأقبره ثم إذا شاء أنشره) إشارة إلى ضعف الانسان وعجزه وإلى تمام قدرة الله تعالى عليه وسلطانه القاهر له ، وهو مع ذلك بيان لأحوال الانسان التى تعرض له بعد انتهاء إقامته فى حياته الدنيا ، وقد ذكر سبحانه ثلاثة أحوال الحال الأول الذى عبر عنه بقوله « ثم أماته » والحال الثانى الذى عبر عنه بقوله « فأقبره » ومعناه جعله مقبورا ، وإنما قال « أقبره » ولم يقل « قبره » لأن القابر هو الذى يدفن الميت بيده ، وجَعْلُ الانسان ممن يقبر تحت التراب نعمةٌ عظيمة من نعم الله تعالى عليه ، فلم يجعله ممن يلقى إلى السباع والطيور ، والحال الثالث الذى عبر عنه بقوله «ثم إذا شاء أنشره» والمراد منه الإحياء بعد الموت والبعث للحساب والثواب أو العقاب ، وإنما قال فى هذا الحال «إذا شاء» إشعارا بأن وقت البعث غير معلوم إلا له سبحانه ؛ فهو الذى استأثر بعلمه ، وهو القادر على تقديمه وتأخيره .

وقوله تعالى : (كلا لما يقض ما أمره) يتضمن رَدْعَ الانسان عن تكبره وترفعه أو عن كفره وإصراره على إنكار التوحيد وإنكار البعث والحشر والنشر ، ويتضمن

فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِ [٢٤]

مع ذلك بيان أن هذا الانسان المتكبر لم يقض ما أمره الله به من التأمل فى دلائل قدرته تعالى ، والتدبر فى معالم هذا الكون المنبئة عن وحدانيته ، والتبصر فى عجائب المخلوقات الناطقة بأن لها مُوجداً يستحق أن يُقْصَد وحده دون كل شىء ويستوجب أن يتوجه الخلائق إليه بالعبادة والخضوع والامتثال لما يأمر به . وكأنه سبحانه قد قال : إن هذا الانسان قد بلغ فى جَحْدِه آيات خالقه مبلغاً لا يُقْضَى العجب منه ؛ لأنه بعد ما رأى فى نفسه وفى السموات والأرض وسائر ما يحيط به من أجزاء العالم آيات ناطقة بوحدانية الخالق ، وبعد أن شاهد فى هذا العالم صغيره وكبيره جليله ودقيقه ما كان خليقاً أن يَرُدَّه إلى الصواب لو تأمّله أدنى تأمل ؛ بعد ذلك كله لا يزال مستمرا على نكرانه نعمة الله عليه فاذا ذكر لا يتذكر ، وإذا أرشد إلى الهدى لم يسلك سبيله الأقوم ، ولا يزال فى غفلة عن ربه يدعو معه الأنداد والشركاء ، ويرتكب ما نهى عنه وأرشده إلى أن الخير فى اجتنابه ، ويترك ما أمره به وأرشده إلى أن الفلاح كلّ الفلاح فى الاتيان به ؛ وفى ذلك ما ينبىء عن العلة فى الدعاء عليه بأشنع الدعاء فى قوله سبحانه « قتل الانسان ما أكفره »

ثم لما ذكر سبحانه الدلائل الدالة على قدرته ، وهى كامنة فى نفس الانسان عقبها بذكر الآيات الدالة على ذلك وهى مُنْبَثَّة فى الآفاق فقال سبحانه : (فلينظر الانسان إلى طعامه) هذا الطعام الذى يعيش به ، أمره بالتدبر فى شأنه ليدرك كيف دبّر الله تعالى أمر هذا الطعام فى إحداثه وتهيئته ليكون غذاء صالحا تقوم به بِنْيَةُ الانسان ويجدُ فى تناوله لذة تدفعه إليه ليحفظ بذلك قوته ومُنّته . ولهذا الطعام الذى يتناوله الانسان حالتان : إحداهما سابقةٌ على تناوله إياه ، والثانية متأخرة عن ذلك وهى تشمل الأمور التى لا بد منها فى بدن الانسان حتى يحصل له الانتفاع

أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا [٢٥] ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا [٢٦] فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا [٢٧]
وَعِنَبًا وَقَضْبًا [٢٨] وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا [٢٩] وَحَدَائِقَ غُلْبًا [٣٠]

بالطعام ، وأطوار الحالة الأولى ظاهرة يستطيع التأمل فيها كلُّ أحدٍ ولا تحتاج إلى دقة ذهنٍ ، وَلا إرهاف حِسٍ ، فلا جرم فصّلها الله تعالى فى هذه الآيات تفصيلا ، لأن الغرض من ذكر دلائل التوحيد فى كتاب الله تعالى لا يتحقق إلا أن تكون بحيث ينتفع بها الخلائق كلهم أجمعون ، وقد فصّل الله تعالى ذلك بقوله : (أنا صببنا الماء صبا) أنزلناه من المُزْنِ إنزالا شديدا (ثم شققنا الأرض شقا) يريد أن الأرض بعد أن كانت متماسكة الأجزاء شقها شقا مُشَاهَداً مَرْئِيًّا لمن نظر إليها بعد نزول الماء عليها ، وإنما اقتضت حكمة الله تعالى أن تشقَّقَ الأرضُ ليدخل الهواءُ والضياءُ إلى جوفها فيحللان أجزاءها وَيُهيئانها لتغذية النبات ، ثم فصل أنواع النبات بقوله (فأنبتنا فيها حَبًّا) وهو كل ما حُصِد كالحنطة والشعير والأرز وقدم هذا النوع لأنه الأصل فى الأغذية (وَعِنَبًا) والعنب معروف ، وإنما ذكره بعد الحب لأنه غذاء من وجهٍ وفاكهة من وجه (وقضبا) وقد اختلف العلماء فى المراد منه ؛ فقال قوم منهم ابن عباس ، والضحاك ، ومقاتل ، واختاره الفراء وأبو عبيدة والأصمعى : القَضْبُ : هو الرَّطبة ، وهى ما يؤكل من النبات غَضًّا ، وسمى بذلك لأنه يُقْطَعُ مرة بعد مرة ، والقَضْبُ فى الأصل القطعُ ، وقال قوم منهم الحسن واختاره المبرد : القضب هو العلف بعينه (وزيتونا ونخلا) وهما معروفان ، ومنافعهما كثيرة (وحدائق غُلْبًا) الحدائق : جمع حديقة ، وهى البساتين ذات الأشجار المثمرة التى عليها حوائط تحيط بها ، والغلب : جمع غَلْبَاءُ ، وهى الضخمة العظيمة وعِظَمُ الحدائق قد يكون بالتفاف أشجارها وكثرتها ، وقد يكون بعظم كلِّ شجرة فيها وغلظها وكبرها ، وذكر الحدائق بهذا الوصف ليشير إلى أن النعمة فى كل ما

وَفَاكِهَةً وَأَبًّا [٣١] مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ [٣٢] فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ [٣٣]

تشتمل عليه الحديقة ؛ فالنعمة فى الأشجار بجملتها ، وليست فى ثمرها خاصة ، فإن من أخشاب الأشجار ما يتخذ منه أرقى أنواع الأثاث ، وما تتخذ منه أدوات وآلات للعمل بها فى مختلف الحرف والصناعات ، وما يتخذ للوقود والاحراق لتدبير الطعام ، ومن أوراق الاشجار ما تأكله الحيوانات ، وفى الحدائق نباتات مما يأكله الناس أو ترعاه الماشية ، ولأن ذلك مقصود باستقلاله خصَّصَ الفاكهة بالذكر بعد ذلك فقال (وفاكهةً وَأبًّا) والأبُّ هو المَرْعَى ، قال جار الله : سمى بذلك لأن يُؤَبُّ : أى يُؤم ويُنْتَجَعُ ، ويقال : الأبُّ الفاكهة اليابسة سميت بذلك لأنها تؤَبُّ لغير وقتها : أى تُعَدُّتُهيأ . وقوله تعالى (متاعا لكم ولأنعامكم) معناه أن الذى عدده سبحانه من نعمه منه ما يتمتع به الإنسان كالحب والفاكهة ، ومنه ماتتمتع به الأنعام كبعض أنواع القضب وكالأب فى بعض تفاسيره ، والأنعام : الماشية وكلُّ ما ينتفع به الإنسان من أنواع الحيوانات . وانتصاب «متاعا» إما على أنه مفعول لأجله عامله أنبتنا والمعنى أنبتنا الحب والعنب وغيرهما لأجل أن ننفعكم ونمتعكم وأنعامكم به ، ومنهم من ذهب إلى أنه مفعول مطلق مؤكد لعامله الذى هو أنبتنا كما تقول : أحْبَبْتُ فلانا مِقَةً ، وكما تقول جلستُ قُعُودًا .

ثم لما عَدَّدَ الله سبحانه آلاءه على عباده وذكر من إحسانه لهم مالا يليق بالعاقل إذا عرفه أن يستمر على التمرد عن طاعة صاحب هذه المنن الجسام ، ولا أن يتكبر على أحد ممن خلقهم بارئه ؛ شرع فى شرح أحوال القيامة وأهوالها لأن الانسان إذا سمعها خاف فاذا أخذه الخوف دعاه إلى التأمل فيما مضى من الدلائل ، وإذا تأملها حقَّ التأمل بادر إلى الإيمان بما تدل عليه وهو وحدانية الله وقدرته على كل شىء ، قال : (فاذا جاءت الصاخة) الصاخة فى الأصل : اسم فاعل

يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ [٣٤] وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ [٣٥] وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ [٣٦]
لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ [٣٧]

من نحو قولك صَخّ فلانٌ رأسَ فلانٍ بحجر ؛ إذا شدخه ؛ والصاخّة أيضا الصوت الشديد ؛ والمراد ههنا النفخة التى تقوم عنها القيامة ، سميت بذلك لأنها تُصِخ الأسماع وتصكّها بشدة صوتها ، ومثل هذا تسميتها بالقارعة لأنها تقرع السمع ، وقوله تعالى : (يوم يفر المرء من أخيه) معناه يتباعد عنه ويتحرز منه ، والمراد أنه لا يواليه ولا يأخذ بناصره ، مثل قوله تعالى : « يوم لا يغنى مولًى عن مولًى شيئا » أو المراد أن الذين كان المرء يفر إليهم فى الدنيا مستنصرا بهم مستجيرا بمكانتهم يكون فى الآخرة غير راكن إليهم ولا مُعوِّل عليهم ؛ لأنه يشاهد عجزهم عن نصرة أنفسهم وضعف مُنّتهم عن الدفاع ، وقد ذكر سبحانه الأولياء على الترتيب فكأنه قال : يفر من أخيه ، بل يفر من أبويه (أمه وأبيه) بل يفر من الذين يتعلق بهم قلبه أشد تعلق فيفر من (صاحبته وبنيه) وصاحبة الرجل : زوجه ، ومنه قوله تعالى فى سورة الجن : « وأنه تعالى جَدُّ ربنا ، ما اتخذ صاحبة ولا ولداً » ، وقوله تعالى : (لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه) قال ابن قتيبة : يغنيه يعنى يَصْرفه ويَصُده عن قرابته ، ومثل ذلك قول الشاعر :

سَيُغْنِيكَ حَرْبُ بَنِي مَالِكٍ عَنِ الْفُحْشِ وَالْجَهْلِ فِي الْمَحْفِلِ

أى : سيشغلك . وتقول العرب : أغنِ وَجْهَكَ عنى ، تريد اصرف وجهك عنى وحوّله ناحيةً أخرى . وقال قوم : يغنيه ذلك الهم الذى ركبه بسبب نفسه خاصة وشغله حتى ملأ صدره فلم يَبْقَ فيه متسع لهمٍّ آخر فصار ذلك شبيها بالغنى فى أنه قد اجتمع عنده منه الشىء الكثير .

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ [٣٨] ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ [٣٩] وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ [٤٠] تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ [٤١] أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ [٤٢]

ثم إنه سبحانه وتعالى بعد أن بَيَّنَ وُقُوعَ الحشر، وأشار إلى أن الأهوال التى تعرض للناس فى ذلك اليوم أكبر من أن يأتى عليها الوصف، وأشدُّ من أن يتمكن معها أحدٌ من مواساة أحد أو الالتفات إليه مهما يكن عطفه عليه واتصاله به وقربه منه، لأنه لا أحد أحبُّ إلى الإنسان من نفسه يهتمُّ بشأنها ويدفع عنها الأذى وَيَجْهَدُ فى إيصال النفع والخير إليها؛ بعد أن بَيَّنَ سبحانه ذلك أخذ فى بيان أن المكلفين يومئذ على قسمين فقال جلت كلمته: (وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة) وهذا بيان لحال الذين استجابوا لله وللرسول وقبلوا دعوة النبى وعملوا ماأمرهم به من الأعمال الصالحة. ومُسْفِرَة: مضيئة مُتَهَلِّلَة مشرقة. تقول: أسفر الصبح، إذا أضاء، وذلك لأن الأعمال الصالحة وعمارة القلب بالاقبال على الله وإيثار ما أُمِر به عما تهواه النفس يضىء بها وجه الانسان، وقد رُوِى «مَنْ كثر صَلَاته بالليل حَسُنَ وَجْهه بالنهار». و«ضاحكة»: قال الكلبى: يعنى بالفراغ من الحساب، و«مستبشرة» فَرِحة بما نالت من كرامة الله تعالى ورضاه. وقوله تعالى: (ووجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها قترة أولئك هم الكفرة الفجرة) إشارة إلى النوع الثانى من الناس، وهم الذين تمردوا على الله ورسوله وأعرضوا عن قبول ماجاءهم به الرسول من عند ربهم ولم يعملوا ماأمرهم به من صالح الأعمال. والغَبَرة: مايصيب الانسان من الغُبَار. وتَرْهَقُهَا: تدركها من قرب، تقول: رَهِقْتُ الجبلَ، إذا وصلت إليه بسرعة. والرَّهَقُ: عجلة الهلاك. والقَتَرَة: سواد كالدخان، ولست ترى

أقبح من اجتماع الغبرة والسواد فى الوجه . وكأن الله تعالى جمع فى وجوههم بين السواد والغبرة لأنهم جمعوا بين الكفر والفجور . وقد يكون المراد بالغبار غبار الذل وبالسواد سواد الغم والحزن ، وذكر هذين ليقابل بهما الإسفار والاستبشار اللذين ذكرهما فى جانب الفريق الأول ، ثم بين أن الذين استحقوا هذا النوع من الإذلال والإهانة هم الكفرة الفجرة ، وهم الذين قد خرجوا عن حدود شرائعه واجترحوا السيئات فى حياتهم الأولى

بين سبحانه أن الناس يوم تقوم الساعة ويتبدل حال هذا العالم سيتكشف لهم ما كان قد التبس عليهم فى الحياة الأولى ، ويتضح لهم ما كان قد خفى عليهم فيها ، وسيعرفون أن الذين قضوا حياتهم يطلبون الحق لا يعدلون عنه ، وينظرون فى الحجة لا يحجبهم عن الأخذ بها حجاب من غفلة وعناد ، ويعملون بما استقام لهم عليه الدليل ووضحت فيه الحجة : لا يثنيهم عن الأخذ به قلة الآخذين به ، ولا خمول ذكرهم ، ولا قوة المعاندين له ونباهة شأنهم ؛ قد اطمأنت قلوبهم وثلجت ببرد اليقين ، أولئك سيطمئنون إلى ما أدركوا ، وتسكن أنفسهم إلى ما عرفوا ، ويفرحون يوم تظهر الحقائق جلية ناصعة فرحة الغائب عاد إلى وطنه بعد طول البين وامتداد أمد الفراق ، أو فرحة الأليف لقى أليفه بعد ما ضرب بينهما الدهر بنكباته وفرق بينهما بعواديه وصروفه ، فهم مُتَهَلِّلو الوجوه ، ضاحكو السن ، تظهر على أسارير وجوههم سيما الطلاقة والبشر . وأما الذين احتقروا عقولهم ، وأهملوا نعمة الله عليهم بالفكر ، وارتضوا الجهل ، وذَلُّوا لقادتهم وكبرائهم ، وسلموا سادتهم المقادة ، وانصرفوا عن الاستدلال إلى اقتفاء آثار الآباء والأجداد ، غَيْرَ مُبَالِين بما يقرع أسماعهم من دليل ناهض وحجة لا التواء فيها ولا لَبْسَ ، وظلوا على أهوائهم الباطلة وعقائدهم الضالة الزائغة وأعمالهم المهلكة المُرْدِيَة ، فإنهم سيجدون — يَوْمَ تتجلى الأمور ، وينكشف

المستور ، ويدعو الربُّ سبحانه عباده للحساب — كلّ شيء على خلاف ما كانوا يعرفون : يجدون الحق غير الذى كانوا يعتقدون ، والصالح من العمل غير الذى كانوا يعملون ، وحينئذ تظهر عليهم آثار الخيبة والفشل ؛ فتعلوهم الغبرة ، وتغشاهم القترة ، لأنهم كانوا فى حياتهم الدنيا الكفرةَ الفجرةَ . نسال الله تعالى أن يجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، وأن يحشرنا يوم القيامة ووجوهنا مسفرة ضاحكة مستبشرة . آمين .

سورة التكوير

[وهى مَكِّيَّة ، وآياتُها تسع وعشرون آية ، نَزَلت بعد سورة الْمَسَد][1]

استهلّ اللهُ سبحانه وتعالى هذه السورةَ الكريمة بذكر أشياء تَحْدُثُ عند قيام الساعة التى أشار فى السُّوَرِ السابقة إلى الدلائل الدالة على تمام قدرته على إحداثها ، وأخبر أنها حادثة بلاريب ، ثم أخبر ههنا أنه عند وقوع هذه الأشياء تعلم كل نَفْس ماقدمته من عمل ، ويتبين لها ما كانت أزلفته من الخير أو الشر ، ويذهب عن كل واحد من الخلائق ما كان يعتريه من الشك والالتباس ، ويتضح المبهم ، وينكشف المستور ، وتظهر الخبيئات ، فلا ارتياب هناك ولاتردد ، ولا التباس ولا إغلاق ، فمن عمل فى حياته الدنيا من الخير مثقال ذرة وجده ماثلا أمامه ، ورأى ماأعده الله له من الجزاء الأوفى ، وتمنى أن لو كان قد ازداد من الخير خيرا . ومن عمل مثقال ذرة من الشر رآه منتظراً إياه ، وتبين له أن الوعيد الذى كان يسمعه على لسان الرسول فى حياته الأولى كان وعيدا صادقا لا تهويل فيه ولا تضليل ، وحينئذ يتمنى أن يُرَدَّ إلى الحياة الدنيا ليعمل الخير ويزداد منه ، أو يتمنى أن يباعد الله بينه وبين عمله ، وما هو بمُجَابٍ إلى إحدى الأُمْنِيَّتَيْن .

فأما الأمور التى استهلّ الله تعالى بذكرها هذه السورة الكريمة فاثنا عشر :

---

(١) لاخلاف فى أن هذه السورة مكية ، وقد اختلف فى عدد آياتها : فقيل آياتها تسع وعشرون آية ، وقيل : ثمان وعشرون ،

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ [١] وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ [٢] وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ [٣] وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ [٤]

أمرا : أولها تكوير الشمس وهو ما ذكره سبحانه بقوله : (إذا الشمس كورت) ، وقد اختلف العلماء فى بيان معناه ، فقال قوم : معناه استدارتها مثل تكوير العمامة وهو لفها ، والمراد منه على هذا اختفاؤها عن الأعين وذهاب ضوئها ؛ لأن الشىء إذا لُفَّ يصير مختفيا ؛ فهو تعبير بالملزوم مع إرادة لازمه . وقد اختلفت عبارة هؤلاء عن معنى تكويرها فقال جماعة : معنى « كورت » طُمِسَت ، وقال آخرون : معناه انكسفت ، وقال الحسن : معناه امَّحى ضوءها ، وكل هذا بيان للازم الذى قدمنا ذكره . وقال قوم : معناه أُلْقِيَتْ ورُميت عن فلكها حتى تسقط ، مأخوذ من قولهم : ضرب فلان فلانا فكوره ، إذا صرعه . والأمر الثانى انكدار النجوم وهو ما ذكره سبحانه بقوله (وإذا النجوم انكدرت) ، ومعناه انتثارها وتساقطها ، وذلك كقوله تعالى : « وإذا الكواكب انتثرت » والأصل فى الانكدار الانصباب ، قال الخليل : يقال : انكدر عليهم القومُ ، إذا جاؤهم أرْسَالا فانصبوا عليهم ، والأمر الثالث تسيير الجبال وهو ما ذكره بقوله : (وإذا الجبال سيرت) ، ومعناه ذهابها عن وجه الأرض ، ومثل ذلك قوله تعالى : « وسيرت الجبال فكانت سرابا » ولما كانت الجبال فى هذه الأرض قد جعلت أوتادا تمسكها وتمنعها من الاضطراب كان تسييرها كناية عن مَيَدَان الأرض وذهاب ما عليها ؛ والأمر الرابع تعطيل العشار وهو ما ذكره بقوله (وإذا العشار عطلت) ، وقد اختلف العلماء فى المراد منه : فذهب قوم إلى أنه عبارة عن تعطيل السحاب عن حَمْل الماء من مكان إلى مكان ، والعرب

وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ [٥] وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ [٦] وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ [٧]

تشبه السحاب بالحامل ، وقد جاء منه قوله تعالى : « فالحاملات وقراً » وقال آخرون : العشار هي التي أتى على حملها عشرة أشهر من النوق ، وتعطيلها : إهمالها ، وإذا كان المعروف أن العشار أكرم أموال العرب وأعزها عليهم وأعلاها قيمة عندهم ، وكانوا أضن الناس بها ، وأحفلهم بشأنها ؛ كان تعطيلها كناية عن اشتداد الأمر عليهم ، وفداحة ما نزل بهم من الخطب ، حتى إنهم نسوا أكرم أموالهم وأهملوا شأنها . والأمر الخامس حَشْرُ الوحوش وهو ما ذكره بقوله: (وإذا الوحوش حشرت) ، والحشر : الجمع من كل ناحية ، وكل شيء من دواب البر إذا لم يستأنس يسمى وحشا ، وقد ورد أن الله يحشر الوحوش كلها فيقتص للجمّاء من القَرْناء ، والمراد أنها تجتمع فى موقف القيامة مع شدة نفرتها عن الناس فى الدنيا وتبددها فى الصحارى ، فيدل ذلك على شدة الهول يوم حدوث هذه الكوائن . والأمر السادس تسجير البحار وهو ما ذكره بقوله :(وإذا البحار سجرت) وقد اختلف العلماء فى بيان المراد منه ؛ فذهب قوم إلى أن تسجيرها معناه إيقادها واشتعال النيران فيها ، وقال آخرون : هو كناية عن جفافها وذهاب أمواهها وبقائها كالأرض ، وقال آخرون : معناه فجرت واختلط ماء البحار بعضه ببعض ؛ لأن الله تعالى جعل بين كل بحر وما يجاوره من البحار حاجزا حتى لا يبغى بعضها على بعض، فاذا أراد تغيير نظام هذا العالم وتبديل أحواله نزع هذا الحاجز ففاض بعضها فى بعض وصارت البحار كلها بحرا واحدا ، وانظر إلى قوله سبحانه وتعالى : « مرج البحرين يلتقيان ، بينهما برزخ لا يبغيان » . والأمر السابع تزويج النفوس وهو ماذكره بقوله (وإذا النفوس زوجت) . وقد اختلفوا فى المراد منه أيضا : فذهب

وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ [٨] بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ [٩]

قوم إلى أن معناه اقتران الأرواح بأجسادها ، وقال الحسن : معناه أن الله تعالى : يميز الناس فى الآخرة ويجعلهم ثلاثة أصناف بحسب أعمالهم فى الدنيا : فصنف منهم السابقون ، وصنف منهم أصحاب الميمنة ، وصنف منهم أصحاب المشأمة ؛ والمراد أنه تعالى يضم إلى كل صنف من الناس من كان في طبقته ، فالتزويج قرن الشىء بمثله ؛ فيضم الْمُبَرِّزَ فى الطاعة إلى مثله ، ويقرن المتوسط مع مثله ، ويجعل أهل المعصية بعضهم مع بعض . وقال قوم : معناه زوجت نفوس المؤمنين بالحور العين وقرنت نفوس الكافرين بالشياطين ، وقال قوم : معناه قَرْنُ النفوس بأعمالها .

والأمر الثامن ماحدث الله تعالى عنه بقوله : (وإذا الموءودة سئلت بأى ذنب قتلت) الموءودة : المقتولة صغيرةً ، وكان العرب فى جاهليتهم على عادة فى غاية الشناعة ، تدل على قَسْوَة قلوبهم ، وتنبىء عن فساد تفكيرهم ؛ فقد كان الرجل منهم إذا ولدت له بنت تركها حتى تبلغ قامتها ستة أشبار ؛ فاذا بلغتها قال لأمها : طَيِّبيها وزَيِّنيها حتى أذهب بها إلى أقاربها ، وقد حفرلها حُفْرة فى الصحراء ، فيذهب بها إلى هذه الحفرة ، فيقول لها : أنظرى إليها ، فاذا نظرت دفعها من خلفها فتتردّى فيها ، فَيُهِيلُ عليها التراب حتى يسوِّى الحفرة بما حولها من الأرض ، فجاء الله تعالى بالاسلام وأنزل عليهم القرآن وهم فى هذه الضلالة ، فأخذهم بالأدب القويم ، وقوَّم مااعْوَجَّ من تفكيرهم ، وكان مما أنكره عليهم وأد البنات . وقد كان قومٌ منهم امتنعوا من وأدهن وحاولوا حمل الناس على امتناعهم ؛ ومن هؤلاء صعصعة بن ناجية جد الفرزدق الشاعر ، وقد افتخر به الفرزدق فى قوله :

وَجَدِّى الَّذِي مَنعَ الْوائِدَاتِ ۝ فَأَحْيَى الْوَئِيدَ فَلَمْ تُوأَدِ

وإنما ارتكبوا ذلك خَوْفاً من لحوق العار بهم من أجلهن فيما زعموا ، أو

وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ [١٠] وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ [١١] وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ [١٢] وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ [١٣] عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ [١٤]

خشية الانفاق عليهن فيصيبهم الفقر ، وعلى هذا جاء قوله تعالى : « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق » وإنما يحشر الله الموءودة ويسألها عمن قتلها وعن ذنبها الذى قتلت من أجله ـ مع أن الحقيق بتوجيه السؤال إليه إنما هو قاتلها ـ ليكون سؤالها وجوابها تبكيتا لقاتلها وإشعاراً بأن لاحجة له يصحُّ أن يُسْأل عنها ، وهذا كتبكيت النصارى بسؤال نبيهم عيسى ابن مريم عليه السلام بقوله تعالى «أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلٰهَيْنِ من دون الله ؟ قال : سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق » الأمر التاسع ما ذكره الله تعالى بقوله : (وإذا الصحف نُشِرَتْ) والمراد بها صحف الأعمال التى ينشرها الله تعالى عليه حين يقفه للحساب بين يديه ، ويقال : معنى نشرت فرقت على أصحابها فأخذ كل امرىء صحيفته يتأملها وينظر فيها ليعلم أن الله تعالى قد أحصى عليه ذنوبه كلها فلم يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا سَجَّلَهَا عليه . الأمر العاشر ما ذكره الله تعالى بقوله : (وإذا السماء كشطت) ومعنى كشطت كشفت وأزيلت عما فوقها ، كما يكشط جلد الذبيحة عنها . والأمر الحادى عشر ما ذكره جل شأنه بقوله : (وإذا الجحيم سُعِّرَتْ) وتسعيرها : إيقادها إيقادا شديدا . والأمر الثانى عشر ما ذكره الله تعالى بقوله : (وإذا الجنة أزلفت) ومعنى « أزلفت » أُدنيت من أهلها وقربت لهم ، والمراد أنها هيئت لهم وأعدت لنزلهم ، وهذا مثل قوله تعالى : « وأُزلفت الجنة للمتقين غير بعيد » وقوله تعالى : (علمت نفس ما أحضرت) هو جواب الشرط الذى هو مجموع الأمور الاثنى عشر ، والمراد أن كل نفس تعلم يومئذ ماكان من عملها مبرورا مُتَقَبَّلاً ، وما كان من عملها مَرْدُودًا عليها ؛ فكثير من الناس يظنون فى هذه

الحياة الدنيا أن ما يعملون من عمل هو خير لهم فى عاجل أمرهم وآجله ، ولا يكون هذا العمل حقيقا بالذى ظنوه فيه ، كما قال الله تعالى : «قل هل أنبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً » ، ثم هؤلاء المنافقون الذين يعملون أعمالهم رئاء الناس ، يريدون بذلك أن يَحْسُنَ الحديث عنهم ، وأن يكسبوا ألسنة الناس ؛ ليس لهؤلاء من عملهم إلا الجهد والمشقة؛ وهؤلاء الذين غابت عقولهم وعَزَبَت أحلامهم فصاروا يَرَوْنَ الشيء القبيح حَسَناً فيقبلون على عمله ويَرَوْن الحسن قبيحا فينكلون عنه ، تَمَشِّيًا مع أهواء وضلالاتٍ حسبوها عِلماً أو مَدَنِيَّةً أو ما أشبه ذلك ، أمثالُ هؤلاء الذين كانوا فى الحياة الدنيا مغرورين بما تُزَيِّنُ لهم الشياطين سيجدون أعمالهم يوم القيامة غَيْرَ مقبولة ولا مرضيٍّ عنها ؛ وأنها ليست من أسباب قربهم إلى الله تعالى الذى يجازى الناس بأعمالهم ، بل هى مُبْعِدَة منه ، مستحقة لغضبه وعقابه ، وهذا كله لَفْتٌ لعقول الناس ألا تفكر فى الأعمال إلا بحسب ما تشتمل عليه من الخير أو الشر ، وألا ينظروا إليها إلا بمنظار الشرع ، وألا يزنوا الأمور إلا بميزان الشرع ؛ لأن الله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما وافق المعيار الذى أرسل به رسله وأنزل به كتبه ، والأعمال المقبولة عند الله ما صدرت عن قلب ملىء بالايمان ، عامرٍ بحب الله والرغبة فى رضاه ، حريصٍ على أداء واجباته التى فرضها الله تعالى عليه ؛ فان لم يكن المرء على هذه الصفات كلها لم تكن أعماله مقبولة

وبعد أن انتهى الكلام عن أحوال يوم القيامة ، وما يكون فيه من وقوف الناس على حقائق عملهم ؛ شرع سبحانه فى تحقيق أن هذا الذى يحدثهم الرسول صلى الله عليه وسلم به هو القرآن الذى أنزله عليه هُدًى للناس وبيناتٍ من الهدى والفُرقان ، ويبين لهم — مع ذلك — منزلة الرسول الذى لَجُّوا فى عداوته ، واستمروا فى تمردهم عليه وعصيانه ، وَرَمَوْهُ بكثير من المعايب ، فقالوا مرة : ساحر ، وقالوا :

فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ [١٥] الْجَوَارِ الْكُنَّسِ [١٦]

مجنون ، وقالوا : كذاب ، وقالوا : إنما يعلمه بَشَرٌ ، وقالوا غير ذلك مما هو بَرَاء منه ؛ فأراد الله تعالى أن يكذبهم فى كل ما رموه به من هذه الافتراءات ، ويبين لهم حقيقة أمره ؛ فقال جلت كلمته : (فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس) « لا » هذه للنفى ، وهذه عبارة تعَوَّدَ العرب أن يقولوها عندما يكون المراد الْقَسَمُ عليه ظاهراً أمْرُهُ ؛ كأنه تعالى يقول : أنا لا أقسم بهذه الأشياء على إثبات هذا المطلوب الذى أذكره بعدُ ؛ لأن إثباته أظهر وأجلى وأقوى من أن يحاولَ محاولٌ إثباته بالقسم ، ويقال : معناه أنا لا أقسم بهذه الأشياء على إثبات المطلوب ؛ لأنه أعظم وأجلُّ وأكبر من أن يُقْسَمَ عليه بهذه الأمور الهيِّنَة الشأن ، والغرض على هذا الوجه تعظيم الْمُقْسَمِ عليه وتفخيم شأنه . وَالْخُنَّس : جمع خانس ، وهو المنقبض المستخفى ؛ تقول : خنس هذا الرجل من بين القوم ، وانخنس أيضا ، إذا انقبض واختفى . وفى الحديث « إن الشيطان يوسوس إلى العبد فاذا ذكر الله خنس » يريد انقبض واختفى هاربا . وَالْكُنَّس : جمع كانس أو كانسة ، وهو المختفى أيضا . وأصله من قولهم : كَنَسَت الظبية ، إذا دخلت الكِنَاسَ ، وهو مكانها ومأواها ، ومنه يقولون : تكنست المرأة ، إذا دخلت الْهَوْدَج ، يشبهون المرأة بالظبية فيجعلون الهودج كالكناس . والمراد بالخنس الجوارى الكنس جميع الكواكب . وخنوسها عبارة عن غيبوبتها عن البصر فى النهار ، وكنوسها عبارة عن ظهورها للبصر فى الليل ، يعنى أنها تظهر فى أفلاكها كما تظهر الظباء فى كناسها . ويقال : المراد بالخنس الجوارى الكنس الكواكب السيَّارة الخمسة ، وخنوسها : رجوعها ، وكنوسها : اختفاؤها تحت ضوء الشمس . ولا شك أن هذه حالة عجيبة تشتمل على أسرار غريبة وتدل على قدرة عظيمة باهرة ، وَأَقْسَمَ بهذه الدرارى أو بالكواكب جميعها

وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ [١٧] وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ [١٨]

لِيُنَوِّهَ بشأنها من جهة مافى حركاتها من الدلائل على قدرة مُصَرِّفها ومُقَدِّرِهَا ، وَإرشاد تلك الحركات إلى مافى كونها من بديع الصنع وإحكام النظام ، مع نعتها فى القسم بما يُبْعِدُهَا عن مراتب الألوهية من الخُنوس والكُنُوس ، تقريعا لمن خصّها بالعبادة واتخذها أربابا من دون الله ، وقوله تعالى : (والليل إذا عسعس) اختلف العلماء فى بيان معنى « عسعس » فقال قوم : معناه أدبر ، كما فى قول العجاج :—

حَتَّى إذَا الصُّبْحُ لَهَا تَنَفَّسَا وَانْجَابَ عَنْهَا لَيْلُهَا وَعَسْعَسَا

وقال قوم : معناه أقبل ، مثل قول الراجز : —

* مُدَّرِعَاتِ اللَّيْلِ لَمَّا عَسْعَسَا *

ومن قال معناه أقبل ذكر أن الحمل على هذا خير لأن الآية حينئذ تشتمل على القسم باقبال الليل فى قوله تعالى : «والليل إذا عسعس» و بادباره أيضا فى قوله سبحانه : « والصبح إذا تنفس » ومن قال معناه أدبر قال : الآية إشارة إلى أول طلوع الصبح وإلى تكامل ضوئه و إسفاره ، ومثلها مثل قوله جل شأنه : « والليل إذا أدبر والصبح إذا أسفر » . وقوله تعالى : (والصبح إذا تنفس) المراد منه إذا أسفر وظهر نوره ، وذلك لأن الصبح إذا أقبل جاء باقباله رَوح ونسيم فجعل ذلك نفسا له ، ومنه قيل : تنفس الصبح ، ويقال : شبه الليل المظلم بالمكروب المحزون الذى قبع لا يتحرك فاجتمع الحزن فى قلبه ، فلو تنفس لوجد برد الراحة ، فلما طلع الصبح كأنه تخلص من هذا الحزن فعبر عنه بالتنفس ؛ ففى الليل إذا أدبر زوال تلك الغُمَّة التى تغمر الأحياء بسبب انسدال الظلمة وتكاثفها ، لاسيما بعد أن استعادت الأبدان نشاطها وانتعشت من فتورها ، وفى الصبح إذا تنفس بشرى للأنفس بالحياة الجديدة

إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ [١٩] ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ [٢٠] مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ [٢١]

فى النهار الجديد الذى تنطلق فيه الإرادات إلى تحصيل الرغبات وسد الحاجات واستدراك ما فات والاستعداد لما هو آت ؛ وقوله تعالى : (إنه لقول رسول كريم) هذا هو المراد الحلف عليه . والمراد أن هذا الذى أخبركم به محمد من أمر الساعة ليس بكهانة ولا ظن ولا افتعال ، وإنما هو قول نزل به عليه جبريل وحيا من عند الله تعالى ، وقد وصف سبحانه هذا الرسول بخمسة أوصاف : أولها أنه كريم ، ومن كرمه أنه يعطى أفضل العطايا ، وهى المعرفة والهداية والارشاد ؛ لأنه موصّلها فكأنها منه . والوصف الثانى ماذكره الله تعالى بقوله : (ذى قوة) واختلف المفسرون فى المراد منه ؛ فذهب قوم إلى أن المراد أنه شديد الجسم ، وذهب آخرون إلى أن المراد به أنه قوى فى أداء الطاعات التى أمره الله بها فليس يخل بشىء منها من أول الخلق إلى آخر الزمان ، وهو قوى — مع ذلك — فى معرفة الله تعالى ، وفى مطالعة جلاله الباهر . والوصف الثالث ماذكره الله بقوله : (عند ذى العرش مكين) والمراد أنه ذو جاه ومنزلة عنده به يعطيه ماسأله ، تقول : قد مَكُنَ فلان عند فلان ، إذا كانت له عنده منزلة . وليس المراد بهذه العندية عندية المكان ، ولا عندية الجهة ، بل المراد بها عندية الاكرام والتشريف والتعظيم . والوصف الرابع ماذكره الله تعالى بقوله : (مُطَاعٍ ثَمَّ) والمعنى أنه عند الله مطاع فى ملائكته المقربين ، فهم يصدرون عن أمره ويرجعون إلى رأيه . وكلمة « ثَمَّ » بفتح الثاء المثلثة — وهى اسم إشارة إلى المكان . والوصف الخامس ماذكره سبحانه بقوله : (أمين) والمراد أنه أمين على وحى الله تعالى ورسالاته ، قد عصمه الله سبحانه من الخيانة فيما يأمره به ، وجَنَّبَه الزلل فيما يقوم به من الأعمال .

وَمَاصَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ [٢٢] وَلَقَدْ رَءَاهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ [٢٣]

وقوله تعالى : (وما صاحبكم بمجنون) المراد بصاحبهم سيدنا ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وفى التعبير عنه بصاحبهم من الاستدلال عليهم وإقامة الحجة على كذبهم فى دعواهم ؛ ماليس يخفى ، فانه إذا كان صاحبهم وكانوا قد خالطوه وعاشروه وعرفوا عنه مالم يعرفه أحد سواهم من استقامة الحال وصدق اللهجة وكمال العقل ووفور الحلم والتفوق على قرنائه فى جميع صفات الخير والبر ، إذا كان منهم بهذه المثابة وكانوا قد عرفوا عنه كل ذلك لم يكن ادعاؤهم عليه ما يناقض هذا المتقرر إلا باطلا من القول وزُورًا ، وإنما نفى عنه الجنون لأن بعض قريش كان يرميه بذلك عندما يسمع منه غريب الأخبار عن اليوم الآخر وغيره مما لم يكن معروفا لهم ولا مألوفا عند عقولهم ، وقد حكى الله عنهم ذلك فى قوله : « أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين ، ثم تولَّوْا عنه وقالوا مُعَلَّمٌ مجنون » وحكى سبحانه أن جميع الأمم قد رَمَوْا أنبياءهم بالجنون فى قوله سبحانه « كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أومجنون» وقد نفى عن رسوله مارماه به قومه من قريش فى غير ما آية من كتابه الكريم ؛ فقال سبحانه : « أو لم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة ، إن هو إلا نذير مُبين » وقال جلت كلمته : « قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مَثْنَى وَفُرَادَى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد » . وقوله تعالى : (ولقد رآه بالأفق المبين) معناه أن محمدا صلى الله عليه وسلم قد رأى جبريل بالأفق الأعلى الواضح الظاهر ، وقد كانت هذه الرؤية بأن تمثل جبريل للنبى صلى الله عليه وسلم فى مثال يظهر ويُبْصَرُ ، فظهر له وتجلى لعينيه وَأُعْلِمَ أنه جبريل فعرفه . وتفسير هذه الرؤية قد ذكر فى القرآن الكريم فى سورة النجم بقوله تعالى : «والنجم إذا هوى ، ماضلَّ صاحبكم وما غوى ، وما ينطق

وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ [٢٤] وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ [٢٥]
فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ [٢٦] إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَٰلَمِينَ [٢٧] لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ
أَنْ يَسْتَقِيمَ [٢٨]

عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى ، علمه شديد القُوَى ، ذومِرَّةٍ فاستوى ،وهو بالأفق الأعلى ، ثم دنا فتدلى ، فكان قَابَ قَوْسَيْنِ أو أدنى ، فأوحى إلى عبده ماأوحى ما كذب الفؤاد مارأى ، أفتُمَارُونه على مايرى ، ولقد رآه نزلة أخرى ، عند سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى ؛ إذيغشى السدرة مايغشى ، مازاغ البصروماطغى ، لقد رأى من آيات ربه الكبرى» . وقوله تعالى : (وما هو على الغيب بظنين) معناه ليس محمد بمتهم على الغيب ، والمراد بالغيب ههنا القرآن وما فيه من قصص وأنباء وأحكام . يريد أنه صلى الله عليه وسلم ثقة أمين لا يأتى به من عند نفسه ولا يبدل منه حرفا بحرف ولا معنى بمعنى . ويقرأ « وما هو على الغيب بضنين» بالضاد ، والمعنى أنه ليس ببخيل يأتيه غيب السماء وهو شىء نفيس جليل القدر فلا يبخل به ، بل يبينه ولا يكتمه كما يكتم الكهانُ ويمتنعون من الإعلام به حتى يأخذوا عليه حُلْوَانًا . وقوله تعالى : (وما هو بقول شيطان رجيم) هذا نفى لفرية أخرى كانوا يقولونها ؛ فقد كان منهم من يقول : إنَّ هذا الذى يتكلم به محمد إنما يجىء به شيطان فيلقيه على لسانه . وقوله سبحانه : (فأين تذهبون) بيان لأنهم قوم قد ضلوا طريق التدبر وجهلوا سبيل العقل والحكمة ، والمعنى أى طريق تسلكونه وأى سبيل تسيرون فيه بعد أن قامت عليكم الحجة وبطلت جميع مفترياتكم فلم يبق لكم طريق إلا أخذناه عليكم . وقوله تعالى : (إن هو إلا ذكر للعالمين) بيان لحقيقة القرآن وأنه أى شىء هو ، والمعنى أنه بيانٌ وهداية للخلق أجمعين وقوله : (لمن شاء منكم أن يستقيم) بدل من العالمين ، والتقدير إن هو إلا ذكر

وَمَا تَشَاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَلَمِينَ [٢٩]

لمن شاء منكم أن يستقيم ، وفائدة هذا الابدال أن الذين شاءوا الدخول فى الاسلام — — وهو المراد بالاستقامة — هم المنتفعون بالذكر فكأنه لم يوعظ به غيرهم ، والمعنى أن القرآن إنما ينتفع به من شاء أن يستقيم ، ثم بين أن مشيئة الاستقامة موقوفة على مشيئة الله تعالى فقال : (وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين) والمعنى أن إرادتكم الخير لا تحصل عندكم إلا بعد أن يخلقها الله تعالى فيكم بقدرته الموافقة لارادته فهو سبحانه الذى يودع فيكم إرادة فعل الخير فتنصرف هممكم إليه وتتوجه نوازعكم نحوه ، ولو شاء سبحانه لسلبكم هذه الارادة ولجعلكم كالحيوانات التى لا إرادة لها ، وقوله تعالى « رب العالمين » بيان للعلة فى الحكم : أى أنه لما كان رب العالمين أجمعين وكان هو مانحهم كل ما يتمتعون به من القوى ، وكان مع ذلك صاحب السلطان النافذ ، كانت إرادتكم مستندة إلى إرادته ، واعتزامكم خاضع لسلطانه وقهره ؛ فلو شاء أن يوجه إرادتكم إلى الخير لكنتم أخيارا أبرارا أطهارا ، ولو شاء أن يجعل نزعاتكم متجهة نحو الشر لصرتم أشرارا أنجاسا . نسأل الله تعالى أن يوفقنا إلى الخير ، وأن يجعلنا ممن اختار لهم البر وحسن العمل ؛ إنه ولى ذلك . آمين

سورة الانفطار *

[وهى مكية ، وآياتها تسع عشرة آية ، نزلت بعد سورة النازعات] (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ [١] وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ [٢]

---

* وقد تسمى سورة « انفطرت »

(١) لاخلاف فى أن هذه السورة مكية ، كما أنه لاخلاف فى أن عدد آياتها تسع عشرة آية .

افتتح الله سبحانه وتعالى هذه السورة بمثل ما افتتح به السورة السابقة من ذكر أشياء من الأمور التى تحدث عند تغير نظام هذا العالم ، كمقدمة ليوم العرض والحساب ، وهو يوم القيامة ، ويسمى يوم الدين أيضا ، كما يسمى يوم الجزاء ، وجعل جواب الشرط فى هذه السورة قريباً من الجواب الذى جاء به فى السورة السابقة ؛ والأمور التى ذكرها هنا أربعة أمور : أمران منها يتعلقان بالعلويات ، وهما انفطار السماء ، وانتثار الكواكب ، وأمران منها يتعلقان بالسفليات ، وهما تفجير البحار ، وبعثرة القبور ؛ فأما الأمر الأول من العلويات فهو ما ذكره سبحانه بقوله : (إذا السماء انفطرت) ومعناه انشقت ، ومثله قوله تعالى : « ويوم تشقق السماء بالغمام » وقوله : « إذا السماء انشقت » وقوله : « فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان » وقوله : « وفتحت السماء فكانت أبوابا » وقوله : « السماء منفطر به » وأما الأمر الثانى فهو ما ذكره سبحانه بقوله (وإذا الكواكب انتثرت) وهذا مترتب على ما قبله ؛ لأنه إذا انشقت السماء فانتقض تركيبها و بطل

وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ [٣] وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ [٤] عَلِمَتْ نَفْسٌ مَاقَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ [٥]

نظامها واختل حالها فلا بد من انتثار الكواكب وتفرقها ووجوبها على الأرض ، وأما الأمر الأول من السفليات فهو ما ذكره سبحانه بقوله : (وإذا البحار فجرت) وقد اختلف العلماء فى بيان معنى ذلك ؛ فقال قوم : معناه أن بعض البحار ينفذ ماؤه فى بعض ، وذلك بسبب ارتفاع الحاجز الذى جعله الله تعالى برزخا وجعل مهمته ألا يطغى بحر على بحر ، وحينئذ يصير كل البحار بحراً واحدا ، وإنما يرتفع ذلك الحاجز إذا تزلزلت الأرض وتصدعت وذهب تماسكها ، وقال قوم : معنى تفجير البحار تفرقها وذهاب مائها لأنها الآن مجتمعة متضامة ، وقال الحسن : معناه أنها يبست وجفَّ ماؤها ، والمراد على كل حال أن البحار تتغير عن صورتها الأصلية ، التى هى عليها فى هذا العالم ، وتزول صفاتها الثابتة لها ، وبعبارة أعم من ذلك أن هذا العالم تزول صفاته وتتبدل أحواله ، يتغير نظامه ؛ فالأرض يومئذ غير هذه الأرض ، والسماء غير هذه السماء ، وهكذا ، وانظر إلى قوله جلت قدرته : « يوم تبدل الأرض غير الأرض » وإلى قوله سبحانه : « ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا فيذرها قاعاصفصفالا ترى فيهاعِوَجاً ولا أَمْتاً » والأمر الثانى من الأمور السفلية ماذكره سبحانه بقوله : (وإذا القبور بعثرت) ومعناه أُثيرت وقلب أسفلها أعلاها وباطنها ظاهرها ، ثم اختلفوا فى المراد منه ؛ فقال قوم : المراد أن القبور تبعثر ليخرج مَنْ فيها من الموتى أحياء ، وقال آخرون : المراد أن الأرض تبعثر لاخراج ما فى بطنها من الذهب والفضة وسائر المعادن ، وذلك لأن من أشراط الساعة أن تخرج الأرضُ أفلاذ كبدها من ذهبها وفضتها ونحوهما والأول أقرب لأن دلالة « القبور » عليه أتم . وقوله تعالى : (علمت نفس ما قدمت وأخرت)

يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ [٦] ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ [٧] فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ [٨]

هو جواب الشرط ، ومعناه أن فى هذا اليوم يعلم كل أحد ماقدمه لنفسه من الأعمال فلم يقصر فيه ، ويعلم ما أخّره وأهمله وتكاسل فى أدائه ، والمقصود منه الزجر عن المعصية والترغيب فى الطاعة .

ثم إنه سبحانه وتعالى بعد أن ذكر فى صَدْر السُّورة وقوع الحشر والنشر ، وأنه يبدل نظام هذا العالم ويغيره ، ويُصَيِّر الخلائق فى عالم آخر ليسألهم عما قدمت أيديهم ، ويحاسبهم على ما اقترفوا من الآثام ، وما ارتكبوا من الأوزار ، وَيُقَرِّعَهم على التكاسل فى أداء ما أمرهم بأدائه ، والتهاونِ فيما حَثَّهم وحَرَّضَهم على الإتيان به ، ويجزيهم أحسن الجزاء على ما عملوا من صالح الأعمال ؛ أخذ فى خطاب الانسان واستفساره عما دعاه إلى مخالفة خالقه ، والتمادى فى فجوره وطغيانه ، وَالاسترسال مع دواعى النفس الأمارة بالسوء ونَوازعها ، مع أنه لو تدبَّر نوعَ تدبر فى نفسه وفى خَلْقه لوجد من شواهد ربوبية خالقه ما هو حقيق بأن يحمله على الجادة ، ولوجد من آثار نعمته عليه ودلائل فضله ومنته ما هو خليق بالشكران والاستدامة على الطاعات التى أمره بها ؛ فقال سبحانه وتعالى فى ذلك (يأيها الانسان ما غرك بربك الكريم الذى خلقك فسوّاك فعدلك فى أى صورة ماشاء ركبك) وإنما عَبّر عنه بالانسان ولم يقل يأيها العبد ، أو يأيها المخلوق ، أو نحو ذلك ؛ لأن الكلام مُوجه إلى العقل الذى يُدْرك أن جزاء النعمة لا يكون بالجحد والنكران ، وإذا كان المطلوب إثبات الحجة وإقامة البرهان على أن المنعم الذى تكررت آلاؤه وتعددت فواضله مستوجبٌ للحمد والشكر ، كان التعبير بالانسان أليق ؛ لأنه اللفظ الدال على التفكير والتدبر وكمال الفهم ،

وقد اختلف العلماء فى تحديد المراد من الانسان فى هذه الآية ؛ فقال قوم : المراد به الكافر خاصة ، وقال آخرون : المراد به مايشمل الكافر والعاصى جميعاً ، وهذا الأخير أولى وأحسن . والغرور فى الأصل كل شيء دعا الانسان إلى ارتكاب مالايليق ارتكابه ، ومعنى الآية أيُّ شيء خَدَعَكَ وجَرَّأك على عصيان ربك الذى أنعم عليك بنعمة الوجود والعقل والتدبر ، وأياديه عليك لاتزال تتوالى وتترادف ؟ فان قلت : هذا المقام مقام استنكار لما عليه الانسان من التمادى فى المعصية وكفران النعم ، وهو بالتهديد أوفق وأنسب ، فكيف ذكر وصف « الكريم » وهَلاَّ ذكر وصفا من صفاته سبحانه يدل على الانتقام والقهر والغلبة مثل « القاهر » أو « المنتقم » أو « الجبار » ونحو ذلك لأن ذكر الكرم يدعو إلى الاعتماد عليه وترك العمل ارتكاناً على عظيم جوده وواسع فضله . فالجواب عن ذلك أن ننبهك إلى أن معنى الكريم ههنا ليس هو المعنى الذى سبق إلى ذهنك وهو الذى يصفح عمن أساء و يغفر لمن عصاه ، بل معناه العظيم الحكيم الذى يضع الأمور على حسب ماتقتضيه الحكمة والمصلحة ، ولاشك أن الحكمة والمصلحة لايستوى عندهما الأولياء والأعداء ، ولايتشاكل عندهما المطيعون والعُصَاة ؛ ألا ترى صديقك لوأعطاك شيئاً مما يُهْدَى إلى الأصدقاء ثم رأيته أعطى مثل هذا الشيء عَدُوًّا من أعدائه ، أفما كنت ترى فعله غير موافق للحكمة ، وكنت ترى مِنَّتَه عليك قد تلاشت وصنيعته إليك قد اضمحلت ، ولئن سلمنا أن الكريم ههنا بمعناه الذى تبادر إلى ذهنك فانا نقول لك: إن كثرة الكرم ، وتعدد المِنَح وتوالى المبرات عليك من ربك ؛ كل أولئك موجب عليك أن تجتهد فى طاعته وتدأب على العمل الذى طلبه منك ، وتوجب عليك أن تستحيي من الاغترار والتوانى ؛ لأن كرمه إن بلغ إلى حيث لايمنع عن العاصى عوائد لطفه وبره فهو لايترك الانتقام للمظلوم من ظالمه ؛ فكونه كريما يقتضى الخوف الشديد وترك

الجراءة والاغترار ، ثم إنه تعالى لما وصف نفسه بالكرم عقبه بذكر أمور تدل أوضح الدلالة على الكرم ، فأولها الخَلْقُ ، وهو الذى ذكره بقوله « الذى خلقك » ولا شك أن إيجاد الانسان فى هذه الحياة كرمٌ عظيم من موجده سبحانه وجُودٌ فوق كل جودٍ ؛ فان الحياة خير من الموت ، والوجود خير من العدم ، وقد أمتن الله تعالى على عباده بذلك فقال : « كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحيا كم » والأمر الثانى ماذكره سبحانه بقوله « فسوّاك » ومعناه جعلك سويًّا سالم الأعضاء ، وجعل لك السمع والبصر والفؤاد ، وقد ذكر الله تعالى هذا الوصف فى معرض الامتنان فى قوله سبحانه : « أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سوّاك رجلا » والأمر الثالث ماذكره سبحانه بقوله « فعَدَلَكَ » ومعناه عَدّل خَلْقك فى العينين والأذنين واليدين والرجلين فلم يجعل أحد النظيرين مخالفاً للآخر فى شكله ولا فى حجمه ، وقد حَدَّثَ علم التشريح أنه سبحانه ركَّبَ جانبى جثة الانسان على التساوى ؛ فلا تفاوت بين نصفيه فى العظام ، ولا فى أشكالها ، ولا فى الأوردة والشرايين والأعصاب النافذة فيها والخارجة منها ، ويقال : معنى عدلك جعلك قائما معتدلا ولم يجعلك تمشى على أربع كالبهائم ونحوها من الحيوانات ، ويقال : معنى عدلك جعلك مستعدا لقبول العقل والقدرة والفكر ، وصيرك بسبب ذلك مستولياً على جميع الخلائق من حيوان ونبات وجماد ، ووصلك من الكمال بما لم يصل به شيئاً من أجسام هذا العالم ، وقوله تعالى : « فى أى صورة ما شاء ركبك » معناه صورك وخلقك على الصورة التى اقتضتها إرادته من بين الصور المختلفة بحسب الطول والقصر والحسن والقبح والذكورة والأنوثة . ولا شك أن فى ذلك من الدلالة على قدرة الصانع وإرادته ومشيئته مالا

كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ [٩]

يستطاع معه الانكار والجحْد ، أفلا ترى أن النطفة جسم متشابه الأجزاء وتأثير الأبوين فيه على السواء ، فلو أن المؤثر أمر طبيعى لم تكن النتائج إلا على نمط واحد وصورة واحدة ؛ فلما اختلفت الآثار والصفات دل هذا الاختلاف على أن المدبر لهذا الأمر هو القادر المختار ؛ انظر إلى قوله جلت قدرته فى سورة الروم « ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ؛ إن فى ذلك لآيات للعالِمينَ » . ومن اختلاف الصور مجىء الانسان على شبه أبيه أو أمه أو أحد أقاربه من جهة أبيه أو من جهة أمه قريبا كان أو بعيدا ، ومنها اختلاف الناس فى الاستعداد للخير وقبوله والعمل به ، فلا شك أن تكوين الولى الحميم لهداية رب العالمين غَيْرُ تكوين العدوّ اللدود ؛ فمن الناس من صوَّره الله ليستخلصه لنفسه ، ومنهم من صوَّره ليشغله بغيره و يسلط الشياطين على قلبه . والأوفق أن تَجْعَلَ ذلك كله وأضرابه مما تشمله الآية الكريمة فان النصّ لم يخصص نوعاً دون نوع ، و « ما » فى قوله تعالى « ما شاء » صلة : أى ركبك فى أى صورة شاءها ، و يقال : ما شرطية ، وَشاء : فعل الشرط ، وركبك : جواب الشرط ، و « فى أى صورة » متعلق على هذا بعدلك . والأول أولى . وقوله تعالى : (كلا) حرف للردع والزجر عن الاغترار ، و (بل) حرف وضع فى اللغة لنفى شىء قد تقدم وتَحْقِيقِ شىء غيره ، وكأنه سبحانه قال لهم : إنكم لاتستقيمون على توجيه نعمى التى أنعمت بها عليكم ولا تقومون بشكرها ولا تعملون بارشادى لكم ، بل تكذبون بالدين ، ومن الناس من قال : المنفى الذى قد تقدم هو الارتداع الذى يستلزمه الردع المدلول عليه بكلا ، وكأنه قال : ارتدعوا عن الاغترار بكرم الله تعالى ، وإنكم لا ترتدعون بل (تكذبون بالدين) والدين

وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ [١٠] كِرَامًا كَٰتِبِينَ [١١] يَعْلَمُونَ مَاتَفْعَلُونَ [١٢]

هو الجزاء ، كما فى قوله تعالى : « أرأيت الذى يكذب بيوم الدين » أو هو الاسلام كما أخبر الله تعالى بقوله : « إن الدين عند الله الاسلام » ومعنى تكذيبهم بالاسلام عدم تصديقهم بتعاليمه التى جاء بها الرسول وأخبرهم خبرها وتلا عليهم القرآن الذى أنزل عليه لبيانها ، ومعنى تكذيبهم بالجزاء أنهم لايؤمنون باليوم الذى يبعث الله فيه الخلائق للفصل بينهم وجزاء كل واحد منهم على ماعمل فى حياته الأولى . وقوله تعالى : (وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين) هذه الجملة حالية الغرض منها تقرير الانكار وتحقيق أنهم يكذبون بالدين ، فكأنه قال : إنكم تكذبون بيوم الدين وهو يوم الحساب والجزاء والملائكة الموكلون بكم يحصون عليكم ذلك ويكتبونه . ويجب على كل مسلم أن يعتقد بأن لله تعالى حفظة وكلهم باحصاء أعمال الانسان من خير وشر ، ولا ضير عليه فى ألا يراهم ولا يعرف حقيقة حالهم ، أولا يعرف طريقة إحصائهم ، أو كيفية كتابتهم ، فان ذلك كله من الأمور المغيبة عنا التى يجب علينا التصديق بها على النحو الذى أخبر عنه الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم . وقد ذكر الله تعالى أمرهم فى غير آية من كتابه الكريم ؛ فمن ذلك قوله تعالى « عن اليمين وعن الشمال قعيد مايلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » ومن ذلك قوله تعالى : « وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة » وقد وصفهم الله تعالى فى الآية التى نحن بصددها بأربعة أوصاف ؛ أولها كونهم حافظين ، وثانيها كونهم كراما ، وثالثها كونهم كاتبين ، ورابعها كونهم يعلمون ماتفعلون . ومعنى قوله تعالى : (يعلمون ماتفعلون) أنهم يعلمون الأفعال التى نفعلها فهم يكتبونها ؛ لأن كتابتهم شهادة علينا بها ، والشهادة لاتكون

إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ [١٣] وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ [١٤]

إلا بالعلم ، ووصْفُهُمْ بهذه الأوصاف يدل على عظيم شأنهم ، وفى تعظيم شأنهم مالا يخفى من تعظيم أمر الجزاء على الأعمال التى يحصونها على الخلائق ، فذلك دليل على أن الجزاء على الأعمال من جلائل الأمور ، ولولا ذلك لما وَكَّلَ الله تعالى بضبط الأعمال التى يكون الحساب من أجلها هؤلاءِ الحفظةَ الموصوفين بهذه الصفات

ثم إنه سبحانه بعد أن ذكر مايدل على أن غفلة الانسان عن اليوم الآخر ، وتهاونه فى شأنه ، وَعَدَمَ الاعتداد به ، وَتَرْكَ التهيؤ للعرض على خالق الخلائق ومدبر الأكوان ؛ لايكون شيء من ذلك إلا بسبب التكذيب والعناد ؛ بعد ذلك أخذ فى سبيل الإخبار عن هذا اليوم وما يكون فيه إخبارا مؤكدا لينفى عن قلوبهم الريب الذى ساورها ، ويزيل من رؤسهم العناد الذى ركبها ؛ فقال سبحانه : (إن الأبرار لفى نعيم ، وإن الفجار لفى جحيم)والأبرار جمع بَرّ ، والبَرُّ هو الذى يعمل البِرَّ ، الذى أمر الله تعالى بالتعاون عليه فى قوله : « وتعاونوا على البر والتقوى » وقد فسر الله تعالى البر فى سورة البقرة ، بقوله : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاةَ وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » وفسره مرة أخرى بقوله : « ولكن البر من اتقى » والفُجَّارُ : جمع فاجر ، وهو الذى شق ستر الديانة ، وهو أيضا الذى يميل عن أمر الله تعالى ويتركه ، وأصله الفُجُورُ وهو الخروج عن الحدود التى وصفها الشرع وأمر بالوقوف عندها ، والجحيم : اسم من أسماء النار التى أعدها الله تعالى للعُصَاة جزاء عصيانهم وللكفار

يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ [١٥] وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ [١٦] وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ [١٧]

جزاء كفرهم . وأصل الجحمة شدة تأجج النار والتهابها ، وتقول : جَحَمَ وجهه من شدة الغضب ، وذلك إذا ثارت حرارة القلب فالتهب وجهه ، استعارة من جَحْمَةِ النار التى سلف ذكرها ، وقوله تعالى (يَصْلَوْنَهَا) معناه يقاسون حرها ، و(يوم الدين) هو يوم القيامة ، سمى بذلك لأنه اليوم الذى يجازى فيه كل إنسان بعمله ، والدين الجزاء على ماسبق قريباً . وقوله تعالى : (وماهم عنها بغائبين) معناه أنهم لا يفارقون هذه الدار ولا يغيبون عنها بل هم ملازمون لها لأنها مأواهم ومستقرهم بسبب كفرهم ، وهذا ظاهر كل الظهور ؛ لأن الفجار فى هذه الآية هم الكفار ، وقد سبق فى السورة الماضية وصفهم بقوله : « أولئك هم الكفرة الفجرة » فان أريد من الفجار ما يعم الكفار والعصاة ، وذلك بعيد ، كان معنى قوله تعالى « وما هم عنها بغائبين » أنهم ليسوا غائبين عن استحقاق دخولها والعذاب فيها ، وذلك أعم من أن يظلوا فيها أبدا أو يخرجوا منها بعد التعذيب فيها على قدر الاستحقاق .

وقوله تعالى : (وما أدراك ما يوم الدين) يقال : هو خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم ، والأحسن من ذلك أنه خطاب للانسان الذى كان الخطاب معه قبل ذلك فى قوله تعالى : « يأيها الإنسان ماغرك بربك الكريم - الآيات » والمراد به التعجب من حاله وزجره عن التغاضى عن ذلك اليوم وإهمال شأنه والارتكان على عفو ربه وكرمه وصفحه ، وكأنه قيل له : إن أمرك أيها الانسان لعجيب غاية العجب ، وإن حالتك لحالة خليقة بأن يُضْحَكَ منها ؛ فأنت لاهٍ عن يوم الجزاء ، غير مُبَالٍ به ، وكنت خليقاً بأن تتعرف حقيقته وتتبين حقيقة ما يكون فيه ؛ لتأخذ لنفسك الحيطة وتدبر شأنها ، والتكرير فى قوله سبحانه :

ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ [١٨] يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا

(ثم ماأدراك مايوم الدين) لتعظيم شأن هذا اليوم ، وتأكيد أن الإنسان ما عرف كنهه على الوجه الذى ينبغى أن يعرفه عليه ؛ لأنه لو عرفه على ذلك الوجه للانت قناته وسَلِسَ قياده ورجع إلى ربه تائباً وعاوده مستغفراً طالبا الصفح عما قدمته يداه ، ثم عكف على الطاعات وداوم على إرضاء بارىء النَّسَمَات مُبْدِع الأرض والسماوات . وقوله تعالى : (يوم [١] لا تملك نفس لنفس شيئاً) بيان لحقيقة ذلك اليوم ببيان حال الناس فيه ، وأنهم يومئذ مشغولون بأنفسهم ؛ فليس هناك خلة ولا صداقة ، ولا يسأل حميم حميما ، وذلك كقوله تعالى : « واتقوا يوماً لا تجزى نفس عن نفس شيئاً » وكقوله سبحانه فى سورة الصاخة : « يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه ؛ لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه » فهو اليوم الذى لا محاباة فيه ولا مواساة ، ولا تنفع فيه خُلَّة ولا صداقة ولا قرابة ولا مودّة لا يجد المرء فيه ما يعوّل عليه أو يركن إليه إلا عَمَلَه الذى قدمته يداه ؛ فأما من عمل الصالحات وآمن برب البريّة وصدّق رسوله إلى الناس كافة فهو فى جنات النعيم ؛

(١) قرىء فى قوله تعالى : « يوم لا تملك نفس لنفس شيئا » برفع « يوم » وهو ظاهر فيعرب بدلا من « يوم » فى قوله « مايوم الدين » أو خبر مبتدأ محذوف ، وتقدير الكلام : هو يوم لا تملك نفس لنفس شيئا . وقرىء بالنصب ، فاختلف المفسرون فيه : فقال قوم : هى حركة إعراب وانتصابه على الظرفية لفعل محذوف ، وتقدير الكلام : يدانون يوم لا تملك ، أو اذكروا يوم لا تملك ، وقال قوم : هى فتحة البناء ، وهو مبنى على الفتح فى محل رفع إما على البدل أو على أنه خبر مبتدأ محذوف كوجهى قراءة الرفع . والظرف إذا أضيف إلى الفعل المعرب قد يبنى ، وإن لم يكن البناء هو الأكثر فى اللسان العربى فى مثل هذه الحالة . فافهم ذلك .

وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ [١٩]

وأما من عمل السيئات وجحد خالقه وعاند رسوله فهو فى نار جهنم خالدا فيها ؛ يجفوه أولياؤه ، ويتبرأ منه سادته وكبراؤه ، ويخذله شفعاؤه ، ولا يدنو منه أقرباؤه . وأما قوله تعالى : (والأمر يومئذ لله) فهو تقرير وتأكيد لما فُهِمَ من الجملة السابقة ، والمعنى أن الأمر فى ذلك اليوم لله القاهر فوق عباده وحده لا وزير له ولا مشير عليه ، وليس هناك أحد يحمى أحدا ، ولا يُغنى أحدٌ عن أحد شيئا ، وليست هناك نُصْرَةٌ لأحد كما تكون فى الدنيا ، وقد حذَّر الله تعالى وأوعد ، كما أنه سبحانه قد منّى ووعد ، بما أنزله على لسان رسله من الآيات والحكمة ، وهو الصادق فى وعده العدل الحكيم فى وعيده ؛ فليس لأحد من حُجَّة يحتج بها هناك ، ولا تعِلَّة يتعلل بها ؛ كما أنه لامهرب لعامل من الجزاء الذى أعدّ له على عمله ، استأثر الله تعالى بالأمر كله ، و بيده وحده تصريف الأمور ، هو مالك يوم الدين المهيمن على عباده أجمعين ، ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ، ربنا واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ، ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد . والله سبحانه وتعالى أعلى وأعلم .

سورة المُطَفِّفِينَ *

[وهى مَكِّيَّة فى قول كثيرين ، وعندهم أنها آخر سورة نزلت بمكة ، وآياتُهَا ست وثلاثون آية ، وقد نَزَلت بعد العنكبوت][1]

---

* وقد يقال لها « سورة التطفيف »

لاخلاف فى عدد آى هذه السورة ؛ فكل العلماء على أن عدد آيها ست وثلاثون آية ، وقد اختلفوا فى مكان نزولها : والمروى عن ابن مسعود والضحاك أنها مكية ، والمروى عن الحسن وعكرمة أنها مدنية ، واختلفت الرواية عن ابن عباس : فروى عنه أنها آخر ما نزل بمكة ، وروى عنه أنها أول ما نزل بالمدينة ، وروى عنه أنها مكية إلا ثمان آيات من آخرها . ويقال : إنها مدنية إلا ست آيات من أولها . ومن الناس من قال : إنها نزلت بين مكة والمدينة .

التَّطْفِيف : تقليل نصيب المكيل له وعدمُ إيفائه حقَّه . وأصله مأخوذ من الطَّفِيف ، وهو الشيء النَّزْرُ القليل الذى لايعتد به ، وذلك لأن الذى يكيل ويبخس الكيل ولا يوفيه إنما يطلب الغنى بالطفيف البخس .

كان التجار يطفِّفُون المكيال ويَبْخَسُونه ولا يُوفُونَ حَقَّ المشترى ، كما كانت لهم بُيُوعَات تشبه القِمَار ؛ ويروى أنه كان بالمدينة رجل يقال له أبوجهينة ، وكان لهذا الرجل كيلان أحدهما صغير والآخر كبير ، وكان يشترى من أصحاب الزروع والحبوب والثمار ، ويبيع للناس فى المدينة ؛ فكان إذا أراد أن يشترى اكتال لنفسه بالكيل الكبير ، وإذا باع كال للمشترى بالكيل الصغير ، هذا الرجل وأمثاله ممن امتلأت نفوسُهم بالطمع واستولى عليهم الشَّرَه

والجشع وحبُّ النفس ، فراحوا يستغلُّون حاجة النـاس و ينتهزون فيهم الفرَصَ و يتحيَّنُون الأوقات التى يستطيعون فيها أن يأخذوا أموالهم بغـير حق ، ولا وجهٍ مشروع ، أولئك هم المقصودون بهذا الوعيد الشديد والتبكيت اللاذع والتقريع المؤلم ؛ وأولئك هم الذين أمر الله تعالى رسوله الأمين أن يذكرهم بما عند الله من العذاب العظيم إن استلانوا ماهم عليه واستمروا فى طريقهم غير مبالين ولا خائفين ، وأولئك هم الذين توعَّدهم النبى صلى الله عليه وسلم وتهددهم بقوله : « خمسٌ بخمسٍ : ما نَقَضَ قوم العهدَ إلا سَلَّطَ الله عليهم عدوَّهم ، وما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر ، وما ظهرت فيهم الفاحشة إلا فشا فيهم الموت ، ولا طففوا الكيلَ إلا مُنِعوا النباتَ ، ولا منَعُوا الزكاةَ إلا حُبِسَ عنهم المطرُ »

وقد بين الله تعالى عمل المطففين الذى استحقوا عليه هـذا الوعيد بقوله :

« الذين إذا كتالوا على الناس يستوفون ، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون »

يعنى أنهم إذا كان لهم عند الناس حق فى شىء من المكيلات فأرادوا أخذه منه لم يقبلوا أن يأخذوه إلا وافيا كاملا غير منقوص منه شىء ، وإذا كان لأحد من الناس عندهم شىء فطالبهم بأدائه ثم أرادوا أن يؤدوه له أعطوه حقه ناقصا غير وافٍ

وقوله تعالى : « كالوهم » أصله كالوا لهم ؛ فحذف حرف الجر وأوصل الفعل إلى المفعول بنفسه ، وهذا هو المسمى بالحذف والايصال ، وله أمثلة كثيرة فى شعر العرب ، من ذلك قول الشاعر :

وَلَقَدْ جَنَيْتُكَ أَكْمُؤًا وَعَسَاقِلاً وَلَقَدْ نَهَيْتُكَ عَنْ بَنَاتِ الْأَوْبَرِ

يريد : ولقد جنيت لك ، فحذف اللام ثم أوصل الفعل إلى الضمير بنفسه . وقد يكون على تضمين كال معنى أعطى ؛ فان الفعلَ قد يُضَمن معنى فعل آخر ليتعدَّى تعديته

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ [١] الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ [٢]
وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ [٣]

ولا تتوهَمَنَّ أن التطفيف لا يكون إلا فى الكيل أو الميزان ، وأن الوعيد المستحقَّ عليه لا يكون إلا لمن بخسَ الكيل والميزان ، فان هذا جار فى كل شىء يتحقق فيه هذا المعنى ؛ فالرجلُ الذى إذا استأجر عاملاً ليعمل له وقف أمامه يراقبه ويطالبه بتجويد عمله وأن يقضى وقته كله مشتغلا به ، ثم إذا كان هو أجيرا لم يراقب ربه فى العمل ولم يقم به على الوجه الذى تشارط عليه والذى ينبغى أن يقوم به . مثل هذا الرجل واقع تحت طائلة هذا الوعيد ، مستوجب لأليم عذاب الله تعالى ، غير خارج من توبيخ الله ورسوله ، مهما يكن عمله : عظيما كان أو حقيرا جليلا أو دقيقا ؛

(ويل) الوَيْلُ فى الأصل العذابُ الأليم ، ويقال : هو الحزن ، ويقال : هو الهلاك ، ويقال : هو الشر الشديد . وقيل : سُمِّىَ به وادٍ فى جهنم (المطففين) هم الذين يَبْخَسُونَ فى الكيل أو الوزن ، وقوله تعالى : (الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ، وإذا كالوهم أو وزنوهم يُخْسِرون) صفة كاشفة لحال الذين نزلت فيهم هذه الآية ، وبيان لما كانوا يصنعونه ، والمعنى أنهم إذا أخذوا من أحد شيئا بشراء أو نحوه فان كان مكيلا أخذوه وافيا وافرا وإذا أخذ منهم أحد شيئا فكالوا له أو وزنوا ينقصونه حقه ، ولا يؤدونه كاملا ، وكلمة «على» فى قوله تعالى: «إذا اكتالوا على الناس» بمعنى مِنْ ، يعنى إذا اكتالوا منهم ، ووُضِعَتْ على مكانَ من إما لتضمين « اكتالوا» معنى استولوا ، وإما للاشارة بها إلى أن هذا الاكتيال

أَلَا يَظُنُّ أُولَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ [٤]

مُضِر مُجْحِف بالناس واقع شَرُّهُ عليهم ، فان قلت : إذا كان معنى الصفة الأولى أنهم إذا أخذوا حقهم من الناس أخذوه وافياً وافرا فما معنى ذمهم على ذلك ؟ وهل يُطلب من الإنسان أن يأخذ حقه من غيره ناقصا ؟ وأن يتساهل فى حقوق نفسه حتى لا يكون ملُومًا أو مُعذبا ؟ قلنا : إن اللوم والوعيد إنما جرى على هؤلاء الناس لا باعتبار كل صفة على انفرادها سَبَبًا ، بل باعتبار مجموع الصفتين معًا ، ولا شك أن من تمام شناعة الصفة الثانية ذكر الصفة الأولى ؛ لبيان أنهم ماكانوا يخسرون الكيل والميزان لأن ذلك من دأبهم وديدنهم فى كل ما يكيلون أو يزنون ، وإنما كان ذلك منهم إذا همُّوا باعطاء الناس حقوقهم ، فأما إذا أرادوا أن يأخذوا حق أنفسهم فحينذاك يعرفون وفاء الكيل والميزان ؛ وقد يقال فى جواب ذلك إن هؤلاء ما كانوا يكتفون بايفاء أنفسهم حقها ، بل كانوا يحاولون بأنواع الخُدَع أن يزيدوا فيه بكَبْسِ المكيل ودعدعة المكيال ونحو ذلك ؛ وعلى هذا يكون الذم والوعيد على كل صفة من الصفتين باستقلالها . ولعل الاقتصار على الاكتيال فى الصورة الأولى وذكر الكيل والوزن جميعا فى الصورة الثانية للاشارة إلى أنهم كانوا لا يأخذون حقوقهم إلا بالكيل سواء فى ذلك أكانت مما يكال أم يوزن لأنهم يتمكنون بالكيل تمام التمكن من الزيادة ، وأنهم حين يؤدون إلى الناس كانوا يؤدون بالكيل تارة ، و بالوزن تارة أخرى ؛ لتمكنهم من النقص فى النوعين جميعاً . وقوله تعالى : (ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم) معناه أن من يعمل هذا العملَ الشديدَ الشناعةِ لا يمكن أن يكون مُعْتَقِداً أن للناس مَرْجعاً يرجِعُون فيه إلى ربهم العالم بخبيئاتِ الأمور المطلع على ماتكنه الصدور المحصى على خلقه جميع مايعملون ، لأن من اعتقد هذه العقيدة منعته من ارتكاب هذا وما

هو أدنى منه ضررا ؛ فهذا الكلام استئناف ورد لتهويل ما كانوا يرتكبون من تطفيف الكيل والوزن ، والهمزة للإنكار ، وتدل مع ذلك على التعجيب من حالهم ، و«لا» التي بعدها نافية وليست « ألا » كلمة واحدة مثلها فى قوله تعالى: « ألا إن أولياءالله لاخوف عليهم ولا هم يحزنون » وقوله تعالى : « ألا إنهم هم السفهاء » فان «ألا » فى الآيتين الكريمتين كلمة واحدة ، وهى حرف يُستفتح به الكلام ، و« يظنُّ » فى الآية التى نحن بصددها ، قد تكون بمعنى يعتقد ، وقد تكون بمعنى يُدْرِكون الراجح من الطرفين ، وهذا أبلغ (١) ؛ فإن المعنى عليه إن هؤلاء الناس لوكانوا يظنون أن الله تعالى باعثُ الخلقَ ومجازيهم لما أقْدَمُوا على عملهم هذا ، فإذا اعتقدوا أن الله يبعث الخلق ويحاسبهم كان تركهم لهذا الفعل أولى . وقوله تعالى « أولئك » إشارة إلى المطففين ، وكان مقتضى الظاهر أن يقول : ألا يظنون أنهم مبعوثون ، فيعبر بالضمير ، ولكنه وضع اسم الاشارة موضع الضمير للاشعار بأنهم مقصودون مع وَصْفهم الذى وُصِفوا به فيما سبق من الكلام والذى يؤدى هذا القصد إنما هو اسم الاشارة لا الضمير ، وأيضا ليؤذن الاتيان باسم الاشارة بأنهم ممتازون بهذا الوصف القبيح عن الناس جميعا ، وأنهم متفردون به أكمل تفرد مشهورون به ظاهرون للناس حتى ليشار إليهم إشارة حسية ، ثم للدلالة على أنهم بعيدون عن رحمة الله ورضوانه بما فى اسم الاشارة من دلائل البعد ، وقوله تعالى: « ليوم عظيم » إنما وصف هذا اليوم بالعظم لعظم ما فيه من العرض على الله ، وحساب الخلائق على ما كان منهم ، والفصل بينهم ، وإنزال كل واحد منهم منزلته التى تليق بعمله . ومن الناس من قال : الكلام على حذف مضاف ،

---

(١) عن الزمخشرى أنه سبحانه هؤلاء جعل أسوأ حالا من الكفار ، لأنه نفى عن هؤلاء الظن بالبعث ، مع أنه أثبت الظن للكفار فى قوله سبحانه عن لسان الكفار : « إن نظن إلا ظنا »

يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ [٦]

وتقدير الكلام : ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون لحساب يوم عظيم .

وقوله تعالى : (يوم (١) يقومُ الناس لرب العالمين) معناه هذا اليومُ العظيم هو اليومُ الذى يقف الناس فيه للعَرْضِ على خالقهم ، ويطول بهم الموقف إجلالا لعظمة ربهم ، وإكبارا لجلاله ، وإعظاما لمقامه جلت عظمته ؛ ليحكم الله تعالى فيهم حُكْمَهُ ، ويقضى فيهم قضاءه ، وفى هذا الكلام من البيان البليغ لعظم الذنب وتفاقم إثم التطفيف ما ليس يخفى على متدبر ، انظر إلى اعتباره سبحانه المطففين كمن لا يظن أنه يُبْعَث ويُعْرَض على بارئه ، ثم انظر إلى الاتيان باسم الاشارة الدال على بعد درجتهم فى الشر وبلوغهم فيه المبلغ العظيم ، ثم انظر إلى وصف

(١) قرىء فى قوله تعالى « يوم يقوم الناس لرب العالمين » برفع « يوم » وبجره ، وبنصبه ؛ فأما الرفع فقراءة منسوبة إلى زيد بن على ، ومجازها على أنه خبر مبتدأ محذوف ، والتقدير هو (أى اليوم العظيم) يوم يقوم الناس . وأما قراءة الجر فهى قراءة حكاها أبو معاذ ، ووجهها أنه بدل من يوم فى قوله سبحانه « ليوم عظيم » وأما قراءة النصب فهى قراءة الأكثرين ، وقد اختلف العلماء فيها : فمنهم من ذهب إلى أن هذه حركة إعراب ، وأنه منصوب بفعل محذوف ، وقدره بعضهم أعنى ، وقدره آخرون اذكروا ؛ ومنهم من ذكر أن هذه فتحة بناء ، ثم اختلف هؤلاء فى محله : فذهب قوم منهم إلى أن محله رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف كوجه قراءة الرفع ، ومنهم من ذهب إلى أن محله جر على أنه بدل من اليوم المجرور السابق كما هو قراءة الجر ؛ وقد قدمنا لك مثل هذا الخلاف فى القراءة وفى التخريج فى سورة الانفطار (ص ٨٠) وبينا لك أن الظرف قد يبنى إذا أضيف إلى فعل معرب ، وأن بناءه فى مثل هذه الحالة ليس هو الوجه الكثير فى العربية . فاعرف ذلك .

كَلَّآ إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ [٧] وَمَآ أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ [٨]
كِتَابٌ مَّرْقُومٌ [٩]

يوم القيامة بالعظم ، ثم انظر إلى وصفه تعالى نفسه بربوبية العالمين ، فاذا نظرت إلى ذلك كله أدركت المراد وفهمت طرق الدلالة على أن هؤلاء قد ارتكبوا أعظم الأوزار وحملوا أثقل الآصار . وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنه أنه كان يمر بالبائع فيقول له : اتق الله تعالى وأوف الكيل فان المطففين يُوقَفُون يوم القيامة لعظمة الرحمن حتى إن العرق ليُلْجِمُهُمْ ؛ وعن عكرمة أنه كان يقول : أشهد أن كُلَّ كيال ووَزَّان فى النار ؛ فقيل له : إن ابنك كيال ووزان ، فقال : أشهد أنه فى النار . وإنما أراد المبالغة لعلمه بأن أكثرهم من المطففين . وقوله تعالى : (كلا) ردع عما كانوا عليه من التطفيف والغفلة عن البعث والحساب . وقوله سبحانه (إن كتاب الفجار لفى سجين) هو تعليل لردعهم أو تعليل لوجوب الارتداع عليهم ، فكأنه قال : إنه لا يقيم على ما أنتم عليه من التطفيف إلا من ينكر ما أوعد الله به من البعث والعرض عليه وعذاب الكفار والعصاة ، أو مَنْ عنده مُتَمَسَّك يتمسك به ليدفع عن نفسه العقاب ، فكفوا عما أنتم عليه ، وارجعوا إلى الله القادر على كل شىء لأن الفجار يُحَاسَبُون على أعمالهم ، وقد أعد الله تعالى لهم كتابا أحصى فيه جميع أعمالهم فلم يترك منها صغيرا ولا كبيرا إلا سجّله عليهم ليحاسبهم به ، والفجار : جمع فاجر ، وهو الخارج عن حدود الشريعة ، وقد اختلف فى المراد به ههنا ؛ فقيل : المراد به الكفار خاصة ، وقيل : المراد به ما يعم الكفار والعصاة ؛ وسِجِّين ـ بكسر السين وتشديد الجيم ـ المختار أنه عَلَمٌ على الديوان الجامع الذى دُوِّن فيه أعمال الفجرة من الثقلين وقوله سبحانه (وما أدراك ما سجينٌ كتابٌ مرقوم) يدل على ما ذكرنا ، وهو أن سِجِّينا اسمٌ للكتاب الذى دُوِّنَتْ فيه أعمال هؤلاء وأمثالهم ، وارتفاع

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ [١٠] الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ [١١]
وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ [١٢] إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ
أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ [١٣]

« كتاب » إما على أنه بدل من « سجينٌ » و إما على أنه خبر مبتدأ محذوف. و «مَرْقُوم» اسم مفعول مأخوذ من «رقم الكتاب» إذا جعل له علامة ، والعلامة تسمى رَقْماً ، والمعنى أنه كتاب قد جُعِلَتْ له علامة يعلم بها كُلُّ من رآه أنه لا خير فيه . وعن ابن عباس والضحاك أن معنى « مرقوم » مختوم ، وأن هذه لغة حمير ، ويستعمل «مرقوم» فى معنى مكتوب . وقوله تعالى : (ويل يومئذ للمكذبين) المراد بالمكذبين الذين لهم الويل المكذبون بذلك اليوم العظيم كما يبينه قوله سبحانه (الذين يكذبون بيوم الدين) والدين كما مضى ذكره الجزاء ، ثم إنه سبحانه أخبر عن صفة من يكذب بيوم الدين فقال : (وما يكذب به إلا كل مُعْتَدٍ أثيم إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين) ومعناه أنه لا يكذب بيوم القيامة إلا من كان موصوفا بهذه الصفات الثلاثة : فأولى هذه الصفات كونه معتديا ، ومعنى ذلك أنه متجاوز منهج الحق . وثانية هذه الصفات أنه أثيم ، والأثيم : هو الذى يكثر من ارتكاب الآثام ، وهى المعاصى ، والصفة الثالثة من صفات المكذب بيوم الدين هى التى ذكرها سبحانه فى قوله « إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين » ومعناه إذا قرىء عليه القرآن قدح فى كونه مُنْزَلاً من عندالله إلى رسوله صلى الله عليه وسلم ، وزعم أنه أخبار الأولين أخذها النبى عن بعض الناس ، كما ذكر ذلك فى قوله جل شأنه : « وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون ، فقد جاءوا ظلما وزورا ، وقالوا أساطير الأولين اكْتَتَبَها فهى تُمْلَى عليه بُكْرَةً وأَصِيلاً ، قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات

كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ [١٤]

والأرض إنه كان غفورا رحيما » . وقال قوم : معنى قولهم « أساطير الأولين » أنها أباطيل ألقيت على آبائهم الأولين فكذبوها ولم تجز عليهم ، فلَسْنَا أوَّلَ من يكذب بها حتى تزعموا أن تكذيبنا بها يُعتبر عَجَلَةً وخروجا عن طريق الحزم والأخذ بالأحوط ؛ لأننا إنما تأسَّينا فى تكذيبها بآبائنا الذين سبقونا بذلك. والمعنى الأول أولى بالاعتداد به . وقوله تعالى (كلا) رَدْعٌ لكل معتد أثيم عما يقوله من الزور والبهتان ، وقوله سبحانه (بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) بيانٌ للسبب الذى أدَّى بهم إلى هذا القول وإنكارِ أن القرآن كلام الله أوحى به إلى رسوله الأمين ، فكأنه يقول : ليس الأمر كما يقولون من أن هذا الكلام أساطير الأولين ؛ بل إنما جرَّهم إلى هذا القول وجرَّأهم عليه أفعالهم التى دربوا عليها واعتادوها فصارت سببا لحصول الرَّين على قلوبهم فالتبست عليهم الأمور ، وعُمِّيَتْ عليهم وُجُوه الرأى ؛ فهم لا يميزون بين الأسطورة والحجة الدامغة ، ولا يفرقون بين الكذب والصدق الواضح ، ولا يُدرِكون وجوه الاختلاف بين الحق الذى لا شبهة فيه والباطل الذى لا ثبوتَ له.. والرَّيْنُ : الغَلَبَةُ ، تقول : ران على قلبه ، إذا غلب عليه ، وتقول : رَانَتِ الخمر على عقل السكران ، وتقول : ران الموتُ على فلان فذهب به ، وقد ورد فى القرآن العزيز الرَّين ، والطَّبْع ، والإقفال ، وعُديت كلها إلى القُلُوب ، فأما الرين ففى هذه الآية ؛ وأما الطبع ففى آيات كثيرة منها فى سورة النساء قوله تعالى : « فبما نقضهم ميثاقَهُم وكُفرهم بآيات اللهِ وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غُلْف ، بل طَبَعَ الله عليها بكفرهم ، فلا يؤمنون إلا قليلا » وقوله تعالى فى سورة النحل : « أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون » وقوله

تعالى فى سورة محمد : « ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفا ؟ أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم » وقوله جل ذكره فى سورة الأعراف : « أولم يَهْدِ للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون » وأما الإقفال ففى قوله تعالى فى سورة محمد : « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » قال أبو معاذ النحوى : الرَّين أن يَسْوَدَّ القلب من الذنوب ، والطَّبْع أن يطبع على القلب ، وهو أشد من الرين ، والإقفال أشد من الطبع وهو أن يُقْفَلَ على القلب. وقال الزجاج : ران على قلوبهم بمعنى غطّى على قلوبهم ، يقال : ران الذنب على قلبه يَرِين رَيْنًا ، إذا غشيه ، والرين كالصدأ يغشي القلب ، ومثله الغَيْنُ . وقد رُوى أن العبد كلما أذنب ذنبا حصلت فى قلبه نُكْتةٌ سوداء حتى يسودَّ القلبُ كله ، وإيضاح ذلك أن الانسان إذا واظب على عمل من الأعمال وجعله دَيْدَنَه فانه يصبح بعد ذلك عادة له قلما يستطيع التخلص منها ، ثم تتمكن منه هذه العادة حتى تصير خُلُقًا وَطَبْعًا ؛ فاذا استمر امرؤ على إتيان نوع من الذنوب حصلت عنده ملَكةٌ نفسية تحمله على الاتيان بذلك الاثم من غير تدبُّر ولا روِيَّة . ولاشك أن كل ما يشغل العبد عن ربه فهو ذنب ، وكل ذنب ظُلْمَةٌ ، فالذنوب كلها ظُلُماتٌ وَسَوَاد ؛ ولا شك أن لكل مَرَّةٍ من المرات التى قارَفَ العبدُ فيها الذنبَ قبل أن يُصْبح ذلك ملَكةً عنده مَدْخَلاً فى تكوين هذه الملَكة ، فهذا معنى أنه كلما أذنب ذنبا حصلت فى قلبه نُكتة سوداء ؛ ثم ليس هناك من رَيْب فى أن بَعْضَ الطبائع أو ما يصير طبائعَ يمكن ببعض العلاج النفسى تغييره ، وبعضها يكون محتاجا إلى علاج أقوى وزمن أطول ، وبعضها يكون مُسْتَعْصِيًا ؛ فملَكة الذنب التى تزول ببعض العلاج النفسى هى التى تسمّى رَيْنًا ، وملَكة الذنب التى تحتاج إلى طول مِرَاس وشدة معالجة ودوام رياضة هى التى تسمى طَبْعًا ،

كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ [١٥] ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ [١٦] ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ [١٧]

وملكة الذنب التي يستعصى علاجها ويُشق استئصالها ويصعب تغييرها هى التى تسمى قفلاً ، فتدبر ذلك وافهمه ، ثم انظر إلى قول القاضى : ليس المراد من الرين أن قلبهم قد تغير وحصل فيه منع ، بل المراد أنهم صاروا لإيقاع الذنب حالا بعد حال متجرئين عليه ، وقويت دواعيهم إلى ترك التوبة وترك الإقلاع ، فاستمروا وصعب الأمر عليهم ، ولذلك بَيَّنَ سبحانه وتعالى أن علة الرَّين كسْبُهم .

ثم إنه سبحانه وتعالى بعد أن بين منزلة الفجار والمكذبين بيوم القيامة ، وبعد أن شرح سبحانه صفات هؤلاء المكذبين ، وأوضح العلة التى حَجَبَتْهُم عن فَهم ما جاءت به آيات الكتاب المبين ، وأنها تلك الملكات السيئة والعادات القبيحة المرذولة التى اكتسبوها بسبب أعمالهم الخبيثة حتى ضَرِيت أنفسهم على القبيح واعتادت فِعْلَهُ ؛ أخذ جَلَّ ذكره فى دَحْض فِرْيَةٍ أخرى من مُفتَرياتهم كانوا يقولونها ويكثرون من تردادها ، وحاصلها أنهم سيكونون يوم البعث ، إن كان ما يحدِّثُ به النبي صحيحا ، فى المنزلة العليا والدرجة الرفيعة ، وقد حكى الله تعالى هذه الفرية فى سورة فُصِّلَت فقال : «لا يسأم الانسان من دعاء الخير ، وإن مَسَّهُ الشر فيَؤُسٌ قنوط ، ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضَرَّاء مَسَّتْهُ ليقولن هذا لى ، وما أظن الساعة قائمة ، ولئن رُجعت إلى ربى إن لى عنده لَلْحُسْنَى ، فلنُنَبِّئَنَّ الذين كفروا بما عملوا ، وَلَنُذِيقَنَّهُمْ من عذاب غليظ » ؛ وقد بَيَّنَ الله جلت قدرته فى الآية التى نحن بصددها منزلة هؤلاء الكفار عنده يوم القيامة فقال : (كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ، ثم إنهم لصالوا الجحيم ، ثم يقال هذا الذى كنتم به تكذبون) فقوله

كَلَّآ إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ [١٨] وَمَآ أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ [١٩]
كِتَابٌ مَرْقُومٌ [٢٠] يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ [٢١]

سبحانه « كلا » معناه ارتدعوا عما تقولون من أنكم يوم القيامة تكونون من المقربين إلى الله تعالى . ومعنى قوله « إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون » أنهم يومئذ لايجدون رَحْمَتَه ولا ينالون رضاه ولايُدْركون مازعموا لأنفسهم من القربى والدرجة العالية الرفيعة ، وهذا هو المراد بقوله جل ذكره : «ولايكلمهم الله ، ولاينظر إليهم ، ولايزكيهم » ومعنى قوله تعالى «ثم إنهم لصالوا الجحيم» أنهم لما صاروا محجوبين فى عرَصَات القيامة عن الدنو من الله و إدراك أمانيهم التى كانوا يتمنونها فعند ذلك يؤمر بهم إلى النار فيدخلونها و يَصْلَوْنَ سعيرها و يجدُون حرّها ولهيبها ، ثم إذا أُدْخِلوا النار أقبلت عليهم ملائكة العذاب يوبخونهم بتكذيبهم بالبعث والجزاء ، ويقولون لهم ماحكاه سبحانه بقوله « هذا الذى كنتم به تكذبون » أى هذا العذاب والجزاء الحق الذى كنتم إذا سمعتم خبره من الرسول الصادق كذّبتموه وزعمتم أنكم لن تبعَثوا ، وأنكم إذا بعِثتم كنتم فى أرفع الدرجات وأعلى المنازل ، وقد رأيتم الآن حقيقة الأمر وعاَيَنْتُمْ بأنفسكم أن ما كان يقوله النبي هو الحقّ ؛ فذوقوا العذابَ الذى كذبتم خبره

ثم إنه سبحانه لما ذكر حال الفجار والمطففين ، و بين منزلتهم عند الله يوم القيامة أتبعه بذكر حال الأبرار الذين آمنوا بربهم ورسوله وصدّقوا بما جاء عن خالقهم وعملوا الخير فى الحياة الدنيا ؛ فقال سبحانه : (كلا إن كتاب الأبرار لفى عليين ، وما أدراك ماعليون ، كتاب مرقوم يشهده المقربون) وقد اختلف العلماء فى المراد بعليين كما اختلفوا فى المراد بسجين فى بيان حال الفجار ، والذى نريد أن ننبهك إليه وأن نَقِفَكَ عليه هو أن العلو والفسحة والضياء والطهارة يراد بها فى لسان

إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ [٢٢] عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ [٢٣] تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ [٢٤]

العرب السعادة وحسن الحال ، وأن السفل والضيق والظلمة ونحو أولئك مما يراد به عند العرب الشقاوةُ وسوء الحال ؛ فعلى هذا المقصود من وضع كتاب الفجار فى أسفل السافلين وفى سجين وفى أضيق المواضع إذلالُ الفجار وتحقير شأنهم ؛ فكتاب أعمال الفجار مُودَع فى أسفل السافلين ، والمراد من وضعه فى هذا المكان إذلال أصحابه وامتهانهم و بيان حقارة شأنهم وأنهم لايستحقون أن يُؤْبه لهم أو يُعْنى بأمرهم ، وكتاب الأبرار مودع فى أعلى الأمكنة وهو بحيث يشهده المقربون من الملائكة ، والمراد من جعله فى هذا المكان إجلالهم وتعظيم شأنهم و بيان أنهم بالمنزلة التى يُعْنَى بأمر أصحابها . واعلم أن سجينا وعليين مكانان عند الله أولهما فى نهاية السُّفل وضَعَة المنزلة وثانيهما فى غاية العلو ورفعة المنزلة ، كما يشهد بذلك كتاب الله تعالى ، وليس لك أن تبحث فيما وراء ذلك مما ستره الله عنك وعلم أن الخير لك فى ألا تدرك كنهه على وجهه الذى هو عليه ، ولو علم أن فى ذكر تفاصيل أحواله خيراً لك لَبيَّنَهُ ، فآمِنْ به على الوجه الذى حدَّده الكتاب الكريم ولا تحاول الوصول إلى مافوق هــذا القدر فتزل قدمُكَ ويدحض عملك .

ثم إنه سبحانه وتعالى بعد أن بين منزلة كتاب الأبرار وعَظّم من شأنه ، وذلك يَدُلُّ — كما ذكرنا — على رفعة منزلة هؤلاء الأبرار وعلو درجتهم ؛ أخذ فى تفصيل حالهم الذى أشْعَرَ به ذكر منزلة كتابهم ، فقال : (إن الأبرار لفى نعيم ، على الأرائك ينظرون ، تعرف فى وجوههــم نضرة النعيم ،

يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ [٢٥] خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ [٢٦]

يسقون من رحيق مختوم ختامه مسك ، وفى ذلك فليتنافس المتنافسون ، ومزاجه من تسنيم ، عينا يشرب بها المقربون) والنعيم : كل مافيه لذة وخَفْضُ ودَعة وراحة ، وليس فيه ألم ولا عناء ، وضده البؤس . والأرائك : جمع أريكة ، وهى السرير فى الحجلة ، والحَجلة شبه القبَّة ، ولا يسمى السرير أريكة إلا إذا كان كذلك . وقال الحسن : كنا لا ندرى ما الأريكة حتى لقينا رَجُلاً من أهل اليمن أخبرنا أن الأريكة عندهم ذلك ، ومعنى قوله تعالى « ينظرون » أنهم ينظرون إلى ربهم ، على حسب ما قال سبحانه : « وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة » . وأما قوله سبحانه « تعرف فى وجوههم نضرة النعيم » فمعناه أنك إذا نظرت إليهم أدركت أنهم أهل نعمة بسبب ما ترى فى وجوههم من القرائن الدالة على ذلك ؛ فضَحِكُ وجوههم واستبشارهم يدلان الناظرَ إليهم على ذلك ، وقد قال سبحانه : « وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة » والرحيقُ فى قوله تعالى : « يسقون من رحيق مختوم » هو الخمر الذى لا غش فيه ولا يصيب شاربه خُمار ولا يناله منه أذى ، وهو الذى وصفه الله تعالى بقوله : « لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون » وقد وصف الله سبحانه هذا الرحيق بثلاثة أوصاف : الوصف الأول قوله سبحانه « مختوم » ومعناه أنه قد خُتم عليه تكريماله وصَوْناله من الابتذال ، على ما جرت به العادة من ختم الانسان وإغلاقه على ما يكرم ويُصَان . وهذا لا ينافى ما قد ذكره الله تعالى بقوله « وأنهار من خمر لذة للشاربين » لأنه لا مانع من أن يكون هناك نوعان من الخمر : أحدهما مختوم عليه ، والآخر يجرى فى الأنهار لا ختم عليه ، ويكون الثانى مع كونه لذة للشاربين أقل من الأول .

وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ [٢٧] عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ [٢٨]

والوصف الثانى من أوصاف الرحيق ما ذكره سبحانه بقوله « ختامه مسك » ومعناه أن الذى يختم به رأس قارورة هذا الرحيق هو المسك ، عوضا عن الطين الذى يختم به رءوس القوارير فى الدنيا ، ويقال: معناه أن عاقبة شربه أن تظهر من شاربه ريح المسك ، والمراد لذاذة المقطع وذكاء الرائحة وأرَجُها مع طيب الطعم ، وهذا فى مقابل ما يكون من الريح الكريه والطعم المر البشع وصعوبة المَسَاغ فى الدنيا وقوله تعالى « وفى ذلك فليتنافس المتنافسون » المراد منه فى ذلك النعيم فليرغب الراغبون بالمبادرة إلى طاعة ربهم وَالجَرْى على مقتضى أمره ؛ وأما قوله سبحانه وتعالى : (ومزاجه من تسنيم) فالمِزَاجُ : الشىء الذى يمزج بغيره ، ويقال له مِزْج أيضا ، والمَزْجُ خلط أحد الشيئين بالآخر ، وأصل التَّسْنِيم مصدر قولك : سَنَّمْتُ الشىء ، إذا رَفعْتَهُ ، وهذه المادة تدل على العلو والارتفاع ؛ فمن ذلك سَنَام البعير ، لأعلى شىء فيه ، ومن ذلك قولك : تَسَنَّمْتُ الحائطَ ؛ إذا عَلَوْته ، وقد ذكر المفسرون أن فى الجنة عَيْناً يقال لها تسنيم ، وأنها سميت بذلك لأن ماءها أرفع شراب فى الجنة ، أو لأنها تأتيهم من فوق ، أو لأنها تعلو على كل شىء تمر به لكثرة مائها وسرعته ، ويدل لما ذكروه قوله تعالى : (عينا يشرب بها المقربون) فإن «عينا» منصوب بفعل مقدر ، وأصل الكلام عنيت عينا يشرب بها المقربون ، وقد اعتاد أهل الدنيا إذا شربوا الخمر أن يمزجوها بالماء ونحوه ، فذكر لهم الله تعالى أنهم فى الآخرة يشربون رحيقاً موصوفا بما ذكره من الصفات ، ثم بين لهم أنهم يمزجون هذه الخمر بما تجيئهم به العينُ العاليةُ القدر إذا ما شاءوا أن يمزجوه ؛ فهذا كلام يجرى مجرى ما تعارفه أهل الدنيا ، وإن تكن الأشياء فى

إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ [٢٩]
وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ [٣٠] وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ

الآخرة أرق وأكمل وأفضل ، وليس يدانيها شيء مما فى هذه الحياة الدنيا ، ولا تشاكل بين ما هنا وما هناك إلا فى التسمية ؛ فأما الخصائص والأعراض والصفات فالفرق بينهما بعيد ، والبَوْنُ شاسع ؛ واعلم أن الله سبحانه وتعالى قد وصف النعيم الذى أعده للأبرار فى دار كرامته بما تتطلعُ إليه النفوس وتتوثَّبُ إلى الحصول عليه ونَعَتَهُ بالنعوت التى تدفع سامعها إلى التَّشَوُّف إليه والرغبة فيه ؛ ليكون ذلك الوصف حضًّا للذين يعملون الصالحات على الاستزادة من أعمالهم والاستدامة عليها ، ويكون مع ذلك حثًّا لهم المُقَصِّرِين ، واستنهاضا لعزائمهم ، وتنشيطاً لهم على أن يدْأَبُوا ويُوَاصِلُوا ويحرصوا على التزوُّد من صالح الأعمال ليكون لهم مثلُ ماهؤلاء الذين استحقوا هذه المنزلة ، وفى هذا من تحزين العُصَاةِ المُصِرِّين على عصيانهم والابلاغ فى إيلام أنفسهم ما فيه ؛ فان العدو يَسُوءه أن يرى عَدُوَّهُ فى نعمة أو يَسْمَعَ أنَّ النعمة تنتظره . وانظر إلى قوله سبحانه «وفى ذلك فليتنافس المتنافسون » وإيقاعه هذه العبارة اعتراضا بين أوصاف الرَّحيق تُدْرِكْ ماتحمله هذه الآيات من الترغيب فيما أعَدَّه سبحانه من أنواع النعيم .

ثم إنه سبحانه وتعالى بعد أن ذكر النعيم الذى هيأه للذين آمنوا به وبرسوله وعملوا ما كلفهم به من أعمال البر ، وذكر ما أُعِدَّ للفجار جزاء على مااجترحوه من السيئات ؛ أخذ سبحانه يبين ما كان الكفار يقابلون به المؤمنين فى هذه الحياة الدنيا ، وما سيقابل به المؤمنون الكفارَ يوم القيامة مُقَابِلَ ماصنَعُوه معهم ؛ فقال سبحانه فى بيان ما كان يصنعه الكفار مع المؤمنين : (إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون ، وإذا مروا بهم يتغامزون ، وإذا انقلبوا إلى أهلهم

انْقَلَبُوا فَكِهِينَ [٣١] وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ [٣٢]

انقلبوا فَكِهِينَ ، وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون) والمراد من الذين أجرموا أكابر المشركين : كأبى جهل ، والوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل السهمى ، وشيبة بن ربيعة ، وعتبة بن ربيعة ، وأمية بن خلف ، وأضرابهم ممن كانوا يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، ويستهزئون بهم ؛ ويحرضون عليهم سفهاءهم وغلمانهم ، وقد روى أن على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه جاء فى نفر من المسلمين فرآه بعض هؤلاء الكفار فسخروا منه وممن معه ، وضحكوا عليهم ، وتغامزوا بهم ، ثم رجعوا إلى بقية شيعتهم من أهل الشرك فحدثوهم عما صنعوا بعلى وأصحابه ، ففيهم نزلت هذه الآيات ، واعلم أن الله تعالى قد حكى عن الكفار أربعة أشياء من معاملاتهم القبيحة للمسلمين : الأول ماذكره سبحانه بقوله « إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون » والمراد به أنهم كانوا يسخرون منهم ويستهزئون بهم ويديهم ، والثانى ماحكاه سبحانه بقوله « وإذا مَرُّوا بهم يتغامزون » وَالْغَمْزُ معناه الاشارة بالجفن وبالحاجب بقصد الهزء والسخرية ، وقد يطلق الغمز على الْعَيْب فقد تقول : غمز فلان فلانا ، إذا عابه وذكره بسوء ، ويقولون : فلان لامغمز فيه ، يريدون أنه ليس عنده سبب يُعاب به ، ويقولون أيضا : ليس فى فلان غُمَيزة ، يريدون أنه ليس عنده مايعاب به . والمراد أن الكفار كانوا يعيبون المسلمين ويذكرونهم بالسوء ، ويشيرون إليهم استهزاءً ؛ والأمر الثالث ماذكره سبحانه بقوله « وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين » والمعنى أنهم كانوا يرجعون إلى أهليهم مُعْجَبين بما هم عليه من الشرك والضلالة والعصيان والاثم ، ويقال : المراد أنهم كانوا يتفكهون بذكر المسلمين والنقص منهم وَنَيْل أعراضهم بالسوء ؛ والأمر الرابع ماذكره الله تعالى بقوله « وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون » والمراد أنهم

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARY

وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ [٣٣] فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ [٣٤] عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ [٣٥]

يَرَوْنَ المسلمين على ضَلاَلٍ بتركهم التنعم بما يحضرهم من أسباب النعيم ابتغاء ثوابٍ لايُصَدِّقون به ، ولا يتيقنونه ، وذلك لغفلتهم وسوء تفكيرهم وفساد عقولهم ، ولأنهم لايتدبرون فى آيات الله تعالى التى نَصَبَهَا لتدل عليه وترشد إليه وتبين للغاوين مَنْهَجَ الحق وسبيل اليقين ؛ ثم أخذ سبحانه فى الرد على هؤلاء الكفار فقال سبحانه : (وما أرسلوا عليهم حافظين) يعنى أن الله تعالى لم يرسل هؤلاء الكفار رُقَبَاء على المؤمنين يَتَفَقَّدُونهم و يباشرون أعمالهم وَيَرَوْنَ مايصنعون ، وأعطاهم سُلْطَةَ محاسبتهم على أفعالهم و بيان صحيحها من باطلها ، فلا يسوغ لهم أن يعيبوا عليهم مايعتقدونه ضَلالا بمحض عقولهم الفاسدة . وإنما كلفهم الله أن ينظروا فى شؤون أنفسهم فيعدلوا منها مااعوج ، ويقيموا من أمرها ماتأوّد ، فاذا أصلحوا أمر أنفسهم كانوا قد قاموا بما عليهم فى هذه الحياة ، فأما أن يتركوا أنفسهم وهى أولى بالعلاج ثم يسيئوا التصرف في أمور غيرهم بعيب ماهو صَلاَحٌ ومنفعة وتقبيح ماهو المنتهى فى الحسن وجَمال العاقبة ؛ فذلك مالا ينبغى لهم أن يفعلوه . ثم أخذ سبحانه فى بيان مايكون يوم القيامة من المؤمنين بالنسبة إلى الكفار مُقَابِل ما كانوا يصنعونه بهم فى الدنيا ، وفى ذلك من تسلية المؤمنين على ماينالهم من الايذاء ، وتقوية قلوبهم ، وشدّ عزائمهم على التدرع بالصبر ؛ ماليس يخفى ، فقال سبحانه : (فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون على الأرائك ينظرون) والمعنى إن الكفار كانوا فى الدنيا يضحكون من المؤمنين بسبب مايرونه عليهم من آثار الفقر والبؤس ، ففى الآخرة يضحك المؤمنون من الكفار بسبب ماهم فيه من الضر والجهد والبلاء والعذاب الأليم ، وَيَرَى المؤمنون يومئذ أنهم قد باعوا الفانى من

هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ [٣٦]

حُطَامَ الدنيا والزائلَ من متاعها بالباقى من نعيم الآخرة والدائم من لذائذها ، وأنهم قد حصّلوا بتعب يسيرٍ فى الحياة الدنيا راحةً دائمةً ونعيما سرمدًا وجنةً عالية قطوفها دانية ؛ وأنهم أجلسوا على الأرائك ينظر بعضهم إلى بعض ، وينظر جميعهم إلى الكفار ويُشْرِفون عليهم وهم يُعذَّبون بأنواع العذاب ، ويرونهم وهم يصطرخون فيها ويَدْعُون بالويل والثبور ، ويَلْعَنُ بعضهم بعضا على أنه كان يُزَيِّنُ له الكفر ويغريه بالضلال ، وكم يتمنى أحدهم أن لو كان قد اتخذ مع الرسول فى الحياة الدنيا سبيلا ؛ وأنه لم يتخذ فلانا خليلا ، ولكنهم يُدَعُّون فى نار جهنّم ، ولا تغنى عنهم أصنامهم ولا جاههم شيئا ، وقوله تعالى : (هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون) استئناف كلامٍ يقوله الله تعالى للمؤمنين يوم القيامة ، وكأنه تعالى يقول : هل جازينا الكفار على ما كانوا يصنعون بكم من الضحك والاستهزاء بكم وبدينكم ، فهو كلام يزيد فى سرورهم لأنه يدل على تعظيمهم والاستخفاف بأعدائهم ، ويقال : هذه الجملة معمولة فى المعنى لينظرون ، وعُلِّق عن العمل فى لفظها بسبب حرف الاستفهام ، والمعنى أنهم ينظرون جزاءَ الكفار على ما كانوا يصنعونه بهم ، والوجه الأول أولى وأحسن . وثُوِّب : معناه أُثيب ، وأصله الثَّواب ، والأصل فى معنى الثواب الرجوع ، وتقول : ثاب فلان إلى رشده ، بمعنى رجع إليه ، وإنما قيل للجزاء على العمل ثواب لأنه يرجع إلى صاحبه نظير ما عمله من خير أو شر . والله سبحانه وتعالى أعلى وأعلم .

سورة الانشقاق *

[وهى مكية ، وآياتها خمس وعشرون آية ، ونزلت بعد سورة الانفطار] (١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ [١] وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ [٢]

---

* وقد يقال لها « سورة انشقت »

(١) قيل : لاخلاف فى أن هذه السورة مكية ، كما أنه لاخلاف فى عدد آياتها وأنها خمس وعشرون آية ، قال ذلك العلامة الشهاب ، لكن قال الألوسي : « وآيها ثلاث وعشرون آية فى البصرى والشامى ، وخمس وعشرون فى غيرهما » اهـ

(إذا السماء انشقت) معناه تشقق بالغمام ، كما روى عن ابن عباس ، وكما يشهد له قوله تعالى : « وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السماء بالغمام » والتعبير ههنا بانشقت يدل على كمال انقيادها لقدرة الله تعالى وطواعيتها لما يريد منها ، حتى كأنها مستغنية عن الشقّ ، وذكر الزجاج أنها تنشق من هَوْل يوم القيامة وعظيم ما يقع فيه من الأحوال التى يَنْفَدمعها الصبر ويقلّ عندها القَرَارُ ، وقوله تعالى : (وأذنت لربها) معناه استمعت له وانقادت لتأثير قدرته حين أراد أن يحصل لها الانشقاق ، وفى هذه العبارة تقرير لمعنى المُطَاوعة الذى أرشدناك إليه فى قوله سبحانه «انشقت» ومجىء أذِن بمعنى استمع كثير فى العربية ؛ فمنه قول قعنب بن أم صاحب :

صُمٌّ إذا سَمِعُوا خيرًا ذُكِرْتُ بِهِ ... وَإِنْ ذُكِرْتُ بِشَرٍّ عِنْدَهُمْ أَذِنُوا

ومنه قوله أيضاً :

إنْ يَأْذَنُوا رِيبَةً طَارُوا بِهَا فَرَحًا ... وَمَاهُمُ أَذِنُوا مِنْ صَالِحٍ دَفَنُوا

والتعبير عن الانقياد والطواعية والمبادرة إلى الامتثال والخضوع لتأثيرات

وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ [٣]

قدرته تعالى وإرادته بأذنٍ مجازٌ . وقوله تعالى : (وحُقَّتْ) معناه أنها حقيقة بأن تنقاد لارادة الله سبحانه ، جديرة بأن تخضع من غير ممانعة ولا إباء ، وذلك لأنها جسْمٌ ، وكل جسم فهو ممكن لذاته ، وكل شيء كان ممكنا لذاته فان الوجودَ والعدم بالنسبة إليه سواء ، ولا يمكن ترجيح أحد الأمرين إلا بسبب يقتضى ذلك الترجيح ؛ فحيث توجهت إرادة الله جل شأنه إلى أحد الطرفين وجب أن يترجح على صاحبه ؛ والمراد أنه لم يوجد فى جرم السماء ما يمنع من تأثير قدرة البارى جل وعلا فى شقها وتفريق أجزائها ، وأنها كانت فى قبول ذلك كالعبد الطائع الذى إذا ورد عليه أمر من جهة مالكه وسيده أنصت له وأذعن ولم يمتنع ، وهو بسبب ما فيه من خصال الطاعة والقبول جدير بأن يفعل ؛ ودلالة هذه الآية الكريمة على ما ذكرنا كدلالة قوله سبحانه : « فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين » وقوله تعالى : (وإذا الأرض مدت) اختلف العلماء فى تفسيره ؛ فذهب جماعة إلى أن معناه زوال ما فيها واختلاف حالها ، وذلك بأن تزَال جبالُها إذ ينسفها الله تعالى ، كما قال سبحانه : « ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نَسْفاً » والمراد أن يجعل ظهر الأرض مستوياً كما قال : « فيذرها قاعا صَفْصَفاً لا ترى فيها عِوَجًا ولا أمتا » وقد ذهب إلى هذا المعنى ابن عباس رضى الله عنه فقال : تُمَدُّ الأرضُ مَدَّ الأديم العكاظىّ ، والأديم : الجلد ، وإذا مُدَّ الجلد زال كل ما فيه من عوج وانثناء ؛ وذهب قوم إلى أن معنى ذلك أن الله سبحانه يزيد فى مساحة الأرض ويمدُّها حتى تتَّسع لوقوف الخلائق عليها للحساب والعرض عليه ، وذلك أمر لا مندوحة عنه ؛ لأن جميع الناس أوَّلهم وآخرهم يقفون بين يدى خالقهم فى وقت واحدٍ . والذى يتجه عندنا أنه لاخلاف بين هذين الوجهين ؛ لأن فى إزالة الجبال ونسفها وتسوية الأرض وتعبيدها وجعلها كالأديم

وَأَلْقَتْ مَافِيهَا وَتَخَلَّتْ [٤]

العكاظى لا انثناء فيها ولا عوج ، كل أولئك امتداد لسعتها وتكثير لمساحتها ، ولا ريب عندنا فى أن المراد من هذه الآيات على وجه الاجمال هو وصف أحوال لهذا العالم تقع فى يوم القيامة يوم يقوم الناس لرب العالمين ، وأن الغرض بيان أن حال هذا العالم يكون على غير حاله الذى هو عليه فى هذه الحياة الدنيا ؛ فتبدل الأرض غير الأرض ، والسماء غير السماء ، ويَبْرُزُ الناس للحساب على ما قدموا فى حياتهم من عمل ؛ فيجازيهم الله تعالى على الإحسانِ إحساناً جناتٍ تجرى من تحتها الأنهار ، أكلها دائم وظلها ، لهم فيها ما تشتهى أنفسهم ولهم فيها ما يدَّعُون ، ويجازيهم على الإساءة سوءاً ناراً وَقُودُها الناس والحجارة عليها ملائكة غِلاَظ شداد لا يعْصُونَ الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، ليس لهم فيها طعام إلا من ضريع لا يُسْمِنُ ولا يغنى من جُوع ، كلما نضجت جلودهم بدَّلهم منها جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب ، جزاء وفاقا ، ولا يظلم ربك أحداً ؛ وعلينا أن نؤمن بذلك كله ، وأن نؤمن بأن السماء يومئذ تنشق وأن الأرض تُمَدُّ ، وعلينا أن نكل علمَ حقيقة ذلك وكنهه إلى الله تعالى القادرِ الذى لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء

وقوله تعالى : (وألْقَتْ ما فيها) معناه أنها لما مُدَّتْ رَمَتْ بما فى جَوْفها من الناس والكنوز ، وأخرجت كل ذلك إلى ظاهرها ، وهذا مثل قوله سبحانه : « إذا زلزلت الأرض زلزالها وأخرجت الأرض أثقالها » ومثل قوله سبحانه : « وإذا القبور بُعْثِرت » على ما سبق بيانه ، ومثل قوله : « وبعثر ما فى القبور» وأما قوله سبحانه (وتَخَلَّتْ) فمعناه أنها بالغت فى إخراج ما فى بطنها والتخلّى عنه كما يفعل من يتكلف شيئاً من الأشياء ؛ إذ يبالغ فيه ويُجْهِدُ نفسه ألا يترك من سِمَات أهله وأفعالهم شيئا حتى يبلغ الغاية التى ليس وراءها زيادة لمستزيد ؛ ولا بُدَّ أن تعلم

وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ [٥] يَـٰأَيُّهَا الْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ [٦]

أن الله تعالى هو الذى يخرج ما فى باطن الأرض إلى ظهرها بباهر قدرته ؛ وهو الذى يُخلى جَوْفَ الأرض مما يكون فيه ، ولكن نسبة ذلك إلى الأرض نفسها توسُّع ؛ لأنها مظهر هذه القدرة ومكان بروز آثارها ؛ وقوله سبحانه : (وأذنت لربها وحُقَّتْ) يدلُّ على ماذكرنا من أنها مظهر للقدرة ومكانٌ لبروز آثارها ، وقد بَيَّنَّا معنى هذه العبارة قريباً ، وليس فى هذا تكريرٌ ؛ لأن السماء مظهر من مظاهر القدرة والأرض مظهر آخر من مظاهرها ، وإذا اختلف الوجه الذى انبنى عليه الكلام لم يكن من التكرار فى شيء . وجواب « إذا » الذى صُدِّرَت به السورةُ محذوفٌ : إما ليذهب الوهم إلى كل شىء ؛ فيكون السبب فى الحذف إرادة التهويل على المخاطب ، وإما للاكتفاء بجواب « إذا » فى السورة السابقة فكأنه لما تكرر هذا المعنى فى القرآن ، والأسلوبُ نظير الأسلوب ، اكتفى بدلالة أحدهما على الآخر . وقال بعض المفسرين : الجواب مذكور بعد ذلك ، ثم اختلفوا فى تعيينه : فقال الكسائى : الجواب هو قوله سبحانه وتعالى « فأما من أوتى كتابه ـ الخ » وقال بعضهم : الجواب هو قوله تعالى « فملاقيه » وقال القاضى : المذكور هو دليل الجواب وهو قوله سبحانه « إنك كادح » فكأنه سبحانه قال : إذا كان كذا وكذا ترون ما عملتم فاكدح لذلك اليوم أيها الإنسان لتفوز بالنعيم . والذى نرجحه هو القول بأن الجواب محذوف لدلالة نظائره عليه .

وقوله سبحانه وتعالى : (يأيها الانسان إنك كادحٌ إلى ربك كدْحاً فملاقيه) أما الكَدْح فهو العملُ والاجتهادُ فيه وإجهادُ النَّفْسِ لبلوغ الغاية فى العمل ،

والكادح : اسم فاعل منه ، وانظر إلى قول ابن مقبل :

وَمَا الدَّهْرُ إلاَّ تَارَتَانِ ؛ فمنهما
أموت ، وَأُخْرَى أبتغى العَيْشَ أكْدَحُ

وانظر إلى قول الشاعر :

وَمَضَتْ بَشَاشَةُ كلِّ عَيْشٍ صالح ... وَبقيتُ أَكْدَحُ للحياة وأنْصبُ

فانك تدرك منهما أن الكدح يدل على جَهْد النفس فى العمل حتى يبين على المرء أثر هذا الكدح ، واختلف فى المراد من العمل الذى يكدح الانسان فيه بناء على الاختلاف فى المراد بالانسان ، فنقرر لك أولاً ما ذكروه فى المراد بالانسان ثم نبين لك بعد ذلك المراد من العمل ؛ فاعلم أن من العلماء من ذهب إلى أن المراد بالإنسان ههنا جنسُ الانسان لسببين : أولهما أن حمله على ذلك أكثر فائدة وأدلُّ على قوة النظم الكريم ، وثانيهما أنه تعالى قال بعد ذلك : « فأما من أوتى كتابه بيمينه » وقال « وأما من أوتى كتابه بشماله » وذلك بيانٌ لنوعين يتنوع إليهما جنس الانسان بسبب كَدْحه وعمله ، ومن العلماء من ذهب إلى أن المراد بالانسان واحدٌ من الناس بخصوصه ، وهؤلاء اختلفوا فى بيان هذا الشخص فمنهم من قال : هو النبى محمد صلى الله عليه وسلم ، ومنهم من قال : المراد به واحد من الكفار ، وهو أُبَىُّ بن خلف ؛ فأما من قال المراد جنس الانسان فذكر أن المعنى على هذا يأيها الانسان إنك عاملٌ فى هذه الحياة أعمالاً فبالغ فى هذه الأعمال ومجدٌّ فيها ومُتْعب نفسك فى تحصيلها ؛ فان كانت هذه الأعمال خيراً كانت عاقبتك خيراً ، وإن كانت هذه الأعمال شرا كانت عُقْباك شرا ووبالا ، وأما من قال المراد بالانسان النبى صلى الله عليه وسلم فالمعنى عليه يأيها الانسان إنك تكدح فى إبلاغ رسالات الله تعالى إلى عباده وتجهد فى إرشاد الناس وتتحمل الضرر من المشركين الذين يؤذونك ، وأما من زعم أن المراد من الانسان أُبَىُّ بن خلف فالمعنى عليه يأيها

فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ [٧] فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا [٨]
وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا [٩]

الانسان إنك تجتهد فى تحصيل الدنيا وتُفْنِى نفسك فى الصَّدّ عن سبيل الله وتؤلّب الكفار والمشركين على رسول الله . وأحسن هذه الوجوه أن يكون المراد من الانسان الجنس ، وأن يكون العمل المراد بالكدح عاماً يتناول الخير والشر ، وقوله تعالى « إلى ربك » معناه إلى لقاء ربك ، فالكلام على حذف المضاف ، والمراد زمن لقاء ربه ، وهو الموت ، وكلمة « إلى » على هـذا بمعنى انتهاء الغاية الزمانية ، والمعنى يأيها الانسان إنك عامل فى هذه الحياة ومجتهد فى عملك ومبالغ فى إدراك الغاية إلى أن تنتهى حياتك ، ويجوز أن يكون المعنى إنك كادح ومجتهد من أجل أمر ربك الذى كلفك بتكاليف تقتضى العمل ، أو يكون المعنى إنك كادح من أجل لقاء ربك مخافة أن تلقاه بلا عمل ؛ فالكلام على تقدير مضاف وكلمة « إلى » على الوجهين الأخيرين بمعنى لام التعليل وقوله سبحانه «فملاقيه» الضمير البارز يعود إلى الكدح ، والمعنى عليه فملاقٍ هذا العمل يوم تعرض على ربك ، والمراد أنك ملاقٍ جزاءه ، ويجوز أن يكون هذا الضمير عائدا إلى الرب والمعنى إنك كادح إلى ربك كدْحاً فملاقٍ ربَّك يوم القيامة ليجزيك على هذا الكدح بما تستحقه، وقوله تعالى: (فأما من أوتى كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا وينقلب إلى أهـله مسرورا) معناه أما من أُعطى كتاب أعماله بيمينه فانه يحاسب أيسر الحساب ، وذلك بأن تعرض عليه أعمالُه، ويُعرَّف بطاعاته على أنها طاعات، وبمعاصيه على أنها معَاصٍ ، ثم يثاب على ما كان منها طاعة ويتجاوز له عما كان منها معصية؛ فهذا هو المراد بالحساب اليسير ، كما ورد عن عائشة أم المؤمنين رضى الله تعالى عنها أنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « اللهم حاسبنى حسابا يسيرا » قلتُ :

وما الحساب اليسير ؟ قال : « يُنْظَر فى كتابه ، ويُتَجاوز عن سيئاته ؛ فأما من نوقش الحساب فقد هلك » و بيان ذلك أنه متى طولب بذنوبه وَسئل عن دواعى اقترافها لم يجد له عُذراً ولم تستقم له حجة ؛ لأن الله قد أرسل الرسلَ مُبشرين ومنذرين ، ولأن الرسل قد بلغت أوامر الله إلى خلقه ، وحَدَّدت لهم تكاليفه ، ومنعتهم معاصيه ، وذكرت ما أعد الله لِلْعُصَاة من العقاب ؛ فاذا لم يتجاوز الله تعالى عما أزلف من صغائر الذنوب وحاسبه عليها لم يكن بُدٌّ من عقابه ، و يوضح ذلك أتم توضيح ماروى عن عائشة أيضا قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ نوقش الحسابَ عُذِّبَ » وفى رواية « من نوقش الحساب فقد هلك » فقلتُ : يارسول الله ، إن الله تعالى يقول : (فأما من أوتى كتابه ، بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا) قال : « ذٰلِكِ العرضُ ؛ ولـكن من نوقش الحسابَ عُذِّبَ » ، ثم إن هذا النوع من الناس عند هذا الحساب اليسير يرجع كل واحد منهم إلى أهله مسرورا فائزا بالثواب آمنا من العذاب والعقاب ، والمراد بأهله إما أهل الجنة الذين جعلهم الله له أهلا من الحور والولدان ، وإما أهله الذين كانوا أهله فى الدنيا من زوجته وأولاده (١) وسائر ذريته إن كانوا مؤمنين ، والمراد من هذه الآية أن الله تعالى أعدَّ لهذا النوع من الناس ـ وهم الذين كانوا يعملون الصالحات فى حياتهم الدنيا : آمنوا بالله ورسوله ، وأدَّوْا ما أمرهم الله به ، واجتنبوا مانهاهم عنه ، ولم يقترفوا من الآثام ما تقسو به قلوبهم وتتحجر بسببه عواطفهم ؛ فان من قست قلوبهم من أهل النار ـ ثواباً فوق كل ثواب ، وأعدَّ لأهله الذين قفَوْا منهجه من الثواب ما يليق بهم ؛ وفى انقلابه إلى أهله مسرورا مايدل على أن تمام مسرَّة الإنسان وكمال تمتعه بالنعيم إنما يكونان إذا كان بين أهله بحيث يشاهدون ماهو عليه

---

(١) ويقال : المراد بأهله إخوانه المؤمنون الذين هم رفقاؤه فى الجنة

وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَاءَ ظَهْرِهِۦ [١٠] فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا [١١]
وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا [١٢] إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا [١٣] إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن
يَحُورَ [١٤]

وقوله تعالى : (وأما من أوتى كتابه وراء ظهره فسوف يدعو ثبوراً ويَصْلى سعيرا ؛ إنه كان فى أهله مسرورا ، إنه ظَنَّ أَنْ لن يَحُورَ) بيان لحال الفريق الثانى من الناس ، وهم الذين أكثروا من ارتكاب الآثام واجتراح السيئات ، الذين قَسَتْ قلوبهم وجمدت أفئدتهم وتحجّرَتْ عواطفهم ، وقد اختلف المفسرون فى بيان المراد من إيتائهم كتابهم من وراء ظهورهم ؛ فقال الكلبى : يأخذ كتاب أعماله بيده الشمال من خلف ؛ لأن يده اليمنى يومئذ مغلولةٌ إلى عنقه ، ويده اليسرى مُحَوَّلة إلى ظهره ؛ وقال مجاهد : تجعل يده اليسرى من وراء ظهره ؛ وقال قوم : يتحول وجهه فى قفاه فيقرأ كتابه كذلك . ولا ينافى مافى هذه الآية ماذكره الله تعالى فى سورة الحاقة من قوله : « فأما من أوتى كتابه بشماله » حيث لم يذكر الظهر ؛ لأنه يحتمل أن يكون يُؤْتَى كتابه بشماله من وراء ظهره كما هو قول الكلبى ؛ فيكون هنا بيان لبعض شأنه وفى سورة الحاقة بيان لبعضه الآخر هكذا قال المفسرون ، وأنت لو تدَبَّرْتَ بعض التدبر لأدركت أن العرب تعبر عن القُوة ونَفَاذ السُّلْطان ، وعن الغلبة والقهر ، باليمين ، وذلك ظاهر لأن أعمال أغلب الناس بها ، وإذا كانت اليمين عبارة عن القوة وما ذكرنا معها كانت الشمال عبارة عن الضعف ومايتصل به من أضداد صفات اليمين ؛ فليس هناك مايمنع من أن يكون المعنى فى آيات المؤمنين أما من أوتى كتاب أعماله فأقبل على أخذه بقوة ونشاط واقدام لأنه كان من الذين يقبلون على طاعات الله ويتركون معاصيه ، والمراد فى آيات

الكفار أما من عُرِضَ عليه كتاب أعماله فأحجم عن أخذه وَضَعُفَ عن التقدم إليه وفترت قواه عن الاقبال عليه لأنه كان فاتر العزم فى طاعة الله ضعيف الايمان، ويكون التعبير بأخذه من وراء ظهره أقوى فى الدلالة على الضعف والتكاسل عن الاقدام على كتاب أعماله ، فإنه يدل على الاعراض عنه والازورار بجانبه منه ؛ فهو أبلغ ؛ ولا شك أنا نشاهد فى هذه الحياة الدنيا المؤمنين المتقين الذين يخافون ربهم وحده ولا يبالون مايصيبهم فى سبيل الله ؛ نشاهدهم يقبلون على المخاطر إقبال الآمن المطمئن الواثق بحسن العاقبة ، ونرى غيرهم على نوعين : أما أحدهما فقوم يقفون فى منتصف الطريق لايقبلون ولا يعرضون ، وهؤلاء هم مرضى القلوب ، وأما الثانى فقوم يوَلُّون الحقَّ ويتوَلونَ عنه ولا يقدمون على عمل يتصورون فيه ولو على سبيل التوهم ضررا ؛ وأولئك هم القاسية قلوبهم ، وويل للقاسية قلوبهم من النار ، فشأن الناس يوم القيامة بالنسبة إلى كتاب أعمالهم شأنهم فى الحياة الدنيا بالنظر إلى جلائل أعمال الإيمان التى يبتلى الله تعالى بها عباده ليميز الخبيث من الطيب وليظهر الفرق بين الثابت إيمانه الوثيق اتصال قلبه بخالقه والضعيف إيمانه الذى قطع مابينه وبين الله أن يُوصَلَ ؛ على أنا نختم لك هذه الكلمة الموجزة بأن ننبهك إلى ماتعددت إشارتنا إليه بأنا إنما نذكر مايحتمله اللفظ العربى من الوجوه، ونترك ماوراء ذلك إلى خالقِ القُوَى وَالقُدَر، سبحانه ما أعظم شأنه وما أقهر سلطانه ، هو الذى يعلم مافى السماوات ومافى الأرض ، وماوراء هذا الكون على حقيقته وكنهه ، لاعلم لنا إلا ماعلمنا إنه علاَّمُ الغيوب . وقوله تعالى «فسوف يدعو ثبورا» يعنى ينادى قائلا: واثبُورَاهْ ، والثُّبُور: الْهلاَك ، فكأنه يقول: ياهلاَكُ أقبل علىَّ فانى لا أريد أن أبقى حيا ، لعلمه أن بقاءه داع إلى طول عذابه ، فهو كقول الكافر « ياليتنى كنت ترابا » وقوله سبحانه : « ويَصْلَى سعيرا » معناه أنه يدخل النار ويذوق حرَّها ، وذلك كقوله تعالى : « وسيَصْلَوْنَ سعيرا » وقوله « ونُصْلِهِ

جهنم » وقوله « جهنم يَصْلَوْنَهَا » وقوله « إلا من هو صالِ الجحيم » وقوله « لا يَصْلاَها إلا الأشقى الذى كذب وتولّى » . وقوله سبحانه « إنه كان فى أهله مسرورا » بيان للعلة التى استحق بها العذاب فى الآخرة ، والمعنى إنه كان فى أهله فى حياته الدنيا منعماً مستريحاً لا يؤدى ما فرض الله تعالى عليه من العبادات ولا يحتمل مشاقّ الفرائض من الصلاة والصوم والجهاد ، وكان يُقْدِم على المعاصى حاسباً أن لذتها لا تعقب الحسرة والندامة ولا تورث الهلاك والتردّى فى نار الجحيم ، كان آمنا من حساب الله ، غيرمُبَالٍ بعقابه ، فلم يكن يرتدع عن معصية ، ولا وازع له يزجره عن الإثم ، فأبدله الله تعالى بهذا النعيم الذى تنعّم به أياما قليلة ثم ذهب عنه آلاما لا تنقطع وعذابا لا ينتهى أمَدُه ولا ينفد ، ويقال : معنى « إنه كان فى أهله مسروراً » أنه كان معجباً فى الدنيا بما كان عليه من الكفر وذلك كقوله تعالى فى سورة التطفيف : « إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون ، وإذا مروا بهم يتغامزون ، وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين» . وقوله سبحانه : « إنه ظن أن لن يحور » بيان للعلة التى دعته إلى الكفر والتمادى على العصيان ومخالفة الخالق ؛ ومعنى « يحور » يرجع ، وكان ابن عباس يقول : ما كنت أدرى ما معنى الحور حتى سمعت أعرابية تقول لابنتها « حورى » أى ارجعى ، والمعنى إن هذا الفريق من الناس قد ظن أنه لن يرجع إلى ربه ، وأن الله تعالى لن يبعث الخلق لحسابهم على ماقدموا ، ويقال : الحور خاص بالرجوع إلى خلاف ما كان عليه ، فإذا صح هذا كان معنى الآية إن هذا الفريق من الناس كان فى حياته مسروراً دائم السرور لأنه ظن أن حالته هذه لن تتبدل ولن ترجع إلى عكس ما هى عليه ، ولو علم أن الله يُبَدِّلُ سروره همًّا وفَرَحَه حزناً ونعمته بؤساً وغمًّا لأقلع عما هو عليه ولترك هذا السرور العاجل السريعَ الفناء وطلب من السرور مايبقى ما بقيت الجنة التى لا يفنى نعيمها ولا يزول

بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا [١٥] فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ [١٦] وَاللَّيْلِ
وَمَا وَسَقَ [١٧] وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ [١٨] لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ [١٩]

سرور أهلها . وقوله سبحانه : (بلى) هو ردٌّ عليهم فى ظنهم الفاسد ، فعلى الوجه الأول يكون المعنى بلى لتبعثنَّ ، وعلى الوجه الثانى يكون المعنى بلى إن الله تعالى يبدل سروره بغم لا ينقطع وتنعمه ببلاء لا ينتهى ولا يزول . وقوله تعالى (إن ربه كان به بصيراً) معناه إن ربه كان عالما بما يعمله من الكفر والمعصية فلم يكن يجوز فى حكمته أن يهمله فلا يعاقبه على سوء أعماله ، وهذا زجر لكل المكلفين عن جميع المعاصى .

وقوله تعالى : (فلا أقسم بالشفق والليل وماوسق والقمر إذا اتَّسَقَ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عن طَبَق) «لا» فى قوله سبحانه «فلاأقسم» نافية ، وقد أُعتاد العرب أن يأتوا بمثل هذه العبارة عندما يكون القسَمُ على أمر ظاهر لا يحتاج إلى التوكيد أو هو بهذه المنزلة عند المتكلم ؛ فكأنه سبحانه يقول : أنالا أقسم بهذه الأشياء على إثبات ما أذكره لكم لأن أمره ظاهر وثبوته غير محتاج إلى الحلف عليه . ويقال : بل هذه العبارة إنما تستعمل عند الحلف على أمر جليل القدر عظيم الشأن لايكفى القسم لاثباته ، خصوصا إذا كان القسم بما لا يُخشى أذاه ولا يُخَاف منه الضرر ؛ فكأنه سبحانه يقول : أنا لا أقسم بهذه الأشياء على إثبات المطلوب ؛ لأن إثباته أعظم وأجلُّ وأكبر من أن يُقْسَمَ عليه بهذه الأمور الهينة الشأن ، والغرض على هذا الوجه تعظيم المُقسم عليه وتفخيم شأنه ، وقد سبقت لنا هذه المسألة فى تفسير سورة التكوير (١) . والشَّفَقُ : الأثر الباقى من الشمس فى الأفق بعد الغروب

---

(١) أنظر (ص ٦٥)

وذهب مجاهد إلى أن الشفق هو النهار ، وأصل الشفق رقة الشىء ، ومنه قولهم : ثوب شفق ، لأنه لا تماسك فيه لرقته ، والشفقة : رقة القلب . وقوله تعالى « والليل وما وَسَق » وَسَق فى اللغة بمعنى جَمَع ، وَسَمَّوْا الطعام المجتمع بعضُه إلى بعض وسْقاً ، والمراد بما وَسَقَ ما يجمعه الليل من كل شىء ؛ فانه تظهر فيه النجومُ مجتمعة ، وفيه يجتمع الناسُ لامتناعهم بسبب ظلمته عن الانتشار فى الأرض والسَّعْى للرزق ، وقوله تعالى « والقمر إذا اتَّسَقَ » معناه استوى واجتمع وتكامل وتَمَّ واستدار ، وذلك من ليلة ثلاثة عشر إلى ليلة ستة عشر ؛ ومع أن الله سبحانه وتعالى قد ذكر هذه الأشياء التى من تدبرها حقَّ تدبرها استدلَّ بجلالها وعظمة شأنها على قدرة مبدعها وخالقها ؛ فقد ذكر معها أوصافا وسِمَاتٍ تدلُّ من جهة ثانية على أنها لا تصلح أن يتخذها الناس أرْباباً وآلهة يعبدونها من دون الله ؛ فأنها تتحوّل من حال إلى حال ، وتتبدّل من شأن إلى شأن ، والتحوُّل ليس من أوصاف الآلهة ، وقوله سبحانه وتعالى : « لتركبن طبقا عن طبق » هو جواب القسم ، والمعنى لتركبن أيها الناس أموراً وأحوالا ، أمرا بعد أمر ، وحالا بعد حال ومنزلا بعد منزل ، إلى أن يستمرَّ الأمر على مايُقْضَى به على الانسان من جنة أو نار ؛ وحينئذ يستقر الأمر ، ويكون الخلود والدوام إما فى دار الثواب وإما فى دار العقاب ، ويدخل فى هذه الجملة جميع أحوال الانسان والأطوار التى مرت به منذ كان نطفةً فى بطن أمه إلى أن صار شخصا ، وما يمر به فى حياته الأولى من طفولة وشباب وشيخوخة ، وموته ثم حَشْرُه للحساب ، ونقله بعد الحساب إما إلى الجنة وإما إلى النار ؛ ويقال : المراد بهذه الآية أن الناس يَلْقَوْنَ يوم القيامة أحوالا وشدائد ، حالا بعد حال ، وشدة وراءها شدة ، إلى أن يفرغ من حسابهم فيصير كل واحد إلى ما أُعِدَّ له وما استحقه بسبب عمله فى الدنيا : إما إلى جنة وإما إلى نار ؛ ويقال : بل المراد أن الناس يوم القيامة طبقاتٌ ، وليست طبقاتهم فى الآخرة

فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ [٢٠]

على مثال طبقاتهم فى الحياة الأولى ، لأن المنزلة العالية والدرجة الرفيعة هناك إنما ينالها العبد بصالح عمله الذى قدمه فى حياته الأولى ؛ فكم من وضيع فى الدنيا يصير رفيعا فى الآخرة ، وكم من رفيع يصير وضيعا ، وكم من متنعِّم فى الدنيا سيشقى فى الآخرة أشد الشقاء ، وكم ممن عاش فى الأولى على شظف و بؤس ونال أشد الشقاء سيصير متنعما فى أرغد نعيم وأهنئه ، ولعل هذا المعنى الأخير قريبٌ متصل تمام الاتصال بقوله تعالى قبل هذه الآية «إنه كان فى أهله مسرورا ، إنه ظن أن لن يحور» و «عن» فى قوله تعالى « طبقا عن طبق » بمعنى بعد ، كما هو ظاهر من تقرير المعانى التى ذكرناها ، ومثل ذلك قول الشاعر :

مَازِلْتُ أَقْطَعُ مَنْهَلًا عَنْ مَنْهَلٍ حَتَّى أَنَخْتُ بِبَابِ عَبْدِ الْوَاحِدِ

وقوله سبحانه وتعالى : (فما لهم لا يؤمنون) هو استفهام معناه الانكار ، وذلك لظهور الحجة عليهم ، وزوال ما يتمسكون به من الشُّبُهات ، أفما تراه سبحانه قد أقسم بتغيرات واقعة فى الأفلاك على تغير أحوال الخلق ، وهذا يشير إلى الدليل القاطع على صحة القول بالبعث ، وكأنه يقول : إن القادر على تغيير الأجرام العُلْوية والسُّفلية من حال إلى حال ومن صفة إلى صفة ، والذى يفعل ذلك كله بحسب المصالح ؛ لابُدَّ أن يكون فى نفسه قادرا على جميع الممكنات عالما بجميع المعلومات ، وإذا كان كذلك كان لامحالة قادرا على بَعْث الناس للحساب ، فلما كان ما قبل هذه الآية كأنه دلالة عقلية قاطعة على صحة البعث لاجرَم قال لهم على طريق الاستبعاد وإنكار ما هم عليه « فما لهم لا يؤمنون» والمعنى أى شىء ثبت لهم حتى جحدوا الله وأنكروا قدرته ، وكل شىء أمامهم ينادى بقدرته ، ويرشد إلى سلطانه القاهر ، والمراد أنه لا شبهة لهم يصح أن يتمسكوا بها على إنكارهم بَعْثَ الله الخلقَ للحساب ، وقوله

وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ [٢١] بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ [٢٢] وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ [٢٣] فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ [٢٤]

سبحانه: (وإذا قرىء عليهم القرآن لايَسْجُدُون) معطوف على قوله « لايؤمنون » والمعنى أى شىء ثبت لهؤلاء الناس حتى جعلهم إذا قرىء عليهم القرآن لايعترفون بإعجازه وبلوغه الغايةَ التى لايمكن للبشر أن يصلوا إليها ، والمراد التعجب من حالهم وإنكاره عليهم ، فكأنه سبحانه يقول : إن أمر هؤلاء الناس لعجيب فانهم كما يدَّعون أهلُ اللَّسَن وأرباب الفصاحة وذوو البراعة والبلاغة ؛ وهذا يقتضى البتة أن يعلموا أن هذا القرآن مُعْجِزٌ ، ومتى علموا إعجازه أدركوا صحة نبوة الرسول الذى جاء به ووجبت عليهم طاعته ، ولكنهم لم يعملوا بما تقتضيه فطرتهم التى فطرهم الله عليها ، فهم لايخضعون لبلاغة القرآن ، ولا يستكينون لاعجازه ، مع أنه أخرَسَ ناطقهم ، وأعجز مَقَاولهم ، وحَيَّرَ فُصَحَاءهم . وقوله تعالى : (بل الذين كفروا يكذبون) كالتعليل لعدم إيمانهم ولعدم خضوعهم للقرآن مع قيام الدليل الموجب عليهم أن يؤمنوا وأن يخضعوا ، والمعنى إن الدلائل الموجبة للايمان جلية واضحة لاتحتاج إلى أكثر من لَفْتِ النظر ، ولكنهم يعاندون ويُصِرُّون على التكذيب : إمالأنهم يأبَوْن أن يخالفوا ماوجدوا عليه آباءهم من عقائد فاسدة ، وإما لأنهم يحسدون الرسول صلى الله عليه وسلم على ماآتاه الله من فضله ، وإما لخوفهم من أنهم لو آمنوا لفاتتهم مناصبهم الدنيوية ، وقوله تعالى : (والله أعلم بما يُوعُونَ) معناه أنه سبحانه مُطَّلِع على مافى قلوبهم من أسباب الإصرار على الشرك ودواعي العناد والاستمرار فيما هم عليه ، وقوله سبحانه (فبشرهم بعذاب أليم) يدل على أنه مجازيهم على تكذيبهم وإصرارهم بالعذاب الأليم فى الآخرة ،

إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ [٢٥]

وقوله جل شأنه (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) يحتمل أن يكون الاستثناء منقطعاً ، والمعنى لكن الذين آمنوا بالله ورسوله وخضعوا للقرآن الكريم وعملوا بما جاء فيه فأولئك لهم أجر غير ممنون ، ويحتمل أن يكون الاستثناء متصلا ، والمعنى عليه بشر هؤلاء الكفار بعذاب أليم إلا من تاب منهم وآمن بربه وعمل الصالحات ، وكل مافيه أنه وضع الفعل الماضى فى مكان الفعل المضارع ، وكأنه قال إلا الذين يؤمنون و يعملون الصالحات ، وقوله سبحانه : (لهم أجر غير ممنون) معناه أن لهم ثوابالا منَّ فيه ولا أذى ، أولا ينقطع مدده ، أولا ينقُص عليهم بالخوف ونحوه . والله سبحانه أعلى وأعلم

سورة البروج

[وهى مكية ، وآياتها اثنتان وعشرون آية ، ونزلت بعد سورة الشمس][1]

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ [١]

---

(١) لا خلاف فى أن هذه السورة مكية ، كما أنه لاخلاف فى أن آياتها اثنتان وعشرون آية

اعلم أن المقصود من هذه السورة تسلية النبى صلى الله عليه وسلم وتسلية أصحابه وتشجيعهم على احتمال أذى الكفار والصبر على ما يُلاقونهم به ، وذلك لأنه سبحانه وتعالى بَيَّن أن جميع الأمم قد كان منهم مثلُ ذلك فآذوا أنبياءهم وأعنتوا من آمن بهم ، مثل أصحاب الأخدود ، ومثل فرعون وقومه ، ومثل ثمود ، بل إنه ما من أمة إلا كَذَّبَتْ رسولها ، وأرهقته من أمره عسرا

قوله تعالى : (والسماء ذات البروج) البروج: جمع بُرْج ، وأصل البُرْج فى اللغة الأمرُ الظاهرُ ، ثم نُقل إلى القصر العالى لـكونه لعلوّه وسُموّه ظاهرا باديا للناظر ، ويقال لسور المدينة بُرْج أيضا لظهوره ، وبُروج السماءِ اثناعشر بُرْجًا ، وسنذكر لك عنها كلمة ، وإنما حَسُنَ القَسَمُ بها لما فيها من عجيب الحكمة وباهر الصنعة ، أفما ترى سَيْرَ الشمس يكون فيها ، وهل من شك فى أن مصالح العالمِ ومنافع الناس فى هذه الحياة الدنيا مرتبطة بسير الشمس ؛ فهى من هذه الناحية دالة على أن لها صانعا حكيما ، ويقال : البروج هى منازل القمر ، وإذا صحَّ ذلك فهى

وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ [٢] وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ [٣]

أيضا من عجيب صنع القادر الحكيم ، وكم فى سير القمر وحركته من آثار ليس يخفى أنها تدلُّ على قدرة المبدع الجليل ، ويقال : البروج هى عِظَامُ الكواكب وإنما سميت بُرُوجًا لكونها ظاهرة بادية للرائى . والقول الأول أشهر هذه الأقوال. واعلم أن البروج الاثنى عشر منها ستة فى شمال خط الاستواء والستة الأخرى فى جنوب خط الاستواء ؛ فأما التى فى شمال خط الاستواء فهى : الحَمَلُ ، وَالثَّوْرُ ، والجوزاء ، والسَّرَطَان ، والأسد ، والسُّنْبُلَة ؛ وأما التى فى جنوب خط الاستواء فهى : الميزان ، والعَقْرَبُ ، والقَوْسُ ، والجدى ، والدَّلْو ، والحوت ؛ وتقطع الشمس الثلاثة الأولى وهى الحمل والثور والجوزاء فى ثلاثة أشهر أولها اليوم العشرون من شهر مارس ، وهذه المدة فصل الربيع ، وتقطع الثلاثة الثانية وهى السرطان والأسد والسنبلة فى ثلاثة أشهر أيضا أولها اليوم الحادى والعشرون من شهر يونيو ، وهذه مدة فصل الصيف ، وتقطع الثلاثة الثالثة وهى الثلاثة الأولى من الجنوبيَّة ؛ وهى الميزان والعقرب والقوس ، فى ثلاثة أشهر أيضا أولها اليوم الثانى والعشرون من شهر سبتمبر ، وهذه المدة فصل الخريف وتقطع الثلاثة الرابعة وهى الثلاثة الثانية من الجنوبية ، وهى الجدى والدلو والحوت ، فى ثلاثة أشهر أيضا أولها اليوم الثانى والعشرون من شهر ديسمبر ، وهذه المدة فصل الشتاء .

وقوله تعالى : (واليوم الموعود) هو يوم القيامة ، لأن الله تعالى وَعَد به ، وإنما حَسُنَ القسم بيوم القيامة للتنبيه على القدرة والقَهْر ؛ إذ كان هو يوم الفصل والجزاء وهو اليوم الذى تَفَرَّدَ الله تعالى فيه بالملك والحكم .

وقوله سبحانه : (وشاهد ومشهود) قد اختلف العلماء فى المراد من الشاهد ومن المشهود ؛ فيقال الشاهد هو الانسان والمشهود هو التوحيد والاقرار لله بالتفرد

بالألوهية ، لأن الله تعالى أشهد الناس على ذلك، وفى ذلك يقول سبحانه « وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى » فالانسان شاهد والتوحيد والاقرار بالربوبية مشهود عليه ، ويقال : الشاهد الانسان والمشهود يوم القيامة فأما كون الإنسان شاهدا فظاهر فيما تلوناعليك، وأما كون يوم القيامة مشهودا فاما لكون جميع الناس يشهدونه : أى يحضرونه ، وإما لكونه مشهودا عليه أيضا ، ويدل على ذلك قوله تعالى : « أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين » وعندى أن خيرًا من هذا ومن كل ما ذكروه أن يقال : المراد بالشاهد والمشهود جميع ما خلق الله تعالى فى هذا العالم ، فان فى كل شىء خلقه الله تعالى شاهِدًا على جليل قدرته وعظيم حكمته كما قال أبو العتاهية :

وفى كُلِّ شىءٍ لَهُ آيةٌ تدلُّ على أنه الواحد

ثم إن كل ما خلق الله مَشْهُودٌ لكل ذى عينين ولكن الناس يتفاوتون ؛ فمنهم من يتدبر ويستفيد من النظر ، ومنهم من لا يستفيد ، وقد اختلف العلماء فى بيان جواب القسم الذى صدرت به السورة ، فذهب الزجاج إلى أن الجواب هو قوله تعالى فيما بعد « إن بطش ربك لشديد » وهذا الكلام محكى عن ابن عباس وعن قتادة ، وذهب قوم إلى أن جواب القسم هو قوله سبحانه : « إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات — الآيات » ومابين القسم والجواب من قوله تعالى «قتل أصحاب الأخدود — الآيات» اعتراض ؛ وذهب الأخفش إلى أن جواب القسم هو قوله سبحانه « قتل أصحاب الأخدود» وقال جماعة : جواب القسم محذوف ، ثم اختلف هؤلاء فى تقديره : فقال قوم يدل عليه قوله تعالى : « قتل أصحاب الأخدود » وتقدير الكلام على هذا : والسماء ذات البروج لقد قتل قريش ولعنوا كما قتل أصحاب الأخدود ، وهذا تقدير جار الله فى الكشاف ، وقال قوم : تقدير الكلام والسماء ذات البروج إن الأمر الذى أحدثكم عنه وهو أمر البعث والنشور لحقٌ ، لأن ذلك قد كثر مجىء

قُتِلَ أَصْحَٰبُ الْأُخْدُودِ [٤] النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ [٥]

مثله فى الـكتاب العزيز ، وقد سبق بيان مثل ذلك (١)

وقوله جل شأنه : (قُتِلَ أصحاب الأخدود) فالأخدود هو الشَّقُّ فى الأرض يحفر مستطيلا ، وجمعه أخاديد ، وتقول : خَدَّ الأرض يَخُدُّهَا خَدًّا ، إذا شقها ، وتقول : تخدَّدَ لحمه ، إذا تشقق وكانت فيه هو طرائق كالشقوق . ومعنى «قتل» قد سبق ذكره فى سورة عبس فى تفسير قوله تعالى : «قتل الانسان ما أكفره» (٢) وكان من قصة أصحاب الأخدود على ما حكاه المفسرون والمؤرخون أنه قد وقع إلى نجران رجلٌ ممن كانوا على دين عيسى ابن مريم عليه السلام ، وأنه دعا أهل نجران إلى دينه — وكانوا من اليهود — وأعلمهم أن الله تعالى بعث عيسى ابن مريم بشريعة ناسخة لشريعتهم ، فآمن به قومٌ منهم ، وبلغ ذلك ذا نُوَاسٍ وكان يتمسك باليهودية ، فصار إليهم بجنود من حِمْيَر ، فلما أخذهم خيرهم بين اليهودية والاحراق بالنار ، وحفر لهم حفيرة ثم أضرم فيها النار ، وصار يؤتى بالرجل منهم فيخيره ؛ فمن جزع من النار وخاف العذاب بها رجع عن دينه ورضى اليهودية ، فتركه ، ومن تمسك بدينه ولم يُبَالِ العذاب الدنيوى لوثوقه بأن الله يجزيه أحسن الجزاء ألقاه فى النار ، وقوله تعالى (النار) يقرأ بالجر على أنه بدل من الأخدود ، فيقال : هو بدل اشتمال والرابط محذوف ، وتقدير الكلام النار فيه ، وَيقال : هو بدل كل من كل ، وأصل الكلام قتل أصحابُ الأخدود أخدود النار ، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه ، والوجه الأول أحسن ، وقوله تعالى (ذات الوقود) وصف للنار يدل على أنها بلغت غايةً عظيمة فى ارتفاع اللَّهبِ لأنها جعلت

---

(١) أنظر (ص ٢٨) فى تفسير سورة النازعات

(٢) أنظر (ص ٥٠)

إِذْهُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ [٦] وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ [٧]

كالمالكة للوقود الذى يكون منه اللهيب ، وقد عُرّف الوقود بأل الدالة على الاستغراق ، فاذا كانت النار كالمالكة لكل وقود ينشأ عنه اللهب لاجرم يكون حريقها عظيما ولهيبها متطايراً ، وقوله تعالى : (إذهم عليها قعود) أما « إذ » فظرف لما مضى من الزمان ، وهو متعلق بقتل ، والمراد أنهم لُعنوا فى ذلك الوقت ، و « هم » ضمير يعود إلى أصحاب الأخدود ، الذين هم ذو نُواس وشيعته فيما قصصنا عليك من نَبَئِهِمْ ، والضمير فى « عليها » راجع إلى النار ، ومعنى قعودهم عليها التفافهم حولها وجلوسهم قريبا منها بحيث يُشرفون على المؤمنين وهم يُعذَّبون بها ويُحْرقون فيها ، وليس المراد جلوسهم فوق النار ، فان العرب يقولون : جلست على النار ، ووقفت على النار ، وهم إنما يريدون الجلوس قريبا منها ، والوقوف عندها بحيث تراها ؛ أنظر إلى قول الأعشى :

تُشَبُّ لِمَقْرُورَيْنِ يَصْطَلِيَانِهَا   وَبَاتَ عَلَى النَّارِ النَّدَى وَالْمُحَلَّقُ

وقوله تعالى : (وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهُود) يحتمل معنيين : أحدهما أن يكون المراد من قوله سبحانه « شهُود » أنهم حُضور شاهدوا عذاب المؤمنين والمعنى حينئذ أن أولئك الجبابرة الذين أمروا باحراق المؤمنين كانوا حضورا عند تعذيبهم يشاهدون ما يفعله بهم أتباعهم ، وفى ذلك إشارة إلى قسوة قلوبهم ، وتمكن الكفر منهم ، مع ما فيه من الاشارة إلى قوة اصطبار المؤمنين ، وشدة جلدهم ، ورباطة جأشهم ، واستمساكهم بحقهم ، والوجه الثانى أن يكون المراد من « شهود » جمع شاهد بمعنى الذى يثبت الدعوى بشهادته ، والمعنى حينئذ إما أن بعضهم يشهد لبعض عند الملك بأنه لم يقصر فى التنكيل بالمؤمنين ، أو يكون المعنى أنهم سيشهدون على أنفسهم يوم القيامة بما فعلوا بالمؤمنين من العذاب ، يشهد بعضهم

وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ [٨] الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ [٩]

على بعض بذلك يوم تشهد عليهم أيديهم وألسنتهم وقلوبهم وسائر جوارحهم بما كانوا يفعلون ، وقوله جل ذكره (وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد) فنقموا معناه أنكروا ، ويقال نقموا معناه أنكروا وعاقبوا على الفعل الذي ينكرونه ، والمراد من «يؤمنوا» أن يستديموا على إيمانهم ويستمروا ثابتين عليه ؛ لأن تعذيبهم لم يكن على إيمانهم الذي مضى ، بل كان على ما يأتي ، ألا ترى أنهم كانوا يتركون من رجع إلى دينهم وترك ما كان عليه ، ومن هنا تعلم سر التعبير بالفعل المضارع ، والمعنى إن هؤلاء الكفار أصحاب الأخدود لم ينكروا على المؤمنين ولم يعاقبوهم إلا على شيء لا يجوز العقاب عليه ، بل ينبغي لكل أحد أن يكون عليه ويدعو غيره إلى التمسك به ، وهو الايمان بالله تعالى العزيز الغالب الذي يخشى عقابه وتهاب صولته الحميد المنعم الذي يرجى ثوابه وترتقب نعماؤه ، وانظر إلى سر النظم العجيب حيث وصف الله تعالى نفسه بوصفين ينذر بأحدهما الكفار سطوته وعقابه ويخوفهم به بأسه وانتقامه على ما يفعلون بالمؤمنين من الايذاء ، وَيَعِدُ بثانيهما المؤمنين ثوابه ونعماءه ويمنيهم به ما عنده من عظيم الأجر على احتمال ما يلاقونه من الكفار من الجهد والأذى ؛ ثم انظر إلى قوله جل ذكره (الذي له مُلكُ السَّمٰوات والأرض ، والله على كل شيء شهيد) تُدْرِكْ تمام الادراك أنه سبحانه ما وصف نفسه بهذين الوصفين إلا ليُشعر بأن مَناط إيمان المؤمنين به والسرّ في شَدّهم العزائم على الدوام على وصف الايمان ، وعدم خوفهم من تهديدات الكفار وإيعاداتهم ؛ هو أنهم عرفوا أن مالك الأمر كله هو الله ، وأن ما يلاقونه ليس إلا من الامتحان والابتلاء الذي يمحص الله به أهل طاعته ليبلوهم أيهم أحسن عملا ، وتدرك أيضا

إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ [١٠]

أن السر فى الوصف الثانى وهو قوله سبحانه « والله على كل شىء شهيد » الاشعارُ بتهديد الكفار وإيعادهم على أنهم سيلاقون جزاء ما يفعلون بالمؤمنين ، لأنه سبحانه إذا كان شهيدا على كل شىء فهو شهيد على ما يفعله هؤلاء الفجار بأهل طاعة الله ، وإذا كان مطلعا شهيدا على أفعالهم لم يكن من حكمته العالية أن يترك لهم ذلك فلا يحاسبهم عليه

ثم لما انتهى سبحانه وتعالى من ذكر أصحاب الأخدود وما فعلوه من الايذاء والتنكيل بالمؤمنين ، وَذَيَّلَ ذلك بما يدلُّ على أنه لوشاء لمنع بعزته وجبروته أولئك الجبابرة من تعذيب أهل مودته وأوليائه ، ولأطفأ نيرانهم ، وجعلها بَرْداً وسلاما ، كما ذيله بما يشير إلى أن المعتبر عنده عواقب الأمور ، وأنه — وإن أمهل هؤلاء الفجرة — لم يهملهم ، بل أخر عقابهم ليوم تشخص فيه القلوب والأبصار ، وهو اليوم الذى يوصَّل فيه الثواب إلى المؤمنين ويوقع العقاب على الكفرة المجرمين ، بعد ذكره هذه القصة أتبعها بما يتفرع عليها من أحكام الثواب والعقاب فقال سبحانه :

(إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق) و « فتنوا » معناه ابتلوهم وامتحنوهم ، وقد كان الكفار فى كل أمة من الأمم يمتحنون المؤمنين ويبتلونهم بصنوف من الأذى ؛ فأصحاب الأخدود قد عرضوا المؤمنين على النار وأحرقوهم بها ، وكفار قريش قد فتنوا المؤمنين بالكثير من الإيذاء ، فكم عذَّبوا آل ياسر ، وكم عذبوا بلالا ، وكم آذوا أكابر المؤمنين كأبى بكر ، حتى لقد آذوا الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم وأعنتوه وشقُّوا عليه ورَمَوْه بالحجارة حتى أَدْمَوْهُ ، وفعلوا أكثر من ذلك فخرجوا بخيلهم

ورجلهم وخيلائهم وكبريائهم يقاتلونه وأصحابه ويتمنون لو يتمكنون منه ليقتلوه ، ولكن الله تعالى يمنعه منهم ، والله بالغ أمره ، يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ، ولو كره الكافرون . وقوله سبحانه « ثم لم يتوبوا » يدل على أنهم لو تابوا لعفا الله عنهم وغفر لهم ما قدموا قبل تلك التوبة ، وهذه العبارة ترجح أن المراد بهذه الآية غير أصحاب الأخدود ، لأن أصحاب الأخدود حين نزول القرآن كان قد ثبت أنهم ماتوا كفارا بغير توبة ، فأى معنى حينئذ إلى ذكر « ثم لم يتوبوا » وقوله سبحانه : « فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق » اختلف المفسرون فى المراد منه ؛ فقال قوم : كلا العذابين يحصلان فى الآخرة ، وأحدهما وهو عذاب جهنم يحصل لهم بسبب كفرهم ، وثانيهما وهو عذاب الحريق يحصل لهم بسبب فتنتهم المؤمنين وإيذائهم ، وقال آخرون : عذاب جهنم هو عذاب الآخرة الذى يعاقبهم الله به على كل ما صنعوه من الآثام فى الدنيا ، وعذاب الحريق عذاب الدنيا فى مقابل ما يفعلونه بالمؤمنين ، ويقال : عذاب جهنم هو عذاب الحريق ، وعطف الثانى على الأول كما تعطف التفسير على ما تريد أن تفسره ، والمراد من ذلك تهويل أمرهم وتفظيع حالهم وزيادة تخويفهم حتى كأنهم لا يعذبون عذابا واحدا كما يعذب سائر المذنبين ، بل يعذبون عذابين ، وذلك كما تقول لمن أجرم جرما شنيعا : سأعاقبك عقابا شديدا وسأدخلك السجن ، وأنت تريد بالعذاب الشديد الذى ذكرته أولا إدخاله السجن الذى ذكرته ثانيا ، ولكنك جئت بالكلام على صورة عقابين تريد أن تزيد فى تحذيره وتخويفه

ثم إنه سبحانه وتعالى بعد أن انتهى من ذكر الكفار وبيّن ما أعدّ لهم من العذاب الأليم جزاء لهم على ما اجترحت أيديهم من السيئات التى منها إيذاء المؤمنين ، أخذ فى بيان حال المؤمنين وما أعد لهم من جميل الثواب وحسن الجزاء فقال سبحانه وتعالى :

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ [١١]

(إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير) فان من تمام المناسبة أن يُذْكَرَ بعقيب ما أُعدّ للأعداء من النكال الأليم والعذاب الدائم ذلك النعيمُ المقيم الذى أُعِدّ للأولياء والأنصار ؛ ليكون ذلك أنكى فى إيلام الأعداء، وأشد فى غيظهم وأبعثَ للأسى والحزن إلى نفوسهم، وقد جرى أسلوب القرآن الكريم على ذلك ؛ فقلما تقرأ فيه آية يذكر الله تعالى فيها الكفار وما سيلاقونه يوم القيامة من الجزاء إلا قرأت بعدها وصف المؤمنين وما هيّأه سبحانه لهم من الثواب ، والجنات : تطلق على الأشجار الملتفة الكثيرة الأغصان الوارفة ، وقد تطلق على الأرض التى تكون فيها هذه الأشجار ، وقد تطلق على مايعم الأرض والأشجار، فان أريد منها ههنا الأشجار وحدها كان جريان الأنهار من تحتها ظاهرا ؛ لأن الماء يجرى من تحت الأشجار ؛ وإن أريد منها مايعم الأرض والغَرْس كان معنى جريان الأنهار من تحتها أنها تجرى من تحت بعضها الذى هو الشجر ، لكن إن أريد بها الأرض وحدها وجب تقدير مضاف قبل الضمير : أى تجرى من تحت أشجارها الأنهارُ ، وقوله تعالى «ذلك» إشارة إلى الجنات التى أعدّها الله لهم ، وإنما جىء باسم الاشارة الذى للمذكر لتأويل الجنات بالنعيم ، وأُلحقت لام البعد باسم الاشارة للدلالة على بعد المنزلة وعلوّ الدرجة ورفعتها وأنها أبعد من أن تتصورها العقول ؛ وقوله تعالى « الفوز العظيم » معناه هو الفوز الذى تصغر عنده الدنيا بما فيها من الرغائب ، وأصل الفوز النجاة من الشر والظَّفَرُ بالخير .

ثم إنه سبحانه وتعالى بعد أن ذكر وعيد الذين فتنوا المؤمنين ولم يتوبوا من

إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ [١٢] إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ [١٣] وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ [١٤] ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ [١٥] فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ [١٦]

عملهم ، ووَصَفَ جزاءهم الذى أُعِدَّ لهم فى الآخرة على ذلك ، وبعد أن عقّبه بذكر حال الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، ووَصَفَ ثوابهم العظيم على حُسْن أعمالهم ؛ أردف ذلك كله بما يدل على تمام قدرته وعظيم جَبَرُوته ؛ ليكون ذلك بمثابة تأكيد أنه فاعِلٌ ماسبق ذكره من الوعد والوعيد فقال سبحانه : (إن بطش ربك لشديد ، إنه هو يبدىء ويعيد ، وهو الغفور الودود ذو العرش المجيد فعال لما يريد) وأُنظر إلى تصديره جات كلمته ذلك الكلام بحرفى التوكيد إن واللام ، ثم انظر إلى الاتيان بالجملة الاسمية ، تدركْ أنه سبحانه يريد أن يقتلع ماعلق بنفوس هؤلاء الكفار من الإنكار لقهره وغلبته وتمام سيطرته ونفوذ إرادته ، والبطش : هو الأخذ بالعنف والشدة ، فاذا وُصف مع ذلك بأنه شديد كان ذلك دالا على تضاعفه وتفاقم أمره ، وقوله سبحانه عقيب ذلك « إنه هو يبدىء ويعيد » معناه إنه يخلق خلقه ابتداء ثم يفنيهم ثم يعيدهم أحياءً مرة ثانية ليجازيهم على ماعملوه فى حياتهم الأولى ، وكأنه يقول : إن مرجعكم إلىّ فاذا لم آخذ منكم ولم أعاقبكم فى هذه الحياة على ما تعملونه مع أوليائى وأنصار رسولى فلا تظنوا أن ذلك إهمال منى لأمرهم وأمركم أو تقصير فى شأنهم ؛ لأن لكم يوما تُرجعون فيه إلىّ ، وهذا اليوم هو الذى قدّرْتُ الأخذ فيه ، ثم ذكر عقيب ذلك خمسة أوصاف من صفات الرحمة والجلال والكبرياء : أولها « الغفور » ومعناه الذى يعفو ويَسْتُر عباده بمغفرته ، وهو سبحانه يغفر مادون الشرك لمن شاء من عباده كما قال : « إن الله لايغفر أن يُشرَكَ به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » والوصف الثانى «الودود» ومعناه الذى يُحِبُّ أولياءه ويتودّد إليهم بالعفو عن صغار ذنوبهم وزيادة درجاتهم عنده

أو هو الذى يحبه أولياؤه لإدراكهم كمال عظمته وجَلاَل قدره وعظيم تفرده فى ذاته وصفاته وأفعاله ، أو هو بمعنى الحليم ، والوصف الثالث « ذو العرش » ومعناه ذو الملك والسُلطان والقدرة النافذة والأمر الذى لايُرَدُّ ، والوصف الرابع «المجيدُ» ومعناه المتعالى صاحب الجلال ، ويقرأ بالجر (١) فلا يكون من أوصاف الله تعالى ههنا ، بل يكون وصفا للعرش ، ولا يمتنع وصف غير الله تعالى بالمجيد ؛ فقد وصف الله سبحانه القرآن به فقال « بل هو قرآن مجيد » وقد وصف الله تعالى العرش بالكريم ؛ فلا يبعد وصفه بالمجيد ، والوصف الخامس قوله سبحانه «فعالٌ لما يريد» وفعالٌ : خبر مبتدأ محذوف : أى هو فعال لما يريد ، والمعنى أنه سبحانه لا يمتنع عليه مايريده من أفعاله وأفعال غيره ، فان العبارة دالة على العموم ومثبتة أنه سبحانه قادر على جميع مايريد ؛ فهو سبحانه لو أراد أن يؤمن هؤلاء الكفار أو أن يتوب هؤلاء المذنبون العُصَاة ، لما بقى واحد منهم على حالته التى هو عليها ، وقد قال سبحانه « ولو شاء ربك لجعل الناس أمّةً واحدة » ويدل هذا الوصف على أنه سبحانه يفعل مايريد على مايراه أوفق بالحكمة وأليق بالسداد ؛ لايعترضه معترض ولا يغلبه غالب ؛ فهو يدخل أولياءه الجنة لايمنعه من ذلك مانع ، وهو يدخل أعداءه النار لايحول دونه حائل ولا ينصرهم منه ناصر ، وهو يُمْهل العصاة على مايشاء إلى أن يأخذهم متى شاء لايناقشه أحد ولا يعارضه معارض ، وإن شاء عاجل بعضهم بالعقوبة فأخذه أخذ العزيز المقتدر وجَعَلَهُ نكالاً وعبرةً لمن بين يديه ولمن خلفه ، وهو يعذّب من شاء منهم فى الدنيا وفى الآخرة ؛ ليس لإرادته حدٌ ولا لمشيئته منازع ، هو ولىُّ الدنيا والآخرة ومدبّر أمرهما ومالك شأنهما ، ماشاء كان ، وما لم يشأ لم يكن .

---

(١) هذه قراءة حمزة والكسائى ، ومجد العرش معناه علوه وعظمته ، والعرش مما يجب الايمان به وترك علم حقيقته وكنهه إلى الله الكبير المتعال

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ [١٧] فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ [١٨]

ثم إنه سبحانه لما ذكر أصحاب الأخدود وبين حالهم ووصف ما كان من إيذائهم المؤمنين، أراد أن يبين أن حال الكفار في كل عصر وشأنهم مع كل نبي أو شيعة نبي يجرى على هذا المنوال، فهم دائما يؤذون المؤمنين ويعادونهم، ولم يرسل الله رسولا إلا لقى من قومه مثل مالقى هؤلاء من قومهم، ومثل ما يلقى الرسول صلى الله عليه وسلم من قومه، والمراد من ذلك كله — كما سبقت الاشارة إليه غير مرة — تسلية النبي وأصحابه وشدّ عزائمهم على التدرع بالصبر وألا يفتنهم الكفار عن دينهم؛ فقال في ذلك سبحانه وتعالى: (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الجنودِ فرعونَ وثمودَ) و «فرعون وثمود» بدل من «الجنود» بدل كل من كل، فان قلت: الجنود جمع، وفرعون مفرد، فكيف يسوغ أن يكون المفرد بدل كل من الجمع، وبداءة علم العربية تقتضى أن يكون بدل الكل مساوياً للمبدل منه، وكيف يستسيغ متكلم أن يجعل المفرد مساويا للجمع، قلت: إنك قد فهمت أن المراد من فرعون طاغية مصر الذى أرسل إليه نبي الله تعالى موسى وأخوه هارون، فانطلقت تعترض وتستشكل، ولكن المراد به هاهنا شيء آخر وراء ذلك، وهو إما قومه، والكلام حينئذ على حذف مضاف، وتقدير الكلام هل أتاك حديث الجنود قوم فرعون، وإما هو وقومه، فيكون في الكلام اكتفاء، يعنى أنه أريد فرعون وقومه لكنه اكتفى بذكر فرعون وحذف المعطوف وحرف العطف اكتفاء بالمعطوف عليه، وإنما اقتصر على فرعون لأنه كان مدبر أمرهم وقائدهم إلى مايريد وكانت كلمته كلمتهم وحاله حالهم، وثمود: هم قوم صالح عليه الصلاة والسلام، ويجوز أن يكون «فرعون وثمود» منصوبين بفعل محذوف، وتقدير الكلام: هل أتاك حديث الجنود عنيت فرعون وثمود،

بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ [١٩] وَاللهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ [٢٠]

وحينئذ يذهب هذا الاشكال الذى اضطررنا لشرحه والرد عليه . وحديث هذين مشهور متعارف لهم ، فهم كانوا يعرفون من يهود المدينة وغيرهم ما كان من فرعون مع موسى كليم الله ، وما كان عليه من العناد والإصرار على الكفر ، ويعرفون كيف كانت عاقبة أمره ، وأن الله تعالى أغرقه فى اليم هو وقومه وجعله نكال الآخرة والأولى ، وهم يعرفون قصة ثمود مع صالح عليه السلام وأنهم عقروا الناقة التى جعلها الله لهم آيةً فدمّر الله بلادهم وأهلكهم ولم يترك لهم من باقية ، وذلك لأن ثمود كانوا يسكنون جزيرة العرب ؛ فهم قريب منهم وهم يمرون على ديارهم فى أسفارهم ويسمعون أخبارهم ، ومن أجل ذلك ترك الله جل شأنه تفصيل شأن هؤلاء فى هذه السورة اعتمادا على شهرة أمرهم ، ولأن الغرض هاهنا إلى بيان أن الكفار فى كل عصر يتشابهون ، وأن حال الناس مع أنبيائهم لا يتغير ، وذلك الغرض تكفى فيه الإشارة إلى الأمم السابقة ولا يحتاج إلى البيان والتفصيل ، وانظر إلى قوله سبحانه وتعالى عقيب ذلك (بل الذين كفروا فى تكذيب) تدرك أن المقصود هاهنا بيان أن حال المؤمنين مع الكفار فى كل عصر يجرى على هذا النهج الذى عليه كفار مكة ، ثم إنه سبحانه بعد أن طيَّبَ خاطر الرسول وآمنَ رَوْعه وأثلج صدره وبعث الطمأنينة إلى قلبه ، وذكَّره بحال الأمم السابقة مع أنبيائهم وحال الأنبياء معهم وكيف كانوا يُصِرُّون على العناد ويسترسلون فى اللجاج ؛ بعد ذلك سَلّاه من وجه آخر فقال جلت كلمته : (والله من ورائهم محيط) والمراد بهذا وصف اقتداره عليهم وأنهم فى قبضته وتحت تصرفه وفى حَوْزَته ، فهم كمن أحيط به من ورائه فانسدت عليه المسالك فهو لا يجد مَهْرَبًا ولا يستطيع الفرار إذا أراد المحيط به أخذه ؛ فكأنه يقول : هم فى قبضتى ، وأنا قادر على أخذهم متى أردت

بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ [٢١] فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ [٢٢]

ومن السهل علىّ مُعاجَلتُهمْ بالعذاب على تكذيبهم إياك ، فلاتجزع من تكذيبهم واستمرارهم على العناد والاستكبار، فانهم لن يفوتونى إذا أردت الانتقام منهم. وقد يكون المراد من هذه العبارة أنهم شارفوا الهلاك وأوشكوا أن تذهب ريحهم ويفعل الله بهم مافعل بالأمم التى كذبت رسلها ، وانظر إلى قوله تعالى : « وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها » وإلى قوله سبحانه « وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس » وإلى قوله جل ذكره « وظنوا أنهم أحيط بهم » تدرك أن الإحاطة قد يعبر بها عن مشارفة الهلاك ، والمعنى على ذلك إن هؤلاء بسبب تكذيبك قد شارفوا الهلاك وقربوا من الوقوع فيه . وقوله سبحانه : (بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ [١]) الغرض منه الرد على تماديهم فى التكذيب ، والتماسهم الأعذارَ الواهية التى لاتقوم عليها حجة ، وادعائهم أنه أساطير الأولين ، وأنه مما لايعرفونه ولاعَرَفه آباؤهم الأولون من قبل . والمعنى إن هذا الذى كذبوا به كتاب شريف متفرد فى النظم والمعنى محفوظ من التحريف مصون عن التغيير والتبدل ، وقد حكم الله فيه بسعادة من آمن بك وشقاوة من كفر ، ومايُبدَّل القول لديه وماهو بظلاّم للعبيد . وقد أخبرنا الله تعالى فى هذه الآية عن اللوح المحفوظ وأفادنا أن كتابه وهو القرآن الكريم مُودَع فيه ، وعلينا أن نؤمن بذلك على هذا القدر الذى بينه القرآن الكريم ، وليس علينا أن نبحث فيما وراء ذلك ، وأن نتلمس وُجُوه الرأى والتفكير ؛

(١) قرىء فى قوله تعالى « بل هو قرآن مجيد » باضافة قرآن إلى مجيد ، والمعنى حينئذ بل هو قرآن رب مجيد : أى ذى مجد وكبرياء . وقرىء فى قوله تعالى « فى لوح محفوظ » بجر محفوظ على أنه صفة للوح ، وبرفع محفوظ على أنه صفة لقرآن .

فان هذه الأشياء لاتدرك بالرأى ، ولايمكن أن يقف على كنهها الفكر ، بل هى مزالُّ للآراء ، ومزالق للأفكار ، والذين آمنوا هم الذين يَكِلُون علم حقائق ذلك إلى الله وحده يقولون آمنا به كُلٌّ من عند ربنا ، وأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ماتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ومايعلم تأويله إلا الله ، ربَّنا إننا آمنَّا بما أنزلت ، واتبعنا الرسولَ الذى أرسلت ، ووقفنا عندما حَدَّدْت ، وَمَنَعْنا أَنْفُسَنَا أن تبحث فيما تفردت بعلمه واستأثرت ، فاجعلنا عندك من المقبولين ، ورَضِّنا بقضائك وقدرك يا أرحم الراحمين .

سورة الطَّارِقِ *

[وَهى مكية ، وَآياتها سَبْعَ عشرة آية ، ونزلت بعد سورة البلد] (١)

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيم

وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ [١]

---

(١) لاخلاف فى أن هذه السورة مكيّةٌ ، واختلف فى عدد آياتها : فقيل : سبع عشرة آيةً ، وقيل : ستَّ عشرة آيةً

ابتدأ الله تعالى هذه السورة بالحلف بالسماء كالسورة السابقة ، وأقسم كذلك فى مستهلّ هذه السورة بالطارق ، ثم فسّرهُ بعد تفخيم شأنه بأنه النجم الثاقب ، وفى هذه السورة ردٌّ على من كذَّب القرآن وادعى أنه أساطير الأولين بأنه القولُ الفصْلُ ، وذكّر الله تعالى فى هذه السورة الانسانَ بخلقه ومبدأ أمره ليتدبر فى ملكوت الله ويستدلَّ منه على قدرة مُبْدِعه وأنه لا يعجز عن إعادة الناس بعد موتهم إلى الحياة للحساب والقصاص والجزاء على ما أسلفوا فى حياتهم الأولى

والسماء : كل ما علاكَ ، وقد كثر فى كتاب الله تعالى الحلفُ بالسماء وبالشمس وبالقمر وبالليل لأن أحوالها فى شكلها وسيرها ومطالعها ومغاربها من عجائب الأحوال وغرائب الأمور التى تكفى النظرة الواحدة إليها للتصديق بأن لها خالقا لاَ يُقْدَرُ قَدْرُهُ

والطارق : الذى يجيئك ليلاً ، ولا يقال لمن يجيئك نهارا طارق ، ولهذا تستعمل العربُ الطروقَ فى صفة خيال الأحباء ؛ لأن الخيال لا يكون إلا بالليل ، انظر إلى قول جرير :

وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ [٢] النَّجْمُ الثَّاقِبُ [٣]

طَرَقَتْكَ صائدةُ القلوبِ، وَلَيْسَ ذا   وَقْتَ الزيارة ؛ فارجعى بسَلَامِ

ثم انظر إلى قول ذى الرمة :

أَلَا طَرَقَتْ مَىٌّ هَيُوماً بذكرها   وَأَيْدِى الثُّرَيَّا جُنَّحٌ بالمغارب

ثم انظر إلى قول الآخر :

أَلَا طَرَقَتْ مِنْ آخر الليل زَيْنَبُ   عَلَيْكِ سَلَامٌ !! هل لما فَاتَ مَطْلَبُ

تدرك أن الطروق فى كلام العرب لا يكون إلا بالليل ، ثم إنه سبحانه وتعالى بعدأن ذكر الطارق مُقْسِماً به كان هذا مِمَّالا يَسْتغنى سامعه عن معرفة المراد منه ؛ فقال سبحانه : (وما أدراك ما الطارق النجم الثاقب) ففسره بأنه النجم الثاقب ، بعدأن عظم شأنه وفَخَّم أمره :أى هو طارق عظيم الشأن جليل المقدار رفيع المنزلة ، وهو النجم الثاقب ، الذى يهتدى به فى ظلمات البر والبحر ،ويُوقَفُ به على أوقات الأمطار غيرها من الأمور التى يحتاجها الانسان فى حياته . والمراد بالنجم جنس النجم ،لا نجم بعينه ، وقد قال قوم من المفسرين إن المراد به الثريا ، وقال قوم : المراد به زُحَل ؛ فمن ذكر منهم ذلك على أنه مثال للنجم فهو صادق وكلامه صحيح ، ومن ذكر منهم ذلك على أنه المراد دون غيره من النجوم فكلامه لا يستند إلى حجة وليس فى الكلام الكريم ما يدل عليه فلا يجوز المصير إليه ، وقد وصف سبحانه النجم بالثاقب لأنه يثقب الظلام بضوئه فينفُذ فيه ، أو لأنه يطلع من المشرق فينفذ فى الجو كالمثقب الذى يثقب به الشىء ، أو لأنه يُقْذَفُ به الشيطان إذا حاول استراق السمع فينفُذ فيه ويحرِقه ، أولأن المراد به ما كان أعلى النجوم وأرفعها ، والعرب تقول للطائرإذا ارتفع فى الجوفاحق بالسماء :قدثَقَبَ الطائر

إنْ كلُّ نفْسٍ لمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ [٤]

وقوله سبحانه وتعالى : (إن كل نفس لما عليها حافظ) هذا هو الْمُقْسَم عليه ، والمراد بالنفسِ النفْسُ الانسانية ، والمراد الإخبار على سبيل التأكيد عن الاعتناء بهذه النفس وإقامة الحفظة عليها وأنها لم تُتْرَك سُدًى ولم تُرْسَل مُهْمَلَةً بل قد أُرْصِد عليها من يحفظها ، ومن يُحْصِى عليها أعمالها ، وقد اختلف المفسرون فى بيان المراد من الحافظ ؛ فقال قوم : هو الله جل شأنه الذى بحفظه تبقى الموجودات وقد قال سبحانه : « فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين » وقال قوم : الحفظة هم الملائكة كما قال جل شأنه « ويرسل عليكم حَفَظَةً » وقال سبحانه « عن اليمين وعن الشمال قعيد ، مايلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » وقال « وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ماتفعلون » وقال « له مُعَقِّبَاتٌ من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله » وكما اختلفوا فى الحافظ اختلفوا فى عمله ؛ فذهب قوم إلى أن هؤلاء الحفظة يكتبون على الانسان أعماله ويُحْصُونها دقيقة كانت أو جليلة ، حتى يخرج له ذلك يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا ، وقال آخرون : يحفظون عمل الانسان ورزقه وأجله ، وسواء أكان المراد هو هذا أم كان المراد الأول فان فى هذه الآية وعيدا للكفار وتسليةً للنبى صلى الله عليه وسلم ولأصحابه ؛ فكأنه يقول : إذا كان هؤلاء القوم قد آذَوْك وأعْنَتُوك وأصَرُّوا على كفرهم واستكبروا عن الاستماع إلى دعوتك وَلَجُّوا فى طغيانهم فلا تحزن لذلك ولا يَضِقْ صدرك بهم ولا تظن أنا نهملهم ونتركهم ، بل ثق بأننا سنجازيهم على أعمالهم هذه بما يستحقونه من الجزاء لأننا نُحْصى عليهم أعمالهم ونحفظها فلا يذهب عنا شىء منها ، ثم نحن نحاسبهم على كل صغيرة وكبيرة يوم يُعْرَضون علينا فنخرج لهم كتب أعمالهم فاذا رأوها وجدوا أنها لم تغادر شيئا مما عملوه ، وانظر إلى قوله تعالى فى سورة مريم : « فلا تعجل عليهم إنما نَعُدُّ لهم عَدًّا » تدرك أنه

فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ [٥] خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ [٦] يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ [٧]

سبحانه يحصى أعمال هؤلاء وغيرهم ، ولاشك أن هذا العدّ لحكمة وغرض عظيم ، وهو المحاسبة عليها .

وبعد أن انتهى سبحانه من بيان أن الناس لم يخلقوا عبثا ولم يتركوا سُدًى أراد أن ينبه الانسانَ إلى الدليل الواضح على صحة المعاد وأنه لابُدَّ أن يرجع إلى ربه فيجازيه على ماعمل ؛ ولما كان أقربُ شيء إلى الانسان نفسه التى إن تدبَّر أمرها ووقف على سِرّها وعرف حقيقتها اهتدى إلى الصواب ، بدأ جل شأنه يذكره بنفسه ويلفت نظره إلى كيفية خَلْقه ونشئه ، فقال سبحانه : « فلينظر الإنسان مم خلق ، خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب » تقول : دَفَقْتُ الماء أدْفقُهُ — من بابى ضرب ونصر — إذا صببته ، وأنت دافق ، والماء مدفوق ومُنْدَفق : أى منصبّ . وحكى الليث والخليل أنه يقال : دَفَقَ الماء دَفْقًا ودُفوقاً ، إذا انصبّ فالماء دافق : أى منصبٌّ ؛ فعلى ما حكاه الخليل والليث يكون الفعل لازما ، وعلى ما حكاه الجماعة يكون هذا الفعل متعديا . وقد اختلف العلماء فى تخريج قوله تعالى « ماء دافق » فأما من حكى أن الفعل يأتى لازما فالأمر عندهم لايحتاج إلى عناء وتفكير ؛ وذلك لأن الماء ينصبُّ ويندفق وهذا المعنى يؤديه لفظ دافق من الفعل اللازم ، وأما من ذكر أن هذا الفعل لايكون إلامتعدّيا فقد أشكل الأمر عليهم بعض الاشكال لأن الدافق ليس هو الماء ؛ إذ الماء مدفوق لا دافق ، وإنما الدافق الرجلُ ، ولهذا اضطروا إلى التماس التخريجات ؛ فذهب قوم منهم الزجاج إلى أن هذا اللفظ ليس اسم فاعل كضارب وناصر ، وإنما هو صيغة نَسَب مثل لابن وتامر ودارع وفارس ونابل وطاعم

وكاسٍ : أى ذى لبن وتمر ودرع وفرس ونبل وطعام وكسوة ، وذلك مثل قول الحطيئة :

دَعِ المكارمَ لا تَرْحَلْ لبغيتِها وَاقعُدْ فانَّكَ أنتَ الطاعمُ الكاسِى

يريد فانك أنت ذو الطعام وذو الكسوة ؛ لأنه لو كان الطاعم الكاسى اسم فاعل فى قول الحطيئة لكان معناه فأنت الذى تطعم غيرك وتكسوه ، ولاشك أن هذا معنى فاسد لا يدل عليه صدر البيت ولا الغرض المسوقُ إليه البيت ، ولا يلتئم مع واحد منهما ، وذهب قوم إلى أن هذا اللفظ ـ وهو « دافق » ـ اسم فاعل مأخوذ من الفعل المتعدى ، وكان من حقه أن يقع وصفا للرجل ، ولكنه وصف به المفعول ـ وهو الماء ـ مجازا ، وذلك كما يقولون : سِرٌّ كاتم ، وهمٌّ ناصب ، وليل نائم ، وقد وقع مثل ذلك فى القرآن الكريم ، مثل قوله تعالى : « فى عيشة راضية » وإنما العيشة مرضية لا راضية ، والراضى هو صاحب العيشة . وجاء ذلك أيضا فى كلام العرب فقال النابغة الذُّبيانى : —

كلينى لهمٍّ ياأُمَيْمَةُ ناصِبِ وليل أقاسيه بطىء الكواكب

والصُّلْب ـ بضم الصاد وسكون اللام ـ ومثله الصُّلُب ـ بضم الصاد واللام جميعا ـ والصَّلَب — بفتحهما جميعا ـ والصالبُ أيضا : هو الظهر أو هو فقاره . والترائب جمع تريبة ، وهى عظم الصدر حيث تكون القِلادة ، وقد قال أمرؤ القيس :

* تَرَائبُها مَصْقُولَةٌ كَالسَّجَنْجَلِ *

والمراد من هذه الآية الكريمة الاشارة إلى مبدأ خلق الانسان ، وأنه خُلِق من هذا الماء الضعيف شأنه . وقد اختلف العلماء فى بيان ما تدلُّ عليه هذه أيخلق الإنسان من ماء الرجل وحده ، أم يخلق من ماء الرجل والمرأة جميعا ؟ فقال قوم : الولدُ مخلوق من الماء الذى يخرج من بين صلب الرجل وترائبه ؛ لأنا

لو قلنا إنه مخلوق من الماء الذى يخرج من صلب الرجل والماء الذى يخرج من ترائب المرأة لما كان هناك ماء واحد يصح أن يقال فيه إنه يخرج من بين الصلب والترائب ، بل هو حينئذ خارج من الصلب وحده ومن الترائب وحدها ، وأيضا فلأن الله تعالى وصف هـذا الماء بأنه دافق قبل وصفه بالخروج من بين الصلب والترائب ، وماء المرأة لايكون دافقا ؛ فوجب لهذين الأمرين أن يكون الولد مخلوقا من ماء الرجل وحده ، وبعض الناس يبالغ فى ذلك فيزعم أنه ليس للمرأة ماء البتة ، ويزعم أن الطب وعلم الأبدان دلّ على ذلك ؛ وقال قوم : الولدمخلوق من ماء الرجل وماء المرأة جميعا ، وهذا هو الذى تدلّ عليه الأحاديث الكثيرة الواردة عن صاحب الشريعة صلى الله عليه وسلم ؛ منها قوله صلوات الله وسلامه عليه « إذا غلب ماء الرجل عاد شبه الولد إليه أو إلى أقاربه ، وإذا غلب ماء المرأة عاد شبه الولد إليها أو إلى أقاربها » فأثبت للمرأة ماء ، وأثبت أنه يمتزج بماء الرجل وأثبت أن أحدهما يغلب صاحبه . وقول من قال إن المرأة لاماء لها غيرصحيح البتة وذلك لأنه لوكان يقصد من ذلك أنها لا ماء لها ينفصل إلى خارج ويتدفق منها مثل تدفق ماء الرجل فهذا مُسَلَّم ، لكنه لا يدل على أن المرأة ليس لها ماء يختلط بماء الرجل ، وإن قصدوا أنها ليس لها ماء أصلا فهذا قول غير صحيح ، ونحن ننبههم إلى أن العقل وعلم الطب الذى زعموا أنهم يتمسكون به قد دلاّ جميعا على أن المرأة إفرازات تدعو إليها الضرورة ، وهذه الافرازات تشبه اللعاب الذى يجرى فى فم الانسان والذى تدعو إليه الضرورة ، أولست ترى أن الله جلت قدرته لو أنه لم يخلق هذا اللعاب فى فم الإنسان لكان مضغ الأكل وازدراده مما لا يتيسر بل لكان داعيا إلى الحرج الشديد ومسببا للاحتقان والآلام الجسيمة ، فكذلك لو لا أن المرأة سائلاً منتشرا على جُدْرَانِ محلها لكان فى أمرها عُسْرٌ وجَهْد عظيمان ، ثم إن لها بُوَيْضَات هى التى تحمل اللِّقاح من ماء الرجل ، وهذه

البويضات تنتقل من المكان الذى تتولد فيه لتلتقى بماء الرجل ، فلا بد لها من أن تنزلق من مكانها ؛ فهذا الماء يتزايد حينئذ لتنزلق به البويضات . هذا كلام مجمل سُقْنَاهُ ههنا للاشارة إلى الرد على القائلين بأنه ليس للمرأة ماء ، وأنه لا يمكن أن يغلب أحد الماءين الآخر ؛ يريدون بذلك الطعن على الحديث النبوى وعلى هذه الآية الكريمة ، ويمكنك أن تفهم معنى غلبة أحدهما الآخر بعد أن أعطيناك صورةً قريبة للأمر ؛ ثم إن الغرض من هذه الآية توجيه نظر الانسان إلى مبدأ خلقه ودلالته على قدرة الله التامة التى لا يعجزها شىء ليستدل بذلك على قدرته سبحانه على أن يعيد خلقه مرة أخرى ليجازيه على عمله ، أما دلالة مبدأ خلق الانسان على تمام قدرة الله فلأن من تأمل فى الماء الذى خلق منه وَجَد ماء مائعا لا تصوير فيه يتحوَّل مخلوقا كاملا مملوءا بالحياة والعقل والقدرة ذا أعضاء لكل عضو منها وظيفة يقوم بها ، فاذا علم ذلك أيقن أن هذا التصوير والتقدير وإنشاء الأعضاء والآلات البدنية وإيداع كل عضو من القوة ما به يتمكن من تأدية عمله تمام التمكن لا بدَّ أن يكون له مصوِّر ومقدِّر ومنشىء لأنه يستحيل أن يُوجَدَ شيء من تلقاء نفسه بغير موجد أوجده ، ثم إن هذا الموجد لا بد أنه ليس من أهل القُدَر المحدودة . وإذا أثبت العقل بالتفكر فى مبدأ خلق الانسان هذا المقدار سهل عليه بعد كل ذلك أن يصدق بما جاء به الشرع وهو أن هذا الموجد المقدر هو الله تعالى ، وهو بالتصديق بالبعث والقيامة أحرى ؛ لأنه يرى أن خلق الانسان من الجمع بين أجزاء كانت متفرقة فى جسم الأبوين ، بل هى متفرقة فى جميع العالم ؛ لأن هذا الماء متولِّد من خلاصة الأطعمة التى يتناولها الانسان ، وهذه الأطعمة قد كانت متفرقة فى أنحاء متباعدة ، فجمعها الله تعالى ثم جمع الأبوين ، ثم جمع ماءهما فى مكان واحد ثم خلق منه الولد ، فأما إعادته فليس فيها مثل ذلك ، فهى بغير شك أهون .
ولهذا الذى ذكرناه لك والارتباط العظيم بين دلالة منشأ الانسان على قدرة الله

إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ [٨] يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ [٩]

ودلالته على أمر البعث تجد الله قد ذكر بعده أمر المعاد فقال : (إنه على رَجْعِهِ لقادر) والضمير فى « إنه » يرجع إلى الله تعالى الخالق للانسان من ماء دافق ، فان قات : إن الله تعالى لم يتقدم ذكره قبل ذلك حتى يصح عود الضمير إليه ، وقد تقرر أن مرجع الضمير لا بد من تقدمه . قلنا : إنه قدم ما يدل عليه وهو قوله تعالى « خُلِق » فان هذا الفعل يشير إلى الخالق بمجرد ذكره ، فاذا قال بعد ذلك « إنه » فُهِم أن المراد به الخالق الذى يشير إليه الفعل المذكور قبلا ، وَتدبر فى قوله تعالى « اعدلوا هو أقرب للتقوى » تجد الضمير يعود إلى العدل الذى يفهم من الفعل المذكور قبله وهو « اعدلوا » . ثم انظر إلى قول الشاعر :

إذا زُجِرَ السفيهُ جرَى إليه وَخالَفَ ، والسفيهُ إلى خلاف

وتَفَهَّمَ مرجع الضمير فى «إليْه» تجده عائدا إلى السَّفَه الذى أشار إليه ذكر السفيه قبله . والرَّجْعُ : مصدر قولك « رَجَعْت الشىء » إذا رددته . والمعنى إن الذى قدَر على خلق الانسان ابتداء من هذا الماء قادر على أن يرده حيًا بعد أن يموت . وهذه الآية فى دلالتها على ذلك مثل قوله تعالى : « قل يحييها الذى أنشأها أول مرّة » وأصرح منهما قوله سبحانه : «وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى فى السموات والأرض ، وهو العزيز الحكيم » وقوله تعالي : (يوم تبلى السرائر) فيوم : ظرف متعلق برجعه ، وتبلى : أصل معناه تُختبَر وتمتحن ، والمراد منه ههنا معنى تظهر . والسرائر : جمع سريرة ، وهى الأمور التى تكون بين العبد وربه ، والمعنى أن الله سبحانه قادر على أن يعيد الانسان إلى الحياة فى اليوم الذى تنكشف فيه المستورات وتبين الخفايا ، فيبُدِى الله تعالى كُلَّ سرمنها ؛ فيكون إبداؤه زَيْنًا فى وجوه بعض الناس ، وشَيْنًا فى وجوه آخرين ،

فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ [١٠]

فأما من ظهر أنه كان يؤدي أعماله على أوجهها المطلوبة شرعا لايرائى بها ولايداهن ولا يمارى فان البِشْرَ يظهر على وجهه فيشرق ويتلألأ ، وأما من بدا أنه كان يرائى الناس بأعماله ولا يؤدى ما طاب منه على الوجه الذي طولب به فانه يَسْوَدُّ وجهه وتظهر الكآبة عليه . وفى هـــذه العبارة من التحذير الشديد والتخويف من الرياء وعدم إتقان الأعمال وتأديتها على الوجه المرغوب فيه ما ليس يخفى على متأمل . وقوله تعالى : (فما له من قوة ولا ناصر) معناه أن الانسان يومئذ ليست له قوة يدفع بها عن نفسه ما حلّ به من العذاب ، وليس له ناصر ينصره ويدفع عنه ، إذ لا تجزى هنالك نفس عن نفس شيئا . وإنما نفى الأمرين لأن القوة التى للانسان والتى يُدافع بها عن نفسه إما أن تكون من ذاته ، و إما أن تكون مستفادة من غيره ؛ فنفى عنه الأولى بقوله سبحانه «فماله من قوة» ونفى عنه الثانية بقوله « ولا ناصر »

ثم إنه سبحانه وتعالى بعد أن بين أن على كل نفس من أنفس الخلائق حافظا يحفظها ويحصى عليها أعمالها ، وهذا يدل على إثبات الألوهية ، ويدل أيضا على إحاطة علمه سبحانه بالأنفس ومايكون منها ، وعلى قدرته وتمكنه منها فى جميع أطوارها ، وبعد أن بين قدرته سبحانه على إعادة الإنسان بعد الموت ولفت نظر الانسان إلى التدبر فى برهان هذه القدرة الذى لايبقى بعده فى نفسه أدنى ريب أو شك فى المستدَلّ عليه ؛ بعد ذلك كله أخذ فى شأن آخر ، وهو إثبات صحة رسالة رسوله الكريم إلى الناس ، وإثبات صحة ما يأتيهم به من عند الله ، وأهمه القرآن الكريم الذى كانوا يقولون عنه إنه أساطير الأولين ،

وَالسَّمَآءِ ذَاتِ الرَّجْعِ [١١] وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ [١٢] إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ [١٣] وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ [١٤]

وأقسم سبحانه على ذلك لتأكيد صحته لهم على حسب ما تعارفوا من أساليب الكلام ؛ فقال جل شأنه : (والسماء ذات الرجع والأرض ذات الصدع إنه لقول فصل ، وما هو بالهزل) تقول : رَجَعْتُ الشيء إلى الشيء رَجْعًا وَمَرْجِعًا وَمَرْجَعًا ، إذا أعدته إليه وصرفته نحوه . وكذا تقول : رَجَعْتُ الشيء عن الشيء ؛ إذا صرفته عنه ؛ فالرَّجْع على هذا فى أصل وضعه بمعنى إعادة الشيء إلى حالة أو مكان كان فيه ذلك الشيءُ أولا ، وقد قال المفسرون : المراد بالرجع فى هذه الآية الكريمة المطر ، وإنما سمى المطر رَجْعًا لكونه يُعَادُ إلى الأرض من السماء ، وبيان ذلك أن السحاب تحمل بخار الماء من البحار فترفعه إلى السماء ، ثم يصير هذا البخار مَطَرًا فيعود إلى الأرض ، وقد أشار إلى ذلك أبو تمام فى قوله :—

كالبَحْرِ يُمْطِرُهُ السحابُ ، ومَا لَهُ فَضْلٌ عليه لأنه مِنْ مَائِهِ

وكانت هذه عقيدة العرب من قديم ، وقد أثبت العلم الحديث فى هذه الأيام صحة هذه الفكرة . فقوله تعالى « وَالسماءِ ذات الرَّجْع » هو قَسَمٌ بالسماء ذات المطر ، وقد أقسم الله تعالى بها ووصفها بهذا الوصف لأنها آية من الآيات العظيمة الدالة على ربوبيته وقدرته ، وقوله سبحانه « والأرض ذات الصَّدْع » فالصَّدْع فى الأصل تَفَرُّقُ الأجزاء ، وهو أيضا الشقُّ ، وذلك لأن الشق إنما ينشأ عن تفرُّق بعض الأجزاء وانفصالها عن بعض ، وقد سَمَّوْا النَّبَات صَدْعا لأنه يَصْدَع الأرض ويشقها عند خروجه من باطنها ، فهو من باب وصف الفاعل بالمصدر ثم تسميته بما هو من أوصافه ، وقد أقسم سبحانه بالأرض ووصفها بهذه الصفة لأنها

أيضا آية من آيات قدرته وشاهد من شواهد ربوبيته . وأيَّةُ آية أظهر للعرب من المطر الذى يبدِّل جَدْبهم خصبا، ويعيد موَات أرضِيهم حياةً ، ويصير به لهيب صحرائهم نعيما ، ثم أيّة آية أبلغ فى أن يُذكَّروا بها من النبات الذى عليه حياتهم وحياة أنعامهم وهم قوم فى بلادٍ مُقْفرة جَدْباء . وقوله سبحانه وتعالى : « إنه لقول فصل » هو المقسم عليه ، والضمير فى « إنه » عائد إلى القرآن الكريم ، ومعنى أنه فَصْلٌ أنه يَفْصل بين الحق والباطل وأنه يقطع الجدالَ والمراء ، وذلك كما سمى القرآن فرقانا لكونه يفرق بين الحق والباطل ، وهو وصف بالمصدر ، مثل قولهم : هذا رجل عَدْل ، وهذا رجل رِضًا ، ويقال : الضمير فى « إنه » عائد إلى إخباره بقدرته على إعادتهم بعد الموت فى قوله « إنه على رجعه لقادر يوم تُبْلَى السرائر » وفى إقسامه على ذلك بالسماء ذات الرجع والأرض ذات الصدع إشارة جلية إلى أنه كما يرسل على الأرض القاحلة المجدبة أمواه الأمطار فتصبح بها الأرض مخضرة مورقة مونقة فتحيا الأرضُ بذلك بعد الموت ، وهم يشاهدون ذلك متكررا بين أعينهم لا يحجبهم عنه حاجب ، فانه يُحْيِيهم بعد موتهم ؛ لأن إحياءهم ليس بأشق من إحياء الأرض الموَات ، وقد تكرر فى الكتاب العزيز الاستدلالُ على صحة البعث بتوجيه نظرهم إلى ذلك ، فمن ذلك قوله سبحانه : « فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يُحْيِي الأرض بعد موتها ؛ إن ذلك لمحيي الموتى ، وهو على كل شىء قدير » ومن ذلك قوله تعالى : « ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وَرَبَتْ ، إن الذى أحياها لمحيي الموتى ، إنه على كل شىء قدير » وقد ذكر هذا مع غيره فى قوله جل شأنه : « ولقد علمتم النَّشْأَة الأولى فلولا تَذَكَّرُون ، أفرأيتم ما تحرُثون ؟ ءأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ؟ لو نشاء لجعلناه حُطَامًا فظلتم تفكهون ، إنا لمغرمون ، بل نحن محرومون . أفرأيتم الماء الذى تشربون ؟ ءأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ؟ لو نشاء جعلناه أُجَاجاً فلولا تشكرون . أفرأيتم النار

إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا [١٥] وَأَكِيدُ كَيْدًا [١٦]

التى تُورُونَ؟ ءأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون؟ نحن جعلناها تذ كِرَةً ومتاعاً للمقْوِين . فسبح باسم ربك العظيم » وقوله سبحانه « وما هو بالهزل » معناه أنه جدٌ لا لَعِبَ فيه . وذلك أن البيان قد يُذ كر على سبيل الجد والاهتمام بشأنه ، وقد يكون على غير هذا السبيل ، فبين سبحانه أن هذا القولَ القاطع المِراء والجدال الحاسم لمادّة النزاع والخلاف ليس مما يذكر بغير اهتمامٍ لشأنه وجدٍّ فى أمره . وقوله سبحانه وتعالى : (إنهم يكيدون كيدا ، وأكيد كَيدًا) أما الكيد الذى وقع من الكفار فأنواع ؛ منها إلقاء الشُبُهات فى سبيل الدعوة التى يقوم بها الرسول ، وقَصْدُهم بذلك صَدُّ الناس عن اتباعه ، فمن هذه الشبهات إنكارهم البعث وقولهم « إن هى إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين » واستبعادهم لأمر البعث وقولهم « من يحيي العظام وهى رَميم » وإنكارهم عليه تسفيه أحلامهم وتضليل عقولهم ودَعْوته إلى الوحدانية وخلع الأصنام وقولهم فى ذلك « أجعل الآلهة إلٰها واحدا ؛ إن هذا لشىء عُجَابٌ » وإنكارهم نبوته ودعواهم أنه لا يصلح للنبوة وقولهم « لولا نزل هذ القرآن على رجل من القريتين عظيم » وإنكارهم القرآن ، وأنه من عند الله وقولهم فى شأنه « أساطير الأولين اكتتبها » ومن أنواع كيدهم الطعن فى النبى بكون ساحرا ، أو شاعرا ، أو مجنونا ، ومن أنواع كيدهم تبييتهم قتله مرارا « وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك » وأما المراد بقوله سبحانه « وأكيد كيدا » فهو أنه يُقابل كيدهم بنصره رسوله وإعلائه دينه وَجَعْل كلمته العليا وكلمةَ الذين كفروا السفلى ، ويقال : كيده سبحانه إمهالهم حتى يأخذهم على غِرة أخذا أليما شديدا . وقد سَمَّى سبحانه ذلك كيداً للمشاكلة لوقوعه بجوار كيدهم وذلك كما قال سبحانه « نسوا الله فأنساهم أنفسهم » وكما قال « يخادعون الله

فَمَهِّلِ الْكَـٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا [١٧]

وهو خادعهم » ومثل ذلك قول الشاعر :

أَلَا لَا يَجْهَلَنْ أَحَدٌ عَلَيْنَا فَنَجْهَلَ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَا

وقوله سبحانه وتعالى : (فَمَهِّلِ الكافرين) هو أمر للنبي صلى الله عليه وسلم بأن يتأنى عليهم ويتربَّث ليرى أخذه تعالى لهم، وكأنه يقول له : لاتستعجل عذابهم ولا تطلب الإسراع باهلاكهم فاذا نمهلهم ليزدادوا إثما وليشتد طغيانهم حتى إذا أخذناهم لم يبق لهم من يرحمهم ، وقد بَيَّنَ له أن هذا الإمهال المأمور به ليس طويل الأمد وإنما هو إلى أجل قريب فقال سبحانه (أمهلهم رُوَيْدًا) والمعنى إنا سنأخذهم عما قريب ؛ وفى ذلك بَعْثٌ بالطمأنينة إلى قلوب المؤمنين الذين كانوا يخافون هؤلاء الكفار ويخشون صولتهم ويحذرون اعتداءاتهم المتكررة عليهم ، وفيه - مع ذلك - تحذير للكفار وإرهابٌ لهم وتخويفهم من عاقبة إصرارهم على ماهم عليه من الكفر والْمُشَاقَّة لله ولرسوله وللمؤمنين ، وفيه استنهاض للهمم أن تنطلق فى طريق غير طريق هؤلاء الكفرة الفجرة .

سُورَةُ الْأَعْلَى*

[وَهِيَ مَكِّيَّةٌ ، وَآيَاتُهَا تِسْعَ عَشْرَةَ آيَةً ، وَنَزَلَتْ بَعْدَ سُورَةِ التَّكْوِيرِ] (١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى [١]

---

* وتسمى سورة « سَبِّحْ »

(١) لاخلاف فى أن آيات هذه السورة تسع عشرة آية ، واختلفوا فى مكان نزولها ؛ فقيل : هى مدنية ، والصحيح أنها مكية

قوله تعالى : (سبح اسم ربك الأعلى) التسبيح معناه التَّنْزيه ، ومعنى سبِّح اسم ربك نَزِّهْه عن كل مالايليق به ، فلا تذكره إلا على وجه التعظيم له ، ولا تذكره فى مكان لايليق ذكره فيه ، ولا تُرِدْ به مَعْنًى لا يليق بعظمة ربك الكبير المتعال الذى لا نِدَّ له ولا مِثْل له ولا مُشابه له ؛ ولاتطلق اسم ربك على غيره زاعماً أنه يشاركه ويساويه فيه . فأنت مكلف بأن تنزه اسم الله عن كل ذلك . ويقال كلمة « اسم » هاهنا صلة ، والمراد سبح ربك ، وقد وقعت هذه الكلمة مقحمة فى قول لبيد بن ربيعة العامرى :

إلى الحَوْلِ ثُمَّ اسْمُ السَّلَامِ عليكما ... وَمَنْ يَبْكِ حَوْلاً كاملاً فقد اعتذر

يريد ثم السلام عليكما ، فزاد كلمة اسم ، والمعنى على هذا الوجه نَزِّه ربك عن كل مالا يليق به فى ذاته وفى صفاته وفى أفعاله وفى أسمائه وفى أحكامه ، أماتنزيه ذاته تعالى فأن تعتقد أنها ليست مشابهة للذوات وليست جَوْهَراً ولا عَرَضًا ، وأما تنزيه صفاته تعالى فأن تعتقد أنها ليست بحادثة ولا نهاية لها كما أنها ليست ذات

نقص ، وأما تنزيه أفعاله تعالى فأن تعتقد أنه مالك مطلق لا اعتراض لأحد عليه فى ملكه يفعل ما يشاء له الحكم وله الأمر ، وأما تنزيهه فى أسمائه فألا تذكره باسم إلا إذا ورد عن الشريعة إطلاقه عليه ، وزعم قوم أن كل ما لا يوهم نقصا من الأسماء يجوز إطلاقه عليه ، وأما تنزيه أحكامه فهو أن تعتقد أنه تعالى لا يكلفنا هذه التكاليف لنفع يعود عليه ، بل هو لأنه مالكنا ومدبر أمورنا وخالقنا ؛ فنحن أحقاء بأن نبذل غاية الوسع فى شكره سبحانه على هذه النعم التى تتوالى علينا والآلاء التى لا يحيط بها الحصر ، ومن الشكر أن نقوم بما فرضه علينا ، وانظر إلى قوله سبحانه « وما خلقت الجن والأنس إلا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون » ، ويقال : معنى تسبيح الله وتنزيهه ألا نعرض جلاله للكفار فيقدموا على النيل منه ، كما قال سبحانه : « ولا تسبوا الذين يَدْعُونَ من دون الله فيسبوا الله عَدْوا بغير علم » . وقد روى عن عقبة بن عامر أنه لما نزل قوله تعالى « فسبح باسم ربك العظيم » قال النبى صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم : اجعلوها فى ركوعكم ؛ ولما نزل قوله تعالى «سبح اسم ربك الأعلى» قال : اجعلوها فى سجودكم ، ومن أجل هذا الحديث ونحوه ذهب جماعة من العلماء إلى أن المراد من قوله تعالى « سبح اسم ربك الأعلى » صَلّ باسم ربك ، فالتسبيح هاهنا ـ على هذا ـ بمعنى الصلاة . ومعنى قوله تعالى «الأعلى» أنه أجل وأعظم من كل ما يصفه به الواصفون ومن كل ما يذكره به الذاكرون ، وأن جلال كبريائه أعلى مما تصل إليه معارفنا وإدراكاتنا ، وأن صنوف نعمه وآلائه أعلى مما يبلغه حمدنا وثناؤنا ، لا نحصى ثناء عليه ، هو سبحانه كما أثنى على نفسه ، وأن أنواع حقوقه على عباده أعلى مما تفى به طاعاتنا وأعمالنا ، وهذا الوصف مشعر باستحقاقه سبحانه للتنزيه والتقديس والتسبيح المأمور به ؛ فكأنه يقول : سبح باسم ربك لأنه الأعلى الذى غلبت قدرته ، وقهر سلطانه ، والذى تفرد بالعزة والكبرياء ، وقوله جل

الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّى [٢]

ذكره : (الذى خلق فَسَوَّى) هو وما بعده استدلالٌ على وجود الربِّ وقدرته التامة ، وفيه مع ذلك بيانُ مبدأ خلق الإنسان والنَّبَات ، وهذان قد ذُكرا فى السورة السابقة ، أما مبدأ خلق الانسان وتكوينه فذكره فى السورة السابقة فى قوله تعالى : « فلينظر الانسان مم خلق ، خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب » وذكره فى هذه السورة فى قوله سبحانه « الذى خلق فسوى والذى قدر فهدى » وأما خلق النبات وتطوره فذكره فى السورة السابقة فى قوله جل شأنه : « والسماء ذات الرجع ، والأرض ذات الصدع » على ماسبق بيانه ، وذكره فى هذه السورة فى قوله تعالى : « والذى أخرج المرعى فجعله غثاء أحوى » وأنت تلاحظ أن ذكر خلق الانسان وتكوينه قد كان مفصلا بينا فى السورة السابقة فذكر هاهنا على سبيل الاشارة والاجمال ، وعلى العكس من ذلك خلق النبات ، فقد ذكر مجملا على سبيل الاشارة فى السورة السابقة ثم ذكر فى هذه السورة بينا مفصلا ؛ ليكون فى مجموع السورتين ذكر الأمرين على التفصيل والبيان الوافى ، والغرض من ذكر ذلك كله الاستدلال على وجود الرب وقدرته وتمكنه من فعل مايريد ، والاستدلالُ على ذلك بما ذكر مركوز فى طبائع الناس ولكنه لايهتدى إليه إلا من هداه الله فلم تتمكن الشياطين من نفسه ولم يتأصَّل الشرُّ فى قلبه ، انظر إلى إبراهيم خليل الرحمن عليه الصلاة والسلام وقد أراد أن يستدل على ربه ووحدانيته وقدرته وانفراده باستحقاق التوجه إليه ، وأراد أن يعنف قومه على اتخاذهم الأصنام آلهة ، فقال : « هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون ؟ قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ، قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون ؛ فإنهم عدوٌّ لى إلا رب العالمين الذى خلقنى فهو يهدين ، والذى هو

وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ [٢]

يطعمنى ويَسْقين ، و إذا مرضت فهو يشفين ، والذى يميتنى ثم يُحيين ، والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين » ثم انظر إلى موسى عليه السلام وقد سأله فرعون « من ربكما ياموسى » فأجابه « ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى » تدرك تمام الادراك أن الاستدلال على وجود الله وقدرته بخلقه الانسان وهدايته أمرٌ تدل عليه الفطرة السليمة وترشد إليه النفس الخالصة من شوائب العتو والعناد ، وقد اُختلف العلماء فى المراد من قوله « خلق فسوّى » أهو إشارة إلى الانسان وحده ، أم هو إشارة إلى الانسان وسائر أنواع الحيوان ، أم هو إشارة إلى المخلوقات كلها ؟ فمن ذهب إلى أن المراد به الانسان وحده كان المعنى عنده أنه تعالى خلق هذا النوع العالى من المخلوقات وهو الانسان فجعل قامته مستوية معتدلة حسنة ، أو أنه خلقه فهيأه للقيام بأعباء التكاليف وأداء ما يطلب منه من العبادات ؛ وأما من ذهب إلى أن المراد بذلك خلق جميع أنواع الحيوان فالمعنى عنده أنه خلق هـذا الجنس على أنواع مختلفة ، وأعطى كل نوع منه مايحتاج إليه من الأعضاء والآلات والحواس ، وأنت لو تدبرت فى كل ما يقع عليه حسُّك من أنواع الحيوان لرأيت العجب العاجب ، وأما من ذهب إلى أن المراد بهذا جميع المخلوقات فالمعنى عنده أنه سبحانه خلق جميع الموجودات على ما أراد من الإحكام والإتقان ، وأن جميع المخلوقات فى الدلالة على قدرته وعظيم حكمته وبديع إتقانه متساوية . وقوله تعالى : (والذى قدر فهدى) أما تقديره تعالى فيتناول جميع المخلوقات فى ذواتها وصفاتها ويشير إلى أنه تعالى قدر كل واحدٍ منها على مايستحقه و يكون به استقرار شأنه ؛ فقدر السموات وما فيها من الكواكب ، وقدر الأرض وما فيها من المعادن ، وما يظهر على وجهها من النباتات ، وما يعيش عليها من الحيوان والانسان ، وجمل

كل واحد على مقدار مخصوص من الجثة والعِظَم ، وقدر لكل واحد من البقاء المدةَ التى قدَّرهاله ، وجعل لكل شىء منها من الصفات والألوان والطعوم والروائح والأوضاع والحسن والقبح وما أشبه ذلك مقدارا معلوما ، وانظر إلى قوله جل ذكره « وإنْ من شىء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » ، وأما قوله تعالى « فهَدَى » فيدل على أنه سبحانه بعد أن جعل كل مزاج على النحو الذى أراده قد جعله مستعداً لقبول القُوَى التى بآثارها يصلح حاله ، وقال المفسرون : معناه هدى الانسان للمعيشة ولمرعاه ، وقال آخرون : هدى الانسان لسبل الخير والشر والسعادة والشقاوة وذلك بسبب أنه جعله حَساساً مُدْرِكاً متمكنا من الإقدام على مايسره والإحجام عما يسوءه ، ويدل على مثل ذلك قوله تعالى : « إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا » وقوله جل ذكره : « ونفس وما سوَّاها فألهمها فجورها وتقواها » وقوله تعالت كلمته : « وهديناه النجدين » وقال آخرون : « هدى » معناه دلَّ عباده ، بأفعاله وبما أودع فى مخلوقاته من الدلائل الباهرة وبما ركب فى نفوس الخلق من القدرة على الفهم والمعرفة ، على توحيده وجلال كبريائه ونعوت وحدانيته ؛ وذلك لأن كل عاقل إذا نظر فى هذا العالم العجيب الصنعة رأى أفعالا محكمة متقنة مُتَّسقة منتظمة ، وهذه لا مَحالَة تدل على صانعها القديم الحكيم العليم الخبير . وبالجملة لستَ تجد قولاً للمفسرين فى بيان معنى هذه الآية الكريمة إلا وهو يرجع إما إلى أن المراد أن الله تعالى هَدَى خلقه إلى أحوال دنياهم ، وإما إلى أنه سبحانه هداهم إلى مافيه صلاح أمر آخرتهم ، والأولى أن يكون المراد جميع الأمرين ، فان كان مما لا بد منه أن يقتصر على أحدهم فجعل الهداية إلى أحوال الدين التى بها سعادة الآخرة أولى ؛ من قبل أن قوله تعالى « خلق فسوى » إشارة إلى أحوال الدنيا ويدخل فيه إتمام العقل وإكمال القدرة على مزاولة الأعمال ؛ فيكون قوله « فهدى » إشارة إلى أحوال الآخرة ؛ يجتمع فى الآية الكريمة الإشارة إلى

وَالَّذِى أَخْرَجَ الْمَرْعَى [٤] فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى [٥] سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى [٦] إِلَّا مَاشَاءَ اللهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى [٧]

أحوالهما جميعاً ، وأما قوله جل ذكره : (والذى أخرج المرعى فجعله غثاء أحوى) فالمرعى : كل ماتخرجه الأرض من النبات ومن الثمار والزروع والحشيش ، وقال ابن عباس : المرعى الكلأ الأخضر ، والغُثاء : مايَبِس من النبات فحملته الأودية والمياه وألْوَت به الرياح ، والأحوى [١] : هو الذى يضرب لونه إلى السواد ، وذلك أن العُشب إنما يجف عند اشتداد البرد ، ومن شأن البرودة أنها تبيض لون الشىء الرطب وتسود لون الشىء اليابس ، ومعنى هذه الآية أنه سبحانه وتعالى هو القادر على إنبات العشب وتبديل حاله لا الأصنام التى عبدَها الكفرة الفجرة

ثم إنه سبحانه لما أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بتسبيحه فى قوله « سبح اسم ربك الأعلى » وكان ذلك التسبيح لايكمل ولايتم إلا بقراءة ماأنزله الله تعالى عليه من القرآن ؛ لأن التسبيح اللائق بكمال الله وجلاله هو مايرتضيه لنفسه ، وذلك فى كلامه سبحانه ، كان هذا مَدْعاةً إلى شدة حرص النبى صلى الله عليه وسلم على حفظ القرآن ، وكان سببا فى خوفه أن ينساه فأزال الله تعالى عن نفسه ذلك الخوف بقوله : (سنقرئك فلا تنسى إلا ماشاء الله إنه يعلم الجهر ومايخفى) والمعنى سنجعلك قارئا للقرآن تقرأه فلا تنساه ، وقال مجاهد ومقاتل والكلبى : كان عليه السلام إذا نزل عليه القرآن أكثر تحريك لسانه مخافة أن ينسى فقال تعالى « سنقرئك فلا تنسى » أى : سنعلمك هذا القرآن حتى تحفظه ، ونظير ذلك قوله تعالى : « ولاتعجل بالقرآن من قبل أن يُقْضى إليك وَحْيُه »

---

(١) هذا التفسير على أن « أحوى » صفة لغثاء ، ومنهم من يقول : هو حال من المرعى ، وأصل النظم الكريم والذى أخرج المرعى أحوى فجعله غثاء ، فأخرت كلمة أحوى لمراعاة الفاصلة

وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ [٨]

وقوله سبحانه : « لاتحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه » والمراد إنا سنشرح صدرك ونقوى خاطرك ونُحدُ ذاكرتك حتى تحفظ بمجرد سماعه مرة واحدة ثم لاتنساه بعدها أبداً ، وقوله تعالى « إلا ماشاء الله » هو على ماقال الفراء : إنه تعالى ماشاء أن ينسى محمد عليه السلام شيئا ، إلا أن المقصود من ذكر هذا الاستثناء بيان أنه تعالى لوأراد أن يصير ناسيا لذلك لقدر عليه ، كما قال : « ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا إليك » ثم إنا نقطع بأنه تعالى ماشاء ذلك ، ومثل هذا قوله لنبيه محمد عليه الصلاة والسلام : « لئن أشركت ليحبطن عملك » ثم إنا نقطع بأنه صلوات الله عليه وسلامه ماأشرك البتة ، ففائدة هذا الاستثناء أنه تعالى يعرفه قدرة ربه حتى يعلم أن عدم النسيان من فضل الله وإحسانه لامن قوته ، وقال مقاتل : المراد أن ماشاء الله تعالى أن يُنْسِيَه إياه فعل ، والمراد من الذى ينسيه إياه الذى يريد سبحانه أن ينسخ تلاوته ، كما قال جل ذكره « ماننسخ من آية أو نُنْسها نأت بخير منها أو مثلها » فيكون المعنى إلا ماشاء الله أن تنساه فى جميع أوقاتك فلا تذكره لكونه قد نسخه فانه يأمرك ألا تقرأه ولاتصلى به فيصير ذلك سببا لنسيانه وزواله عن الصدر . وقوله سبحانه « إنه يعلم الجهر ومايخفى » معناه أنه عالم بجهرك فى القراءة مع أمين الوحى وعالم بالسر الذى ينطوى عليه ضميرك وهو أنك تخاف نسيانه فأنت تحرص على قراءته ، فلا تخف فانا سنكفيك ما تخافه ، ويقال : قوله تعالى « إنه يعلم الجهر ومايخفى » مرتبط بقوله « إلا ماشاء الله » والمعنى أنت لاتنسى إلا مايشاء الله أن تنساه لكونه يريد نسخه ، وإنما ينسخه لكونه عالما بمصالح عبيده فهو ينسخ حيث يعلم أن مصلحتهم فى النسخ . وقوله سبحانه : (ونيسرك لليسرى) هو معطوف على قوله تعالى :

« سنقرئك فلا تنسى » واليسرى : هى أعمال الخير التى تؤدى إلى اليسر ، وقال ابن مسعود : اليسرى الجنة ، والمعنى عليه نيسرك للعمل المؤدى إلى الجنة ، ويقال : المعنى نوفقك للشريعة وهى الحنيفية ، ويقال : المعنى نهون عليك الوحى ونسهله لك ونيسره عليك حتى تحفظه وتعلمه وتعمل به . فان قلت : المألوف فى التعبير أن يقول الانسان : يَسَّرَ فلانٌ العمل الفلانى لفلان ، والمراد جعل هذا العمل يسيراً سهلا عليه فأزال صعوباته وهَوَّن مشاقه ، ولكنى أرى القرآن الكريم قد قلب العبارة المألوفة فجعل الانسانَ هو الميسَّر للفعل ، ووقع ذلك فى هذه الآية الكريمة وفى قوله تعالى فى سورة الليل : « فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسَنُيَسِّرُه للحسنى ؛ وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسَنُيَسِّرُه للعسرى » فهل لذلك من حكمة بارعة خفيت على الفهم ؟ قلنا : هو ماذكرت ، والتحقيق أن الفاعل هو الذى يُيَسَّرُ للفعل ، وليس الفعل هو الذى يكون ميسرا للفاعل ، والسر فى ذلك أن كل عملٍ فى هذه الحياة الدنيا ممكن أن يحصل وممكن ألا يحصل ، وإنما يحصل إذا توجهت إليه العزائم الصادقة والقُوَى النافذة والإرادات المصممة وسلكت له السبيل الذى يوصِّل إليه ؛ فما لم تتوجه إليه العزائم ومالم تسلك له السبيل الصحيح الذى يوصل إليه فانه لايحصل ؛ فلا جَرَم كان تيسير الانسانِ للعمل هو التحقيق ، ومعناه أن الله تعالى يوجد عند الانسان العزم الصادق والقوة النافذة والإرادة المصممة على إحداث هذا الفعل ويوفقه لسلوك أهدى السبل وأقومها حتى يصل إلى النتيجة الحتمية لذلك كله ، وتدبر فى قوله عليه الصلاة والسلام : « اعملوا فكلٌّ مُيَسَّر لما خلق له » تدرك السر العجيب فى هذا التعبير وإنما قال سبحانه « نيسرك » بنون العظمة لتكون عظمة المعطى دالةً على عظمة العطاء ، ونظير ذلك قوله تعالى : « إنا أنزلناه فى ليلة القدر » وقوله سبحانه : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » وقوله جل ذكره : « إنا أعطيناك

فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى [٩]

الـكوثر » فقد دلت هذه الآيات على أنه سبحانه فتح عليه من أبواب التيسير والتسهيل مالم يفتح به على أحد من خلقه ، وكيف لا وقد كان صبيا يتيما لاأب له ولاأم وقد نشأ بين قوم ذوى جهالة جهلاء وعماية وأهواء وضلالات لاتقف عند حد ، فهداه الله تعالى ووفقه وارتضاه وجعله فى أفعاله وأقواله وسائر أحواله قدوةً للعالمين ونبراسا يستضىء به المصلحون ، وجعل ذكره رفيعاً وشأنه أعلى الشؤون ، وجعل الهداية من هديه ، والتوفيق فى اتباعه ، والخذلان فى ترك طريقه

ثم إنه سبحانه بعد أن بين أنه قد تفضل بتيسير جميع مصالح الدنيا والآخرة ، وشرح نعمته على عبادة عامة ثم نعمته على رسوله صلى الله عليه وسلم ؛ توجه إلى رسوله يأمره بدعوة الخلق إلى ربهم فقال : (فذكر إن نفعت الذكرى) ولعلك تتساءل كيف عَلّق الله تعالى طلب التذكير من الرسول صلى الله عليه وسلم على انتفاع الذين يذكرهم ، وذلك يفيد أنه إن علم أنهم لاينتفعون بتذكيره إياهم فليس مأمورا بتذكيرهم ، مع أن أهل الشرع مجمعون على أنه صلى الله عليه وسلم مأمور بتذكير أمته وتبليغهم ماأرسله الله به ، من غير فرق بين من ينتفع بهذه الذكرى ومن لاينتفع بها ، فما الوجه فى ذلك ؟ وكيف نجمع بين ماأجمع عليه أهل الملة وبين ظاهر هذه الآية ؟ والجواب أنه قد أجمع المفسرون على أن ظاهر هذه الآية غير مراد ، ثم اختلفوا فى تخريجها ، فذهب قوم إلى أن « إنْ » هاهنا ليست شرطية ، ولـكنها بمعنى إذ التعليلية أو بمعنى قد التى هى للتحقيق ، والمعنى حينئذ ذكر قومك وادعهم إلى الإيمان بالله تعالى وبجميع ماأرسلت به فانَّ هذه الذكرى نافعة مفيدة لأنها سببٌ فى إيمان من يهديه الله تعالى وإقامةٌ للحجة على من عاند وعصى الله ورسوله . وقال قوم « إنْ » هاهنا شرطية على أصل

معناها وهى دالة على التعليق ، ولكن فى الآية محذوفا ، وتقدير الكلام ذكر إن نفعت الذكرى و إن لم تنفع ، فحذف الواو والمعطوف بها اكتفاء ، مثل حذف حرف العطف والمعطوف فى قوله تعالى : « سرابيل تقيكم الحر » فان التقدير سرابيل تقيكم الحر والبرد ، وقال آخرون : « إنْ » هاهنا شرطية على أصل وضعها ، وليس فى الكلام محذوف ، ولكن هذه الآية نزلت فى مقام غير المقام الذى يجب فيه على الرسول تذكير قومه سواء انتفعوا بما يذكرهم به أم لم ينتفعوا ، وبيان ذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم مأمور عند إرساله أن يذكر قومه ويعظهم و يحرضهم على الإيمان ويخوفهم بما أعدّ الله لمن لم يؤمن به ، فاذا فعل ذلك و بلغت جميعَ قومه دعوتُه فليس حينئذ بمأمور أن يذكر من علم إصراره على باطله وتماديه فى كفره واسترساله فى هوى نفسه ؛ لأنه لا معنى حينئذ للتذكير إلا إلجاء الناس و إجبارهم على الايمان ، وقد قال الله تعالى « وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » وحاصل الكلام حينئذ إنك قد أبلغت رسالات ربك وأعدت الابلاغ و إن قومك قد أصروا على العناد ولم يزدهم دعاؤك إياهم إلا تماديا وغرورا ونحن نعلم ما أنت عليه من الحرص على إيمانهم والتحسّر على بقائهم فى كفرهم فلا تذهب نفسك عليهم حسراتٍ ولا تورث نفسك العناء والتعب ، بل ادع مَنْ تعلم أنه يجيبك ولا يجبهك ولا يؤذيك ، وقال قوم من المفسرين : إنْ هاهنا شرطية ولكن ليس المراد بها تعليق وجوب التذكير على انتفاع من يدعوهم ، ولكن المراد به استبعاد تأثير الذكرى فيهم وذمهم بأنهم قوم قد غلظت أكبادهم وقست قلوبهم وتجافت أنفسهم عن الاتعاظ والانتفاع ، وذلك كما تقول الواعظ الذى أتعب نفسه فى موعظة قوم لا تفيد فيهم المواعظ : عِظهم إن وجدت سميعاً ، ولعل هذا الوجه أحسن الوجوه وأقربها لحمل الآية

سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَىٰ [١٠] وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى [١١]

الكريمة عليه ، وقوله سبحانه وتعالى : (سيذكر من يخشى) معناه سيتعظ وينتفع بتذكيرك من يخشى الله تعالى ، وذلك لأنه يتأمل فى كل ماتذكره به وليس له من الهوى والرغبة فى العناد مايدفعه إلى الجحد والإنكار ، وحينئذ يظهر له وجه الصواب فيه ، ويتبين عنده أنه الحق الذى لايجوز إلا الإقبال عليه والتصديق به ، وأصل التذكر أن يتنبه الإنسان إلى شىء كان قد علمه من قبل ثم غفل عنه ونسيه ، وليس ذلك المعنى مرادا هاهنا ، وكأنه سبحانه إنما آثر التعبير بالتذكر إشارة إلى أن هذا الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم من الظهور والوضوح بحيث لايتصور أن هؤلاء القوم لم يعرفوا وجهه الصحيح من قبل ، وقد حال بينهم وبين اقتفائه تقليدُهم آباءهم ، فكأنهم عرفوه وتيقنوا من صحته ثم زالت هذه المعرفة بسبب انتهاجهم خطة آبائهم ، فيكون وعظُ الرسول إياهم تنبيها لهم إلى شىء سبقت لهم معرفته ، وهذا وجه لطيف ، و « من يخشى » يشمل صنفين من الناس : أحدهما المذعن المعترف بالله تعالى الواثق من قدرته على بعث العباد وحشرهم ، والثانى المتردد فى ذلك ، أما الجاحد المصرُّ فانه لايتعظ ولا ينتفع ، وهو الأشقى الذى ذكره الله جل شأنه بقوله (وَيَتَجَنَّبُهَا الأشقى) والمعنى إن المعاند الذى أصرَّ على الجحد وتمكن من نفسه الكفر هو الذى يتجنب الذكرى ولا ينتفع بها ، وقد تبين لك مما ذكرناه فى تفسير هاتين الآيتين أن أقسام الخلق بالنسبة إلى دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم ثلاثة : الأول العارف بها الموقن بصحتها الذى لايدور بخلده التردد ولا الشك فيها ، وهذا أفضل الأقسام وأخشاها لربه ، والثانى المتردد فيها المتوقف إلى أن يقوم عنده البرهان عليها ، فاذا قام له البرهان بادر إلى التصديق بها ، وهذا نوع لم يصل إلى

درجة الأول من الخير ولم يبلغ درجة الثالث من الشر ، فهو شقى بالنسبة إلى الأول سعيد بالنسبة إلى الثالث ، أما الثالث فهو المعاند الذى لايلين قلبه ولا تنال الدعوة من نفسه قبولا ، وهذا شر الأقسام وأبعدها من الخير وأشقاها ، فهم سعيد وشقى بعض الشقاء وأشقى ، فلا جرم كان الذى يتجنب الموعظة ولا ينتفع بها هو الأشقى ، وقوله تعالى : (الذى يَصْلَى النارَ الكبرى ثم لا يموت فيها ولا يحيى) يَصْلَى النار : يذوق حرها ويجد مَسَّها ، والنار الكبرى : أسفل دركات جهنم ، كما قال سبحانه وتعالى : « إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار » وكما أن معاصى العباد وذنوبهم بعضها أشد من بعض فعقاب الله تعالى بعضه أشد من بعض لتكون العقوبة مساويةً للذنب ؛ إذ يليق بحكمة الكبير المتعال أن يسوِّى بين من اجترأ عليه وعلى رسوله وتهاون بأوامرهما وارتكب أشنع الذنوب وبين من كان أقل منه إثمًا وأخف جرما . وقوله تعالى « ثم لا يموت فيها ولا يحيى » يقال : معناه أن نفس هؤلاء الأشقَيْنَ تصير فى حلوقهم ، فلا هى تخرج فيموتون ولا هى ترجع إلى موضعها من أجسامهم فيحيون ، ويقال : المعنى أنهم لا يموتون فيستريحون ولا يَحْيَوْنَ حياة نافعة ، كما قال سبحانه وتعالى : « لا يُقْضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها » وذلك كما تقول العرب للمبتلَى بشديد البلاء : لا هو حى فيرجى ولا ميت فينعى . وإنما صدَّر سبحانه هذه العبارة بثم للدلالة على أن ذلك أشد وأنكى وأفظع من اصطلاء النار فالغرض من ثُمَّ هاهنا الدلالة على التراخى العظيم والتباعد الشديد بين الأمرين فى الرتبة .

ثم إنه تعالى لما ذكر وعيد الذين أعرضوا عن النظر فى دلائل الله والتأمل فى آياته أتبعه بالوعد لمن زكى نفسه وطهرها من أدناس الشرك والتقليد لأسلافه

قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى [١٤] وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى [١٥]

الذين كانوا فى الضلال المبين ، فقال سبحانه وتعالى : (قد أفلح من تزكي وذكر اسم ربه فصلى) وأفلح : معناه فاز ونجا من العقاب وأدرك الفلاح ، وتزكى : معناه طهر نفسه ونقاها من أوضار الكفر وأزال عنها درن الشرك والتقليد ، قال ابن عباس : تزكى معناه قال لا إله إلا الله ، والمراد أنه قالها جازما بها عارفا بمعناها عاملا بما تقتضيه ، وانظر إلى قوله تعالى : « قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون والذين هم للزكاة فاعلون والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ماملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون والذين هم على صلواتهم يحافظون ، أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون » ثم انظر إلى قوله تعالى : « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » تَفْهَمْ أن تزكية النفس تمام الزكاة إنما تكون بالإيمان بالله تعالى ونفى الشركاء ، والتصديق بكل ماجاء به رسوله صلى الله عليه وسلم ، والعمل بذلك كله ، وتفهم أن الفلاح والفوز والنجاة بدخول الجنة وبوراثة الفردوس . ومن هنا تعلم أن مراتب أعمال العباد ثلاثة : أولها إزالة العقائد الفاسدة عن القلب ، وثانيها استحضار معرفة الله تعالى بذاته وصفاته وأسمائه ، وثالثها الاشتغال بخدمته تعالى ، فأما المرتبة الأولى فهى التى أشار إليها قوله تعالى « تزكي » ، والمرتبة الثانية هى التى أشار إليها قوله سبحانه « وذكر اسم ربه » والمرتبة الثالثة هى التى أشار إليها قوله جل ذكره « فصلى » ، ويقال : معنى « ذكر اسم ربه » أحْضَرَ فى قلبه صفات ربه من الجلال والكبرياء ولاحظ

بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا [١٦] وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى [١٧]

بسره ما يعرف عن ربه من القدرة النافذة والارادة التى لا يقف فى سبيلها شىء ، فاذا فعل ذلك خضع لربه وخشع لجبروته وقهره ، فالمراد من الصلاة هاهنا الخشوع والخضوع لذى الجلال والكبرياء ، ولا شك أن الإنسان إذا تذكر ربه العظيم وأحضر فى قلبه جلاله وقدرته على كل شىء وعلمه بكل شىء وَجِلَ قلبه وخاف من سطوة ربه فتمتلىء نفسه خشية من الله ورهبةً لجلاله ، كما قال سبحانه : «إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم » والتعبير عن الخشوع بالصلاة لأن لبَّ الصلاة هو الخشوع والمقصودَ منها هو إخضاع النفس وإذلالها لجبروت الله وقهره .

ثم إن قوماً ممن زين لهم الشيطانُ أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لايهتدون قد ظنوا أن ما يفعلونه من زائف الأعمال وباطلها هو ما كُلِّفوا به وماطالبهم الله بفعله ، فانطلقوا يزعمون لأنفسهم أنهم هم المهتدون ، وأن أعمالهم هذه هى المقبولة المطلوبة وأن غير ذلك من الأعمال ليس مطلوبا منهم ، فأنزل الله تعالى فى الرد عليهم وبيان فساد ما ذهبوا إليه قوله سبحانه : (بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خيروأبقى) ومعناه أنتم كاذبون فيما زعمتم لأنفسكم من حُسْن العمل والقيام بما طالب الله منكم القيام به على الوجه الذى ارتضاه ؛ لأنكم لوكنتم صادقين فيما ذهبتم إليه لكنتم تفضلون الآخرة على الدنيا ؛ لأن هذا هو الذى يقتضيه العقل ، فان الآخرة دائمة ونعيمها دائم لايزول ولا يفنى وليس فيه تنغيص ولا مَنٌّ ، فأما متاع الدنيا فهو متاع زائل تشوبه الأكدار وتحوط به الآلام ، ولا شك أن من استعجل هذا النعيم وتعجل لذائذ الدنيا واستحبَّ زينتها مع ما فيها من الألم الدائم والحسرة الملازمة والكدر الذى لايفارق من انغمس فيها ، من استعجل ذلك مع ما فيه

إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى [١٨]

من التنغيص لا يكون مصدقا بالآخرة ونعيمها أو يكون إيمانه بذلك إيمانا لا يجاوز حنجرته فهو منافق كاذب فى دعواه ،

وقد اختلف العلماء فى بيان المشار إليه فى قوله تعالى : (إن هذا لفى الصحف الأولى) فقال قوم : المشار إليه هو السورة بأجمعها ، وذلك لأن هذه السورة مشتملة على التوحيد والاستدلال عليه ، ومشتملة على النبوة ، ومشتملة على الوعيد والتحذير من الكفر ، ومشتملة على الوعد والترغيب فى طاعة الله تعالى ، وكل هذه الأشياء مما جاء به جميع أنبياء الله تعالى ؛ وقال قوم : المشار إليه هو قوله تعالى « قد أفلح من تزكى » إلى قوله « والآخرة خير وأبقى » وذلك لأن قوله سبحانه « قد أفلح من تزكى » إشارة إلى تطهير النفس عن كل ما لا ينبغى من العقائد الفاسدة ومن الأخلاق الذميمة ، وقوله « وذكر اسم ربه » إشارة إلى تكميل الروح بمعرفة الله تعالى ، وقوله « فصلى » إشارة إلى تكميل الجوارح وتزيينها بطاعة الله ، وقوله « بل تؤثرون الحياة الدنيا » إشارة إلى الزجر عن الالتفات إلى الدنيا وجعلها هَمَّ الانسان ، وقوله « والآخرة خير وأبقى » إشارة إلى الترغيب فى ثواب الله وابتغاء الدار الآخرة ، فهذه الآيات جمعت الأصول العامة التى تنبنى عليها الشرائع السماوية ، ولم تترك دِعَامَةً من الدعائم التى تنبنى عليها الدعوة إلى الله وإلى ما عنده إلا أشارت إليها ، وهذه أمور لم تختلف باختلاف الشرائع ، فلا جرم ذكر الله تعالى أنها فى صحف الأنبياء السابقين على محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد روى عن أبى ذر رضى الله تعالى عنه أنه قال : قلت : هل في الدنيا مما فى صحف إبراهيم وموسى ؟ فقال : اقرأ يا أبا ذر قد أفلح من تزكى . وذهب قوم من المفسرين إلى أن الإشارة راجعة إلى قوله تعالى « والآخرة خير وأبقى » لأنه أقرب شىء إلى الإشارة

صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى [١٩]

واقرأ إذا شئت قوله تعالى : « وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين ، وإنه لفى زبر الأولين » ثم اقرأ قوله جل شأنه : « شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا ، والذى أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، كبر على المشركين ماتدعوهم إليه ، الله يجتبي إليه من يشاء ، ويهدى إليه من ينيب » يتبين لك أن دعائم الإسلام التى أشرنا إليها قد أرسل بهارسل الله جميعا ، ويتبين لك أن قوله تعالى : (صحف إبراهيم وموسى) لم يذكر على سبيل الاستقصاء، ولكن على سبيل المثال ، وأنّ هذه الدعائم مذكورة فى صحف جميع الأنبياء التى منها صحف إبراهيم وموسى ؛ فان رسول الله صلى الله عليه وسلم ماجاء إلا مذكرا بما نسيته الأجيال من شرائع المرسلين ، وداعياً إلى وجهها الصحيح الذى أفسده مرور الزمان وكثرة البهتان واتباع الأهواء واقتفاء سنن الآباء ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

سُورَةُ الْغَاشِيَةِ

[وهِيَ مَكيَّةٌ ، وَآياتها ست وَعِشْرُونَ آيةً ، وَنَزَلَتْ بَعْدَ سُورةالذاريات] (١)

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَٰكَ حَدِيثُ الْغَٰشِيَةِ [١]

---

(١) لا خلاف فى أن هذه السورة مكية ، كما أنه لا خلاف فى أن عدد آياتها ست وعشرون آية

قوله تعالى : (هل أتاك حديث الغاشية) أما « هل » فقد قال قوم من العلماء منهم قُطْرب : إنه بمعنى قَدْ ، والمراد قد جاءك حديث الغاشية ، والجمهور على أن معناه الاستفهام ، ولكن ليس المراد به حقيقته وهو طلب الْفَهْم ، إنما المراد به تعجيب السامع مما فى حَيِّزِهِ وتشويقه إلى استماعه ولَفْتُ نظره إليه وإشعاره بأن ماسيذكره من الأحاديث البديعة التى من حقها أن تتناقلها الرواة ويتنافس فى تَلَقُّنِها الوعاة ، وأما « الغاشية » فقد اختلف العلماء فى بيان المراد منها ، فقال قوم : المراد بها القيامة ، وإنما سميت القيامة غاشية أخذاً من قوله تعالى : « يوم يغشاهم العذاب » وذلك لأنها تغشى الناسَ بالأهوال والشدائد ، وقال قوم : المراد بالغاشية النار ، وإنما صَحَّ ذلك لأنه تعالى قد قال : « وَتَغْشَى وجوهَهم النار » فسُمِّيت النار غاشية أخذاً من ذلك ، والوجه الأول أقرب وأولى أن يؤخذ به ؛ لأن الله تعالى حين فَصَّل شأن هذه الغاشية ذكر أحوال أهل النار وأحوال أهل الجنة ، والذى يجمعهما هو يوم القيامة ، فلا يليق حمل الغاشية من أجل ذلك على النار ؛

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ [٢] عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ [٣]

وقوله تعالى : (وُجُوهٌ يومئذ خاشعة) المراد من الوجوه أصحابها ، وهم الكفار ، بدليل أنه تعالى وصفها بالخشوع ، والخشوع من صفات المكلفين ، وليست صفات للوجوه أنفسها ، إلا أن الخشوع إنما يظهر على الوجه ، فلما كان مظهره الوجه جُعِلَ متعلقابه ، والخاشعة : الذليلة التى قد عراها الخِزْىُ ولحقها الهَوَان ، واقرأ إن شئت قوله تعالى : « ولو تَرَى إذ المجرمون نا كسو رءوسهم عند ربهم رَبَّنا أَبْصَرْنا وسمعنا فارْجِعنَا نعمل صالحاً إنا موقنون » أو اقرأ قوله جل شأنه : « وترى الظالمين لَمَّا رأوا العذاب يقولون هل إلى مَرَدٍّ من سبيل ، وتراهم يُعْرَضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طَرْف خفى ، وقال الذين آمنوا إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ، ألا إن الظالمين فى عذاب مقيم » أو اقرأ قوله تعالت كلمته : « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ، ولا يَرْهق وجوههم قَتَرٌ ولاذلة ، أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ، والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها ، وترهقهم ذلة ، مالهم من الله من عاصم ، كأنما أغشيت وجوههم قِطَعاً من الليل مظلما ، أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » وقوله تعالى : (عاملة ناصبة) فعاملة : اسم فاعل من عَمِل ، وناصبة : اسم فاعل من نَصِبَ أى تَعِبَ ، وهذان وصفان آخران للوجوه ، والمراد بهما كسابقهما وَصْف أصحابها ؛ وقد اختلف المفسرون فى هذه الصفات الثلاث : أهى من أوصاف الكفار فى يوم القيامة ، أم هى من أوصافهم فى الدنيا ، أم أن بعض هذه الأوصاف يتحقق يوم القيامة و بعضها ثابت لهم فى الدنيا؟ فمنهم من ذهب إلى أن هذه الأوصاف الثلاثة تحصل فى الآخرة ، فالمعنى حينئذ إن الكفار الذين عَصَوُا الله ورسوله سيكونون يوم القيامة خاشعين أذلاء وَسَيَعْملون أشقَّ الأعمال وسينالهم من ذلك العمل تَعَبٌ شديدٌ ، أما الذلة والخشوع فلأنهم

تكبروا فى الدنيا عن طاعة الله ورسوله ، وأما عملهم المجهِد فلأنهم كانوا فى الدنيا كسالى فيجُرون السلاسل والأغلال الثقيلة ويخوضون فى النار كما تخوض الإبل فى الوحل ويتقحَّمون حرَّ النار وهم يقفون فى عرصاتها حُفاة عراة جياعا فينالهم بذلك أشق المتاعب وأقسى أنواع النَّصَبِ ، وقال قوم : هذه الصفات كلها حاصلة فى الدنيا ، وظاهر الآية ينادى بفساد هذا القول ، وتدبر مايفيده قوله تعالى «يومئذ» تعرف أن وصف الوجوه بالخشوع والعمل والنصب مُقيَّد بكونه فى ذلك اليوم ، وقال قوم : أما الخشوع فهو مما يحدث فى يوم القيامة ، وهو الذى أريد تقييده بالظرف ، وأما العمل والنصب فانهما من أوصاف الكفار فى هذه الحياة الدنيا ، وكأنه تعالى قد قال : وجوه يومئذ خاشعة وكانت فى الدنيا عاملة ناصبة ، والمعنى أن هؤلاء الكفار كانوا فى حياتهم الدنيا يعملون ويجتهدون فى أعمالهم ولكن الله تعالى لم يقبل أعمالهم لكونهم لم يعملوها قاصدين بها وجهه الكريم ، ولأنهم لم يقدِّموا على هذه الأعمال الايمانَ بالله ورسوله الذى هو الدِّعامة الأولى والركن الأساسى ، فأعمالهم هذه قد بنيت على أساس غير صحيح ، هذا إذا كانت أعمالهم من أعمال البر ، أما إذا كانت من أعمال الكفر فالمعنى حينئذ أن هؤلاء الكفار سيكونون فى يوم القيامة أذلاء فى غاية الهوان والمسكنة لأنهم كانوا فى الدنيا يُجْهِدُون أنفسهم فى مُشاقَّة الله ورسوله ، وكانوا يعاندون الله ويَسْعَوْن فى الأرض الفسادَ ، وعندنا أن هذا الوجه أحسن الوجوه وأقربها لسياق الآية الكريمة ، وبخاصة إذا لاحظت ماذكره الله تعالى فى حال المؤمنين يوم القيامة ، وهو قوله جل شأنه : « وجوه يومئذ ناعمة لسعيها راضية » فان معنى ذلك أن المؤمنين سيكونون يوم القيامة فى أنعم عيش وأرغد حال وأهنأ بال وأنهم سيعرفون يومئذ أن أعمالهم التى عملوها فى الدنيا قد قُبلت وَجُعِلَ لهم عليها أعظم الثواب وأجزل الأجر ، فهم سيَرْضَوْنَ عن أعمالهم تلك أتم الرضا ، وقد علمتَ أن أعمالهم هذه كانت فى الدنيا ،

تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً [٤] تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ [٥] لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ [٦]

فالمناسب إذن أن يكون المقابل لهم موصوفا بضد ما وُصفوا به ، فيكون معنى قوله تعالى « وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة » أن هؤلاء الكفار سيلاقون الذل والمهانة وسيدركون أن أعمالهم التى عملوها فى الدنيا لم تكن مقبولة ولم يُحصّلوا منها إلا التعب والنَّصَبَ ، وليس بممتنع أن يصفهم الله تعالى ببعض أوصاف تكون لهم فى الآخرة وهو قوله جل ذكره « خاشعة » ثم يصفهم ببعض ما كان لهم فى الدنيا وهو قوله سبحانه « عاملة ناصبة » ثم يعود إلى ذكر أوصافهم فى يوم القيامة وهو ماذكره جل ثناؤه بقوله : (تصلى نارا حامية) ومابعده ، وتَصْلى نارا : أى تجد حرَّها وتذوق مَسَّها ، وتقول : صَلِيَ النار يَصْلاَها ، إذا احترق بها وَلاَزَمَهَا ، وقد قرىء تُصْلَى — بضم التاء والبناء للمجهول — من أَصْلَيْتُهُ النارَ ، إذا أحرقته بها ، مثل قوله تعالى : « ونُصْلِه جهنم » وحامية : أى أنها قد أوقدت وأحميت المدة الطويلة فليس حَرٌّ يعادل حرها ، وقد قال ابن عباس : قد حميت فهى تتلظى على أعداء الله ، وقوله جل شأنه : (تُسْقَى من عين آنية) الآنى : الذى اشتد حره ، ونظير هذه الآية قوله تعالى : « يطوفون بينها وبين حميم آنٍ » والمعنى أنهم يشربون من ماء شديد الحرارة ، قال المفسرون : إن حره بلغ إلى درجة أنه لو وقعت منه قطرة على صخر لأذابته ، ويقال : آنية بمعنى حاضرة ، من أَنَي الشىء يَأْنِى ، إذا حضر وقته ، وليس هذا الوجه بشىء ، وقوله تعالى : (ليس لهم طعام إلا من ضريع) بيانٌ لطعامهم بعد أن بَيَّنَ شرابهم ، والضريع : شجر ذو شوك لاطىء بالأرض ، ويقال له إذا كان رَطْبًا الشبرق ، ويقال : إنه سم قاتل ، وقال أبو ذؤيب الهذلى : —

لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ [٧]

رَعَى الشبرقَ الرَّيَّانَ ، حَتَّى إذا ذَوَى وَصَارَ ضَرِيعاً بَانَ عَنْهُ النَّحَائِصُ(١)

ويقال : الضريع نبت أخضر منتن الريح يرمى به البحر ، ويروى عن ابن عباس يرفعه أن الضريع شيء فى النار شبه الشوك أمرُّ من الصبر وأنتن من الجيفة وأشد حرا من النار ، وقال ابن كيسان : الضريع طعام إذا أكله سكان النار يَضْرَعُون ويَذِلُّون و يتضرعون إلى الله تعالى طالبين منه أن يخلصهم مما هم فيه من العذاب ، ولاتنافى بين هذه الآية و بين قوله تعالى : « إن شجرة الزقوم طعام الأثيم كالمهل يغلى فى البطون كغلى الحميم » ولا بين هذه الآية و بين قوله تعالى : « ولا طعام إلا من غسلين » وذلك لأن عذاب النار صنوف متعددة وألوان مختلفة والمعذَّبين فيها على طبقات ؛ فمنهم أكلة الزقوم ، ومنهم أكلة الغسلين ، ومنهم أكَلَةُ الضريع ، لكل طبقة من أهل الكفر والذنوب صنف من العذاب وباب مقسوم من الايلام ، فان العقل يقتضى بالبداهة أن عذاب السادة المتبوعين الذين يحرضون على الكفر ويؤلبون على الأنبياء و يعارضون دعوتهم إلى الله غير عذاب التابعين الذين ضُلِّلوا فانقادوا ، وهلم جرا ؛ وقوله تعالى : (لايسمن ولايغنى من جوع) جملة فى محل جر صفة لضريع ، والمعنى على ذلك إن طعام هؤلاء القوم ليس من المطاعم التى اعتاد الإنس أن يأكلوها ، بل هو شوك مما ترعاه الإبل ، وليته إذ كان من الأشواك التى ترعاها الإبل كان نوعاً مما تُقْبِل عليه وترتاح إلى

---

(١) النحائص : جمع نحوص ، وهو الحائل من الابل ، و بيان معنى البيت أن الشبرق اسم لجنس من الشوك مادام رطبا كما عرفت ، والابل ترعاه ، فاذا جف فاسمه الضريع ، والابل تتحاماه حينئذ لأنه سم قاتل

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ [٨] لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ [٩] فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ [١٠]

أكله ، بل هو نوع تنفر منه ولا تقربه ، وليته إذ كان كذلك كان بحيث يطفىء ثائرة الجوع ويرد عاديته وتعود من أكله منفعة على جسم آكله ، بل هو مع كونه بهذه الحال قد سلبت منه منافع الطعام ، فلا هو يفيد قوة وسمنا فى بدن آكله ، ولاهو يميط عنه أذى الجوع ويدفعه ، ويحتمل أن تكون هذه الجملة لامحل لها من الاعراب استئنافية ، لكن الأول أظهر ، وتنكير جوع للتحقير ، يعنى أنه لايغنى من جوعٍ ما ، فهو يفيد أن أضعف أحوال الجوع وأخفها وأهونها لايزول بأكل هذا الطعام فكيف بالجوع الشديد

ثم إنه سبحانه وتعالى بعد أن ذكر وعيد الكفار أتبعه بشرح أحوال المؤمنين ، فذكر أولا وصف أهل الثواب ، ثم ذكر بعد ذلك وصف دار الثواب؛ فقال سبحانه : (وجوه يومئذ ناعمة) أى : ذات بهجة وحسن ، وذلك مثل قوله تعالى : « تعرف فى وجوههم نضرة النعيم » وقوله تعالى : (لسعيها راضية) معناه أنهم حمدوا سعيهم واجتهادهم فى العمل لله حين رأوا ثمرة هذا العمل وعاقبته الحميدة، كالرجل يعمل العمل فيُجْزَى عليه بالجميل ويظهر له منه عاقبة محمودة فتراه يقول عندئذ : ما أحسن ما عملت ! لقد وُفِّقْتُ إلى الصواب فيما صنعته ؛ فهو حينئذ يثنى على عمل نفسه ويرتضيه ويستريح إليه ، ويقال : المراد أن هؤلاء راضون لثواب أعمالهم التى عملوها فى الدنيا ، يعنى أن الذى يشاهدونه من الثواب العظيم يبلغ حد الرضا حتى إنهم لايطلبون المزيد عليه ، فالكلام على هذا الوجه على تقدير مضاف ، وأما وصف دار الثواب فانا نريد أن ننبهك إلى أنه سبحانه وتعالى قد وصفها بسبعة أوصاف ، فأول هذه الأوصاف قوله جل ذكره : (فى جنة عالية) وهو وصف من العلو ، ويجوز أن يكون المراد منه

لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً [١١]

العلو فى المكان ؛ لأن الجنة منازل ودرجات بعضها أعلى من بعض كما أن النار دركات بعضها أسفل من بعض ، ويحتمل أن يكون المراد منه العلو فى الدرجة وذلك لأن نعيم الجنة بعضه أرفع من بعض ؛ فالنعيم الذى يتمتع به السابقون من الأنبياء والشهداء والصالحين أسمى وأعلى منزلة من النعيم الذى يتمتع به الذين تبعوهم باحسان ، وهكذا . وأما الوصف الثانى فهو ما ذكره سبحانه بقوله : (لاتسمع فيها لاغية) ومعناه أن الجنة منزهة عن اللغو لأنها منزل جيران الله وأحبائه وقد نالوها بالجد والحق لا باللغو والباطل ، وكل مجلس من مجالس أهل الشرف فى الدنيا فانه يكون مُبَرَّأً عن اللغو والكذب والبهتان ، فكيف بأرفع المجالس فى جوار رب الأرباب ومالك القلوب ومدبر الأمور ؟! واللاغية : مصدر لغا يلغو ، مثل اللَّغْو ، وتقول : لغا يَلْغُو لَغْوًا ولاغية ، ويقال : اللاغية اسم فاعل ، وهو وصف للمؤنث والموصوف به محذوف ، وأصل الكلام لاتسمع فيها كلمة لاغية ، فحذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه ، مثل قوله تعالى : « أن اعمل سابغات » أصل الكلام أن اعمل دروعا سابغات ؛ ويقال : اللاغية صيغة نَسَب ، أى ذات لغو ، مثل الدارع والنابل واللابن والتامر وما أشبه ذلك . وقد قرىء فى هذه الآية « لا تَسْمَعُ فيها لاغية » بفتح تاء المضارعة ونصب لاغية ، وعلى هذه القراءة يحتمل الفعل أن يكون للمخاطب ، ويحتمل أن يكون للغائب ، فان كان للمخاطب فالمخاطب به من يتأتى منه السماع كقوله تعالى : « ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رءوسهم » وكقوله سبحانه : « وإذا رأيت ثَمَّ رأيت نعيما وملكا كبيرا » وكقوله تباركت أسماؤه : «إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا » وإن كان الفعل للغائب كان الضمير المستتر فيه عائدا إلى الوجوه : أى لاتسمع هذه الوجوهُ فى الجنة لَغْوًا ولا كذابا ،

فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ [١٢] فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ [١٣]

والمراد بها أصحابها كما سلف ، وقرىء « لا تُسْمَعُ فيها لاغيةٌ » فالفعل مبنى للمجهول ولاغية نائب فاعله ، وتأنيث الفعل لتأنيث لفظ النائب عن الفاعل و إن كان بمعنى اللغو ؛ وقرىء « لا يُسْمَعُ فيها لاغيةٌ » فالفعل كالقراءة السابقة مبنى للمجهول ، ونائب فاعله هو لاغية ، و إنما ذُكِّر الفعل مع أن نائب الفاعل مؤنث إما لأنه فُصِل بين الفعل ونائب الفاعل بفاصل هو هاهنا الجار والمجرور ، و إذا فصل بين الفعل وفاعله أونائب فاعله المؤنث بفاصل أيّ فاصل جاز فى الفعل التذكير والتأنيث ، ومثل ذلك قول الشاعر :

إن امرأ غَرَّهُ مِنْكُنَّ وَاحِدَةٌ بَعْدِى و بعدك فى الدُّنيا لَمغْرُور

و يحتمل أن يكون تذكير الفعل نظرا إلى المعنى ، وهذا إنما يَجْرِى مع اعتبار اللاغية مصدرا ؛ فان معناه حينئذ اللغو ، وأحسن هذه الوجوه أن تعتبر لا تَسْمَعُ المبنى للفاعل عائدا إلى الوجوه وتعتبر اللاغية مصدرا ، وذلك ليتفق مع قوله جل شأنه « لايَسْمَعُونَ فيها لَغْوًا ولا كِذَّابا » وأما الوصف الثالث فهو ما ذكره سبحانه بقوله : (فيها عين جارية) أى أن فى دار النعيم ينبوع ماء جارٍ ، وعادة المياه الجارية من الينابيع أن تكون باردة صافية ، وليس من شك أن فى منظر الماء الجارى مَسَرَّةً للنفوس وقرة للعيون . وانظر إلى افتخار فرعون الجبار بقوله : « أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى » . والوصف الرابع ما ذكره الله تعالى بقوله : (فيها سُرُر مرفوعة) والسُّرُر : جمع سرير ، والسرير مايُجلَس أو ينام عليه ، وهو معروف : وأفضل أنواع السُّرُر ماكان مرفوعا عاليا عن الأرض ومن حكمة ارتفاعها أن يرى المؤمن إذا جلس عليها جميع ما أعطاه الله من النعيم

وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ [١٤] وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ [١٥] وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ [١٦]

والملك ، والوصف الخامس ما ذكره تعالى بقوله : ﴿ وأكواب موضوعة ﴾ والأكواب : جمع كوب ، والكوب : هو مالا عُرْوة له من الكيزان ، وموضوعة : أي مُعَدَّة مُهيأة ، أو هي موضوعة على حافات العيون الجارية كلما أرادوا الشرب وجدوها ، وكأنَّ تلك السُّرُر توضع لأهل النعيم على مَقْرُبة من الْعَيْنِ الجارية فيجلسون عليها وبجوارهم الأكواب على جوانب العين فاذا أرادوا التمتع بلذيذ الشراب تناولوا بها من الماء ، والوصف السادس ماذكره سبحانه بقوله : (ونمارق مصفوفة) والنمارق : جمع نمرقة ، والنمرقة بضم النون وحكى كسرها - الوسادة ، قال الكلبي : هي مصفوفة بعضها إلى جانب بعض ، فأينما أراد أن يجلس جلس على واحدة واستند إلى أخرى . والوصف السابع ماذكره جل شأنه بقوله : (وزرابى مبثوثة) والزرابى : جمع زربىّ أوزربية - بكسر الزاى - والزربى : البساط ، وأصل الزرابى أنواع النبات إذا احمرّ واصفرّ وفيه خضرة ، ويقال : أُزْرَبَّ النبات ، إذا صار كذلك ، فلما رأوا ألوان الْبُسُط والفرش تشبه زرابى النبات سموها زرابى تشبيها بها . ومبثوثة : أي مبسوطة ، أو مُفَرَّقة في المجالس ، بحيث ترى في كل مجلس من مجالسهم شيئا منها ، وهذا على نحو ماتراه في بيوت ذوي النعمة والثراء وكل هذا لتصوير النعمة ورفاهية أهل الجنة تصويرا يقرب من عقولهم ويستطيعون إدراكه وفهمه ، وإلا فان نعيم الجنة مما يَسْمُو على الفكر ويعلو فوق منازل الادراك ، وفيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولاخطر على قلب بشر ، وهذه الأشياء التي يعددها الله تعالى إنما تتشابه مع نظائرها التي في هذه الحياة الدنيا

أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ [١٧] وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ [١٨] وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ [١٩] وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ [٢٠]

فى أسمائها فأما حقائقها وذواتها فليست مثلها ولا قريبا منها ، على ما بَيَّنَّاه فى تفسير سورة المطففين (١)

ثم إنه سبحانه وتعالى بعد أن ذكر مجىء يوم القيامة وبين أن الناس يومئذ صنفان أشقياء وسعداء ، ثم بين حال الأشقياء وأنهم يكونون فى غاية الذل والخضوع والهوان ، وبين حال السعداء وأنهم يومئذ مسروورون مستبشرون على وجوههم علائم المسرة بادية ، وبين بعد ذلك أوصاف المكان الذى أعده لنعيم هؤلاء السعداء ؛ شرع فى إقامة الحجة على صحة ذلك وأنه قادر عليه ، لأن فى المخاطبين بهذه الآيات مُصَدِّقين ومنكرين ، وقد أقام الحجة عليهم بما يفهمه جمهورهم ولا يتعاصى على أذهانهم ؛ فقال جل شأنه : (أَفَلَا يَنْظُرُونَ إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت) وقد أخرج عبد بن حميد وغيره عن قتادة قال : لما نعت الله تعالى ما فى الجنة عجب من ذلك أهل الضلالة فأنزل الله تعالى : « أفلا ينظرون إلى الابل كيف خلقت » فعجبهم هذا يدل على أنهم أنكروا ماوصفه الله سبحانه ، وهو ينبىء عن إنكارهم البعثَ ، وقد صدَّر الله تعالى الردّ عليهم بالهمزة التى معناها الإنكار . والقصد بها توبيخهم على هذا الجحد ، والفاء التى بعد الهمزة عاطفة على محذوف ، وأصل الكلام أَعَمِيَ هؤلاء عن التبصر فى ملكوت السماوات والأرض فلا ينظرون إلى الابل كيف خلقت — الآيات . و « كيف » اسم استفهام فى محل نصب حال من

---

(١) انظر (ص ٩٦ و ٩٧) من هذا الجزء.

الضمير المستتر فى « خلقت » العائد إلى الإبل ، وجملة « كيف خلقت » فى محل جر بدل اشتمال من الإبل ، يعنى أعَمُوا فلا ينظرون إلى الإبل كيفيةِ خلقها . أما الإبل فهو اسم جمع واحده بعير ، ولا واحد له من لفظه ، مثل نساء وقوم وشاء . والمعنى المراد من هذه الآية أينكر هؤلاء ماذكرنا من أمر البعث وأحكامه ويستبعدون وقوعه ولا يتدبرون فى الابل التى هى نُصْب أعينهم وهم يستعملونها فى كل حين ولو أنهم تدبروا فى كيفية خلقها لرأوا خَلْقاً بديعاً غريبا لايشا كل أكثر أنواع الحيوانات ؛ فلها من عِظَم الجُثَّة وشدة القوة وعجيب الهيئة وطويل صبرها على الجوع والعطش ، ولها من الصفات مايناسب ما أُعِدَّت له من احتمال المشاق وإيصال الأثقال والنهوض بالأوقار ، مع اكتفائها فى الرَّعْى بما تيسر لها من شوك أو شجر أو غير ذلك ، ومع انقيادها للانسان فى حركاتها وسكونها ونهوضها وبروكها ، ومع أنها تلين وتتأثر بالحداء على غلظ أكبادها ، وكل أولئك يَدُل على قدرة مُبْدعها وعظم حكمته . وإنما خص سبحانه الإبل بالذكر لأنها أعجب ماعند العرب من الحيوانات وهم واقفون على أحوالها أتم الوقوف . وذهب أبو العباس المبرد إلى أن الإبل هاهنا هى السحابُ ، والعربُ قد تسمى السحاب إبلا ، لأن السحاب يأتى أرسالا كالإبل ؛ وهى تُزْجَى وَتُساق كما تزجى الإبل ، وهذا كلام بعيد دعاه إليه حُبُّ إيجاد التناسب بين المتعاطفات ، ولكنه غفل عن أن التناسب موجود مع بقاء الإبل على معناها الأصلى ؛ لأن الكلام مع العرب وهم أهل أسفار وبلادهم صحارى وقفار ، والمسافر منهم يمتطى ظهور الإبل ، وربما كان منفردا عن الرفقة ، والانفراد داعية إلى التفكير ، فاذا تفكر فأول ما يفكر فيه ما كان أقرب الأشياء إليه ، فهو ينظر أولا إلى مايقع عليه نظره ؛ فيرى بعيره الذى يمتطيه ، ثم إذا رفع رأسه إلى فوق رأى السماء ، ثم إذا التفت يمنة أو يسرة رأى ما حواليه من الجبال ، فاذا مَدَّ ناظريه أمامه أو تحته رأى الأرض ، فهذه أمور

يراها العربى كل يوم ، وقد أمره الله تعالى بالتدبر فيها و إمعان النظر ، وقوله تعالى: « و إلى السماء كيف رفعت » معطوف على قوله « إلى الإبل كيف خلقت » والمراد أن الله تعالى رفع السماء رَفعًا سحيق المَدَى بغير عِمادٍ ولا مِساك ، فاذا تأمل فيها الناظر تبين له أن صانعها قدير واسع القدرة حكيم بعيد مَدَى الحكمة ، وقوله « و إلى الجبال كيف نصبت » معناه كيف وضعها وضعاً ثابتا لا مَيدَان فيه ولا اضطراب ، بحيث يتسنَّى ارتقاؤها ، وقوله « و إلى الأرض كيف سطحت » أى مُهِّدَت وسُوِّيت على ما يقتضيه صلاح أمور ساكنها ، فلو نظر هؤلاء الجاحدون وتأمل أولئك الغافلون فيما تقع عليه أنظارهم من هذه الأشياء وتفكروا فيها كيف قامت على حالها التى هى عليها لعلموا أنها صنعة لا توجد إلا بموجد عظيم ولا تحفظ إلا بحافظ قدير ، ولأدركوا أن القادر على خلق هذه الأشياء وحفظها و وضعها على قواعد الحكمة قادر بلا شك على أن يَرْجعَ الناسَ إلى يوم يوفَى كلُّ عامل جزاء عمله ، وكما أنه سبحانه قد خلق ذلك كله والناس لا يعلمون منه إلا ما شاهدوه فانه ينشىء النشأة الآخرة من غير أن يعرفوا طريقة إنشائه وإنما يَرَوْن ما يرَوْن يوم القيامة كما يرون ما يرون فى هذه الحياة ؛ فلا ينبغى أن يكون جهلهم بكيفية وقوع يوم القيامة سببا فى جَحْده و إنكاره ؛ لأنهم لا يعرفون كيفية خلق هذه المخلوقات التى يشاهدونها ،

ثم إنه سبحانه وتعالى بعد أن بين دليل قدرته على بَعث الأجسام ، ولفت أنظار الجاحدين إلى مظاهر قَهْره وغلبته على هذا العالم ، و بعد أن وَبَّخهم على إنكارهم وتماديهم على باطلهم مع وضوح الحجة وظهورها ، بعد ذلك كله أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يذكرهم بهذه الأدلة وأشباهها مما لا يبقى معه مجال للشك

فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ [٢١] لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ [٢٢] إِلَّا مَنْ تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ [٢٣]

أو التردد ، فقال جل شأنه : (فذ كر إنما أنت مذ كر) والمراد أبعثهم على النظر فى ملكوت السماوات والأرض وحذرهم أن يتركوا ذلك ، ثم لا تذهب نفسك عليهم حسرات إذا لم يؤمنوا ؛ لأنك لا تستطيع أن تخلق فيهم الهداية ، وليس من المفروض عليك أن يؤمنوا ، وما عملك إلا التذكير والتبشير والتحذير ، فان آمنوا فقد اهتدوا إلى ما تسوق إليه الفطرة ، وإن أعرضوا عنك فقد تحكمت فيهم الغفلات ، وتغلبت عليهم الشهوات ، واستولت على عقولهم الأهواء ، وأضلهم الله الذى يضل من يشاء ، وقوله جل ذكره بعد ذلك : (لَسْتَ عليهم بِمُسَيْطِرٍ) هو تقرير وتحقيق لما فهم من قوله « إنما أنت مذ كر » والمعنى لست بمتسلط عليهم تجبرهم على ما تريد ، وذلك مثل قوله تعالى : « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » ومثل قوله جل شأنه : « وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » وقد قرأ الجمهور « بمصيطر » بالصاد وكسر الطاء ، والأصل فى الكلمة السين ، وهى من السيطرة بمعنى التسلط ، تقول : سيطر فلانٌ على فلان ، إذا تسلَّط عليه ، وقرىء بفتح الطاء ، على أنه اسم مفعول ، وسيطر فعلٌ معتدٍ فى لغة بنى تميم ، يعنى لم يسلِّطك الله عليهم ولم يؤتك قوة إكراههم على الايمان وإلجائهم إلى ما تدعوهم إليه ، فلا تفعل إلا ما هو من عملك وهو التذكير ، وقوله تعالى : (إلا من تولى وكفر) إستثناء من الضمير المجرور بعلى فى قوله « لست عليهم » والمعنى لست عليهم بمسيطر إلا على من تولى وكفر ، وتولى : أعرض عن الذكرى المسوقة إليه ، وكفر : جحد الحق المعروض عليه ، والمراد أنك الآن داع لا سلطان

فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ [٢٤] إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ [٢٥] ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ [٢٦]

لك على أحد منهم وليست لك قدرة الإلجاء ولم يأذن لك الله فى أن تحملهم على الإيمان لدعوتك وسيسلطك الله على من أعرض عن آيته وجحد وحدانيته واستمرأ طعم الإباء والعناد ، ويقال : الاستثناء ليس متصلا لأن اتصاله محوج إلى التكلف ، وإنما هو استثناء منقطع ، والمعنى إنك إنما أرسلت داعياً إلى الله بشيرا ونذيرا واست بمُسْتَوْلٍ عليهم ، لكن أمرهم ليس متروكاً لهم يتصرف كل واحد منهم كما شاء له هواه وعلى حسب ما تجنح إليه نفسه ، بل من أعرض منهم عن الذكرى وعاند فيها فان الله يعذبه العذاب الأكبر الذى هو عذاب جهنم ، قالوا : وعلامة كون الاستثناء منقطعاأنه يحسن أن تدخل أنَّ ، ألا ترى أنك تقول إلاَّ أنَّ من تولى وكفر فيعذبه الله العذاب الأكبر ، ولو قلت عندى ألف دينار إلا دينارا ؛ لم يجمل بك أن تقول : عندى ألف دينار إلاأن دينارا . فلما صح دخول أنَّ هاهنا علمنا أن الاستثناء منقطع . و إنما وصف الله تعالى العذاب بالأكبر فى قوله (فيعذبه الله العذاب الأكبر) لأن أبلغ أنواع العذاب وأشدها وأقساها هو العذاب على الكفر ، وما عداه من العذاب على الفسق وسائر صنوف المعاصى فهو دونه ، وانظر إلى قوله جل شأنه :«وأما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون » ، وهذا العذاب لا يمنع أن الله تعالى قد يضم عليهم إلى عذاب الآخرة عذاب الدنيا وذلك مثل القتل وسَبْى الذرية وغنيمة الأموال وغير ذلك من صنوف البلاء التى ينزلها الله تعالى بهم ، وقوله سبحانه : (إن إلينا إيابهم ، ثم إن علينا حسابهم) هو بمثابة

التأكيد للحكم السابق وهو تعذيب الله لمن تولى وكفر ، وإنما ذكر جل شأنه ذلك ليزيل عن قلب النبى صلى الله عليه وسلم حزنه وألمه لتكذيبهم إياه وإصرارهم على معاندته ؛ وكأنه يقول : إنه لامفر لهؤلاء المعرضين ولاخلاص لهم من الويل الذى أوعدناهم به وإنهم راجعون إلينا فى الموعد الذى وعدنا ، وقد سبقت كلمتنا بأننا سنعاقبهم على كفرهم ، وقد تضمنت هذه الآية الكريمة الإنباء عن غاية السخط الموجب لشديد العقاب ، وتأمل فى تصدير الجملتين بحرف التأكيد الذى هو إنَّ ، ثم تأمل فى تقديم خبر إنَّ على اسمها فى الجملتين أيضا ، ثم تأمل فى الإتيان بضمير العظمة فيهما ، وهونا ، ثم تأمل بعد ذلك كله فى عطف الجملة الثانية على الجملة الأولى بثم الدالة على بُعْدِ منزلة الحساب وتناهيه فى درجة الإيلام ، فان قلت : إن ظاهر قوله تعالى « ثم إن علينا حسابهم » يدل على أن محاسبة هؤلاء الكفار واجبة على الله تعالى على ماتفيده كلمة « على » ونحن نعلم أنه لايجب على الله تعالى أن يستوفى حقه من عبيده ، وأنه إن عفا عنهم فبفضله وإن عاقبهم فبعدله ، فكيف ترى فى ظاهر هذه الآية الذى أشرنا إليه أمُرَادٌ هو أم غير مراد ؟؟ فالجواب عن ذلك من وَجْهين : أحدهما أنه تعالى لما وعد بعقابهم وسبقت منه الكلمة بذلك لم يكن من الجائز أن يخلف وعده ؛ لأن خلف الوعد نقص ، وكل نقص محال عليه سبحانه وتعالى ، وثانيهما أن الحكمة تقتضى البتة عقابهم ، وكل شىء اقتضته الحكمة فان الله تعالى يفعله البتة ، فأما كونه من موجبات الحكمة فلأنه لو لم ينتقم المظلوم من الظالم لكان ذلك شبيها بكونه تعالى راضيا بذلك الظلم ، والله منزه عن ذلك ، فلما كان بهذه المنزلة كانت المحاسبة واجبة ، ولاشك أن معنى وجوبها لايراد منه شىء يشعر بنقص فى حقه جل شانه . والله سبحانه وتعالى أعلى وأعلم

سُورَة الفجر

وَهِيَ مَكّيّةٌ ، وَعددآياتها ثلاثون آيةً ، وَنزلت بعد سورة الليل] (١)

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

وَالْفَجْرِ [١]

---

(١) قد اختلفوا فى مكان نزول هذه السورة ؛ فالجمهور على أنها مكية ، وقال ابن أبى طلحة : مدنية ، وقد اختلفوا كذلك فى عدد آياتها ؛ فقيل : ثنتان وثلاثون ، وقيل : ثلاثون ، وقيل : تسع وعشرون آية .

قوله تعالى : (والفجر) قد اختلف العلماء فى بيان المراد من هذا ومن الذى بعده اختلافا طويلا ، وسنجتزىء بذكر معنيين مما ذكروه لكل واحد من هذه الأقسام ، وقبل أن نبدأ لك الكلام نقرر أنهم حاولوا بكل ما ذكروه صَرْفَ هذه الألفاظ إلى معانٍ تظهر فيها فائدة دينية ككونها دالة على التوحيد أو فائدة دنيوية توجب على الإنسان شكر خالقها . فأما الفجر فيقال : هو الصبح عند الوقت الذى ينشق فيه الضوء وينفجر النور ، وأقسم الله تعالى به لما يحصل فيه من انقضاء الليل وظهور الضوء وما يترتب على ذلك من المنافع مثل انتشار الناس وسائر الحيوانات من الطيور والوحوش فى طلب الأرزاق ، وهذا كقوله تعالى : « والصبح إذا تنفس » وكقوله جل شأنه : « والصبح إذا أسفر » وانظر إلى تمدحه سبحانه بأنه خالقُ الصبح فى قوله : « فالقُ الإصباح » ، ويقال : المراد بالفجر صلاة الصبح لأنها صلاة فى مفتتح النهار وتجتمع لها ملائكة الليل وملائكة النهار ، كما قال سبحانه : « وقرآنَ الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا » ذكر المفسرون أن معنى ذلك أن ملائكة

وَلَيَالٍ عَشْرٍ [٢] وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ [٣]

الليل وملائكة النهار يشهدون القراءة التى يرتلها من قام يعبد ربه والناس نيام فى صلاة الصبح ؛ وقوله سبحانه : (ولَيَالٍ عشر) يقال المراد بها العشر الأواخر من شهر رمضان ، وأقسم الله تعالى بها لشرفها ولأن فيها ليلة القدر التى هى خير من ألف شهر وقدورد فى الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم «اطلبوها فى العشر الأخير من رمضان » وقد صح أنه صلى الله عليه وسلم « كان إذا دخل العشر الأخير من رمضان شد المئزر وأيقظ أهله وأمر أهله بالتهجد » ؛ وقال الإمام : الفجر هنا هو جنس ذلك الوقت المعروف الذى يظهر فيه بياض النهار فى جلد الليل الأسود وينبعث الضياء لمطاردة الظلام ، وهو وقت تنفس الصبح ، وهو معهود فى كل يوم فصحَّ أن يعرف بالألف واللام ، والمراد والله أعلم من « ليال عشر » ليال يتشابه حالها مع حال الفجر ، وهى ليال يكون ضوء القمر فيها مطارداً لظلام الليل إلى أن تغلبه الظلمة ، فكأنه وضع التناسبُ على شىء من التقابل ؛ فضوء الصبح يهزم ظلمة الليل ثم يسطع النهار ولا يزال الضوء إلى الليل ، وضوء الأهلة فى عشر ليال من أول كل شهر يشق الظلام ثم لا يزال الظلام يغالبه إلى أن يغلبه فيسدل على الكون حجبه ، ولما كانت هذه الليالى العشر غير متعينة فى كل شهر ذكرها منكرة ؛ وذلك أن ضوء الهلال قد يظهر حتى يغلب أول الظلمة فى أول ليلة من الشهر وقد يكون ضئيلا يغيب ضوءه فى الشفق فلا يعد شيئا فحينئذ تبتدىء الليالى العشر من الليلة الثانية ، فلما كانت الليالى العشر تبتدىء تارة من أول ليلة وأخرى من الليلة الثانية لذلك نكرها على أنها ليال عشر من كل شهر اه ، وقوله تعالى : (والشفع والوتر) يقال : المراد بالشفع يوم النحر لكونه عاشر أيام ذى الحجة والمراد بالوتر يوم عرفة لكونه يوم التاسع ، وقد أقسم الله تعالى بهما لشرفهما ، ألا ترى أن يوم عرفة هو اليوم الذى عليه مدار أعمال الحج حتى إن النبى صلى الله عليه وسلم جعله نفس الحج فى قوله

وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ [٤]

«الحج عرفة» ثم ألا ترى أن يوم النحر يقع فيه التقرب إلى الله بذبح الضحايا كما يقع فيه كثير من أمور الحج كالطواف والحلق والرمى، وقال الإمام: والشفع والوتر الزوج والفرد من الليالى العشر أيضا؛ فهو يقسم بها على الجملة ثم يقسم بما حوته من زوج وفرد، اه.

وقوله تعالى: (وَاللَّيلِ إذا يَسْرِ) يقال المراد من «يَسْرِى» يمضى ويذهب، ويدل عليه قوله تعالى: «والليل إذا أدبر» وقوله سبحانه: «والليل إذا عسعس» وقال قتادة: المراد إذا أقبل وجاء، وأكثر المفسرين على أنه ليس المراد منه ليلة مخصوصة من الليالى، بل المراد جنس الليل، ولا شك أن نعمة الله تعالى على عباده بتعاقب الليل والنهار واختلاف مقاديرهما بحسب الأزمنة والفصول مما لا يجحده إلا مكابر متعنت؛ فصحَّ أن يقسم سبحانه بهما لأن فى القسم بهما تنبيها على أن تعاقبهما بتدبير مدبر حكيم عالم بجميع المعلومات، واقرأ إن شئت قوله تعالى: «قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة، مَنْ إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون، قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامه، من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون، ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله، ولعلكم تشكرون» تدرك مقدار ما فى إقبال الصبح من النفع العميم؛ فهو الذى يفرج عنك كرب الليل وينبهك إلى استقبال عملك، وتعرف مقدار ما فى ليالى القمر من فائدة فهى تستميل النفس إلى النقلة، وتيسر على الناس أمر السفر، وبخاصة فى أيام الحر الشديد وفى البلاد الشديدة الحر كبلاد العرب، وتعرف كم فى هجوم الظلام من فائدة فان فيه تهدأ النفوس وتسكن الخواطر وتستقر الجنوب فى مضاجعها لتستريح من عناء العمل وتستعين بالنوم على إعادة القوى؛

هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِذِى حِجْرٍ [٥]

لاجَرَمَ أقسم الله تعالى بهذه الأشياء ، ثم قال بعد القسم : (هل فى ذلك قسم لذى حِجْرٍ) والحجر — بكسر الحاء المهملة وسكون الجيم — هو العقل ، و إنما سمى العقل حجراً لأنه يمنع صاحبه عن الوقوع فيما لاينبغى ، والأصل فى معنى الحجر المنع ، وذلك كما سمى العقل عقلاً ؛ لأن الأصل فى معنى العقل الإمساك والرَّبط ؛ لأن العقل يُمسك صاحبه أن يقع فى الرذائل ويحجِزه عن التردى فى مهاوى الهلكة ، وكما سمى العقل نُهْيَة ، لأنه ينهى صاحبه عن القبائح ، وكما سمى العقل حَصَاةً ؛ لأنه يحصى و يضبط على صاحبه أفعاله ، ويقول العرب : فلانٌ ذو حِجْرٍ ، إذا كان قاهرا لنفسه ضابطالها مُضَيِّقاً عليها ؛ والغرض من الاستفهام فى قوله تعالى : «هل فى ذلك قسم لذى حجر» التأكيد وتقرير المقسم عليه وتقوية أمره ، وذلك كمن جادلك فى أمر فأقام لك الحجة الناصعة التى تثبت هذا الأمر ثم عقب ذلك بقوله : هل فيما ذكرت لك حجة ، والمراد إنى قد ذكرت لك أقوى الحجج وأبينها فلست تستطيع بعد ذلك الجحْد أو الإنكار أو التشكك فيما ذكرت لك . وكأنه سبحانه وتعالى قد قال لهم : إنَّ من كان ذا لُبٍّ وعقل يفطُن إلى أن فى القسم بهذه الأشياء المشتملة على الحكم الباهرة والعجائب الغريبة والدلائل على وحدانية مُبْدِعها مَقْنَعاً وكفاية . وقد اختلف العلماء فى بيان جواب القسم ؛ فقال الزمخشرى : هو محذوف يدل عليه قوله تعالى : « ألم تر كيف فعل ربك بعاد » إلى قوله « إن ربك لبالمرصاد » ، وكأنه تعالى قد قال : والفجر وليال عشر والشفع والوتر والليل إذا يَسْر لَنعذِّبَنَّ الكافرين . ثم ذكر الدليل على ذلك بقوله « ألم تر كيف فعل ربك بعاد ــ الخ» و إن وقوع القسم بين قوله تعالى فى آخر السورة السابقة « إن إلينا إيابهم ثم إن علينا حسابهم» و بين قوله تعالى فى هذه السورة « ألم تر كيف

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ [٦] إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ [٧] الَّتِي لَمْ
يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ [٨] وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ [٩]
وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ [١٠] الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ [١١] فَأَكْثَرُوا
فِيهَا الْفَسَادَ [١٢] فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ [١٣] إِنَّ رَبَّكَ
لَبِالْمِرْصَادِ [١٤]

فعل ربك بعاد ـ الآيات» مُرْشِدًا إلى هذا الجواب الذى ذكر تقديره جارُ الله الزمخشرى ، والسر فى حذفه هاهنا أن تذهب النفس كل مذهب فى التقدير ، فيكون فى هذا الحذف إيماء إلى تفخيم أمر الجواب ، وهذا هو الوجه الذى يصح الاعتداد به لما قدمنا غير مرة ، وقال قوم : الجواب هو قوله تعالى « إن ربك لبالمرصاد » وما بين القسم وجوابه اعتراض لامحل له من الاعراب .

وبعد أن أقسم الله سبحانه وتعالى أنه سيعذب الكافرين وسينال منهم جزاءً على كفرهم وإصرارهم على مخالفة أوامره وأوامر رسوله شرع فى ذكر قصص بعض الأمم السالفة ممن عاندوا الله ورسوله ولجوا فى عمايتهم وطغيانهم واستهانوا بحقوق الله عليهم ؛ فكان جزاؤهم على ذلك أن أوقع الله بهم العذاب وأخذهم أخذَ المنتقم الجبار ؛ ليكون فى ذلك زجر لهؤلاء الكفار ، وتثبيت للمؤمنين الذين اتبعوا الرسول وناصروه ، وتطمين لقلوب الذين يجدون من إيذاء الكفار لهم ولنبيهم مسَّ الألم ؛ فقال جل ذكره : (ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد ، وثمود الذين جابوا الصخر بالواد ، وفرعون ذى الأوتاد ، الذين طغوا فى البلاد فأكثروا فيها الفساد ، فصب عليهم ربك سوط عذاب ، إن ربك لبالمرصاد) واشتملت هذه الآيات الكريمة على ذكر ثلاث أمم من الأمم الغابرة ، وأجمل الله تعالى فيها ذكر ما أوقعه بهم من العذاب ولم يبين نوعه بيانا

واضحا ، ولا فصَّلَ هنا ماأوقعه بكل أمة من هذه الأمم ، ولئن كان لم يفصّله فى هذه السورة فقد فصله فى غير موضع من الكتاب الكريم ، من ذلك فى سورة «الحاقة» فقد فصَّلَ هناك سبحانه عذاب هذه الأمم تفصيلا شافيا ، أُنظر إلى قوله جل شأنه : «فأما ثمودُ فأهلكوا بالطاغية ، وأما عادٌ فأهلكوا بريح صَرْصَرٍ عاتية سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حُسُوماً فترى القوم فيها صَرْعى كأنهم أعجازُ نخل خاوية فهل ترى لهم من باقية» تجد البيان الذى بَيَّنَ به سبحانه نوع العذاب الذى أنزله بعاد وثمود قد تكفَّل لك بأتم الايضاح ، ثم انظر إلى قوله تباركت أسماؤه : «وجاء فرعونُ والمؤتفكات بالخاطئة فعصَوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية» تدرك ذلك تمام الإدراك ، والسر فى أنه سبحانه يكرر ذكر القصص فى القرآن الكريم ويذكرها فى بعض المواضع على طريق الإشارة وفى بعضها موجزة وفى بعضها مفصلة أنه جل ذكره إنما يذكر فى كل مكان من القرآن مايقتضيه مقام الكلام ويتطلبه حال المخاطبين به ؛ فقد يكون المراد إقامة الحجة على قدرته تعالى وتوحّده فى ملكه وقهره لعباده ، وقد يكون المراد ترقيق قلوب المخاطبين ، وقد يكون الغرض من سوق الكلام إبانة الحجة على عباده وأنه أعذر لهم إذ أنذرهم وخوفهم ، ونحو ذلك مما يؤتى بالكلام المشتمل على هذه القصص من أجله ، ولا شك أن كل مقام من هذه المقامات وغيرها يستدعى مالايستدعيه غيره من الكلام ، والغرض من الآيات التى نحن بصدد تفسيرها هو ماسبقت الإشارة إليه وهو تذكير الكفار بأمم كانت أشد منهم قوة وأكثر أموالا وأنصارا وعديدا وَعُدَدا ، لم تغْنِ عنهم أموالهم ولا دفعت عنهم أنصارهم بأس الله حين نزل بهم ، والغرض مع ذلك تطمين خاطر النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه بأن الله لايترك هؤلاء الكفار وما تسوّل لهم أنفسهم ، وأنه سبحانه إن أمهلهم فليس بمهمل لهم ولا بغافل عنهم ، بل لابد أن يأخذهم كما أخذ مَنْ قبلهم ، وأنت إذا تدبرت فى ذلك

بعض التدبر أمكنك أن تدرك أن مثل هذا الغرض يتأدَّى بمجرد الإشارة إلى هذه الأمم السابقة والإشارة إلى أنهم أُخذوا وعُذّبوا ولم يتركوا سدًى ، وهذا هو الذى تضمنته الآيات الكريمة التى نحن بصدد تفسيرها . وقوله تعالى « ألم تر » معناه ألم تعلم ، وليس المراد بالرؤية هاهنا رؤية البصر؛ لأن النبى صلى الله عليه وسلم لم يشاهد ذلك هو ولا أصحابه حتى يسأل عن مشاهدته ، فان قلت : أصل الرؤية أن تكون بالباصرة فكيف تطلق على العِلْم ، قلت : إذا كان المَعْلوم من الأمور الثابتة ثبوتاً كثبوت المشاهدات بحيث لا يتردد أحد فى التصديق به والإذعان له صحَّ حينئذ أن تطلق الرؤية عليه ، وأخبار عاد وثمود وفرعون كانت منقولة إلى المخاطبين نَقْلَ التواتر ، وأخبار التواتر تفيد عند السامع علماً يشبه العلم الذى ينشأ عن المشاهدة فى قوته وجلائه و بعده عن الشبهة . والخطاب فى قوله تعالى « ألم تر كيف فعل ربك بعاد » إلى النبى صلى الله عليه وسلم أوَّلَ الأمر ، والمراد به كل من يتأتى منه الرؤية بمعنى العلم على ماقدمناه ، وقوله جل شأنه « بعاد إرم ذات العماد » قد قرىء فيها بثلاث قراءات الأولى « بعادٍ إرَمَ ذاتِ العماد » بتنوين عاد وفتح إرمَ على أنه ممنوع من الصرف ، والثانية « بعادِ إرَمَ ذاتِ العماد » باضافة عاد إلى إرَمَ ووصفها بذات العماد ، والثالثة « بعادٍ إرَمِ ذاتِ العماد » باضافة إرم إلى ذات العماد ؛ أما توجيه القراءة الأولى فإرمَ يجوز أن تكون بدلاً وأن تكون عطف بيان على عادٍ ، وذات العماد نعت لعاد أو لإرم ، وأما توجيه القراءة الثانية فقد تبين من الكلام فى القراءة ، وأما الثالثة فإرم بدل أو عطف بيان على عاد ، و إرم مضاف إلى ذات العماد ، على ما مر . واعلم أن النسَّابين قد ذكروا أن عادا هو عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح ، وذكروا مع ذلك أن عادا قد يطلق على القبيلة كلها من أبناء عاد هذا كما يطلقون تميما على بنى تميم وبكرا على بنى بكر بن وائل وتغلب على بنى تغلب ، وهلم جرا ، وذكروا مع ذينك أن التاريخ قد حفظ لنا أن عاداً

القبيلةَ فرقتان فرقة منهما متقدمة سابقة ويقال لها عادٌ الأولى ، وفرقة متأخرة لاحقة ويقال لها عادٌ الأخيرة ، والدليل على ذلك قوله تعالى: « وأنه أهلك عاداً الأولى ، وثمود فما أبقى» واختلفوا بعد ذلك في «إرمَ » ؛ فقال قوم : هو جدُّ عاد ابن عوص المذكور في نسبه السابق ، وقد أُضيف العلم إلى العلم في القراءة الثانية كما أضيف في قولهم : أعشى همدان ، وأعشى قيس ؛ والمراد بهذه الإضافة في الآية الكريمة أن يُبَيَّن أن عاداً المقصودة بهذا الحديث عادٌ الأولى القريبة إلى الجد الأعلى ، وهذا هو المراد بإبدال إرم أو عطفه عليه بيانا في القراءة الأولى والقراءة الثالثة ، وقال قوم : المراد بإرم المدينة التي كانوا يسكنونها ، وقد كانت في بلاد الرمال والأحقاف بين عُمَان وحضرموت ، بدليل قوله تعالى : «واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف » وهذا المعنى ظاهر التوجيه في القراءة الثانية باضافة عاد إلى إرم ، وذلك كما تقول : عليُّ الحجاز ، وعمر مصر ، ونحو ذلك ، فأما على القراءتين الأولى والثالثة فالأمر مشكل ، وقد خرجوهما على أن الأصل بعادٍ صاحب إرَمَ ، فحذف المضاف وهو صاحب ، وأقيم المضاف إليه مُقامه وهو إرم ، وفي النفس من هذا التوجيه شيء ليس بالقليل ؛ واختلفوا كذلك في المراد بذات العماد ؛ فذهب قوم إلى أن المراد ذات الأعمدة ، وهي الأخبية والخيام ، وذلك أنهم كانوا قوما بَدْوًا ، وذهب قوم إلى أن المراد ذات الأساطين والعُمُد العالية إشارة إلى أنهم كانوا يرفعون البنيان على عُمُدٍ مرتفعة كما قال تعالى : « أتبنون بكل ريع آية تعبثون» وهذان الوجهان على أن المراد بإرم مساكن هؤلاء الناس ، وهي صالحة على القراءات الثلاث : أما على الأولى والثانية فذات العماد صفة لإرم سواء أضفت عادا إلى إرم أم جعلت إرمَ بيانا أو بدلا من عادٍ ، وأما على الثالثة فاضافة إرم إلى ذات العماد من نحو علي مكة وعمر مصر ، وقال قوم : ذات العماد وصف لهذه القبيلة ، وكأنه قيل : هذه قبيلة ذات عماد ، كما تقول : هي ذات

شوكة ، وهى ذات ملك ، والغرض من وصفها بذات العماد أنهم بلغوا ذروة المجد ووصلوا أوج العزة وكانوا فى أعلى درجات القوة والعلو ، والذى نختاره أن إرم فى هذه الآية الكريمة أبو القبيلة الأكبر الذى هو جد عاد بن عوص ، وأن المراد بذات العماد المعنى الذى ذكرناه أخيراً ، وعلى هذا يكون المعنى : ألم تعلم أيها الانسان كيف أهلك ربك عاداً الأولى الذين كانوا أشدَّ الناس أجساما وأطولهم قامة وأرفعهم مكانة ؟ فان قلت : فالضمير فى قوله تعالى « التى لم يُخْلَقْ مثلها فى البلاد » على أى شىء يعُود فى هذه الآية ؟ وما معنى الكلام على كل وجهٍ مما تذكر ؟ فالجواب على هذا أنا إذا قلنا إن إرم اسم لمساكن قوم عاد فالضمير يعود على إرم ، والمعنى إنه لم يخلق مثل مدينة أبناء عاد التى تسمى إرم فى بلاد الدنيا كلها ، ويجوز مع ذلك أن يكون الضمير راجعا إلى العماد ، والمعنى إنه لم يخلق مثل تلك الأساطين فى بلاد الدنيا ، وإن قلنا إن إرم هو أبو القبيلة الأكبر على ما اخترناه كان الضمير راجعا إلى عاد إرم والمعنى إنه لم يخلق مثل عاد فيمن سكن بلاد الدنيا كلها فى عظم الجثة وشدة القوة . وقوله تعالى « وثمود الذين جابوا الصخر بالواد » معنى « جابوا الصخر » قطعوه من الجبال ونحتوه ، وكانت ثمود مشهورة بنحت الصخور والرخام وقطعها من الجبال وبناء الأبنية العظيمة كما قال تعالى « وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين » وهذا يدل على مامنحهم الله من القوة والعقل حتى صنعوا لأنفسهم بيوتا من الصخر وأقاموها فى ذلك الوادى الذى اتخذوه لإقامتهم فيه ، ويقال : المراد أنهم قطعوا الصخر من الجبال واتخذوا منه واديا جعلوه مخزنا لمياه الأمطار كى يصرفوه فى منافعهم ، وعلى أية حال فالمراد من هذه العبارة الكناية عن كونهم كانوا من أهل الفكر والتدبير والقوة ، وثمود : قبيلة من العرب البائدة من ولد كاثر بن إرم بن سام بن نوح ، وكانت منازلها بالحجر بين الشام والحجاز . وقوله تعالى « وفرعون ذى الأوتاد » فرعون : اسم يطلق على

كل من كان يحكم مصر فى القديم ، والمراد به هاهنا الذى كان فى عهد موسى بن عمران عليه السلام ، والأوتاد : جمع وَتِد ، وأصل الوتد قطعة من الخشب ينجر طرفها ثم يدق فى الأرض ليربط فيه حبل الخيمة ، مثلا ، والمراد من أوتاد فرعون هذه المبانى العظيمة التى شادها فراعنة مصر فى قديم الزمان ، ومنها الأهرامات ، قال الامام : وما أجمل التعبير عما ترك المصريون من الأبنية الباقية بالأوتاد فانها هى الأهرام ومنظرها فى عين الرأى منظر الوتد الضخم المغروز فى الأرض ، بل إن شكل هيا كلهم العظيمة فى أقسامها شكل الأوتاد المقلوبة يبتدىء القسم عريضا وينتهى بأدق مما ابتدأ . وقوله جل ذكره « الذين طغوا فى البلاد » هو وصف لكل من سبق ذكرهم من عاد وثمود وفرعون ، و « طغوا » من الطغيان ، والطغيان : هو مجاوزة الحدّ والزيادة على القدر المعروف ، والمراد به هاهنا سوء استعمال السلطان والقوة ، والخروجُ فيهما عن حدود المَعْدَلة والقصدِ ، والإسرافُ فى الاعتداد بالنفس مع هضم حقوق الناس ، والاغترار بعظم القدرة حتى لا يرى لأحدٍ عنده شأنا ولا حقًا ، وقوله تعالى : « فأكثروا فيها الفساد » معناه أنهم كانوا بسبب طغيانهم سببا فى فساد البلاد ؛ وذلك أن من اعتدّ بنفسه فبالغ فى الاعتداد بها وتهاون فى حقوق غيره واعتدى عليها وأخذ ماليس له ولم يعط الذى عليه ؛ من فعل ذلك عاد بفعله على نظام الجماعة بالتفكيك ، وعلى عروة الائتلاف بالنقض ، وحينئذ يسود الفساد ويكثر الجور ويختلُّ نظام العمران . وقوله تعالى « فَصَبَّ عليهم ربك سوط عذاب » السَّوْط : هو الجِلْدُ المضفور الذى يُضرب به ، وَصَبُّه : إنزاله بشدة مع التوالى من غير انقطاع ، والمراد هنا بسوط العذاب أنواعُ العقوبات التى أنزلها الله بهم جزاء على طغيانهم وإفسادهم ، وهذه العقوبات هى التى بَيَّنَهَا سبحانه فى غير موضع من الكتاب العزيز وأشَرْنا إلى بعض هذه المواضع فى أول هذهِ القصص ، شبَّه الله سبحانه ما أوقعه بهم من

صنوف العذاب وما صَبَّهُ عليهم من ضروب الهلاك بالسَّوْط ، من قِبَلِ أن السوط يُضْرب به فى العقوبات ، والقادر الحكيم إنما يوقع العذاب بالأمم عقوبةً لها على مايقع منها من أنواع التفريط فى جَنْبِ الله ، فان قلت : هذه الآية تدل على أنه تعالى لايترك عقابَ مَنْ طغى وأفسد فى الأرض وأنه سبحانه يوقع بهم فى الدنيا البتة ، وقد قال تعالى : « ولو يؤاخذ الله الناسَ بظلمهم ماترك على ظهرها من دَابَّة » وهـذا يدل على أنه جل شأنه يؤخر عذاب بعض الناس إلى يوم القيامة ، فـكيف يُجْمَع بين هاتين الآيتين ؟ فالجواب عن ذلك أن نقول لك : إن القادر الحكيم لايؤاخذ الناسَ فى الدنيا بذنوبهم على الوجه الذى يستحقونه ، ولايترك أمرهم سُدًي ، بل يمسُّهم ببعض ذنوبهم فينالهم منه بعض العقاب ، و يؤخر حسابهم على باقى الذنوب إلى الآخرة ؛ ليكون تعجيل بعض العذاب فى الدنيا رَدْعاً لهم إن بقوا وَزَجْرًا لغيرهم عن ارتكاب مثل ماارتكبوه ، وانظر إلى قوله تعالى فى شأن فرعون وقومه : « مِمَّا خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا » وقوله جلت كلمته فى شأنهم أيضا : « النار يُعْرَضُون عليها غُدُوًّا وَعشيًا ، ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب » تدرك أنه تعالى عاقبهم فى الدنيا بالاغراق ، ثم عاقبهم فى قبورهم بِعَرْضهم على النار كلَّ غُدْوَة وكل عشية : وأنه سيعاقبهم مع هذا فى يوم القيامة بادخالهم من مكانٍ من النار يلاقون فيه أشد أنواع العذاب ، وهذا يدل على أنه يأخذ ببعض الذنوب ويؤجل عقاب بعضها الآخر ؛ فالآية التى نحن بصدد تفسيرها تدل على أنه قد وقع لهؤلاء فى الدنيا شىء مما استوجبوه بذنوبهم ، والآية التى ذكرت فى الاعتراض تشير إلى أنه قد بقى لهم شىء من العذاب لم يستوفوه فى هذه الحياة ، فنفهم من مجموع الآيتين أن ماوقع فى الدنيا مقدمة من مقدمات العذاب وأن تمام الجزاء سيكون هناك فى يوم العرض على الله القدير .

وقوله جل ذكره : « إن ربك لبالمرصاد » المِرْصَاد : هو المكان الذى يقوم فيه

الرَّصَد ، والرَّصَد: هو من مَنْ يَرْصد الأمور : أى يترقبها ليقف على مافيها من الخير أو الشر ، ويقال بلفظٍ واحد للمفرد وللجمع ، ويقال للحارس الذى يَحْرُس مَايُخْشَى عليه رَصَدٌ ، وعليه قوله تعالى : « وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حَرَسًا شديدًا وَشُهُبا ، وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رَصَدًا » وهذه العبارة وهى قوله جل ذكره « إن ربك لبالمرصاد » قد وردت مَوْرد التمثيل ، والمعنى إن ربك يجازى العصاة بذنوبهم فلا يفوته واحدٌ منهم ، والغرض من الآية بعث الطمأنينة إلى قلب الرسول صلى الله عليه وسلم وكأنه سبحانه يقول له : إن الله الذى ربَّاكَ وتولى أمْرَكَ وحفظك برعايته رقيبٌ على عباده مطلع على كل ما يفعلونه عليم بما تخفى صدورهم خبير بغيابات أنفسهم لاتخفى عليه خافية ، وهو مُجازٍ كلَّ عامل بعمله ؛ فأما من عمل صالحا وهو مؤمن فله جزاء الحسنى ، وأما من اقترف الآثام واجترح السيئات فسيصليه نارا وقودها النَّاسُ والحجارة ؛ فلا يظُنَّنَّ هؤلاء الأئمة الطاغون الذين يكثرون الفساد فى الأرض ويتجاوزن أقدارهم التى جعل الله لهم أنهم مُفْلِتون من عقابه . وهذه الجملة تعليل لقوله جل شأنه « فَصَبَّ عليهم ربك سَوْط عذاب » يعنى إنه تعالى إنما عاقب هؤلاء الأمم على ذنوبهم لأنه يُحصى على العصاة ذنوبهم ويؤاخذهم بها ، وقد علمت أن العلة تدلُّ على أنه تعالى يفعل ذلك مع كل عاصٍ ومع كل مذنب ؛ فمن ههنا ظهر وجه تسلية النبى بهذه الآية ووجه تخويف الكفار من أمته بها .

ثم إنه جل ذكره بعد أن ذكر شأن نفسه ، وأخبر عن نفسه أنه لايفوته من شأن عباده شىء وأنه لايهمل الذين يتعدَّوْن حدود ماشرعه لهم ، بل يأخذ كل مذنب بذنبه ؛ بعد أن ذكر ذلك عن نفسه ذكر شأن الانسان ، وكأنه تعالى يقول : هذا الذى ذكرناه هو

فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ [١٥]
وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ [١٦]

شأننا فان أردت أن تعرف شأن الإنسان فانا نقصه عليك ؛ فقال سبحانه : (فأما الانسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمَنِ ، وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهانَنِ) والمراد بالانسان جِنْسُهُ الصادقُ على من اتصف بالوصف المذكور ، وابتلاه : أى اختبره ، وذلك يَصدُق على بَسط الرزق وإقتاره فانه سبحانَه إذا بَسَط الرزق لعبد من عبيده فقد اختبر بذلك حاله ليظهر أمْرُه وينكشف ما استتر منه ويتبين أنه يصبح من الشاكرين لأنعم الله عليه أو يصير ممن إذا استغنى طغى وتجبر وكفر نعمة الله عليه وجحدها ، وكذلك إذا قَدَر الرزق على عبد من عبيده فقد اختبر حاله أيصبر على ما نزل به من عند ربه أم يجزع ؛ فالحكمة واحدة فى الأمرين ، ومن ثَمَّ ساغ أن يكون كل واحد من الأمرين ابتلاء ، واقرأ إذا شئت قوله جل ذكره : « ونبلوكم بالشر والخير فتنة » تدرك أن كل واحد من الأمرين المتقابلين يكون سبباً فى اختبار ماعند الانسان من الأخلاق الكامنة فى نفسه ، وقوله تعالى « فأكرمه ونعَّمَهُ » بيان لأثر الابتلاء ، ومعناه صَيَّرَهُ مُكْرَما يرْفُل فى بحبوحة النعيم ، وكذا قوله جل شأنه « فقَدَرَ عليه رزقه » بيانٌ لأثر الابتلاء ؛ ومعناه صَيَّره فقيراً مُقَتَّراً عليه فى الرزق . وتقول : قَدَرْت عليه الشىء ، إذا ضيقته عليه وكأنك جعلته بقَدْرٍ لايتجاوزه ، ومنه قوله تعالى : «ومن قُدِرَ عيه رزقه » وقوله« يَبْسُطُ الرزق لمن يشاء ويَقْدِر » وقوله « فظن أن لن نقدر عليه» وحاصل معنى الآية الكريمة أن الانسان جبلت نفسه على أنْ لايَهْتَمَّ إلا بشؤون الدنيا ولذاتها وشهواتها فان وجد فيها بَرْدَ الراحة ورأى سَعَةَ رزقه وبسطته واستطاع أن يُدْرِك ماتمنَّاه من

لذائذ وشهوات زعم أن هذا الذى هو فيه من السعة إكرامٌ من الله تعالى وخيّل له الوَهْمُ حينئذ أن الله جلت قدرته لايؤاخذه على ما يعمل من عمل ، وإن لم يجد هذه الراحة ورأى أن رزقه لايأتيه إلا بقدر ظنّ أن هــذا إهانة من الله تعالى له وإذلال لنفسه ، والانسان فى الحالين خاطىء مرتــكبٌ أشنع وجوه الغفلة ؛ لأن إسباغ النعمة فى الدنيا على أحد من الناس لايدل على أنه مستحقٌ لذلك ، ولو كان ذلك يدل على الاستحقاق لما رأيت عاصياً مُوَسَّعاً عليه ، ولا نظرت كافراً يتنعم بصنوف النعيم ، وكيف تــكون بسطة الرزق دليلا على أن العبد يستحق ذلك ونحن نشاهد كثيراً من الصدّيقين مُضَيَّقاً عليهم ، ولعلّ من حكمة الله تعالى فى بسطة الرزق على بعض الناس وتضييقه على بعضهم أن وِجْدان المال سببٌ للانغماس فى الشهوات وأنه قاطع عن الاتصال بالله ، وتأمل فيما كان يدعو به النبى صلى الله عليه وسلم من قوله « اللهم أحيِنى مسكيناً ، وأمتنى مسكيناً ، واحشرنى فى زمرة المساكين » تدرك ذلك المعنى واضحا ، بل اقرأ قوله تعالى : « إن الانسان ليطغى أن رآه استغنى » وكيف يسوغ للانسان أن يفرح بكثرة المال وهو مسئول بين يدى ربه عن كل شىء : فهو مسئول عن جوارحه جارحة فجارحة ، وهو مسئول عن صحته ، وهو مسئول عن عقله ، وهو مسئول عن ماله فيم أنفقه ، فكلما زاد نعيمه فى الدنيا طال سؤاله ، على أن سعادة الدنيا وشقاوتها في مقابلة ما فى الآخرة من السعادة والشقاوة بمنزلة القطرة أمام البحر ، فالمتنعم فى حياته الأولى لو كان من الأشقياء فى الآخرة لــكان نعيم الدنيا أقبح من الشقاء ، وهذا الفقير المحتاج فى الدنيا لو كان سعيداً فى الآخرة لــكان فقر الدنيا أسْعَدَ من الغنى والميسرة ، والناس غافلون عن ذلك لا يفكرون فيه ولا يلقون له بالا ، بل ترى من يمتحنهم الله بالفقر يضعف اصطبارهم عن احتماله ، ويذهب جزعهم بأفكارهم ؛ فيزعمون أن هذا الفقر إهانة من الله لهم ، ثم يزيدون فى هذا الزعم حتى يجرهم إلى اعتقاد

كَلاَّ بَلْ لاَ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ [١٧] وَلاَ تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ [١٨] وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَمًّا [١٩] وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا [٢٠].

أن مَنْ صغرت قيمته عند ربه لم تكن لله به عناية ولا بما عمله من عمل ، فيحمله ذلك على ارتكاب الآثام واحتمال الأوزار والجرى وراء الشياطين الْمُرْدِيَة ، فلا تعنُّ له مُوبقة إلا ارتكبها ، ولا تلوح له مُخْزِيَة إلا دَلفَ إليها ، فينخرط مع الجبارين فى سلك واحدٍ ويلتقى معهم فى طريق الفجور والإثم . وترى من يمتحنهم الله باسباغ النعمة عليهم يظنون أن الله قد اصطفاهم على عباده ورفعهم فوق سائر خلقه ، ثم لايزال بهم شيطان الغواية حتى يذهبوا مع أهوائهم كل مذهب ويسيروا فى طريق الشهوات المهلكة ويرتكبون كل مايزينه لهم الغرور ، هذه حال من لم ينعم عليه الله بنعمة العقل الصحيح والدين المتين ، حالتهم فى شقاوتهم وسعادتهم ، وفى فقرهم وغناهم ، وفى ضعفهم وقوتهم ، وفى نعيمهم وبؤسهم ، لا يرجعون إلى ربهم ولا يُدركون أن ماعنده خير وأبقى ، وأما الذين وهبهم الله تعالى عقلاً يدركون به حقَّ الادراك ويميزون به أوفق تمييز ، ورزقهم مع ذلك يقينا به وبما عنده وثبَّتَ قلوبهم على الايمان الصادق ، فهؤلاء تسمو أحوالُهُمْ عن التردِّى فى مَهاوى الخزى ، وتعلو أنفسهم عن الالتفات إلى الغرائز الحيوانية الأولى ، وهؤلاء هم الذين أدركوا الحياة على حقيقتها وعرفوا الآخرة كما ينبغى أن تُعْرَف

وقوله تعالى : (كلا ، بل لاتكرمون اليتيم ، ولا تحاضُّون على طعام المسكين ، وتأكلون التراث أَكْلاً لَمًّا ، وتحبون المال حبًّا جما) المراد به رَدْعُ هؤلاء عن مزاعمهم الباطلة وبيانُ أنهم يرتكبون أنواعا من المنكرات يستحقون عليها أشد أنواع العقاب ، قال ابن عباس : المراد لم أَبتلِ الانسان بالغنى لكرامته عندى ولم أبتله

بالفقر لهوانه عَلَىّ. وهذا الذى ذكره هو المعنى الذى يشير إليه حرف الردع وهو كلا ، وعدم إكرام اليتيم قد يكون بترك برِّه والاحسان إليه ؛ وقد يكون بدفعه عن حقه الثابت له فى الميراث وأكل حقوقه ، وقد يكون بأخذ ماله ، ومعنى «ولا تحاضُّون على طعام المسكين » لا يأمر بعضكم بعضاً باطعامه ، والتراث : الميراث ، وأصله وُرَاث فقلبت الواو تاء ، وكذلك كل واو وقعت فى أول الكلمة وهى مضمومة يجوز قلبها واوا ، نحو تُخَمة وتهمة وتُكَلَة وتُجاه . واللَّمّ : الشديد ، ومعنى « وتأكلون التراث أكلا لَمًّا» أنكم تأكلون المال الذى يتركه من يُتَوَفى منكم أكلاً شديداً بحيث تحولون بينه وبين من يستحقونه فلا تمكنون واحدا منهم من حقه فيه .

وقال جار الله الزمخشرى : ويجوز أن يكون الذم متوجها إلى الوارث الذى ظفر بالمال سَهْلاً من غير أن يَعْرَقَ فيه جبينه فيُسْرف فى إنفاقه ويأكله أكلا لما واسعا جامعا بين ألوان المشتهيات من الأطعمة والأشربة والفواكه كما يفعله الوُرّاث الباطلون ، ومعنى قوله تعالى « وتحبون المال حبا جما » إنكم تميلون مَيْلا شَديداً إلى المال ، سواءٌ أكان ميراثا أم لم يكن ، وكل ما ذكره سبحانه من الصفات التى يتصف بها هؤلاء الكفار يدل على أنهم قوم يؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة ، وكأنه يقول لهم : إنكم لو كنتم ممن غلب عليه حب الآخرة لانصرفتم عما يترك الموتى وتركتم ميراثهم لأيتامهم ومن كان فقيرا من أهليهم ؛ فانكم حين تشاركونهم فيه إنما تأخذون شيئا لا كسب لكم فيه ولا مدخل لكم فى تحصيله وجمعه ، ولو كنتم كذلك ممن استحبوا الآخرة ورغبوا فيها لما ضَرِيَت نفوسكم إلى المال تأخذونه من حيث وجدتموه ، ولما انغمست أنفسكم فى الشهوات وتكالبت عليها واستطابت وَباءَها ؛ فهذه الأعمال التى تعملونها تنطق بأنكم لستم على ما ادعيتم لأنفسكم من أنكم على ملة أبيكم إبراهيم خليل الرحمن

كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا [٢١]

وقوله تعالى : (كلا) رَدْعٌ لهم عما يرتكبونه من المنكرات وإنكار لأفعالهم التى ذكرها سبحانه فى الآيات السابقة ، والمعنى لا ينبغى أن يكون هذا شأنكم من الحرص على الدنيا و قَصْر الهمة واستفراغ الجهد فى تحصيلها ثم إذا حصلتموها تركتم المواساة ، وليتكم حين تحصلونها تصلون إليها من وجوه مشروعة ، فانكم تجمعونها من حيث تتهيأ لكم سواء أكان من وجوه الحل أم لم يكن كأنكم تتوهمون أنه لاحساب ولا جزاء ، ومن كانت هذه حالته فسيأتى عليه يوم يندم فيه أشد الندم ولا تنفعه الندامة يومئذ ، وسيتمنى فى ذلك اليوم أن لو كان قد أفنى حياته فى التقرب إلى الله بصالح الأعمال . ثم بين سبحانه ذلك اليوم الذى تعتريهم فيه الندامة ويكثر منهم التمنى و يعرفون أنهم كانوا على خطأ واضح، ووصف سبحانه ذلك اليوم بثلاثة أوصاف : الأول ماذكره بقوله : (إذا دُكَّت الأرض دكا دكا) الدك : كسر الحائط والجبل، ويقال : الدّك حطّ المرتفع بالبسط ، ومنه تقول : اندكّ سنامُ البعير ، إذا انفرش فى ظهره ، ودَكًّا دكًّا : معناه دكا بعد دك ، والمراد أنه كرر عليها الدك وتتابع حتى صارت الأرض هباء منثورا ، والوصف الثانى الذى يحدث ذلك اليوم ماذكره سبحانه بقوله : (وجاء ربك والملك صفا صفا) أما ظاهر قوله «وجاء ربك» فغيرمقصود لأن المجىء على معناه المعروف لنا يقتضى الحركة التى هى من خواص الأجسام وقد قام البرهان العقلى القاطع ودل النصُّ الصريح على أنه تعالى ليس جسما ولايتصف بصفات الأجسام ، و إذا كان ظاهر هذه العبارة غير مقصود وجب أن يتأول لها معنى يتفق مع النصوص والأدلة القاطعة ؛ وقد اختلف العلماء فى هذا التأويل [١] ، فمنهم من قال : الكلام

(١) هذه التأويلات مذهب الخلف من علماء هذه الأمة ، فأما مذهب السلف

وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا [٢٢] وَجِايءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ

على حذف مضاف ، وأصل الكلام وجاء أمْرُ ربك ، أو جاء جليلُ آيات ربك ، أو جاء قَهْرُ ربك ، أو نحو ذلك ؛ ومنهم من قال : العبارة تمثيل لظهور آيات الله وبيان سلطانه وقهره ، مثلت حاله فى ذلك بحال الملك إذا حضر بنفسه فانه يظهر بمجرد حضوره من آثار هيبته مالا يظهر بحضور عساكره كلها ؛ وضرب المثل مما تعارفوه وشاهدوه ؛ ومعنى قوله « والملك صفا صفا » أن الملائكة يصطفون صفا بعد صف مُحْدِقين بالجن والإنس ، والوصف الثالث الذى يحدث فى ذلك اليوم هو ماذكره جل شأنه بقوله : (وجىء يومئذ بجهنم) والمراد أنها كُشِفت للناظرين بعد أن لم تكن ظاهرة فرأوها وشاهدوها بأعينهم بعد أن كانت غائبة عنهم ، فهو مثل قوله تعالى : « وبُرِّزَت الجحيم لمن يرى » أى أظهرت حتى رآها الخلق وعاينوها ؛ وليس المراد أنها نقلت من مكانها الذى هى فيه إلى مكان آخر ، فأما قوله تعالى : (يومئذ يتذكر الانسان) فيوم : بدل من «إذا» ومُتعلَّق المبدل منه قوله « يتذكر» وكأنه قال يتذكر الانسان يومَ تُدَكُّ الأرض الخ ، وقد اختلف العلماء فى المراد من تذكر الانسان ؛ فقيل : المراد أنه يتذكر ما فرَّطَ فيه وذلك لأنه سيعرف أن ما كان فيه فى حياته الأولى كان ضلالا وأنه كان يجب أن تكون حاله خيرا مما كان عليه ، ويقال : معنى تذكره أنه يتعظ فيقول : يا ليتنا نرد ولا

رضى الله عنهم فخلاصته أننا نؤمن بذلك المجىء وبأنه مسند إليه تعالى ، ولكننا نفوض علم حقيقة المجىء إليه جل شأنه ولا نبحث عن معناه ولا نتطلب مالم يوضحه سبحانه ، فالمجىء ثابت والكيف مجهول ، والغرض على كل حال تنزيه الله تعالى عن مشابهة الحوادث .

وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَىٰ [٢٣] يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي [٢٤]
فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ [٢٥] وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ [٢٦]

نكذب بآيات ربنا ، ويقال : المراد من تذكره أنه يتوب مما كان عليه ، وقوله تعالى بعد ذلك : (وأنى له الذكرى) معناه أن تذكره فى ذلك اليوم لا نفع له ولا تُرْجَى منه فائدة ؛ فإن هذا اليوم ليس يوم عملٍ ، وإنما هو يومُ الجزاء والمحاسبة ، وكأنه قد قال : إذا حدثتْ هذه الأحداثُ انكشفت عن الإنسان الحُجُبُ ووضح له ما كان خافيا عليه وذهبت عنه الغفلة فيدرك أنَّ ما كان فيه ضلالٌ مبين فيتمنى أن يَعُودَ ليعمل الصالحات ، ولكنه لا ينال ما يتمناه ، فكأنَّ هذه الذكرى لم تأته بفائدة ولم ترجع إليه منها أية عائدة ، وأما قوله جل شأنه : (يقول ياليتنى قدمت لحياتى) فمعناه أنه يتمنى أن يكون قد عمل عملا صالحاً ينفعه فى حياته الأخروية التى هى الحياة الحقيقية ، وكأنَّ الحياةَ ليست إلا حياة الآخرة ؛ كما قال جل شأنه : « وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون » أى هى الحياة دون هذه الدنيا المنقطعة التى لا تدوم ، ويقال : المعنى ياليتنى قدمت فى الدنيا عملا يوجب نجاتى من النار حتى أكون من الأحياء ؛ لأن أهل النار كأنهم لا حياة لهم ، ألا ترى قوله تعالى فى حق الكافر : «فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى » وقوله فى حقه أيضاً : « ويتجنبها الأشقى الذى يصلى النار الكبرى ثم لا يموت فيها ولا يحيى » ، ويقال : معنى الآية التى نحن بصدد تفسيرها ياليتنى قدمت وقت حياتى فى الدنيا عملاً أتقرب به إلى الله .

وقوله جل شأنه : (فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ؛ ولا يوثق وثاقه أحد) قد قرىء ببناء « يعذب » و « يوثق » للمجهول ، وقرىء فيهما بالبناء للمعلوم ، والوَثَاقُ : الشدُّ والربط كما يكون بالسلاسل والأغلال ، أما على قراءة البناء للمجهول فالمعنى

أن فى هذا اليوم لايُعَذَّبُ أحدٌ من الخلائق عذاباً مثل هذا العذاب الذى يُعذَّب به ذلك الإنسان الذى أبطره الغنى حتى جحد نعمة الله أو أفسده الفقر حتى عثا فى الأرض فسادا، ولا يُوثَق أحدٌ من الخلائق وَثاقاً مثل هذا الوثاق الذى يوثقه ذلك الإنسان، وأما على قراءة البناء للمعلوم فى الفعلين فالمعنى أن فى هذا اليوم لايتولّى العذابَ أحدٌ، وإنما يُعذِّبُ اللهُ عبادَهُ، وهذا لأن الأمر يومئذ أمره، فالضمير فى « عذابه » على هذا راجع إلى الله تعالى، ويقال: المعنى على هذه القراءة أنه لايقع من المعذّبين مثل العذاب الذى يقع على هذا الانسان، قال الامام: ومعنى الآيات الكريمة أن مايزعمه الأغنياء الجبارون والفقراء الخاسرون من أنهم لربهم ذاكرون مع فراغ قلوبهم من الرأفة بالضعفاء وامتلائها بحب المال وفيضانها بالميل إلى الشهوات؛ زَعمٌ لاحقيقة له، وإنما يتذكرون ربهم على الحقيقة فى ذلك اليوم العظيم عندما يشهدون الهَوْلَ ويعُوزهُم الحَوْلُ ويظهر لهم مكانهم من العذاب والنكال، ولكن ليس فى هذا التذكر موعظة تحمل على العمل النافع؛ فان تلك الدار دارُ جزاء لا دار أعمال؛ وإنما يَبقَى لأولئك الخاسرون الحسرةُ والندامة.

ثم إنه سبحانه وتعالى بعد أن ذكر حال الإنسان إذا خُلّى وطبعه وتُرِك مع سجيته وجبلته التى انطبعت عليها نفسه، ووصفه بأنه حينئذ يكون شديد الحرص عظيم الجشع تستولى على عقله رغباته الجسمية حتى تخرجه عن سلطان الحكمة وتتمكن من نفسه الشهواتُ حتى تصل به إلى درجة الحيوانية، وبعد أن ذكر عُقبى ذلك وما يكون عليه الإنسان فى حياته الأخرى، بعد أن ذكر كل ذلك أخذ فى ذكر الإنسان إذا سَمَتْ نفسه وارتقت مداركه واستولى عليها العقل وسارَ مع مُقتضى الحكمة فاطمأن إلى معرفة خالقه وانقادت نفسه إلى الخضوع إلى بارئه والعبودية

يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ [٢٧] ارْجِعِى إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً [٢٨] فَادْخُلِى فِى عِبَادِى [٢٩] وَادْخُلِى جَنَّتِى [٣٠]

له ؛ فقال : (يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى) والمطمئنة : وصف من الاطمئنان وهو الاستقرار والثبات ، والمراد أن هذه النفس قد استيقنت الحق فلا يخالجها فيه شك ، وهى مع ذلك آمنة لا يستفزها خوف ولا يعتريها حزن ، والمراد من قوله تعالى « ارجعى إلى ربك » ارجعى إلى ثواب ربك ، أو هو تمثيل للكرامة التى ينالها هؤلاء عنده ، ومعنى قوله سبحانه « فادخلى فى عبادى » كونى من عبادى المكرمين الذين استحقوا النسبة لى والاختصاص بى ، وهذه سعادة روحانية عظيمة ، وقوله جل شأنه « وادخلى جنتى » إشارة إلى السعادة الجسمانية ؛ ولما كانت السعادة الروحانية غير غير متراخية فى حق من كتبها الله لهم عن الموت ، بل تنالهم هذه الكرامة حين يموتون ؛ لما كان ذلك كذلك قال سبحانه « فادخلى فى عبادى » بالفاء التى تدل على التعقيب من غير مهلة ولا تراخ ، ولما كانت السعادة الجسمانية لا يقع الفوز بها إلا بعد قيام الساعة لا جرم قال سبحانه « وادخلى جنتى » بالواو لا بالفاء . والله سبحانه وتعالى أعلى وأعلم .

سورة البلد

[وهى مكية ، وآياتها عشرون آيةً ، ونزلت بعد سورة ق] *

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

لا أُقْسِمُ بِهٰذَا الْبَلَدِ [١]

* ذكر جار الله الزمخشرى أن هذه السورة مُجْمَع على أنها مكية ، والحقيقة أنه قد وقع الاختلاف فيها ؛ فقيل : كلها مكية ، وقيل : كلها مَدَنية ، وقيل : هى مَدَنية إلا أربع آيات من أولها ؛ وكأنَّ الزمخشرى لمَّا رأى أن مطلعها قوله تعالى : « لا أقسم بهذا البلد وأنت حل بهذا البلد » والبلد هى مكة فى قول المفسرين جَزَمَ بأن من ذهب إلى أنها مدنية لا وجه له فلم يبال بخلافه ؛ فحكى الإجماع على أنها مكية ، وقد اتفقوا على أن آياتها عشرون آية . والمناسبة بين هذه السورة والتى قبلها أنه سبحانه لما ذكر فى السورة الماضية الصفات التى تخلَّق بها الكفار ، وذَمَّهم عليها ، وأنكر أن تكون خُلُقًا يُتَخَلَّقُ به ، مِنْ حُبِّ المال ، وأكل التراث أكلاً لمًّا ، وعدم الحضّ على طعام المسكين ؛ ذكر فى هذه السورة ما ينبغى أن يتحلَّى به الإنسان صاحبُ المال من الخصال الشريفة كفك الرقاب ، وإطعام المعوزين والمحتاجين فى أيام المجاعة ، وشىء آخر من المناسبة بين السورتين ، وهو أنه جل شأنه لما ذكر النفس المطمئنة فى السورة السابقة وذكر ما ينالها من عظيم الثواب وجزيل الأجر ذكر فى هذه السورة بعض ما يكون بسببه الاطمئنان .

قوله تعالى : (لا أقسم بهذا البلد) هو على نحو ماذكرناه فى تفسير قوله جل ذكره : (فلا أقسم بالشفق والليل وما وَسَقَ والقمر إذا اتَّسَقَ) [١] وفى تفسير

(١) انظر (ص ١١١) من هذا الجزء

وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَٰذَا الْبَلَدِ [٢]

قوله سبحانه : « فلا أقسم بالخنس الجوار الكُنَّس »(١) والمراد القَسَم بمكة التى كرمها الله تعالى ، وليس يستطيع أحد أن ينكر شرف مكة الدينى الذى شرفها الله تعالى به ؛ فقد جعلها سبحانه حرماً آمناً وجعل فيها البيت الحرام الذى جعله مَثَابَةً للناس ومَعَاداً يرجعون إليه و يعاودون زيارته كلما دعاهم إليه الشوقُ ، وجعل فيه الكعبة التى جعلها قبلة لأهل المشرق والمغرب ، وأمر بالتوجه إليها فى الصلوات التى تتكرر كل يوم فقال : « وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره » وجعل فيها مقام إبراهيم وأمر بأن يتخذ مكاناً للصلاة فيه فقال : « واتخذوا من مقام إبراهيم مُصَلًّى » وحَرَّم فى ذلك الحرم صَيْدَ البر ؛ فمن أجل هذا الشرف الذى لا يجحده أحد شرفها الله تعالى بالحلف بها إن جعلت «لا» صلة ، أو صانها فى ظاهر الأمر(٢) عن الحلف بها لهؤلاء المعاندين فى مثل هذا المقام إن جعلت «لا» نافية ؛ وأما قوله تعالى : (وأنت حِلٌّ بهذا البلد) فقد اختلف المفسرون فى معناه ؛ فقال قوم : معناه وأنت مقيم بهذا البلد نازل فيه حالٌّ به ، وكأنه سبحانه جعل من أسباب عظمة مكة وشرفها التى تستحق به أن يُحْلَفَ بها كونَ الرسول صلى الله عليه وسلم مقيمٌ فيها ، والأمكنة تشرف بشرف ساكنيها والنازلين بها ، وقال قوم : ليس الحلُّ فى هذه الآية بمعنى الحالّ المقيم ، ولكن الحل ههُنَا ضد الحرام ، والواو فى صدر هذه الجملة واو الحال وكأنه سبحانه يقول : لا أقسم بهذا البلد والحالُ أنك حَلَالٌ فيه والمراد التنديد بأهل مكة على ما كانوا يفعلونه مع النبى صلى الله عليه وسلم ؛ مع قصد تثبيته عليه السلام وتقوية شأنه ، وكأنه سبحانه قد قال : إن الكفار يحترمون هذا البلد ولا ينتهكون فيه المحرمات ؛ ثم هم مع ذلك ومع أن لك مزية

---

(٢) انظر (ص ٦٥) من هذا الجزء.

(٢) نقول « فى ظاهر الأمر » لأن التحقيق أن المراد القسم على ما سبق بيانه

تقتضى لك زيادة الإكرام والتبجيل ونهاية الانتهاء عن إيذائك ، ذلك بأن الله أكرمك برسالته وشرفك بأن حمّلكَ أمانة النبوة ودعوة الناس إلى سعادتهم فى دنياهم وآخرتهم ، هم مع ذلك كله يستحلُّون إيذاءك ، ويهمُّون بقتلك ، ولو تمكنوا من ذلك لما امتنعوا منه ، فهم يَرَوْن أنك حلال لهم ليس لك من الحرمة ما يَرَوْنهُ لغيرك . وقال شرجبيل فى معنى ذلك : يحرمون أن يقتلوا بها صَيْداً أو يَعْضِدوا بها شَجَرَةً ويستحلُّون إخراجك وقتلك . وقد ذهب قتادة إلى أن المراد بهذه الآية تسليطُ النبى صلى الله عليه وسلم على الكفار وتمكينه منهم ، وكأنه تعالى يقول له : أنت فى حِلّ من أن تفعل بهذه البلد ماشئت فاقتل من أهلها من شئت منهم ممن تعلم أنه لا يهتدى ولا تقتلع من قلبه الحفيظة عليك وعلى دينك الذى بعثك به ؛ وهذا بناء على أن هذه السورة أو صَدْرَهَا نزل فى فتح مكة ، وقد أحل الله تعالى لرسوله يوم الفتح مكة ولم تُحَلّ لأحد قبله ، وأذن له فى أن يُحِلّ ماشاء؛ ويحرم مايشاء ؛ وكان من أثر هذا الإذن أن قَتَلَ عليه الصلاة والسلام قوماممن كانوا يؤذونه ويؤلّبون عليه وينالون منه ؛ فقتل عبد الله بن خَطَلٍ وهو متعلق بأستار الكعبة وقتل مِقْيَسَ بن صبابة ، وقتل غير هذين ، وحَرَّم دار أبى سفيان وأمر أن ينادى : من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ؛ وقد ورد عن النبى صلوات الله وسلامه عليه أنه قال عقب الفتح : « إن الله حَرَّمَ مكة يوم خلق السمٰوات والأرض ؛ فهى حَرَام إلى أن تقوم الساعة ؛ لم تحلّ لأحدقبلى ، ولن تحل لأحدبعدى ، ولم تَحِلّ لى إلا ساعةً من نهار ؛ فلا يُعْضَد شَجَرُها ، ولا يُختلى خَلَاهَا ، ولايُنفَّر صَيْدُهَا ، ولاتحل لُقَطَتُها إلا لمنشد» فقال له العباسُ : إلا الإِذْخر يارسول الله فإنه لبيوتنا وقبورنا ؛ فقال : « إلا الإِذخر » ، وقال قوم : معنى هذه الآية أنت من أهل هذه البلدة المقيمين بها المعروفين فيها ، وكأنه بيان لمركز الرسول من الكفار الذين عاندوه وامتنعوا عن تصديقه مع بيان فساد صنيعهم ، وكأنه سبحانه يقول :

وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ [٣]

إنك من أهل هذه البلد وأنت دائم الإقامة فيها وليس بين أهلها من يجهلك ولا يعرف ما أنت عليه من شرف النسب وكرم المحتد وعظيم الأخلاق وجميل السجايا والخلال ، فهم يعلمون طهارتك من الذنوب وبراءتك من أدران الجاهلية وقاذوراتها وتباعدك عما عليه أكثرهم من دنىء الأعمال ، وهم يعلمون صدقك وَعُلُوَّ نفسك ورفعة قدرك ، فكيف ساغ لهم أن ينكروا ذلك عليك حين أمرتهم بطاعة الله والإيمان به ، وهذا نحو من قوله جل شأنه : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ماعنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم » وقوله تباركت أسماؤه : « هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم »

وقوله تعالى : (ووالد وما ولد) هو معطوف على الْمُقْسَمِ به ، وقد اعترض بين المتعاطفين بقوله سبحانه « وأنت حل بهذا البلد » وقد اختلف المفسرون فى معناه فقال قوم : المراد به كل والد وكل مولود ، وهو أوجه ما ذكروه من الوجوه ؛ لأنه يدل على حرمة الخلق كلهم ؛ وقريب من هذا قول من قال : المراد بالوالد آدم عليه السلام ، والمراد بما ولد أبناؤه كلهم ؛ وإنما أقسم سبحانه بهم لأنهم أعجب مَنْ خَلَقَه لما فيهم من النطق والبيان والفكر والتدبير واستنباط العلوم ، وفيهم الأنبياء والدعاة إلى الله وأنصارُ دين الله ، ألست ترى أن الله تعالى إنما خَلَقَ كُلَّ مافى هذه الدنيا وَسَخَّرَه لآدم عليه السلام وأولاده وكان أَوَّلَ مادل على تسخير الخلق كلهم لآدم وأولاده أَمْرُه سبحانه الملائكةَ بالسجود له ، وذهب قوم إلى أن المراد بالوالد إبراهيم خليل الرحمن والمراد بما ولد نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وكأن هؤلاء رأوا أن الله تعالى أقسم بمكة فى مطلع السورة ، وأشرفُ بقاع مكة الكعبةُ ، وإبراهيم عليه السلام بانى هذه الكعبة ، وَمحمدٌ صلى الله عليه

لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِى كَبَدٍ [٤]

وسلم ساكن مكة ، فلما رأوا ذلك أبَوْا إلا يجعلوا قوله تعالى « ووالد وما ولد » متصلا بسبب بمكة التى أقسم بها أولا ؛ ولاداعى لذلك ولا محوج إليه

وقوله سبحانه : (لقد خلقنا الانسان فى كَبَدٍ) هو الْمُقْسَم عليه ، والمراد بالإنسان هذا النوع من المخلوقات ؛ فليس يراد به ههنا واحد معين من بنى آدم ، والكَبَد يحتمل أن يكون المراد به الاستواء والاستقامة ، والمعنى أنه سبحان خلق الانسان مُسْتَوِىَ القامة ولم يجعله كالحيوانات يسير على يديه ورجليه ، وهذا نحو من قوله تعالى : « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم » ويحتمل أن المراد بالكبد شدة الخلق ومتانة القوة ، والمعنى على هذا أنه سبحانه خلق الإنسان وآتاه من قوة الأعضاء وشدة التفكير ماجعله يُهَيْمِن على الْعَالَم وَيُسَيْطِرُ بتفكيره على جميع أنواع المخلوقات فاستطاع أن يسخر الماء والهواء وأنواع الحيوان ، ويحتمل أن يكون المراد بالكبد التعب والمشقة ، والأصل فى استعماله قولهم : كَبِدَ الرجلُ كَبَداً ، فهو كَبِدٌ ؛ إذا وجعته كَبِدُه وانتفخت ، ثم اتُّسِع فيه حتى صار يراد منه كل جَهْد ومشقة تنال الإنسان ، ومن هذا قول لبيد بن ربيعة العامرى فى أخيه أَرْبَدَ

يَا عَيْنُ هَلاَّ بَكَيْتِ أَرْبَدَ إِذْ ... قُمْنَا وَقَامَ الْخُصُومُ فِى كَبَدِ

والمعنى على هذا أن الله تعالى خلق الإنسان لهذه الشدائد التى فى الدنيا لايزال يكابدها ، وَيَجِدُّ فى مقارعتها ، ويثابر على مُهَاجمتها ؛ والرأى أن تحمل الآية الكريمة متناولة لجميع ذلك ولما هو أعَمُّ منها جميعها ؛ فالله تعالى قد خلق الإنسان فى أعْدَل نهج ، وأقدره على الفكر ، وجعل له من فكره قائداً يقوده إلى الاستيلاء على المخلوقات كلها ؛ وهو سبحانه قد جعل حياة الإنسان سلسلة من الجهاد متصلة

الحلقات ، وجعلها مبتدئة بالجهاد والمشقة ، ومنتهية بهما أيضا ؛ فهو مايزال يقاسى من المشقة ألوانا وضروبا مختلفة منذ نشأته فى بطن أمه ، ومن استهلاله صارخا إلى أن يكبر ويصير رجلا ، وفى هذا العهد تزداد مشقاته ويكثر عليه الجهد ، فمن تحصيل رزقه إلى تربية أولاده ، ومن جهاد نفسه ورياضتها على البر والتقوى إلى مقارعة خطوب الدهر ونوازله ، ومن الصبر على البلاء إلى الخضوع لبارىء الأرض والسماء ، ومن الاجتهاد فى المعرفة إلى مصابرة النفس على الطاعة ، ثم هو بعد ذلك كله يمرض ويموت ، ويلاقى فى قبره وفى آخرته من المشاق والمتاعب مالا يقدر عليه إلا بتيسير الله سبحانه ، وكأن هذا هو المشار إليه بفى التى تدل على الظرفية فى قوله تعالى « لقد خلقنا الإنسان فى كبد » وكأنه لشدة اتصاله بالكبد وعدم انفكاكه عنه كالمظروف فيه ؛ ألا ترى أن الظرف بحسب أصله يُحيطُ بالمظروف ويحتويه ؛ وهذا يدل على أن الإنسان لايفارق المحنة ولا يخلو من الكد والجهد حتى يصير إلى عالم آخر تغاير أحوالُه أحوالَ هذا العالم .

والسر فى تبيينه سبحانه أنَّ الإنسان قد خُلق فى عناء وجَهْد الرغبةُ فى تسلية مَنْ تنبعث همته إلى عَمَل الخير وحضّه على أن يثابر على ذلك ولا يعبأ بما يلاقيه من الشدائد لأن هذه المشاقّ لايخلو منها الإنسان ولا ينفكُّ عنها والقصدُ إلى تنبيه المغرورين الجُهّال الذين يشعرون فى أنفسهم بالقوة ويحسبون أنهم يستطيعون بها مصارعةَ الأقران ومقارعة الأنداد ويظنون أن الذى آتاهم الله من البسطة فى الجسم أو المال أو الجاه يدعوهم إلى الاستكبار واستعباد الضعفاء والتيه عليهم ؛ فكأنه سبحانه قد قال لهم : أيها المغرورون بقوة أبدانكم المفتونون بواسع جاهكم المخدوعون بكثرة مالكم ؛ لاتتمادَوْا فى غروركم ، ولاتستمروا على صَلَفكم وكبريائكم ، لأن الإنسان لايخلو من العناء فى تصريف شؤونه وشؤون ذويه ، ولاينفك عن

أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ [٥] يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَدًا [٦]
أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ [٧]

مجهود يبذله وعناء يلاقيه فى سبيل حماية نفسه وأهله من عوادى الزمان وخطوبه ، ومهما عظمت منزلةُ الإنسان وقويت شكيمته فانه لايستطيع الخلاص من مشاق الحياة ، وبعد أن بين سبحانه ذلك أخذ فى تذكير المفتونين بما أنعم عليهم من النعم مع تقريعه إياهم وتوبيخه لهم على الاعتزاز بقوتهم الزائلة ؛ فقال جل شأنه : (أيحسب أن لن يقدر عليه أحد) والمعنى أيظن ذلك الإنسان المغتر بقوته المتباهى بشدته الغارق فى بحار تخيلاته المفتون بما أنعمنا به عليه أنه مهما عظُمت حاله ومهما قوى سلطانه يبلغ إلى المنزلة التى لايقدر عليه فيها أحد ؟ ! والغرض من الاستفهام ههنا الإنكار وكأنه تعالى يقول : لايجوز لهذا الإنسان أن يظن فى نفسه القدرة على إنفاذ رغباته كلها فإن القادر الحكيم يَدْفَعُهُ عن مُراده مهما عَبَّأ من الأسباب ورَتَّب من العلل وما أجْهَلَ ذلك الإنسان إذا ظن أنه لايُغَالَبُ ولا يُدَافع ولا يُحَالُ بينه وبين مايشتهيه ؛ فان فى هذا الوجود قوة فوق جميع القُوَى وقدرة تَقْصُر دونها كلُّ القُدَر ، وهذه القدرة هى المهيمنة على كل قدرة وهذه القوة هى النافذة على كل قوة ؛ وهذا كلام مع نوع من المفتونين ، وهم الذين غرتهم قُوَاهم ، وقوله سبحانه وتعالى : (يقول أهلكت مالا لُبَدًا أيحسب أن لم يره أحد) كلام عن نوع آخر منهم ، وهم الذين فتنهم مالهم وغرهم غناهم ويَسَارهم ، ومعنى أهلكت أنفقت ، والمال اللبد الكثير ، وقد اختلف فيه أهو مفرد أم جمع ؛ فقال قوم : هو جمع واحدته لبدة مثل غُرْفة وغُرَف ، وقال آخرون : هو مفرد مثل حُطَم وَقُثَم ، والمراد أن كفار أهل مكة الذين خدعهم المال يقولون : قد أنفقنا فى المكارم والمفاخر نفيسَ الأموال ، وقد حسبوا أن ما يسمونه مكارم ومفاخر هو فى الحقيقة مفاخر ومكارم ، ولم يعلموا

أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ [٨] وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ [٩]

أنّ المكارم ماعَدَّهُ اللهُ مكرمة ، وأنه ليس من المفاخر إلا ماعَدَّه الله فخراً ؛ وأنه لابرَّ إلا الذى أُعتبره الله تعالى برًّا ؛ فليس من البر إنفاقُهم المالَ على مشاقّة الله ورسوله بِدَعْوَى حماية أحسابهم وأنسابهم من أن يقول فيها الرسول قولاً لايَرْضَوْنه وإن كان هو الحق ، وليس من المكارم إنفاقهم طائلَ الأموال للصدِّ عن سبيل الله والكيد للذين آمنوا بالله ورسوله . وقوله سبحانه : « أيحسب أن لم يره أحد » معناه أيظن ذلك المغتر بماله المدعى أنه أنفقه فى سُبُل الخير والبر أن الله تعالى لم يطلع على أفعاله ولم يعلم بما دعاه إلى ذلك الإنفاق ؟ وهذا الاستفهام إنكار عليه أن يظن هذا الظن ، فكأنه سبحانه قد قال : لاينبغى له أن يظن ذلك لأن الخالق الحكيم مُطَّلع على قَرارة نفسه عالم بخبيئات قلبه خبيرٌ بِخَوالِج نفسه وهواجسها ، وهو لا يَعْزُب عنه شىء فى الأرض ولا فى السماء ؛ وهو عليم بأنه لم يُنفق شيئا من ماله فى سبيل الخير المشروع والبر المحمود ، وإنما أنفق ما أنفق وبذل ما بذل إما للرياء والسمعة وإما لمشاقة الله ورسوله وإما فى وُجُوه من المصارف يحسبها خيراً وهى من أخسر الأعمال

ثم إنه سبحانه وتعالى بعد أن أنكر على هؤلاء الناس الاغترارَ بقُوَّتهم والاعتزاز بأموالهم أخذ فى بيان آثار قدرته الغالبة ليقوِّى لهم أنهم مهما بَلَغَتْ قواهم فلن تبلغ هذه القدرة التى كان ذلك من آثارها ؛ فقال جل شأنه : (ألم نجعل له عينين) فهو إذا أبصر شَيْئاً فإنما هذا الإبصار بما خلقنا له من العينين ؛ فالنعمةُ التى يعتز بها إنما هى من عملنا وخلقنا (ولساناً وشفتين) وهو إذا أبَانَ عما فى نفسه بالكلام فإنما يُبين بما ذَرَأْنا له من الجارحة التى يتكلم بها ، فإذا اعتز بالإبانة أو غرَّه حُسْنُ حديثه أو قوة حجته فليس فَضْلُ ذلك راجعا إلى نفسه ، وإنما الفضل لمن وَهَبَه ، وهو إذا تحدَّث عن الإنفاق والبَذْل وذَكَرَ

وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ [١٠] فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ [١١]

مالَه فليس بمحقيق أن يذكر شيئا من ذلك لأن هذا المال الذى يفاخر به ليس هو الذى منحه لنفسه و إنما منحه إياه الذى يعطى من يشاء و يمنع من يشاء ولو أراد سبحانه أن يسلبه هذه النعم كلها لفعل ، وقوله سبحانه : (وَهَدَيْناه النَّجْدَيْنِ) النَّجْدُ فى لسان العرب عبارة عن الطريق المرتفع ؛ والمراد هُهنا سبيل الخير والشر وكأنهما إنما سُمّيَا نجدين لأنه لما وضحت الدلائل و قويت الحجج وظهرت البراهين جُعِلا كالطريق المرتفعة العالية فى أنها واضحة لذوى الأبصار ؛ أو إنما سميا بذلك للاشارة إلى أن فى كل منهما وُعُورَة يشق معها السلوك ولا يصبر عليها إلا من جاهد نفسه و راضها ؛ وليس طريق الشر بأهْوَن من طريق الخير ، بل الغالبُ أن يكون طريق الشر أشق وأصْعَبَ وأحوج إلى الجُهْد ؛ والمعنى إنا أودعنا فى فطرة الإنسان التمييزَ بين الخير والشر ، وجَعَلنا له من تفكيره وَعَقْله مذكراً ومنبهاً ، ونَصَبنا له الدلائلَ الدالَّةَ على حُسْن الخير والمرشدة إلى ما فى الشر من المقابح ، ثم أقدرناه على سلوك أى الطريقين بَعْدَ أن آتيناه من قوة التمييز و بعد الذى وهبناه من القدرة على الاختيار ، و بعد أن تركنا له أن يختار منهما الذى أراد ؛ وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أنه قال : إنما هما النَّجدان نَجْدُ الخير ونجد الشر ؛ ولا يكن نجدُ الشر أحبَّ إلى أحدكم من نَجْد الخير ، يريد أن مَنْ نازعته نفسه إلى الشر فليقمَعْها بتدبر آيات الله و براهينه الناطقة بقبح الشر وحُسْن الخير ، وقوله تعالى : (فلا اقتحم العقبة) الاقتحامُ : الدخول فى الأمر الشديد ، وأصله القحم ، وهى المهالك والأمور العظام ، والعقبة فى الأصل هى الطريق فى الجبل الوَعْر ، والمراد بالعقبة ههنا على ماذكره كثير من المفسرين منهم الحسن ومقاتل مُجاهدة الإنسان نفسه وهواه ومن يسوّل له

وَمَا أَدْرٰيكَ مَا الْعَقَبَةُ [١٢] فَكُّ رَقَبَةٍ [١٣] أَوْ إِطْعَـٰمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ [١٤] يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ [١٥] أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ [١٦]

فعلَ الشر من شياطين الإنس والجن ، وضرب الله العقبةَ مثلاً لهذا الجهاد ؛ لأن الانسان يريد أن يرقى من عالم الحسِّ والخيال إلى عالم الأنوار ، و بينه و بين ذلك عقبات من ورائها عقبات ، ومجاوزةُ هذه العقبات صعبةٌ والترقِّي إلى مُراده شديد ، وسبيل الوصول إلى غايته هذه فعلُ الخير ، وهو ماذكره الله تعالى فى تفسير العقبة و بيانها بقوله : (وما أدراك ما العقبة ؟ فك رقبة أو إطعام فى يوم ذى مسغبة يتيما ذا مقربة أو مسكيناً ذا متربة) وفك الرقبة : عِتقُهَا أو الإعانة عليه ، وقد ورد فى الشريعة الاسلامية فى كتاب الله تعالى وفى سنة رسوله صلى الله عليه وسلم من الترغيب فى العتق والحض عليه ماليس يجحده إلا مَنْ لا ينفع معه الكلام ولا يفيد فيه الدليلُ والبرهان ، وأى إنسان يستطيع أن ينكر أن الإسلام أميلُ الشرائع إلى الحرية وأبعدها عن الرغبة فى الاقتسار والعبودية ؛ روى البراء بن عازب رضى الله عنه قال : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، دُلَّنى على عمل يُدْخلنى الجنة ؛ قال : « عِتْقُ النَّسَمَة وفَكُّ الرقبة » قال : يا رسول الله ، أوَلَيْسَا واحدا ؟ قال : « لا ، عِتقُ الرقبة أن تنفرد بعتقها ، وفَكُّ الرقبة أن تُعين فى ثمنها » ؛ وقد ذهب جمع من المفسرين إلى أن المراد بفك الرقبة فى الآية الكريمة أن يفك المرءُ رقبةَ نفسِهِ بما يتكلفه من العبادات التى يصير بها إلى الجنة و يتخلص بها من النار ، وعلى أية حال فالآية الكريمة على تقدير محذوف ، وأصل الكلام وما أدراك ما اقتحام العقبة فَكُّ رقبة ؛ لأن فك الرقبة ليس هو العقبة نفسها وَ إنما هو اقتحامها لأنه سببٌ موصل إلى مجاوزة العقبة والصيرورة إلى فسيح عالم الأنوار الذى تشرق فيه

ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا

نفس المرء وتسمو معارفه . وقد قرىء « فَكَّ رقبةً أو أطْعَمَ » على أنهما فعلان ماضيان يقعان بدلا من قوله جل شأنه « اقتحم العقبة » وهذه القراءة أنسب بقوله تعالى فيما بعد « ثم كان من الذين آمنوا » والمسْغَبَة فى قوله تعالى : « أو إطعام فى يوم ذى مسغبة » هى الجوع؛ تقول : سَغِبَ الرجل يَسْغَبُ سَغَباً فهو ساغِبٌ وسَغْبَان إذا جاع ؛ والمَقْرَبة فى قوله جل شأنه « يتيما ذا مَقْرَبة » هى القرابة فى النسب ، تقول : فلانٌ من ذوى قَرَابتى ، وتقول : هو من أهل مقربتى ، إذا كان قريباً لك فى النسب ، والمتربة فى قوله تعالى : « أو مسكيناً ذا مَتْرَبَة » هى الفقر ، تقول : تَرِبَ الرجلُ يَتْرَبُ تَرَباً وَمَتْرَبَةً ؛ إذا افتقر حتى لصق بالتراب ، وتقول : أَتْرَبَ فلانٌ ، إذا كثر ماله حتى صار كالتراب فى الكثرة ، وكأن الهمزة للإزالة فى أترب الرجل : أى قد زال تَرَبُه بصيرورته غنياً . و إنما خص سبحانه الإطعام بكونه فى يوم ذى مجاعة لأن إخراج المال فى وقت القحط والضرورة أثقل على النفس ومستوجب لجزيل الأجر ، ويدل لهذا قوله تعالى : « وآتى المال على حبه » وقوله سبحانه : « و يطعمون الطعام على حبه مسكيناً » وقد قرأ الحسن رضى الله عنه : « أو إطعامٌ فى يوم ذا مَسْغَبَةٍ » فجعل « ذا » منصو با بإطعام ، ومعناه أو إطعام فى يوم من الأيام رجلاً ذا مسغبة وفقر ، و إنما قيد سبحانه اليتيم بكونه ذا مقربة لأنهُ حينئذ يجتمع فيه حقان : حق اليتم ، وحق القرابة ، ومن كان كذلك فهو أولى ممن فيه حق واحد ، وهذا كقوله صلى الله عليه وسلم : « ابدأ بنفسك ثم بمن تعول » وقد استدلَّ لأبى حنيفة رحمه الله فى تفضيل العتق على الصدقة بهذه الآية لتقديم العتق على الصدقة فيها ، ولا بد للتقديم من سبب ، وهو ههنا الإشارة إلى فضل المقدَّم ، وذهب أصحابه إلى تفضيل الصدقة على العتق .

وقوله سبحانه وتعالى : (ثم كان من الذين آمنوا وتَوَاصَوْا بالصبر وتواصوا

بالمرحمة) معناه ثم كان مقتحمُ العقبة من الذين آمنوا ؛ لأنه إن فعل هذه المبارّ من غير أن يكون مؤمنا بعد مطالبته بالإيمان بارسال الرسول إليه لم ينتفع بها ولم يكن له ثوابٌ عليها ، إذ لا ينفع مع الكفر بر ، و «ثم» فى هذه الآية لاتدل على التراخى فى الوجود حتى يلزم أن يكون الإيمان متأخراً فيه عن عمل الخير ، فيبطل كون الإيمان شرطاً فى قبول أعمال البر ، وإنما هى للتأخر فى الذكر ، وذلك مثل قول الشاعر :

إِنَّ مَنْ سَادَ ثُمَّ سَادَ أَبُوهُ ثُمَّ قَدْ سَادَ قَبْلَ ذَلِكَ جَدُّهْ

فأنت ترى أنه أخر الأب ثم أخر بعده الجدّ ، ولا شك أن وجود الجد سابق على وجود الأب ، ووجود الأب سابق على وجود السيد . والمراد من هذه الآيات الكريمة بَعْثُ الناس على أن يشكروا نعمة ربهم عليهم ويقوموا بواجب ذلك حقّ القيام ؛ بأن يُفيض كلٌّ من نالته نعمة من ربه على الناس ببعض ما أنعم الله به عليه ، وقد ذكر الله تعالى صنوفا من أعمال البر : أولها أن يعين الإنسان على تحرير الأرقاء من البشر ، وثانيهما أن يواسى اليتامى من أقاربه فى أيام العوز والحاجة ويومَ يعزُّ الطعام وتَجْدب الأرض ، وثالثها أن يطعم المساكين الذين ليست لهم وسيلة إلى كَسْبَ ما به قِوَامُ حياتهم ، ولاتتوهم أن أعمال البر التى يحضُّ عليها دين الله منحصرة فيما ذكرته هذه الآية ، لأن الإسلام قد حض على كل كمال وحذر من كل نقيصة تعود على الإنسان نفسه أو على المجتمع الذى يعيش به بالوبال والدمار ، ولما نفى الله تعالى عن الإنسان اقتحامه العقبة الذى فسره بما بينا من خصال الخير دل ذلك على أن الإنسان لم يسلك الطريق الذى يرشد إليه صحيحُ العقل ، وإنما سلك طريق العقبة الأخرى عقبةِ الحِرْصِ على المال والضَّن به عن المحتاجين مع أن هذه العقبة هى أوعر الطريقين وأصعبُهما مُرْتَقًى وذلك بما اشتمل عليه من أسباب

أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ [١٨]

التحاسد بين الناس وتباغضهم وقطيعة بعضهم بَعْضًا ؛ ألست ترى الانهماك فى لذائذ الدنيا وجمعها يكون دائما باعثا على التنافس فيها ، والتنافس دائماً مجلبة لِلبَوَار ومَهْلـكة للنفوس وَمَقْتَلة للقلوب ؟ نعوذ بالله تعالى من كلِّ ما يُردِى أنفسنا أو يميت قلوبنا . وقوله سبحانه : « وتواصوا بالحق » معناه أن بعضهم يوصى بعضا بالصبر على الإيمان والثبات على ما وَقَر فى قلوبهم من حب الله وإيثار محبته على كل شىء ، أو يوصى بعضهم بعضاً بحبس النفس عن المعاصى وقهرها على طاعة الله وصبرها على ماتُبْتَلَى به من المحن ، وقوله سبحانه : «وتواصوا بالمرحمة» معناه أن يحث بعضهم بعضا على أن يرحم المظلوم ويعطى المحتاج ؛ ويدخل فى المرحمة أن تأخذه الشفقة على ذوى العصيان فيحاول جَهْدَ استطاعته أن يمنعهم عنها ، وهذا دليل على وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وجملة القول أن قوله تعالى « وتواصوا بالصبر » إشارة إلى تعظيمهم أمر الله ؛ وقوله « وتواصو بالمرحمة » إشارة إلى شفقتهم على خلق الله ، ومَدَار أمر الطاعات كلها هذان الأمران فهما قُطْبَا الأعمال كلها وعليهما تدور رَحَاهَا .

وقوله سبحانه : (أولئك أصحاب الميمنة) الاشارة فيه إلى الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة ، والمراد من كونهم أصحاب الميمنة أنهم من أهل اليمين ، وهم الفريق الناجى ، وقد ذكرهم الله تعالى فى سورة الواقعة بقوله : « وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين ، فى سدر مخضود وطلح منضود وظل ممدود وماء مسكوب وفاكهة كثيرة لامقطوعة ولاممنوعة وفرش مرفوعة ؛ إنا أنشأناهن إنشاء فجعلناهن أبكارا عُرُبًا أترابا لأصحاب اليمين ثُلَّةٌ من الأولين وثلة من الآخرين » ويقابل هؤلاء أولئكَ الذين صَدُّوا عن سبيل الله وتواصَوْا بالإثم والعُدْوَان ومعصية الله

وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ [١٩] عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ [٢٠]

ورسوله ، وهم الذين ذكرهم الله سبحانه وتعالى بقوله : (والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة) والمراد بكونهم أصحاب المشأمة أنهم من أهل الشمال ، وهم الفريق الذين كتب عليه الشقاء الأبدى ، وقد ذكرهم الله تعالى فى سورة الواقعة أيضا بقوله : « وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال ؛ فى سَمُومٍ وحَمِيمٍ ، وظل من يَحْمُوم ، لا بارد ولا كريم ؛ إنَّهُم كانوا قبل ذلك مُتْرَفين ، وكانوا يُصرُّون على الحِنثِ العظيم ، وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون أوَآباؤنا الأولون . قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم ، ثم إنكم أيها الضالون المكذبون لآكلون من شجر من زَقُّوم فمالئون منها البطون فشاربون عليه من الحميم فشاربون شرب الهيم ، هذا نُزُلُهم يومَ الدين » وقوله سبحانه : (عليهم نار مؤصدة) معناه مُطْبَقَة ، وقد قرىء فى هذه الكلمة بالهمز ، وبالواو بدون همز ، فأما مَنْ لم يهمز فهو على أنه مِنْ أوصد الباب بمعنى أغلقه كما تقول : مُوعَد من أوعد ومُوجَب من أوْجَب ونحو ذلك ، وأما من همز فيحتمل أنه من ذلك ولكنه همز تخفيفا ، وهذه لغة لبعض العرب يهمزون الواو التى قبلها ضمة نحو موسى ، ويحتمل أنه من آصدت الباب ، وذلك كما تقول : آجرته فهو مُؤْجَر وآمَنْته فهو مُؤْمَن وما أشبه ذلك . والمراد بإغلاق النار عليهم أنهم باقون فيها وأن لاسبيل لهم إلى الخلاص منها . نجانا الله تعالى من النار ومن عذاب النار . آمين

سورة الشمس

[وهى مكية ، وآياتها خمس عشرة آيةً ، ونزلت بعد سورة القَدْر (١)]

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا [١]

---

(١) لا خلاف بين أحد من العلماء فى أن هذه السورة مكية ، وقد اختلفوا فى عدّ آيها ؛ فعدّها قوم خمس عشرة آية ، وعدها قوم آخرون ستّ عشرة آية .

قوله تعالى : (والشمس وضُحاها) قد ذكر المفسرون فى « ضحاها » ثلاثة أقوال : أولها — وهو قول مجاهد والكلبي — أن ضحاها ضَوْؤها ؛ والثانى — وهو قول قتادة واختاره الفراء وابن قتيبة — أن ضحاها هو النهار كله ، والثالث — وهو قول مقاتل — أن ضحاها هو حَرُّها ، والضُّحَى فى الأصل : انبساط الشمس وامتداد النهار ، وبذلك سمى الوقت الضُّحَى ؛ لأنه الوقت الذى فيه يمتد النهار وتنبسط الشمس على الأرض ؛ وتقول : ضَحِيَ يَضْحَى ؛ إذا برز للشمس وتعرض لحرها ، ومنه قوله تعالى : (إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى) فمن قال من المفسرين إن الضحى هو الضوء فذلك هو الأصل فى معناه ، وقريب من الأصل قول من قال إن الضحى هو النهار كله ، وذلك لأن جميع النهار هو من نور الشمس ؛ فأما من ذكر أن الضحى هو حر الشمس فقد لحظ أن ضوء الشمس وحَرّها أمران يتلازمان فمتى اشتد حَرُّ الشمس اشتد ضوءها ؛ والواو فى «والشمس» واو القسم ؛ وإنما أقسم سبحانه بالشمس وضحاها لكثرة ما تعلق بها من المصالح

وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا [٢] وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا [٣] وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا [٤]

التى لا تخفى على عقل متدبر ولا يجحدها إلا من الْتاثَ عقله، و بطل تفكيره ، ويكفيك أن تعلم أن الشمس إذا أرسلت خيوطها على مكان فرَّ منه السَّقَم وولَّت جراثيم الأمراض هاربة؛ لأنها تفتك بهذه الجراثيم فتكا ذريعا ، ثم هذه الشمس قد وضع الله تعالى فيها سرًّا عجيبا فهى مَبْعَثُ الحياة إلى النبات والحيوان والإنسان كما أنها مبعث النور والضياء .

وقوله تعالى : (والقمر إذا تلاها) تلاها : معناه تَبِعَها ، تقول : تلا فلانٌ فلانًا يتلوه ؛ إذا تبِعَه ، فأما أن القمر تابع للشمس فيحتمل معنيين : أحدهما أنه تالٍ لها فى ارتباط مصالح الناس وتعلُّق منافع هذا العالم بحركته ، وقد دل علم الهيئة على أن بين الشمس والقمر من المناسبة ماليس بين غيرهما من الكواكب . والمعنى الثانى أن القمر يأخذ نوره ويستمده من نور الشمس ، وهذا قول قاله الفراء قديما وقد قامت الأدلة عند علماء الهيئة والنجوم على أن القمر يستمد ضوءه من الشمس

وقوله جل ذكره : (والنهار إذا جلاَّها) معنى جلاَّها كشفها وأظهرها وأبانها على وَجْهها وأتَمَّ وضوحها ، وهذه الهاء تعود إلى الشمس ، وذلك لأن النهار عبارة عن ضوء الشمس ، فكلما كان النهار أجْلَى ظهوراً كانت الشمس أجلى ؛ لأن قوة الأثر وكماله تدل على قوة المؤثر ، وذهب جمهرة من العلماء إلى أن هذه الهاء راجعة إلى الأرض ، وإن لم يتقدم لها ذكر فى الآية ، والأول عندنا أولى ، وسنذكر وجهه

وقوله سبحانه : (وَاللَّيْل إذا يَغْشَاها) الهاء راجعة إلى الشمس ، والمعنى على أن الليل يغشى الشمس فيزيل ضوءها ، وإذا حسن ذلك من غير لَبْس ولا خفاء وَجَبَ أن يكون المعنى فى الآية السابقة أن النهار يُبْدِى نور الشمس ويُجَلِّيها ؛ فإن الليل ضد النهار ، والمراد من «يغشاها» ضد المراد من «جلاها» فاذا صَحَّ

أن ينسب أحد الأمرين إلى الليل صَحَّ أن يُنْسَب ضده إلى النهار ؛ وفى ذكر أن الليل يطرأ على الشمس فيذهب ضوءها ويُحِيلُ نور العالم ظلاما دامساً إشارةٌ للمتدبرين إلى أن هذا الكوكب العظيم ، وإن جَلَّت فائدته وكثر النفع به ؛ لا يصح أن يتخذ إلٰهاً ؛ لأن الإلٰه هو الذى لا يَحُول ولا يزول ولا يعتريه تغير ولا أفول ؛ ففى الإيماء إلى عظمة هذا الكوكب إشارة إلى عظمة صانعه وموجده ، وفى الإيماء إلى تغيره وغلبة الليل عليه رَدْعٌ عن تأليهه وعبادته

وقوله سبحانه : (والسماء وما بناها) ذكرٌ لصفاتٍ فى الأجرام العظيمة تنبىء عن حدوثها بعد ذكر الأوصاف الدالة على عظمتها ، وفى هذا تنبيه للعقول على أن هذه الموجودات مهما عظم أمرها وقوى شأنها مُحْدَثة مخلوقة قد طرأ عليها الوجود بعد العدم ؛ وذلك يدل على أن لها مُحدِثا خَصَّصها بالوجود وقدَّرها على النحو الذى اقتضته إرادته ومشيئته وحكمته ، وفى ذكر البنيان مع السماء إشارة إلى ما انطوى عليه رَفْعُ السماء وتَسْوِيَتُها وتدبيرها من بارع الحكمة وتمام القدرة ؛ فإن بانى البيت يبنيه بحسب مشيئته وعلى مقتضى ما يراه من الحكمة فى رفع جُدْرانه وسعة حجره ونوافذه وأبوابه وما يتصل به ، وبحسب ما يفكِر فيه من نظام ، وكلما عَلَتْ حكمة البانى كانت مراعاته للمنافع أكثر ، وكان مع ذلك مقدّرا لما يكون بعد ذلك بزمان ، متى كان ثاقب الرأى عظيم الفكر ، فاذا تأملنا فى السماء على أنها بنيان قد أُحكم وَضْعه ، وأُجيد تقديره ، وأُدِقَّ نظامه ، فهمنا ألبتة أن لها صانعا حكيما فوق ما يتصوره العقل ؛ لأنا لا نرى فى صنعة أنفسنا ولا فى صنعة البشر كلهم ما يقرب من هذا المصنوع العجيب ؛ وقد اختلف العلماء فى « ما » فى قوله تعالى « وما بناها » فذهب قوم إلى أنها مصدرية تسبك ما بعدها بمصدر ،

وكأن الله تعالى قد قال : والسماء وبنيانها ، ويلزم على ذلك أن تكون « ما » فى الآيات التى بعدها مصدرية أيضا إجراء للنظم كله على أسلوب واحد ، فكان يلزم أن يكون تقدير النظم الكريم هكذا : والسماء وبنيانها والأرض وطَحْوِها ونفس وتَسْوِيتها فألهمها فجورها وتقواها ، فيكون فى قوله سبحانه « فألهمها » فسادا من ناحيتين (١) : الأولى أن لا يكون للضمير المستتر فيه مرجعا مذكورا فى الكلام ، والثانية أن يكون عطفه على المصدر المنسبك من «وما وسواها» لاوجه له ؛ فلا جرم كان هذا الرأى غير سديد ، وقال قوم : «ما» فى هذه الآيات اسم موصول.والمراد به الله سبحانه وتعالى ، وكأنه جل شأنه قد قال : والسماء ومَنْ بناها ، والأرض ومَنْ طحاها ، ونفس ومَنْ سواها فألهمها ؛ فالضمير المستتر فى « ألهمها » عائد إلى « ما » والفعل نفسه معطوف على « سواها » نَعَمْ يأتى على هذا الوجه أنه كيف يقدم سبحانه القَسَمَ بالشمس وضحاها وما بعده على القسم بنفسه ، ولكن هذا الاشكال يزول بأدنى تأمل ، وكأن السر فى تقديم الحلف بالشمس وما ذكر معها من أوصافها لإعداد الذهن للتفكير فى حالها وما يطرأ عليها وما يعتريها من التغيرات ، فينتقل من ذلك إلى التفكير فى حدوثها ، وفى أن لها مُحْدِثا عظيما ، فاذا ما وصل إلى هذه الدرجة من التفكير أُخْطِر بالله سبحانه وتعالى مع وصْفِه بالصفات الدالة على أنه مُوجِد هذا الكون بما فيه من كواكب ، وبما يحتويه من مُحَسَّات ومعقولات ، وحينئذ يجد الكلامُ من العقل سبيلا إلى التمكن فيه والإذعان له . بقى أن يَسْأَلَ سائلٌ : وكيف تستجيز التعبير عن الله تعالى بما ، و « ما » فى الاستعمال العربى إنما تستعمل فى غير العاقلين ؟ فالجواب عن ذلك من وجهين : أولهما أن

---

(١) قد أجاب العلامة الشهاب الخفاجى عن هذين الوجهين بأن الاضمار لا يمتنع إذا دل السياق على المضمر ، وبأن الفعل الذى هو « ألهمها » ليس معطوفا حينئذ على المصدر المنسبك من «ما» وما بعدها وإنما هو معطوف على الفعل سواها

وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا [٦] وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا [٧] فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا [٨]

« ما » تستعمل فى العقلاء فى العربية ، وذلك مثل قوله تعالى : (ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء) والوجه الثانى أن المراد ههنا الإشارة إلى الوصف الذى هو البانى مع قطع النظر عن الذات التى يتحقق فيها هذا الوصف ، وإذا كان الأمر كذلك كان الأحسن التعبير بما ؛ وكأنه سبحانه قد قال : والسماء وذلك القادر الحكيم الذى بناها والأرض وذلك الحكيم الباهر الحكمة الذى طحاها ونفس وذلك المدبر النافذ التدبير الذى سوّاها

وقوله تعالى : (والأرض وما طحاها) طحاها : بَسَطَها ووَسَّعها ، وقد سبق تقرير أن المراد بذلك فيما تراه أعين الناظرين . والطحو ــ بالطاء ــ هو عين الدحو ــ بالدال ــ وإبدال الدال طاء جائز فى العربية ، وإنما أُخّر ذكر الأرض عن ذكر السماء لكون الأرض فى دَحْوها بعد السماء فى أصل التكوين ، ويدل على ذلك قوله تعالى : « والأرضَ بعد ذلك دَحَاهَا »

وقوله جل شأنه : (ونَفْسٍ وما سوّاها) يحتمل أن يكون المراد من النفس ههنا هذا الجسم الإنسانىّ من باب إطلاق اسم الحالّ على المحلّ ، ويحتمل أن يكون المراد بها القوة المدبرة للإنسان ؛ فإن أردت بالنفس الجسم فمعنى تسويتها تعديل أعضائها ، وإن أردت بالنفس القوة المدبرة لهذا الجسم فمعنى تسويتها مَنْحُها القُوى الكثيرة التى تتأدى بها المعارف إلى النفس كالقوة الباصرة والقوة السامعة مع تحديد وظيفة كل قوة من هذه القوى ، وحَمْلُ النفس على القوة الباطنة المدبرة أولى لأنه الأصل فى الاستعمال

وقوله سبحانه : (فألهمها فجورها وتقواها) مما يؤكد حُسْنَ حمل النفس على

قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا [٩] وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا [١٠]

القوة المدبرة . والالهام : هو الافهام والتعريف ، أو التمكين والإقدار ، والفجور : هو الاتيان بما يكون سبباً فى الخسران والهلكة ، والتقوى : هى الاتيان بما يكون سبباً فى حفظ النفس ووقايتها من الهلكة والتردّى فى المهاوى ، ومعنى الآية أنه سبحانه أفهم كلّ نفس الفجورَ والتقوى وعرّفها حالهما ، بحيث يتميز أمامها الرشد من الغىّ ، ويتبين لها الهدى من الضلال ، أو المعنى أنه جل شأنه جعل النفس متمكنة من فعل أيهما أرادت لا يصرفها عنه إلا سوء الاختيار ، ومثل هذه الآية قوله تعالى : « وهديناه النجدين » والمراد أن الله تعالى قد اقتضت حكمته أن يخلُق الإنسان فى أحسن تقويم وأن يعدل نفسه المدبرة لهذا الهيكل الانسانى ، وأن يجعل من تمام تعديلها أن يَهَبَهَا العقل الذى به تميز بين الخير والشر وتفرق بين ما هو سبب فى السعادة وما هو طريق موصّلٌ إلى البَوَار ، وجعل الأعمال التى بها تشقى النفوس معروفة عند أولى البصائر والألباب

ولما انتهى الأمر بذكر النفس الإنسانية وما وَهَبَهَا الله تعالى من التميز والتمكن من عمل ماتجنح إليه وتميل نحوه ، وهذا يستدعى أن يُعْلَم حقيقة ماتلقاهُ النفوسُ جزاء على ماتعمله من الأعمال ؛ قال سبحانه فى بيان ذلك : (قد أفلح من زكاها وقد خاب من دَسَّاهَا) وأفلح : أصاب الفَلَاحَ ، والفلاح هو إدراك المطلوب ، وزكاها : طهّرها من أدناس الذنوب ، أو أنماها بفعل الطاعات ، وخاب : خَسِر ، ودسّاها : نقصها وأخفاها بالمعاصى والذنوب ، وأصل دسّى دَسَّسَ ؛ فلما اجتمع ثلاث سينات قلبت الثالثة ياء ، وكذلك يفعل العربُ إذا اجتمعت الأمثال الثلاثة ، فقد قالوا فى تَقَضَّضَ : تقضّى ، وقالوا فى ربّبَ : رَبّى ، وقالوا فى لَبَّبَ : لَبّى ، وعليه جاء قول الراجز :

* تَقَضِّىَ الْبَازِ هَوَى ثُمَّ كَسَرْ *

ومعنى الآيتين الكريمتين قد أدرك مطلوبه ووصل إلى مايتمناه من السعادة مَنْ طَهَّرَ نفسه من الذنوب ؛ فجانَبَ المعاصى وعَمِلَ الطاعاتِ ، وقد خسر نفسه وأَوْبَقَها وأوقعها فى التهلكة من نَقَصَها بفعل المعاصى ومجانبة البر والقربات ؛ ولا شك أن من يسلك سبيل الشهوات وينغمس فى حَمْأَة الرذيلة ويتردَّى فى مهاوى الهلكة بمطاوعة دواعى الشهوة الحيوانية فقد صار مثله مثل البهائم ، ومن كان كذلك صدق عليه أنه أخفى نفسه ؛ لأنه عَمِلَ بما تقتضيه النفس البهيمية ، التى يشاركه فيها الحيوان ، وجانب ماتقتضيه النفس العاقلة التى اختص بها الانسان ؛ فاندرج حينئذ فى عداد الحيوانات ، ولم يصح أن يكون فى عداد الانسان ؛ فلهذا صَحَّ أن يقال عنه حينئذ إنه أخفى نفسه ، وفى هذا التعبير الشريف من الاشتمال على المعانى السامية ماليس يخفى على متدبر ، وأية خيبة تصيب الإنسان أعظم من تلك الخيبة التى بها ينمسخ حَيَوَانا بسبب تماديه فى باطله وشروره ؟

وجواب القسم الذى افتتح الله تعالى به هذه السورة محذوفٌ للعلم من نظائره فكأنه سبحانه وتعالى قد قال : والشمس وضحاها لَيَقَعَنَّ ماتختلفون فيه ، أو لأعاقبن المذنب ولأثيبَنَّ المطيع ، أو ليبعثنكم الله يوم القيامة ، أو ما أشبه ذلك ، ويقال : دليل هذا الجواب هو قوله تعالى « كذبت ثمود بطغواها ـ الآيات » لأنها تدل على أن الله تعالى يعاقب من يكذب رسله ويجحد آيات نبوتهم ، وقال قوم من العلماء : جواب القسم مذكور فى السورة وهو قوله تعالى : « قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها » وإنما حذفت منه اللام للتخفيف ، ولام الجواب قد تحذف لذلك ، وبخاصة إذا طال المدى بين القسم وجوابه ، والراجح عندنا أن الجواب محذوف يدل عليه قول تعالى : « كذبت ثمود بطغواها ـ الآيات » على نحو ماسبق لنا بيانه فى سورة البروج (١)

---

(١) أنظر ص ١١٨

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا [١١]

وقد قدمنا مراراً أن الله تعالى قد جرت عادته فى كتابه الكريم أن يذكر بعض أخبار الأمم السابقة وما كان منهم مع رسلهم وما قابلوهم به من التكذيب والاستهانة والإيذاء ، ويذكر ماجرَت عادته سبحانه به من الإيقاع بالمكذبين وأخذهم بظلمهم وبما عملوا مع أنبياء الله ؛ ليكون ذكر ذلك كله تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم بأنه لم يلق إلا مالقى إخوانه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ولم يكابد من قومه إلا مثل ما كابدوه ، وليكون ذكر ذلك كله أيضاً تخويفا لهؤلاء الكفار الذين يعاندون رسول الله و يَلِجُّون فى تكذيبه بأنهم إن استمروا على ذلك حاق بهم ماحاق بالأمم السالفة ونالوا من الجزاء مثل مانالوه ، ومن هذا القبيل ذكر ثمود فى قوله تعالى : (كذبت ثمود بطَغْوَاها) والطَّغْوَى : الطغيان ، ومثله الدَّعْوَى مع الدعاء ، والطغيان : مجاوزة الحد المعتاد ، وقد اختلف المفسرون فى معنى الباء من قوله تعالى « بطَغْوَاهَا » فقال قوم : هى دالة على السببية ، والطغيان على ذلك قائم بثمود وحاصل منهم ، والمعنى حينئذ أن طغيانهم وتجاوزهم الحد المعتاد كان سبباً فى تكذيبهم نبيهم الذى أرسله الله إليهم ، وهذا كما تقول : أَسَأْتَنِى وهَضَمْتَ حقى بظُلْمِكَ . وقال قوم : الباء للتعدية ، والطَّغْوَى عند هؤلاء اسم للعذاب الذى أوعدهم به رسولهم ، والمعنى كذبت بعذابها الذى تهدّدهم الرسول به وذكر لهم أنه نازل بهم إذا أصرُّوا على كفرهم وعنادهم ، والمعنى الأول أولى ، ولكن هذا المعنى الثانى ليس ببعيد ؛ من قبل أن معنى الطغيان فى اللغة مجاوزة القَدْر المعتاد ؛ فيجوز أن يسمى العذاب الذى جاءهم طغوى لأنه إنما كان صَيْحَة مجاوزة للقدر المعتاد ، وقد استدل أصحاب هذا الرأى على صحته بقوله تعالى : « كذبت ثمود وعاد بالقارعة » أى بالعذاب الذى حل بهما ، ثم قال : « فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية » فسمى ما أهلكوا به طاغية ، فيكون قوله فى الآية التى نحن بصددها « بطغواها »

إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا [١٢] فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ نَاقَةَ اللهِ وَسُقْيَاهَا [١٣] فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا

فى مقابل قوله فى الآية الأخرى «بالطاغية» وقوله سبحانه : (إذ انبعث أشقاها) انبعث : مطاوع بعَثَ ، تقول : بعثته فانبعث ، كما تقول : كسرته فانكسر ؛ و «إذ» ظرف يتعلق بكذبت ، والمعنى كذبت ثمود بسبب طغيانهم حين انبعث أشقاهم لأنهم بعثوه ، والمراد بأشقاها عاقر الناقة التى جاءهم بها رسولهم آيةً على صدق رسالته ، ويجوز أن يكون المراد به واحدا معينا ، ويجوز أن يكون المراد به جماعة تمالأوا على ذلك ؛ ويدل لهذا الأخير قوله سبحانه «فكذبوه فعقروها» فأنت ترى أنه نسب عَقْر الناقة إليهم ، وإن كان قد يمكن أن يكون نسبه إلى الجميع مع أن الفاعل واحد لرضا الباقين بفعله . وقوله سبحانه : (فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها) المراد بالرسول صالح عليه السلام لقوله تعالى : « وإلى ثمود أخاهم صالحا » وانتصب « ناقة الله » على التحذير ، والمعنى أنه أشار إليها حين همُّوا بعقرها وبلغه عزمهم على ذلك وقال لهم احذروا ناقة الله ، لأنها آيته الدالة على توحيده ، ودليل على نبوتى ، وقوله « وسقياها » معطوف على « ناقة الله » أى احذروا الناقة واحذروا سُقياها ، فلا تمنعوها . وقد كان اتفق معهم على أن للناقة شِرْب يوم ، ولهم ولمواشيهم شِرْب يوم ، وكانوا يجدون فى أنفسهم حرَجاً لذلك ويستضرُّون به ، فهموا بقتلها ، وكان صالح عليه السلام يحذرهم أن يفعلوا ذلك ويخوفهم عذاب الله وعقابه الذى ينزله بهم إن أقدموا على هذا الفعل فكانت حالة تخويفه وإنذاره عالقة بأذهانهم وماثلة أمام أعينهم ، ولذلك ساغ فى هذه الآية أن يكتفى بقوله « ناقة الله وسقياها » فان قليل الكلام يكفى فى الإفهام مع قرينة سَبْق الإنذار والتهديد ، وقوله سبحانه : (فكذبوه فعقروها) بيانٌ من الله تعالى أنهم لم يستمعوا نصيحة

فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا [١٤] وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا [١٥]

الرسول ، ولم يتورَّعوا عن تكذيبه ، ولم يحجموا عن عقر الناقة ، ولم يُبَالوا بما أنذرهم من العذاب وأليم العقاب. وقد بَيَّنا أن نسبة العقر إليهم تدل ظاهراً على أنهم باشروا ذلك أو جماعة منهم ، وأن ذلك لايمنع من أن يكون المباشر للعقر واحدا ونزل رضاهم بما صنع منزلة فعلهم . وقوله سبحانه : (فَدَمْدَمَ عليهم ربهم بذنبهم فسواها) دمدم : أى أطبق عليهم العذاب ، تقول : دَمْدَمْتُ على الشىء ، إذا أطبقت عليه ؛ وتقول : هـذه ناقة مَدْمومة ، إذا كان الشحم قد ملأها ، ويقال : معنى دمـدم عليهم سوَّى عليهم الأرض بأن أهلكهم فجعلهم تحت التراب ، ويقال : دمدم بمعنى غضب ، وأصل هذا من الدمدمة وهى الكلام الذى يزعج ، ومعنى « فَسَوَّاها » أنه لم يفرق بين أحد منهم وأحد ، بل أخذهم جميعاً : صغيرهم وكبيرهم ، ذكرهم وأنثاهم ، عظيمهم وحقيرهم ، وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ، و إذا فسرت دمدم بمعنى جعلهم تحت الأرض كان قوله سبحانه « فسوَّاها » بمعنى جعل الأرض فوقهم مستوية كأنْ لم تُغْنَ . وقوله جل شأنه : (ولايخاف عقباها) الضمير المستتر فى « يخاف » عائد إلى الله تعالى لأنه أقرب ماذكر إلى هـذه الآية فى قوله سبحانه « فدمدم عليهم ربهم بذنبهم » وهذه العبارة ـ أعنى « ولايخاف عقباها » ـ كناية عن عظم العذاب وشدته وأنه بلغ الدرجة التى ليس فوقها درجة ، وذلك لأن من يفعل فعلاً من الأفعال أىَّ فعل إذا كان يخاف عاقبته لم يبالغ فيه ، بل يأتى منه بمالا تشتد اللائمة عليه ، فان كان لايخاف عاقبة ولا يقدر مسئولية بالغ فى الوصول إلى مايريد منه ، وذكر جماعة من المفسرين أن الضمير فى « يخاف » عائد إلى « أشقاها » فى قوله سبحانه « إذ انبعث أشقاها » والمراد أن ذلك الأشقى انبعث إلى عقر الناقة

ولم يخف عاقبة ذلك ، يعنى أنه أقدم على عقرها وهو كالآمن من نزول الهلاك به و بقومه ففعل فعل َمن لا يخاف ؛ وذلك لجهله وسوء تقديره وفساد رأيه وعدم تبصُّره فى عاقبة مايكون منه ، والوجه الأول أولى ، والمعنى عليه أن الله تعالى لايخاف عاقبة ما فعل بهؤلاء الذين أفناهم بظلمهم ؛ لأن الذى يخاف العاقبة إما أن يكون ظالماً فهو يخاف أن يعود إلى نفسه فيحاسبها على مافعلت ، و إما أن يكون ضعيفاً فهو يخاف أن يقع تحت طائلة العقاب. والله سبحانه العادل فى قضائه الذى لايظلم الناس مثقال ذرةٍ ، ولكن الناس أنفسهم يظلمون ، وهو سبحانه القادر الذى لامُعَقِّب لحكمه ولا رادَّ لمشيئته

وقد اشتملت هذه السُّورَة الكريمة على الموعظة الحسنة والتذكير بماينبغى للانسان أن يفعله مع مَنْ يَدْعُوه إلى خيره وسعادته ، وفيها التهديد البالغ لأهل مكة إنْ هُمْ استمروا على عنادهم مع النبى صلى الله عليه وسلم وأصَرُّوا على تكذيبه بأن ينزل الله بهم مثل ماأنزله بهؤلاء جزاء لما فعلوه.

والمناسبة بين هذه السورة الكريمة والتى قبلها أنه سبحانه لماختم السورة المتقدمة بذكر أصحاب الْمَيْمَنَةِ وأصحاب الْمَشْأَمَة أعاد جل شأنه فى هذه السورة ذكر الفريقين بقوله سبحانه : «قد أفلح من زكاها ؛ وقد خاب من دسَّاها» وقد ختم سبحانه السورة السابقة بشىء من أحوال المؤمنين والكفار فى الآخرة ، وذلك فى قوله سبحانه : « ثم كان من الذين آمنوا وتَوَاصَوْا بالصبر وتواصوا بالمرحمة ؛ أولئك أصحاب الميمنة . والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة عليهم نار مُؤْصَدَة » وختم هذه السورة بذكر بعض أحوال الكفار فى الدنيا ، وذلك قصة ثمود وما أخذهم به . والله سبحانه وتعالى أعلى وأعلم .

سورة الليل

[وهى مكية ، وعدد آياتها إحدى وعشرون آية ، ونزلت بعد سورة الأعلى] (١)

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

وَالَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ [١] وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ [٢]

---

(١) لا خلاف بين العلماء فى عدد آى هذه السورة ، وكلهم متفقون على أنها إحدى وعشرون آية ، وقد اختلفوا فى نزولها ، وفى سبب النزول ؛ فأما الخلاف فى مكان نزولها فقد قال الجمهور : إنها مكية ، وهذا هو الأشهر ، وقال قوم منهم ابن أبى طلحة : هى مدنية ، وقال آخرون : بعضها نزل بمكة و بعضها نزل بالمدينة ؛ وأما الاختلاف فى سبب نزولها فقد قال قوم : إنها نزلت فى شأن أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، وقال آخرون : نزلت فى شأن أبى الدحداح الأنصارى رضى الله عنه ؛ واعلم أنها و إن نزلت فى قوم بأعيانهم عامّةُ الحكم ؛ فإن سبب النزول لا يُخَصِّصُ ؛ ثم ألا ترى إلى قوله تعالى : « إن سعيكم لشتى » وقوله بعد ذلك : « فأنذرتـكم ناراً تلظى ـ الآيات » فانها تشعر بالعموم

قوله تعالى : (والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى) أقسم سبحانه فى هاتين الآيتين بالليل الذى يأوى فيه كل حيوان إلى مَأْوَاهُ ويسكن فيه الخلق عن الاضطراب ، وفيـه يغشاهم النومُ الذى جعله راحة لأبدانهم ، وسَبَباً لاستعادة نشاطهم ، وجعل فيه مع ذلك راحة عقولهم وأنفسهم ؛ كما أقسم بالنهار الذى يتحرك فيه الناسُ لمعاشهم ، وفيه تغدو الطير من أوكارها وتخرج الهوامُّ من مكامنها ،

وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَىٰ [٣]

و بالجملة تنتشر فيه الـكائنات الحية كلها سَعْياً وراء معاشها ، وهذا وجه المصلحة في الليل والنهار التي تقتضي تعظيم شأنهما ، والتدبر في قدرة خالقهما ؛ ألا ترى أن الدهر لو كان كله ليلا لتعذر المعاشُ على الناس ، ولو كان كله نهاراً لبطلت المصلحة ؛ فـكان للناس في تعاقبهما آية بالغة يستدلُّون بها على علم الصانع وحكمته ، وتَدَبَّرْ إن شئت قوله تعالى : «وهو الذي جعل الليل والنهار خِلْفَةً » ؟ وقد حُذِف المفعول من قوله تعالى : « والليل إذا يغشى » وهذا المفعول المحذوف إما أن يُقَدَّر خاصاً ، وإما أن يقدر عامًّا ؛ فإن قَدَّرْتَه خاصًّا جاز أن يكون الشمس بدليل قوله تعالى : « والشمس وضحاها والقمر إذا تلاها والنهار إذا جلاَّهَا و الليل إذا يَغْشَاهَا » فإن الضمير البارز في « يغشاها » راجع إلى الشمس ؛ ويجوز أن تقدر المفعول المحذوف النهار بدليل قوله تعالى : « يُغْشِي الليلَ النهارَ يطلبه حثيثا » والأحسن من هذين جميعاً أن يكون المحذوف عاماً ، والمعنى أنه يغشى كل شيء ويواريه بظلامه ، ونظير ذلك قوله تعالى : « ومن شر غاسقٍ إذا وَقَبَ » فإن معناه الليل إذا دخل أوعظم ظلامه ، على ما سنذكره في تفسير سورة الفلق . ومعنى «تجلى» ظهر وانـكشف بطلوع الشمس فانـكشف بظهوره كل شيء . وقوله تعالى : (وما خلق الذكر والأنثى) تحتمل « ما » هذه أن تـكون موصولا اسميا بمعنى الذي ، وأن تـكون حرفاً مصدرياً ؛ فإن كانت موصولا اسمياً فالمعنى وَالَّذِي خلق الذكر والأنثى ؛ فهو سبحانه يقسم بنفسه بعد أن أقسم بالليل والنهار ، وآثر التعبير بما لأنه أراد الْوَصْفَ ، فـكأنه قال : والقادر العظيم القدرة الذي خلق الذكر والأنثى من ماء واحدٍ . ويؤيد هذا الوجه أن ابن مسعود رضي الله عنه قد قرأ « وَالَّذِي خلق الذكر والأنثى » ؛ وإن كانت «ما» حرفاً مصدرياً كان المعنى وخَلْقِ الذَّكَرِ والأنثى ، فهو سبحانه يُقْسِمُ بفعل من أفعاله التي تنبيء عن تمام قدرته وتدل على عظيم

إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ [٤]

علمه وحكمته وترشد إلى بُطلان مايتخرّصُ به الكاذبون من أن وجود هذه الخلائق لأمر طبيعى فى المادة اقتضى تكوينها ؛ ووجه بطلان ما ذهب هؤلاء إليه أن الماء الذى خلق الله منه الذكر والأنثى واحد والمحل الذى فيه يتخلق الولد واحد وهو بقدرته يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذُكْرانا وإناثا ويجعل من يشاء عقيما . فهذه أحوالُ الناس لا تجد حالةً إلا وهى دالة على قدرة الصانع وحكمته ؛ فبعض الماء يجعله سبحانه وتعالى سببا للحمل ، وبعضه يجعله غير قابل ولا مستعدٍ للتلقيح ، ثم ما يجعل فيه الاستعداد للتلقيح يكون من بعضه ذ ر ، ويكون من بعضه الآخر أنثى ، فيكون بعض الناس عقيما لا نسل له ، وتكون ذرّية قوم ذكورا ، وتكون ذرية غيرهم أناثا ، وتكون ذرية فريقٍ آخر ذكورا وأناثا . سبحانه ما أعظم قدرته وما أجلَّ حكمته ، لا إله إلا هو الفعال لما يريد . وقد قرأ الكسائى : « وما خَلَقَ الذكرِ والأنثى » بجرّ الذكر والأنثى وتخريج هذه القراءة على أن «ما» اسم موصول مبنى على السكون فى محل جر بواو القسم ، وخَلَقَ مع فاعله المستتر فيه جملة لا محل لها صلة ، والذكرِ : بدل من ما والأنثى : عطف عليه . والمعنى وماخَلَقَهُ اللهُ تعالى وهو الذكر والأنثى ، فهو سبحانه يقسمُ بنوع الذكر والأنثى لأنهما مظهر من مظاهر قدرته الذى تخرس الأفاكين وتبطل مزاعم الملحدين من أولئك الذين يزعمون أن لهم قدرة على التحكُّم فى النَّسْل ، وأنهم يستطيعون أن يجعلوا الحملَ ذكرا أو أنثى على حسب قواعدَ زعموا أنها من العلم ، وماهى من العلم فى شىء ، وكذب هؤلاء جميعا ؛ واللهُ سبحانه أصدق القائلين وأحكم الحاكمين ، لا سلطان إلا سلطانه ، ولا نافذ إلا قدرته ومشيئته ، ولو كره الكافرون .

وقوله سبحانه : (إن سعيكم لشتى) هو جواب القسم الذى أقسم عليه سبحانه

فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَىٰ [٥] وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ [٦] فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ [٧]
وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ [٨] وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ [٩] فَسَنُيَسِّرُهُ
لِلْعُسْرَىٰ [١٠]

بما بَيَّنَّا ، وشَتَّى : جمع شَتِيت ، مثل جريح وجَرْحَى ومريض ومَرْضَى ؛ والشتيت : المتباعدُ بعضه من بعض . مأخوذ من الشَّتات وهو البعد والافتراق ؛ والمعنى إن أعمالكم أيها الناس لمتباعدة مفترقة : بعضها ضلال وعَمَاية ، وبعضها هدًى ونور ، كما أن بعضها يستوجب الجِنان والنعيم الدائم ، وبعضها يستوجب النيران والعذاب الأليم ؛ ولَيْسَ سواء من يمشى فى الظُّلُمَات يَتَخَبَّطُ فى سيره ولا يتبين مَقْصُوده ولا يعرف سَمْتَ قصده ومن يمشى فى نورٍ فهو يرى نفسَه ويرى ما يحيط به ويستطيع التحرز عما يصيبه ، وتأمل إن شئت فى قوله تعالى : « أم حَسِبَ الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواءً محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون » ثم تأمل فى قوله جلت كلمته : « ولا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون » ثم تأمل فى قوله تعالى : « أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون »

ثم إنه سبحانه وتعالى بعد أن أشار إلى اختلاف أعمال الناس فى أنفسها وفى أوصافها وفى جزائها إشارة موجزة تنبىء عن ذلك كله وترشد إلى كثير من أنواع الاختلاف ، على نحو ما بَيَّنَّا آنفا ، بعد أن أشار إلى هذا الاختلاف أخذ سبحانه فى تفصيل هذا الاختلاف فقال : (فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى) فأما قوله سبحانه « أعطى » فيحتمل معنيين : أحدهما أن يكون المراد به إعطاء المال وإنفاقه فى وجوه الخير سواء أكان مما وجب على الإنسان كالزكاة أم كان مما لم يجب عليه

كالصدقات النوافل ، ويدخل فى هذا عتق الرقاب والإعانة عليه وفك الأسارى وتقوية المسلمين على عدوّهم ، والثانى أن يكون المراد بالإعطاء ما يشمل حقوق المال وحقوق النفس ، فيتناول حينئذ جميع أنواع الطاعات سواء أكانت مالية أم كانت بدنية وسواء أكانت واجبة أم كانت مندوبة ؛ فهذا المعنى أعم من الأول كما هو ظاهر ؛ وأما قوله سبحانه «واتقى» فإن معناه تحرز عن كل ما لا ينبغى ، وأما قوله سبحانه « وصدق بالحسنى » فقد اختلف العلماء فى بيان المراد من الحسنى فى هذه الآية ، فذكر بعضهم أنها كلمة «لا إله إلا الله» والمراد توحيد الله والإقرار له بجميع صفات الكمال وتنزيهه عن جميع صفات النقص ، وقال قوم : المراد بالحسنى الْخَلَفُ الذى وَعَدَ الله تعالى بإعطائه لمن ينفق ماله فى سبيله ، وذلك فى قوله سبحانه : « وما أنفقتم من شىء فهو يُخْلِفه » وأما قوله سبحانه : « فسنيسره لليُسْرَى » فمعناه أنه سبحانه يُسَهِّلُ على من اتصف بما ذكر من الصفات سبيل التكاليف التى كلفه الله إياها ويشرح صدره للإتيان بها على وجهها الذى يستحق معه أفضل المثوبة وأجزلها ، وأما قوله سبحانه « بخل » فمعناه أمْسَكَ أمواله ولم ينفقها فى وجوه البر التى بَيَّنَّاهَا آنفاً ، سواء اختزنه ولم ينفق منه شيئا أم أنفقه فى غير هذه الوجوه بأن أنفقه فى شهواته وملذاته أو فى محاربة الله ورسوله ، أو معناه بخل بحقوق النفس وحقوق المال ، فيشمل حينئذ من نكص عن الدفاع عن الحق والذَّوْدِ عن الحرمات بنفسه وماله ، وأما قوله سبحانه : « واستغنى » فمعناه عَدَّ نفسه غنياً عن الناس ، وخدعه ماله وجاهُه وقوته فظن أنه بذلك لا يحتاج إلى أحدٍ ولم يُحِسَّ أنه واحد من الناس يصيبه ما يصيبهم من السوء وينزل به ما ينزل بهم ، وأما قوله سبحانه « وكذب بالحسنى » فمعناه كذب بوحدانية الله أو كذب بأن الله يخلف على المنفقين فبخل بماله لسوء ظنه بالمعبود ؛ وأما قوله « فسنيسره للعسرى » فمعناه أنه سبحانه يجعل صدره ضيقاً حَرَجاً ولا يوفقه لعمل الخير ولا يهديه سواء السبيل

وأنت إذا تدبرت هاتين الآيتين الكريمتين وجدت أنه سبحانه قد وصف أهل البر بثلاث صفات ورتب على هذه الصفات وتحققها فيهم الجزاء الذى هو التوفيق للحسنى ، ووجدت أنه سبحانه قد وصف أهل الفجور بثلاث صفات تقابل تلك الصفات ورتب على تحققها فيهم العقاب الذى هو تيسيرهم للعسرى ، وهو ضد الثواب الذى جعله عاقبة لأعمال الخير والبر . ولو تدبرت مرة أخرى فى هذه الخصال التى جعلها الله تعالى خصال البر والهدى لرأيت أنها جماعُ الفضائل كلها ، ولو تدبرت فى الخصال التى حكم الله عليها بأنها خصال الفجور لوجدتها جماع الشرور ؛ ألست ترى أن خلاصة ما ذكره الله من خصال البر أن يدين الإنسانُ بخالق يعتقد فيه الوحدانية ويصفه بجميع أوصاف الكمال من العدل والحكمة والقدرة والإرادة والعلم بكل شىء صغر أو كبر عظم أو حقر ، وأن يتحرز عن الوقوع فى الشرور ويقى نفسه المعاطب والمهالك ويزن عمله بالميزان الصحيح ، وأن يجود بنفسه وبماله فى سبيل الخير والبر فلا يضن بنفسه عن اقتحام الأهوال إن ظن أن من وراء ذلك منفعة عامة تعود على أهل دينه ولا يضن بماله وإن عزَّ عليه أن ينفقه فيما يرتجى نفعه ؛ وأىُّ خَصلة من خصال البر لم تتضمنها هذه الخلال الثلاث ؟ ثم ألست ترى أن خلاصة ما ذكره الله تعالى من خلال الشر أن يتمرد الانسان على خالقه فلا يعتقد أن لهذا الكون خالقاً قادراً على ما يشاء عالماً بما يأتى العبد وبما يذر ، أو يعتقد ذلك اعتقاداً لا يجاوز حلقه ولا يترتب عليه الخوف من هيبته والارتقاب لعظيم نعمته ، وأن يرى نفسه مستغنيا عمن يعيش معه فلا يشارك الناس فى سرائهم ولا ضرائهم ، وأن يبخل بنفسه وبماله ويضن بهما على أعمال البر والخير ؛ وأيَّةُ خصلة من خصال الشر لا تنطوى تحت هذه الخلال ؟ فلا جَرَمَ رَتَّبَ الله تعالى على الخلال الأولى أجزل الثواب ، ورتب على الخلال الثانية أشد العقوبة ؛ وأىُّ ثواب أحسن وأفضل من أن يهيىء الله الانسان للعمل الصالح ويسهل عليه

وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى [١١] إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى [١٢]

سبيله ويشرح صدره لإتيانه ويوفقه لإدراكه ؟ وأية عقوبة أشد وأنكى من أن يجعل الله صدر المرء ضيقاً حرجاً وأن يغطى على قلبه ويجعل الخذلان حليفه فلا يُقْدِمُ على عمل من أعمال الخير وإذا همّ لم يوفق إلى الإتيان به ، نعوذ بالله تعالى من الخذلان ، ونسأله أن يشرح صدورنا ويهيء قلوبنا للرضا بالحق والإقبال عليه .

وقوله سبحانه : (وما يغنى عنه ماله إذا تردّى) «ما» فى هذه الآية يجوز أن تكون نافية ، ويجوز أن تكون استفهامية ، ويكون المراد بالاستفهام حينئذ الإنكار ، و«تردّى» معناه سقط ، وذلك كقولك : تردّى فلان من الجبل ، ومعناه هوى من أعلاه وسقط إلى أسفله ، والمراد نزوله إلى قبره أو هُوِيُّه فى النار ، أومعناه أصابه الردى وهو الموت ، والمعنى إنا إذا يسرناه للعسرى فأى شيء يغنى عنه ماله الذى بخل به على الناس ولم ينفقه فى المصالح العامة وفيما يعود نفعه على الجماعة ، وتركه للوارثين ينفقونه على ملاذهم وشهواتهم ، ولم يصحب منه شيئا إلى آخرته التى هى موضع حاجته وفقره ، وإلى مثل هذا المعنى يشير قوله تعالى : « ونَرِثُه ما يقول ويأتينا فردا » وقوله جل ثناؤه : « ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خوّلناكم وراء ظهوركم »

ثم إنه سبحانه بعد أن بَيَّنَ أن سَعْىَ الخلائق مختلف فى نفسه وفى وصفه وفى عاقبته ، وبَيَّنَ ما للمحسن فى عمله من التوفيق إلى أعمال البر ، وما للمسيء فى أعماله من الخذلان ، أخبر أنه سبحانه قد أعذر إلى عباده بتقديم البيان الذى تنكشف معه حقائق أعمال الخير والشر جميعا ، والدلالة التى توضح السبيل أمام السالكين ، والترغيب والترهيب ، والإنذار والتبشير ، ويُشير إلى ذلك قوله سبحانه : (إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى) والمعنى إنّ الذى تقتضيه حكمتنا أن نبين لعبادنا

وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى [١٣] فَأَنذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّى [١٤]
لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى [١٥] الَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّى [١٦]

ـ إذ خلقناهم للعبادة ـ وُجُوهَ التعبد وشرحَ ما يكون المتعبد به مطيعا وما يكون به عاصيا ، وذلك لأنا إنما خلقناهم لننفعهم ونرحمهم ونعرضهم للنعيم المقيم ، وقد فعلنا مااقتضته الحكمة واستوجبه اللطف ، فإذا اختار العبدُ بعد ذلك كله ما يكون سببا فى هلاكه وترديه فى هاوية العذاب فإنما جنى على نفسه وأوبقها لأنه لم يلتفت إلى ما عَرَّضْنَاهُ له ، وقوله سبحانه : (وإنَّ لنا للآخرة والأولى) معناه أن لنا كلَّ ما فى الدنيا وكل ما فى الآخرة ؛ نحن الذين نملكه ، فنهب منه ما نشاء لمن نشاء ، ومن كان بهذه المثابة لا يضره أن يترك جماعة من عباده الاهتداء بِهُدَاه الذى بينه لهم ، كما لا يزيد فى ملكه اهتداء من اهتدى منهم ، لأن نفع الهداية راجع إلى المهتدى ، وضرر الغواية عائد على الغاوين ، فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ، وما ربك بظلام للعبيد ،

وقوله سبحانه : (فأنذرتكم نارا تلظى) تَلَظَّى : أى تتوهج وتتوقد وتلتهب ، وأصله تَتَلَظَّى فحذفت إحدى التاءين ، وتقول : تَلَظَّتِ النارُ تَلَظِّياً ، بمعنى التهبت التهابا ، ومن هذه المادة سميت النار « لَظَى » وقد اختلف العلماء فى النار التى تلظى ؛ فقال قوم : هى نار مخصوصة ودركة منها بعينها تُجْعَلُ منزلاً لمن وصفه سبحانه بالأشقى ، وذلك لأن النار دركات بعضها أسفل من بعض ، بدليل قوله جل ثناؤه : « إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار » وقال قوم : المراد بالنار التى تلظى جميعُ النيران ، وليس هذا الوصف لإخراج شىء منها ، وقوله سبحانه : (لا يَصْلَاهَا إلا الأشقى الذى كذب وتولَّى) بيان لمن يستحق هذه النار ، وَيَصْلَاهَا : يحترق بها ، وكذب : أى كذب رسول الله فيما جاء به عن

وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى [١٧]

ربه من الآيات ، وتولَّى : أعرض عن طاعة ربه . فان قلت : إن ظاهر هذه الآية يدل على أنه لا يدخل النار إلا من اتصف بالوصفين : التكذيب ، والإعراض عن طاعات الله ، فأمَّا الفُسَّاقُ وهم الذين آمنوا بربهم وصدقوا رسوله ولم يعملوا ما أمرهم الله من الطاعات ، أو عملوا الطاعات وعملوا مع ذلك المعاصى ، فليسوا ممن يدخل النار و يصطلونها ، فالجواب عن ذلك من وجهين : الأول أنا إنْ قلنا إنَّ المراد بالنار التى تلظى نارٌ بعينها ودركة منها خاصَّة لم نمنع أن يكون هذا الظاهر الذى أشَرْتَ إليه مراداً ، و يكون المعنى أن الله تعالى أعدَّ للكفار الذين كذبوا به و برسوله ولم تقنعهم الآيات ولم تخوفهم الزواجر ناراً شديدة الاتقاد والالتهاب وهيأها لهم وجعلها خاصة بهم لا يدخلها أحد سواهم ، وهذا لا ينافى أن يكون العصاة من المؤمنين سَيُعَذَّبُونَ بدخول النار ، إلا أن النار التى يدخلها العصاة ليست هى النار التى يدخلها الكفار ، والوجه الثانى : أنا إنْ قلنا إن النار التى تلظى هى جميع النيران وجب صَرْفُ الآية عن هذا الظاهر الذى أشَرْتَ إليه ، وذلك بأن نقول : إن المراد بقوله تعالى : «لا يَصْلاَهَا» لا يُلاَزمها مُقَاسِياً لحرِّها وشدتها ، ولا شك أن ملازمةَ النار و عدمَ الخروج منها مع مقاساة شدائدها وأهوالها وحَرِّها مما يختص به الكافر الذى كذب وتولَّى ، فأما الفساق فإنْ لم يغفر الله لهم ودَخَلُوها فانهم يخرجون منها ، والذى يدل على أن هذا الظاهر غير مراد الآياتُ الكثيرة التى اشتملت على وعيد الفُسَّاقِ وَالْعُصَاةِ

٤ وقوله سبحانه : (وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتقى) معنى « يُجَنَّبُهَا » يُبْعَد عنها و يجعل منها على جانب ، والمراد بذلك ههنا الإبعاد بدنه و بينها كما قلنا أولا ، والأتقى : الْمُبَالِغ فى اتقاء الكفر والمعاصى ، الشديد التحرز عنهما ، بحيث لا يحوم حولها

الَّذِى يُؤْتِى مَالَهُ يَتَزَكَّى [١٨] وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى [١٩] إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى [٢٠]

ولا يخطرها له ببال، وَجَنَّبَ: فعل يتعدّى إلى مفعولين، تقول: جَنَّبْتُ فلاناً الشرَّ، والمفعول الأول فى الآية هو «الأتقى» الذى ارتفع على أنه نائب عن الفاعل، والمفعول الثانى هو الهاء، وقد وصف الله تعالى الأتقى بقوله: (الذى يؤتى ماله يتزكى) ومعنى «يؤتى ماله» يعطيه وينفقه ويصرفه، و «يتزكى» فى موضع الحال: أى أنه ينفق أمواله فى وجوه الخير والبر طالباً بذلك الإنفاق أن يكون عند الله زاكياً نامياً، لا يريد به رياء ولا سمعة، ولا أن يمتدحه الناسُ فيقولوا إنه رجل خير وبر فإن هذا نفسه ضربٌ من النفاق الذى يبطل معه العمل ولا يكون لصاحبه عليه ثوابٌ مهما أتعب فيه نفسه وأجهدها وكلّفها؛ ذلك بأن الله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا له مقصودا به وَجْهُهُ، لا شريك له فى الْقَصْدِ، فكلُّ عَمِلٍ قُصِدَ به غيرُ الله أو أُشرِكَ فيه مع الله تعالى أحد فانه مردود على صاحبه، وقد أكد سبحانه هذا المعنى بقوله (وما لأحدٍ عنده من نعمة تُجْزَى) فان معناه أنه لا يقصد بانفاقه المال مكافأة أحدٍ على نعمةٍ كان أزلها إليه وجزاء معروف كان قد تقدم به له، وذلك لأنه ما من أحد له عليه نعمة ولا يَدٌ تستحق الجزاء والمكافأة؛ فانفاقه خالص لوجه الله تعالى، وقد أكد هذا المعنى مرة ثانية بقوله جل شأنه: (إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى) ومعناه لكنه يفعل ذلك وهو إنفاق ماله قاصداً رضاء ربه طالبا مثوبته وحده. فان قلت: عَلَامَ انتصب قوله تعالى «ابتغاء وجه ربه»؟ قلت: يجوز أن يكون منصوبا على أنه مستثنى والاستثناء منقطع، وذلك لأن المستثنى منه هو «نعمة» والمستثنى وهو «ابتغاء» لا يندرج فيها، والاستثناء المنقطع واقع فى كلام العرب

و إن كان على خلاف الأصل، أنظر إلى قول الراجز :

وَبَلْدَةٍ لَيْسَ بِهَا أَنِيسُ ... إلاَّ الْيَعَافِيرُ وَإلاَّ الْعِيسُ (١)

وانظر إلى قول النابغة الذبيانى :

وَقَفْتُ فِيهَا أُصَيلاً كَيْ أُسَائِلُهَا ... عَيَّتْ جَوَاباً وَمَا بالرَّبْعِ مِنْ أَحَدِ

إلاَّ الأَوَارِيَّ لأَياً مَا أُبَيِّنُهَا ... وَالنُّؤْيَ كَالْحَوْضِ بِالْمَظْلُومَةِ الْجَلَدِ (٢)

وانظر إلى قول بشر بن أبى خازم :

أَضْحَتْ خَلَاءً قِفَاراً لاَ أَنِيسَ بِهَا ... إلاَّ الْجَآذِرَ وَالظِّلْمَانَ تَخْتَلِفُ (٣)

ألا ترى أن اليعافير والعيس ليست من جنس الأنيس ، والأوارى والنؤى ليست من جنس الأحدين ، والجآذر والظلمان ليست من جنس الأنيس ؛ فدل ذلك على أنه لايمتنع فى فصيح الكلام أن يجىء المستثنى من غير جنس المستثنى منه ، ويجوز أن يكون انتصاب قوله تعالى « ابتغاء وجه ربه » على أنه مفعول لأجله وعامله محذوف يدل عليه سياق الكلام ، والتقدير لاينفق ماله إلا ابتغاء : أى لا ينفق لعلة من العلل ولا لسبب من الأسباب إلا لهذه العلة وهذا السبب وهو قصده إلى مرضاة ربه ، وهذا فى المعنى هو الاستثناء المفرغ ، والمستثنى منه عموم العلل والأسباب كما قررنا فى بيان المعنى . وقد قرأ يحيى بن وثاب « إلا

---

(١) اليعافير : جمع يعفور ، وهو الظبى الذى لونه لون التراب ، والعيس : الابل

(٢) الأوارى : جمع آرية ، والمراد بها ههنا الحبال التى تربط بها الإبل ، ولأيا : أى بعد بطء ، والنؤى : حاجز من التراب كان العرب يعملونه حول بيوتهم لئلا يدخل ماء المطر إليهم ، والمظلومة : الأرض التى كثر فيها الحفر ، والجلد : الأرض الغليظة الصلبة من غير حجارة

(٣) الجآذر : جمع جؤذر ، وهو ولد الظبية ، والظلمان : جمع ظليم ، وهو الذكر من النعام

ابتغاء وجه ربه » بالرفع ، وهو جائز فى الاستثناء المنقطع فى لغة بنى تميم ، وعليها قول الراجز الذى أنشدناه قريبا

٤ وقوله سبحانه : (ولسوف يرضى) معناه الوعد منه تعالى لهذا الأتقى الذى ينفق ماله قاصداً بذلك الإنفاق رضا ربه لامكافأةَ أحد على نعمة ولا قضاء لحقوقٍ وَجَبَت قبله ؛ بأن يُرْضِيه فى الآخرة بثوابه وعظيم جزائه ، وهذا مثل قوله سبحانه لنبيه : « ولسوف يعطيك ربك فترضى »

وأكثر العلماء على أن هذه الآيات نزلت فى شأن أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه ، قالوا : كان بلال بن رباح رضى الله عنه مَوْلًى لعبد الله بن جُدْعَانَ ، فجاء بلالٌ إلى الأصنام فسلح عليها ، فشكا كفار مكة إلى عبد الله بن جُدْعَان فعل مَوْلَاه ، فوهبه لهم ، ووهب لهم مائة من الإبل ينحرونها لآلهتهم ؛ فجعلوا يعذبون بلالاً ويخرجونه إلى الرَّمْضَاء ، وكان يقول وهم يعذبونه : أحد أحد ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمر به وهو يُعذب فيقول له : « ينجيك أحد أحد » ثم أخبر رسول الله صلى الله عليه أبا بكر رضى الله عنه بما يَلقَى بلالٌ فى الله ، فحمل أبو بكر رطلا من ذهب فابتاعه به من المشركين وأعتقه ، فقال المشركون : مافعلَ ذلك أبو بكر إلا ليدٍ كانت لبلال عنده ، فنزل قوله تعالى : « وسيجنبها الأتقى الذى يؤتى ماله يتزكى وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ولسوف يرضى » وروى أن ابن الزبير قال على المنبر : إن أبا بكر كان يشترى الضَّعَفَةَ من العبيد فيعتقهم ، فقال له أبوه : يابنى لوكنت تبتاع من يَمنَعُ ظهرك ؛ فقال : مَنعَ ظهرى أريد ؛ فنزلت هذه الآيات . والله سبحانه وتعالى أعلى وأعلم

سورة الضحى

[وهى مكية ، وعدد آياتها إحدى عشرة آية ، وَنزلت بعد سورة الفجر] [١]

---

(١) لاخلاف بين أحد من المفسرين فى أن هذه السورة مكية ، كما أنه لا خلاف بينهم فى أن عدد آياتها إحدى عشرة آية

اتفقت الروايات على أن سبب نزول هذه السورة حدوث فَتْرَةٍ فى نزول الوحى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم حزن لفترة الوحى حزنا شديداً حتى غدا مراراً إلى الجبال كى يتردّى من شواهقها ورءوسها ، وأنه ما كان يمنعه من التردّى إلا تمثل الملك له وإخباره إياه أنه رسول الله حقا ، وإنما حزن عليه الصلاة والسلام لفترة الوحى لخوفه من أن يكون ذلك من غَضَبٍ أو قِلًى من ربه له ، وهو صلى الله عليه وسلم قد ذاق من حلاوة الاتصال بربه وشاهد من جمال الأنس بالوحى ما يثير لواعج شوقه إلى التزَوُّد منه ، وقد كان يعلم عن نفسه أنه بشر ولا فَضلَ له على غيره من الخلق إلا بهذا القرب الذى يَعْلُو به عن مَصافِّ مَنْ عداه ؛ وقد كان شديد الحرص على تكميل نفسه وإعدادها لتحمل ما هى بسبيله من أعباء الرسالة ؛ فلا جَرَمَ أن يكون حزنه لهذه الفترة شديداً ، وأن يتوجس منه ، وأن يخاف غضبَ ربه عليه ، ولا عَجَبَ أن يَدْعُوه ذلك الحزن الشديد إلى التفكير فيما كان يفكر فيه ، وأن يهم بتنفيذ هذا الذى فكر فيه ، ومن أجل هذا كله نزلت هذه السورة الكريمة حاملةً له أجمل البشرى ومُلْقِيَةً على قلبه ثلج الطمأنينة ، وهذا نفسه سرُّ تعداد الله تعالى نعمه على رسوله فى هذه السورة ، وكأنه يقول له : إن الذى فعلَ بك كذا وكذا لم يكن ليتركك ولا لينساك بعد

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

وَالضُّحَى [١] وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى [٢] مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى [٣] وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى [٤]

أن هيأك لحمل أمانته وأعدّك للاضطلاع بأعباء رسالته ، فلا تحزن على ما كان من فترة الوحى عنك ، ولا يكن فى صدرك حرجٌ من ذلك ؛ فليس المقصود بفترة الوحى عنك إلا تثبيتك وتقوية نفسك على احتمال مشاقه . وسيتبين ذلك واضحا فى تفسير آى هذه السورة إن شاء الله

قوله سبحانه : (والضحى والليل إذا سجى) اختلف المفسرون فى المراد بالضحى فى هذه الآية ؛ فقال قوم : المراد به صَدْرُ النهار حين ترتفع الشمس وتلقى أشعتها على هذا الكون ، وتخصيص هذا الجزء من النهار بالحلف به لشرفه بكونه وقت انتشار ضوء الشمس وكونه زمان شباب النهار ، وقال قوم : المراد به النهار كله ، بدليل أنه جُعل فى مقابلة الليل كله ، وسَجَى معناه سكن ، والمراد سكن الناس فيه ، ومن عادة العرب أن ينسبوا الشىء إلى زمان حدوثه ؛ فهم يقولون : ليل نائم ، ونهار صائم ، وقال الشاعر :

لَقَدْ لُمْتِنَا يَا أُمَّ غَيْلَانَ فِى السُّرَى ... وَنِمْتِ وَمَا لَيْلُ الْمَطِىِّ بِنَائِمِ

وقوله سبحانه : (ماودعك ربك وماقلى) معناه ماتركك ربك وما أبغضك ، وقرىء « ما وَدَعَكَ » بالتخفيف ، وهى بمعنى تركك أيضاً ، والقِلَى : الكره ، تقول : قَلَاه يَقْلِيه ، وقلاه يَقلَاهُ ، وقَلَاه يَقْلُوه ، قِلًى وَقَلَاءً ومَقْلِيَةً ، إذا أبغضه وكرهه ، ويقال : القِلَى شدة الكره

وقوله سبحانه وتعالى : (وللآخرة خير لك من الأولى) ذكر جماعة المفسرين أن المراد بالآخرة يوم القيامة والمراد بالأولى الحياة الدنيا ، والمعنى على هذا أن التشريف

الذى حصل لك برضا ربك عليك و إن كان عظيما لايقاس إلى جانب ما أعده الله لك من الشرف العظيم والمنزلة الرفيعة فى الآخرة ؛ فإن فيها يظهر شرفك تمام الظهور وتبين منزلتك أوضح البيان ، وهناك تجد مالكَ من الشرف فوق مالكل أحد ؛ وهذا معنى صحيح ، ولكن خيراً منه أن يقال : إن المراد أن الأحوال الآتية فى الحياة الدنيا خير لك من أحوالك الماضية ، وكأنه سبحانه يَعِدُ رسوله بهذه الآية الكريمة بأنه سيزيده كل يوم عزا إلى عز ، وسيرفع من شأنه كل يوم عما قبله ، وكأنه يقول له : لاتظن أنى كرهتك وتركتك ، بل أنت عندى اليوم أشد تمكينا وأقرب اتصالا ، و إنى سأزيدك كل يوم فضلا وسأرفعك كل حين درجةً ، وسأمنحك كل آن جلالا فوق جلالكَ ورفعة فوق رفعتك ؛ وفى هذا من تأكيد ماقبله ماليس يخفى على متبصر ، وقد صدَقَ اللهُ رسوله هذه الموعدة ؛ فإنه سبحانه مازال يسمو بنبيه و يرفع من درجته يوماً بعد يوم حتى بلغ به الغاية التى لم يبلغها أحد ، وأيةُ غاية فوق أن يجعله رسول الرحمة والهداية والنور إلى جميع خلقه ، وأن يجعل رضاه دليلا على رضا الله وغضبه دليلا على غضب الله ، وأن يجعل محبته من محبة الله ، واتباعه والاقتداء بهديه سببا للفوز بنعيم الله ، ثم يجعله وأمته شهداء على الناس جميعاً ؟ وأى فضل أعْلَى من هذا الفضل الذى بلغه محمد صلى الله عليه وسلم بانتشار دينه و بلوغ دعوته أطراف الأرض ، وتفكر جيداً فى أن الله تعالى جعل كلمة الإيمان جزءين لايقبل أحدهما بدون الآخر وأن أولهما خاص بالله ذى الجلال وثانيهما الإقرار بمحمد صلى الله عليه وسلم والشهادة بصدقه فيما يبلغ عن ربه ، ثم تأمل فى أنواع العبادات التى تعبد الله بها خلقه ، ألست تجد اسم النبى صلى الله عليه وسلم مقروناً إلى الاسم الجليل فى الأذان يُدَوِّى به صوتُ المؤذن فى أجواز الفضاء خمس مرات فى كل يوم وليلة ، ويسمعه الناس أجمعون ، وفى الصلاة حيث ينطق بهما كلُّ مُصَلٍّ تسع مراتٍ فى كل يوم وليلة على الأقل

وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ [٥] أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَىٰ [٦]

في خمسة أوقات مختلفة ، فأيُّ فضل فوق ذلك الفضل وأية نعمة فوق هذه النعمة ، وأيُّ إجلال وإكرام فوق هذا الإجلال وهذا الإكرام ؟ ذلك فضل الله العظيم يؤتيه من يشاء من خلقه والله ذو الفضل العظيم

وقوله سبحانه : (ولسوف يعطيك ربك فترضى) معناه أنه جل ثناؤه سيرادف نعمه على رسوله ويوالى آلاءه التي منها توارد الوحى عليه بما فيه إرشاده وإرشاد قومه إلى مافيه هناءتهم في الدنيا وسعادتهم في الآخرة ، والتي منها ظهور دينه على الأديان كلها ولو كره الكافرون ، والتي منها علو كلمته ورفعة شأنه وشأن قومه على شؤون الناس جميعا ، وأنه تعالى مايزال يوالى ذلك عليه صلى الله عليه وسلم حتى يرضى بما يراه من تلك النعم التي ليس وراءها مطلب لطالب

ثم إنه سبحانه وتعالى لما ذكر رضاه عن رسوله ووعده بأن يمنحه من المراتب والدرجات حتى ترضى نفسه بما يراه من وسائل الإكرام والإجلال أراد أن يبين له أن ذلك ليس عجيباً ممن بيده ملكوت السموات والأرض ، كما أنه ليس أول نعمه على رسوله ؛ لأنه أنعم عليه من قبلُ بالنعم الجليلة . وقد كان إنعامه السابق قبل أن يُصَيِّره رسولا ، فكيف يتركه بعد أن أعدَّه لرسالاته ، وذلك قوله تعالى : (ألم يجدك يتيما فآوى) والاستفهام هاهنا ليس على أصله ، بل المراد منه التقرير ، والمعنى أنك كنت يتيما لا أب لك يُرَبِّيكَ ويقوم على تَنْشِئَتِك فما زال يحميك وينصرك ويتعهدك برعايته الصمدانية ويجنبك أدناس الجاهلية وأوضارها حتى ارتقيت إلى ذروة الكمال الانسانى ؛ وقد عاش النبى صلى الله عليه وسلم يتيما ؛ لأن أباه عبد الله قد توفى وهو في بطن أمه ، فلما وُلد عَطَفَ اللهُ عليه قلب جده عبد المطلب بن هاشم فما زال يكفُله خير كفالة حتى توفى والنبى في الثامنة

من عمره ، فكَفله عمه أبو طالب شقيق أبيه عبد الله بوصية من عبد المطلب ، وكان شديد العناية به عظيم المحبة له ، فما فتىء يُرَبِّيهِ ويتعهده حتى كبر وترعرع ، وحينئذ منحه وده ومحبته ، وما زال يَحْبُوهُ بهما حتى أرسله الله تعالى رسولا ، فقام يؤازره وينصره ويدفع عنه إيذاء قريش وعُدْوَانهم ، حتى مات ، وحينئذ استطاعت قريش أن تنال منه ، فتجرأ عليه سفهاؤهم وسلطوا عليه غِلمانهم حتى اضطر إلى الهجرة إلى المدينة ، ولو تدبر منصف فى رعاية الله تعالى رسوله منذ كان فى بطن أمه وتوفيقه جدَّهُ ثم عمه إلى حياطته والحدب عليه وتنشئته التنشئة الصالحة ، مع أن الْيُتْمَ وحده مَدْعَاة إلى المضيعة وفساد الخلق لقلة من يحفل باليتيم ويحرص عليه ، وقد كان فى خلق أهل مكة وعباداتهم الكفاية لإضلاله لو أنه سار سيرتهم وصنع صنيعهم ، ولكن عين الله التى تحوطه وترعاه منعته السير على نَهْجِهِمْ ، وحَرَّمت عليه أن يتطبع بطباعهم ، فكان الأمين الذى لا يخون ، والوفى الذى لا يَمِينُ ، والصادق الذى لا يكذب ، والطاهر الذى لم يتدنس برجس (١) الجاهلية ، فذلك إيواء الله تعالى إياه الذى يقول فيه : « أَلَمْ يجدكَ

---

(١) روى أنه صلى الله عليه وسلم قال : ما هممت بشىء مما كان أهل الجاهلية يعملون به غير مرتين : كل ذلك يحول الله بينى وبين ما أريد من ذلك ، ثم ماهممت بعدهما بسوء حتى أكرمنى الله برسالته ، فانى قلت ليلة لغلام من قريش كان يرعى معى بأعلى مكة : لو حفظت لى غنمى حتى أدخل مكة فأسمر بها كما يسمر الشبان ، فخرجت أريد ذلك حتى أتيت أول دار من دور مكة ، فسمعت عزفاً بالدفوف والمزامير فقالوا : فلان بن فلان يزوج بفلانة ، فجلست أنظر إليهم ، وضرب الله على أذنى ، فنمت ، فما أيقظنى إلا مس الشمس ، قال : فجئت صاحبى ، فقال : مافعلت ؟ فقلت : ما صنعت شيئاً ، ثم أخبرته الخبر ، قال : ثم قلت له ليلة أخرى مثل ذلك ، فضرب الله على أذنى فما أيقظنى إلا مس الشمس ، ثم ما هممت بعدهما بسوء حتى أكرمنى الله برسالته .

وَوَجَدَكَ ضَالًا فَهَدَى [٧]

يتيما فآوى» ويعني به لقد كنت بعُرْضَة أن تتأثر بمن حولك في عاداتهم وعباداتهم وأخلاقهم ، ولكن الله تعالى حَماك ذلك

وقوله سبحانه : (ووجدك ضالاً فهدى) ذكر لنعمة ثانية من نعم الله تعالى السابقة ، وقد اختلف المفسرون فى معنى هذه الآية ، وقد ذكروا كلاماً لا يجمل بنا أن نحكيه عنهم لأنه تخبط وتخليط ، ولكنا نختار من بين ذلك قولين : أحدهما أن المراد أنه صلى الله عليه وسلم كان حائراً مضطرباً مع اعتقاده أن قومه ليسوا على بصيرة فى أمرهم ، وأن عباداتهم فاسدة ، واعتقاداتهم باطلة — وما كان يدرى ما يأخذ به لأنه كان أميا لا يقرأ الكتب ولا يخطها بيمينه ؛ فكان يفكر فى دين إبراهيم عليه السلام ثم يسمع أن قومه يزعمون لأنفسهم أنهم يدينون به ، وهو يرى سوء حالهم ، وحينئذ يتردد فى الإقبال عليه ، وكان يفكر فى دين اليهود ثم يرى اليهود أنفسهم ليسوا على حال خير من حال قومه لأنهم بدَّلوا دينهم وخالفوا ما كان عليه رسولهم ، وحينئذ يبدوله الإعراض عنه ، وكان يفكر فى دين عيسى عليه السلام ، ثم يرى النصارى على مثل حال اليهود أو شر منها ، فيرجع عن التفكيرفيه ، وبالجملة كان فى قرارة نفسه يعتقد أن قومه قدضلُّوا سواءالسبيل وَبَدَّلوا دين أبيهم إبراهيم وإن زعموا أنهم يستمسكون به ، وكان يبحث عن الله تعالى وعما يصح أن يتقرب به إليه ، ولكنه مع ذلك لا يحسن القراءة ولم يتصل بمن يقرأ له أو يدلُّه على وجه الهداية ، فهذه كانت حالته ، وهى حالة حَيْرة وارتباك ، فلم يتركه الله إلى نفسه ، بل أنزل عليه الوحى يبين له أوضح الطرق ويهديه سبل السلام ، ومصداق هذا قوله تعالى : « ما كنتَ تدرى ما الكتابُ ولا الإيمان » . والقول الثانى أن المعنى أنه كان بين قومٍ ضُلاَّلٍ

وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَىٰ [٨] فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ [٩]

أهلكوا أنفسهم بعبادة غير الله والإشراك به وكان بِمَرْضَة أن يضل معهم ، ولكنه سبحانه حبَّبَ إليه الانفراد عنهم وعدم مسايرتهم فى عباداتهم ، ومَنّ عليه بإدراك سوء حالهم والنفرة منهم ، فكان كالشجرة المنفردة فى الصحراء ، والعرب تسمى الشجرة المنفردة فى الفلاة ضالة

وقوله سبحانه : (ووجدك عائلا فأغنى) إشارة إلى نعمة أخرى من نعم الله تعالى على رسوله ، وأصل العائل الذى له عائلة لايقدر على الإنفاق عليها ، ثم أطلق على الفقير وإن لم يكن له عيال ، والمعنى إنك كنت فقيرا لأن أباك لم يترك لك مالا مؤثلا يقوم بحاجتك بل كل ماتركه لك ناقة وجارية ، ومن كانت هذه حاله كان خليقا بأن تضرع نفسه وتذل للناس ، ولكن الله تعالى لم يعرضك لمثل ذلك وإنما أغناك بما أجراه لك من الربح فى التجارة وبما وهبتك خديجة من مالها ، ويقال : أغناك بالقناعة حتى صرت بحال تستوى فيها عندك الحجارة والذهب ، وشغلك به عن كل ماسواه فكنت لاتجد فى قلبك سوى حب الله ، ولا شك أن أفضل الغنى أن تستغنى عن المال ، لاأن تغنى بالمال . ويقال : المعنى أنك كنت محتاجا إلى البراهين الدالة على وجود الله تعالى فأنزل عليك القرآن وعلمك به مالم تكن تعلم فاستغنيت وامتلأ قلبك يقينا وفكرك حججا ، والأول من هذه الوجوه أحسنها لوجهين : الأول أنا ذكرنا أن هذه نعم سابقة على الرسالة ، والثانى أنه يلزم التكرار لأن حاصل هذه النعمة على الوجه الأخير راجع إلى معنى قوله « ووجدك ضالا فهدى »

ثم إنه سبحانه وتعالى بعد أن بَيَّنَ نعمه السابقة على عبده ورسوله طالبه بشكر هذه النعم وأداء حقها عليه ، فقال سبحانه : (فأما اليتيم فلا تقهر) ومعناه

وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ [١٠] وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ [١١]

لاتذله ، بل أدبه وهذب نفسه وعوده مكارم الأخلاق كما أنا قمنا على تأديبك وتربيتك وأودعنا فى نفسك مكارم الأخلاق وعوّدناك على معالى الأمور ، وهذا شكر النعمة التى ذكرها سبحانه بقوله : « ألم يجدك يتيما فآوى » . وأما قوله جلت كلمته : (وأما السائل فلا تنهر) فهو شكر للنعمة التى ذكرها سبحانه بقوله : « ووجدك ضالاً فهدى » وعلى هذا يقتضى أن يكون المراد بالسائل من يستفهم عما لايعلم ويطلب معرفة ماغمضت عليه حقيقته ، والمراد من « لاتنهر » لاتزجره ولا توبخه ، والمعنى إذا جاءك من يسترشدك ويستهديك ويطلب منك أن تبين له شيئا من العلم الذى منحك الله فبين له مايريد بيانه وكن رفيقا به لاتهنه ولا تغضب عليه مهما ضعف عقله وعظم جهله . وأما قوله سبحانه : (وأما بنعمة ربك فحدث) فهو مقابل لقوله جلت كلمته : « ووجدك عائلا فأغنى » والمراد بذلك أن يوسع البذل والإعطاء للفقراء والمحاويج ، وليس المراد بالتحدث بنعمة الله أن يكثر من القول عنها والافاضة فى حديثها ؛ فان ذلك ليس من كريم الأخلاق ، ويدل على ذلك أنا نجزم أن النبى صلى الله عليه وسلم قد امتثل أمر ربه فى هذه الآية ، ولم يحدّث أحدٌ أن النبى عليه صلاة ربه وسلامه ورضوانه كان يتحدث عما عنده من المال وسائر النعم ، وقد استفاضت الأحاديث أنه كان كثير الإنفاق على الفقراء عظيم الرأفة بهم واسع الاحسان إليهم وكان لايدخر شيئا من المال والعروض والطعام ، بل كان يتصدق بكل مايدخل فى ملكه قبل أن ينقضى اليوم . والله سبحانه وتعالى أعلى وأعلم .

سورة الشرح *

[وهى مكية ، وآياتها ثمان آيات ، ونزلت بعد سورة الضحى] (١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ [١]

---

* ويقال « سورة ألم نشرح »

(١) لاخلاف بين أحد من العلماء فى عدد آى هـذه السورة فكلهم مجمعون على أن آياتها ثمان آيات ، واختلفوا فى مكان نزول هذه السورة ، فقال قوم : هى مكية ، وهذا هو الراجح ، وقال قوم : هى مدنية ، وقال آخرون : بعضها مكى وبعضها مدنى ، ورووا فى هذين القولين الثانى والثالث أحاديث ضعيفة لاتقوم بها حجة .

اعلم أن الاتصال بين هذه السورة والتى قبلها وثيق ، والارتباط بينهما تام : فهذه تتضمن تعداد نعم من نعم الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم كما أن تلك تتضمن مثل ذلك ، وهذه مختتمة بطلب شكران النعم كما أن تلك كذلك . ولشدة الارتباط بينهما حكى قومٌ عن طاوس وعمر بن عبد العزيز رضى الله عنهما أنهما كانا يذهبان إلى أن هاتين السورتين سورة واحدة ، وحكى أنهما كانا يصليان بهما فى ركعة واحدة ولا يفصلان بينهما بسم الله الرحمن الرحيم .

قوله تعالى : (ألم نشرح لك صدرك) أصل الشرح البَسْطُ والتَّوْسِعة ، وقد كان العرب يَكْنُون بعظم الصدر عن القوة وعظم المُنَّة ؛ وعن المسرة وانبساط النفس للفعل ، وهم يفخرون بسعة الصدر ويجعلون ذلك من ممادحهم . ووجه الكناية أن سعة الصدر تعطى الأحشاء فسحة للنمو والراحة ، وإذا تم ذلك للمرء كان رأيه

وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ [٢] الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ [٣]

حاضرا وذهنه صافيا ولم يضق ذرعه بأمر من الأمور ، والاستفهام الذى صُدِّرت به الآية استفهام إنكارى معناه النفى فدخوله على النفى يفيد الإثبات ، والمعنى شرحنا لك صدرك ، ونون العظمة التى فى قوله سبحانه «نشرح» تدل على عظمة النعمة ؛ من قبل أن المنعم العظيم إنما يمنح العظيم من النعم ، فذلك إشارة إلى أن نعمة الشرح مما لا تصل العقول إلى كنه جلالتها . واللام فى «لك» تدل على أن منفعة الشرح عائدة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم . وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يضيق صدره ويعتريه كثير من الألم والحزن لتمادى قومه فى تكذيبه وإصرارهم على اتخاذ آلهة دون الله ؛ فآتاه الله من آياته ومنحه من صدق العزيمة ومضاء الهمة ماأخرجه من الحَيرة التى كان يجدها فى نفسه كلما رأى جمود قومه وعنادهم ، وعلَّمه سبحانه كيف يسلك إلى نفوسهم ، وهداه إلى الوسيلة التى ينقذهم بها من الهلكة ويجنبهم الردى الذى كانوا مشرفين على الوقوع فيه ، ومازال يتعهده بالوحى كلما التبس عليه شىء من الأمر أو ضاق عليه الخروج منه ؛ وبالجملة المراد من شرح الصدر أنه سبحانه أخرج عن نفسه جميع الهموم حتى كان لايقلق ولا يضجر ولا يتحير ولا يتألم ، بل كان فى جميع حالاته راضى النفس مطمئن الخاطر واثقا من تأييد الله ونصره عالما كل العلم أن الذى أرسله لايخذله ولا يهين عليه عدوا

وقوله سبحانه : (ووضعنا عنك وزرك الذى أنقض ظهرك) الوِزْرُ : الحمل الثقيل ، وأنقض : معناه أثقل ، والأصل فيه أن الظهر إذا أثقله الحمل سمع له نَقيض . والنقيض : الصوت الخفى ، وقد ذكر جمهرة المفسرين أن المراد بالوزر فى هذه الآية الذنب ، ثم راحوا يتأولون الكلام ويتمحلون الأعذار ، ويختلفون فى جواز ارتكاب الأنبياء المعاصىَ ، وكل هذا كلام لاداعى إليه ولا يلزم حمل

الآية عليه ، والمراد ـ والله سبحانه وتعالى أعلى وأعلم ـ بالوزر الحَيرةُ التى اعترته عليه الصلاة والسلام قبل البعثة حين فكَر فيما عليه قومه من عبادة الأوثان ودعائها ، وتماديهم فى الطغيان ، وتبديلهم دين أبيهم إبراهيم ، وأيقن بثاقب فكره وصائب نظره أن للكون خالقا هو الجدير بالتوجه إليه والصُّمود نحوه فى جميع الحوائج ، ثم تحير فى الطريق الذى يسلُكه لعبادة هذا الواحد الأحد ، ومازال كذلك حتى أوحى إليه ، و بَيَّنَ الله له بالوحى أهدى السبل وأقومها؛ فزالت حيرته وذهب عنه اضطرابه ، ولما أمر بدعوة قومه إلى الدخول فى دينه وصارَحَهم بهذه الدعوة قاموا فى وجهه وكذبوه وتألبوا عليه وراحوا يتهمونه مرة بالكذب ومرة بالجنون ومرة بالشعر ، فثقل ذلك عليه ، وغاظه من قومه الذين ماجربوا عليه كذبا أن يتهموه بالكذب ، كما آلمه من عشيرته الذين كانوا يعتقدون فيه تمام العقل وجَوْدَة الفكر وإصابة الجادة أن يَرْمُوه بالجنون ، فكان الحزن على حال قومه وحاله معهم يقيمهُ ويقعده ، والألمُ من تماديهم على الباطل واستمساكهم بالزائف ينال من نفسه ، وكان إيذاؤهم له يبعث الأسى إلى نفسه . كل ذلك كان حملاً ثقيلا وعِبئاً باهظا صعب عليه احتماله وشق عليه القيام به ، فليس الوزر الذى كان ينقِضُ ظهره ذنباً من الذنوب اقترفه فهو يسأل منه الصفح والمغفرة على ماتوهم المفسرون ، ولكنه كان همًّا نفسيا يفوق ألمه ألم ذلك الثقل الحسىّ ، فلما هداه الله إلى إنقاذ أمته من أوهامها الفاسدة واعتقاداتها الباطلة ، وأعطاه القوة والصَّبْرَ على المكاره ، كان ذلك بمثابة رفع الحمل الثقيل الذى كان ينوء بحمله . لاجَرَمَ كانت هذه الآية واردة على سبيل التمثيل ، واقرأ إن شئت قوله تعالى : « إنا كفيناك المستهزئين الذين يجعلون مع الله إلها آخر فسوف يعلمون ، ولقد نعلم أنك يضيق صَدْرُك بما يقولون ؛ فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين ، واعبد ربك حتى يأتيك اليقين »

وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ [٤] فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا [٥] إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا [٦]

وقوله سبحانه : (ورَفَعْنَا لك ذكرك) معناه جعلناك عالى الشأن رفيع المنزلة عظيم القَدْرِ ، وأى منزلة أرفع من النبوة التى منحه الله تعالى إياها ؟ وأى ذكر أنبه من أن يكون له فى كل ناحية من نواحى الأرض أتباعٌ يمتثلون أوامره ويجتنبون نواهيه ، ويَرَوْنَ طاعته غُنْمًا ، ومعصيته غرما ، ويعتقدون أن من أطاعه فقد أطاع الله ومن عصاه فقد عصى الله ؛ وأى شأن أسمى من أن تفخر الملوك باتباعه وتشرف بالانتساب إليه وَتسترضى شعوبها بالعمل بسنته والاهتداء بهديه ؟ وهل من فَخار بعد ذكره فى كلمة الإيمان مع الله العلى الرحمان ، وهل من مجد أبقى على الدهر من ذكره فى الصلوات والأذان ، واستمع إلى حسَّان بن ثابت رضى الله عنه وهو يقول :

أَغَرُّ عَلَيْهِ لِلنُّبُوَّةِ خَاتَمٌ مِنَ اللهِ مَشْهُودٌ يَلُوحُ وَيُشْهَدُ
وَضَمَّ الْإِلٰهُ اسْمَ النَّبِيِّ إِلَى اسْمِهِ إِذَا قَالَ فِى الْخَمْسِ الْمُؤَذِّنُ أَشْهَدُ

وقد روى أبو نعيم فى دلائل النبوة عن أبى سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « أتانى جبريل فقال لى : إن ربك يقول : أتدرى كيف رفعت ذكرك ؟ قلت : الله تعالى أعلم . قال : إذا ذُكِرْتُ ذُكِرتَ معى » .

ثم إنه سبحانه وتعالى بعد أن بين بعض نعمه على رسوله من شرح الصدر ووضع الوزر ورفع الذكر بعد استحكام الكرب وضيق الأمر ، أراد أن يبين أن ذلك وقع على ماجرت به سنته فى خلقه فقال : (فإن مع العسر يسرا إن مع العسر يسرا) ولهذا وصل العبارة بالفاء التى تدل على أن مابعدها سبب [1] فى

---

(١) وهى مع ذلك تدل على التعقيب من غير تراخ ، ففيها مع الايماء إلى ماذكرنا الاشعار بأن وقوع اليسر بعد العسر مع وثيق الاتصال بينهما

حصول ماقبلها ، ثم أكد ذلك باعادة القضية بنفسها ، مع تصديرها فى المرتين بحرف التأكيد ، مما يدل على أن الغرض تقرير معناها فى النفوس وتمكينها من القلوب . و«ال» فى «العسر» لاستغراق أنواع العسر المعروفة عند المخاطبين : من الفقر ، والضعف ، وجهالة الصديق ، وإنكاره الجميل ، وقوة العدو ، وشماتة الحاسدين ، وضعف المنة على مغالبة الكروب ، وقلة الوسائل إلى إدراك المطلوب ، فكأنه سبحانه يقول : إنه مهما اشتد العسر وصعب على النفس التخلص منه فإنى أجعل للانسان منه مخرجا إذا تذرع بالصبر واعتصم بالتوكل على ، ولقد كان هذا حال النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فانه قد ضاق به الأمر فى بادىء الحال قبل النبوة وبعدها على ماقدمنا بيانه ، فلم يَدُنه تألُّب قومه عليه ولم يفلل من عزمه تكرار إيذائهم له ولم تكسر من مضائه حدَّةُ قومه وشدتهم فى التجميع له ، بل صَبَرَ على مكروههم ، وألقى بنفسه فى غمرات الدعوة متوكلا على الله محتسبا نفسه عنده راضيا بكل مايجد فى هذا السبيل ، ولم يزل على هذه الحال حتى منحه الله أنصارا أُشرِبت قلوبهم حُبَّه ، وأفعمت أنفسهم بالرغبة الصادقة فى الدفاع عنه وعن دينه ، ورأوا أن لاحياة لهم إلا بتهديم أركان الشرك والوثنية ، واشتروا ماعند الله من جميل الثواب بأرواحهم وأموالهم وأولادهم وأزواجهم ، فكان له من هؤلاء رضى الله عنهم مازعزع أطواد الكفر والطغيان ، وأزال حُصُون العناد والبهتان ، ثم كان له منهم ماقَوَّضَ دعائم الأكاسرة (١) وأباد غضراء القياصرة والأباطرة ، فكم فى قوله جلت كلمته « فان مع العسر يسرا إن مع العسر يسرا » من التَّسْلية والوَعْدِ بارتفاع الحال وتملك نواحى الأمور

---

(١) لو أن المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها رجعوا إلى أنفسهم وفكروا فيما كان عليه سلفهم الصالح من اتباع الرسول والقيام بحقوق الدين على الوجه الأكمل مع الاخلاص والأخذ فى الأسباب لعاد إليهم المجد الدارس ، ولخشيهم عدوهم الذى ملك عليهم أمورهم

روى أن المشركين كانوا يعيّرون رسول الله صلى الله عليه وسلم ومَنْ آمن معه الفقرَ وضيقَ الحال، وأكثروا من ذلك حتى سبق إلى ذهنه أنهم إنما انصرفوا عن أتباعه ورغبوا فى معاداته لفقره؛ فذكره سبحانه وتعالى بما أنعم عليه من: جلائل النعم التى لايُعَدّ إلى جانبها المالُ ولا غيره من متاع الدنيا، ثم وَعَدَه بأن يُبَدِّل حاله من الفقر إلى الغنى، ومن قلة الأعوان إلى كثرة، ومن عداوة قومه إلى محبة، وأشباه ذلك

ولابُدّ أن تعلم أن المراد من أن اليسر يعقب العسر لامَحَالَة، ومن أن الله جلت قدرته قد جعل لكل ضيق فرَجا، وجعل من كل ألم مَخْلَصا، لابد أن تعلم أن المراد من ذلك، على ما كررنا، أن تحتمل بعزم ثابت، وتعمل على التخلص منه بما وهبك الله تعالى من القوى، كما كانت حال النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وتكل — مع ذلك — نجاح أعمالك وإيصالها إلى ماتشتهيه إلى ربك القادر خالق القوى والقُدَر؛ فليس يجمل بك أن تجزع لما ينزل بك من مكروه فان الجزع لايأتى بخير، ولا يجمُل بك أيضاً أن تصبر على المكاره ثم تسكن لها وتتخاذل أمامها فلا تحاول أن تدفعها عن نفسك زاعما أن ذلك ينافى الصبر والتوكل على الله؛ فان فى ذلك من الخطأ ماليس يخفى على من له أدنى بَصَر، وليس يجمل بك أن تتعجَّلَ اليُسْر وتجزع إذا تأخر عنك؛ فان الأمور مرهونة بأوقاتها التى قدر الله تعالى حصولها فيها، وخلاصة الأمر أنه يجب على الإنسان كلما وَجَدَ نفسه قد وقعت فى عُسْر أن يقابله بالصبر، وأن يأخذ فى أسباب تفريجه عن نفسه، وأن يجعل النجاح موكولا إلى ربه، وألا يستبطىء النجاح فيدعوه استبطاؤه إلى التوانى وتفتر عزيمته؛

ثم إنه سبحانه بعد أن بين نعمه على رسوله، ووعده بتفريج كربه وتبديل عُسْره؛ أخذ يطلب إليه أن يقوم بحقّ هذه النعم عليه، وذلك بالانقطاع إلى العمل الصالح

فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ [٧] وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ [٨]

والجدّ فيه، والرغبة إلى الله تعالى واللجوء إليه دون من عداه ؛ فقال سبحانه : (فاذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب) والمعنى إذا فرغت من عمل من الأعمال فاتعب فى مزاولة عمل آخر ؛ لأنك ستجد فى المثابرة على العمل لذة تَقَرُّ بها عينك، ويَثْلَجُ بها صدرك ، والمراد حثه عليه الصلاة والسلام على الاستدامة والمواظبة على الأعمال ، وقوله « وإلى ربك فارغب » معناه لا ترغب فى ثواب عملك واستثماره إلا إلى ربك ، أو ارغب فى كل ما تطلبه وتلتمسه من شؤون الدين والدنيا إلى الله وحده ؛ فاستنصر به على أعدائك، واسأله تكثير أوليائك وغير ذلك ، وتقديم المعمول وهو قوله « إلى ربك » يفيد القصر ؛ وقرىء « فَرَغِّبْ » ومعناه رغِّب الناسَ فى الالتجاء إلى الله وحده، وأعلمهم أنه سبحانه الحقيق بالتوجه له والضراعة إليه ، والله سبحانه وتعالى أعلى وأعلم

سورة التين *

[وهى مكية ، وآياتها ثمانُ آيات ، ونزلت بعد سورة البُرُوج] (١)

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ [١] وَطُورِ سِينِينَ [٢] وَهٰذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ [٣]

---

* ويقال : سورة والتين ، بالواو

(١) لاخلاف بين أحد من العلماء فى أن عدد آى هذه السورة ثمان آيات ، وقد اختلفوا فى مكان نزولها ؛ فقال الجمهور : هى مكية ، وقال قوم : هى مدنية ، والراجح قول الجمهور ، ويؤيده قوله سبحانه فى السورة « وهذا البلد الأمين » ألا ترى أن اسم الإشارة يومىء إلى أن مكان الكلام هو هذا البلد

قوله سبحانه : (والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين) قد أجمع المفسرون على أن المراد بطور سينين الجبلُ الذى كَلَّمَ الله تعالى موسى عليه السلام عنده ، كما أجمعوا على أن المراد بهذا البلد الأمين مكةَ التى كرمها الله تعالى بالكعبة وبميلاد رسوله محمد صلى الله عليه وسلم وتَنَشِّئِه فيها ، ووصفها بالأمين لأنها آمنة من أن يمسها أحد بسوء ؛ فقد حرمها الله تعالى على جميع خلقه وحرم شجرها وحيوانها ؛ ومصداق ذلك قوله صلى الله عليه وسلم عقب الفتح : «إن الله حرم مكة يومَ خَلَقَ السموات والأرضَ ؛ فهى حرام إلى أن تقوم الساعة ؛ لم تحلّ لأحد قبلى ، ولن تحل لأحد بعدى ، ولم تحل لى إلا ساعة من نهار ؛ فلا يُعضَد شجرها ، وَلا يُختَلى خَلَاهَا ، ولا يُنفَّر صيدها ، ولا تحل لقطتها إلا لمنشد » ويقال : نسبة الأمن إليها مجاز ، والمراد أن من يحل فيها يأمن على نفسه وماله ،

ألا ترى أن من لجأ إليها فقد استعصم وإن كان مُبَاح الدم ، حتى السباع وأنواع الصيود إذا حلت بها أو جاورتها فقد حرم رَمْيُها أو الدلالة عليها وتعين على الناس أن يتركوها . وقد اختلف المفسرون فى المراد بالتين والزيتون ؛ فذهب قوم إلى أن المراد بهما هاتان الثمرتان المعروفتان : ثمرة التين ، وثمرة الزيتون ، ثم توهموا أنهما بهذا المعنى ليستا من الأمور العظيمة الشريفة التى يصح أن يُقْسِم الله بها فانطلقوا يبينون لهما من المزايا والشرف على سائر الثمار مايقرب إلى الأذهان صحة الحلف بهما ، فمنهم من قال : إنما اختصهما الله تعالى من بين الثمار بالحلف بهما لمزيد فضل لهما ، ألا ترى أن التين فاكهة طيبة لافَضْلَ لها ، وهى مع ذلك غذاء لطيف سريع الهضم ، ودواء كثير النفع لأنه يلين الطبع ويحلل البلغم ويطهر الكليتين ويزيل رمل المثانة ويفتح سُدَد الكبد والطحال ويسمن البدن ، والزيتون فاكهة وإدام ودواء ، وله دهن لطيف كثير المنافع ، وهذا الدهن يوجد فيه وإن نبت فى صخور الجبال حيث لادهن . وذكروا بعد ذلك كثيرا من المزايا هذه صورة مصغرة منها ؛ ومنهم مَنْ ذكر أن وجه شرفهما أنهما يذكران بحوادث عظيمة لها كثير من الآثار الباقية ، وبينوا ذلك بما لايقطع بثبوته ، قالوا : إن التين إشارة إلى عهد الانسان الأول الذى كان يستظل فيه بورق التين حينما كان يسكن الجنة وعند ماأخرجه الله منها وبدت له سوءته فقد طفق آدم هو وزوجه يخصفان عليهما من ورقه ، والزيتون إشارة إلى عهد نوح عليه السلام وذريته ، وذلك أنه بعد أن فسد البشر وأَهْلَكَ الله من أهلك منهم بالطوفان ونَجَّى نوحا فى سفينته واستقرت السفينة نظر نوح إلى ماحوله فرأى المياه لاتزال تغطى وجه الأرض، فأرسل بعض الطيور لعله يأتيه بخبر انحسار الماء وانكشافه عن بعض البقاع ، فغاب الطائر ولم يأت بخبر ، فأرسل طيرا آخر فرجع إليه يحمل ورقة من شجرة الزيتون فاستبشر وداخله السرور وعرف أن غضب الله قد سكن وأنه سبحانه قد أذن للأرض أن تبلع ماءها

لتعمر ويسكنها الخلق . ومازال حتى أرسى السفينة ونزل هو وأولاده فعمروا الأرض وجَدَّدوا قبائل البشرية ، ومن أجل ذلك عُبِّرَ عن هذا العهد بزمن الزيتون ، والإقسام بالتين والزيتون عند هؤلاء يراد به التذكير بهذين العصرين : عصر آدم أبى البشر الأول ، وعصر نوح أبى البشر الثانى . وعلى أية حال فقد فات هؤلاء جميعاً عَقْدُ المناسبة بين التين والزيتون ومابعدهما سواء أكان المراد بالتين والزيتون أنفسهما أم كان المرادَ بهما العصران اللذان يشيران إليه ، والمناسبة أبعد على الوجه الأول ؛ لأنه يمكن على الوجه الثانى أن يتمحَّل فيقال : إن طور سيناء أيضاً إشارة إلى زمان موسى عليه السلام ، وإن هذا البلد الأمين إشارة إلى زمن النبى محمد صلى الله عليه وسلم ، فيستوى كل واحد من هذه الأربعة مع غيره فى أنه إيماء وإشارة إلى عهد من عهود الأنبياء الذين كانت لهم على الإنسانية أياد يذكرها التاريخ ، ولكن هذا الذى ذكروه فى قصة الزيتون تفسير للقرآن بالإشارات البعيدة مما لايجمل الإقدام عليه ، وقال قوم : المرادَ بالتين جبل قريب من دمشق يسمى طور تينا لأنه منبت التين ، والمراد بالزيتون جبل ببيت المقدس يسمى طور زيتا ، ويقال : التين مسجد دمشق والزيتون بيت المقدس ، ويقال : المراد بالتين مسجد نوح عليه السلام الذى بناه على الجودىّ ، ويقال : التين الموضع الذى نزل فيه نوح عليه السلام عند مارست السفينة ، ومهما يكن من أمر هذا الاختلاف فان المصير إلى أن التين والزيتون مكانان من الأمكنة المقدسة أنسب من المصير إلى أنهما شجرتان أو ثمرتان ، من قبل أن ذلك يجعل الأشياء الأربعة التى أقسم الله تعالى بها فى هذه السورة من واد واحد ، وإنما شرف هذه الأماكن بشرف من حل بها من الأنبياء ، وذلك بتشريف الله تعالى لهم بجعلهم أهلا لتلقى وحيه والسفارة بينه وبين خلقه ودعوة الناس إلى الإيمان بالله الذى لا إله إلا هو وخلع الأنداد والشركاء والإخلاص فى السر والعلن

لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ [٤]

وقوله سبحانه : (لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم) هو جواب القسم ، والتقويم فى الأصل تصيير الشىء على ماينبغى أن يكون عليه فى التأليف والتعديل تقول : قَوَّمته تقويما ، إذا كنت قد جعلته على أعدل الوجوه التى يصح أن يكون عليها ، ويقال : استقام الشىء وَتَقَوَّم ، إذا جاء على وَفق التقويم ، وليس المراد هنا المصدر ، ولكن المراد أثره : أى خلقنا الإنسان فى أحسن حال وأجمل صورة وأبهج مَنظَر ، وهذ الحسن يشمَل الظاهر والباطن ، أفلا تراه سبحانه قد خلق الإنسان مَدِيدَ القامة حَسَنَ الصورة مستجمعا لخواصّ الكائنات ، ولم يجعله منكبا على وجهه كالبهائم ، وجعله يتناول بيده ، ولم يجعله كسائر الحيوانات يتناول بفيه ، ثم ألا تراه جل شأنه قد خصَّه بالعقل والتميز وَأعَدَّه لقبول العلوم والمعارف واستنباط الحيل التى بها يتسلَّط على جميع الكائنات ، وجعله مع ذلك مُهَيْمنا ذا سلطانٍ واسع وَحَوْلٍ نافذ وقدرة تمتد إلى كل شىء ولم يجعله كغيره من الحيوانات مُسَخَّرا مذللا مقهورا ، فان قلت : فهذا الخبر واضح لكل ذى عينين وليس يمترى فيه أحد ؛ فان جميع الناس يذعنون بأن خلق الإنسان على هذا الحال وليس منهم مَنْ يشك فيه أو ينكره ، فما علة تأ كيده سبحانه هذا الخبر بالحلف عليه ؟ فالجواب عن ذلك أن الناس قد غفلوا عما ميزهم الله به من العقل والتمييز ، فلم يستعملوا عقولهم في استكناه هذا العالم والاسترشاد بهذا الصنع البارع على صانعه الحكيم القادر التامّ القدرة ، وانحرفوا عن الجادة التى تستوجبها الفطرة السليمة التى فطر الله الناس عليها ، فكأنهم ظنوا أنفسهم كسائر المخلوقات العجماوات ، فراحوا يعملون مالا يبيحه العقل ولا ترضى عنه الفطرة ، لا يمنعهم حياء ، ولا تردهم خشية ، ولا تحجزهم حشمة ، حسبوا أنفسهم خلقوا لمتاع الدنيا

ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ[٥]

وشهواتها وملاذها فانطلقوا يتزودون منها ويشبعون نَهْمَتهم ، فلما كانت هذه حالهم وكان ذلك بمثابة الإنكار لتعديل الله تعالى خلقهم وجعلهم فى أحسن تقويم ناسب أن يؤكد الله لهم هذا الخبر ، فكأنه سبحانه يقول : إنى قد برأت هذا الإنسان وخلقته أحْسَنَ خَلق وكرّمته بالعقل الذى تمكن به من الاستيلاء على جميع العوالم الأرضية واستطاع بسببه أن يتعرف إلى كثير من أحوال السموات ، وقد كان الإنسان فى أول أمره ساذجاً قليل الأطماع فلم تعرف الأَثَرة قلبه ولم تتمكن الأنانية فى نفسه فعاش هنىء البال رضى النفس وسادت الطمأنينة ، ثم تنبهت فى نفسه الشهوات وثارت المطامع من مكامنها فنبت الحقد والحسد والضغينة ، وأثمرت هذه الخلال ثمرا مُرًّا كريها من التقاطع والتقاتل ، وَضَرِيَتْ الأنفسُ حتى صار الإنسان أعظم اغتيالا لأخيه من السّباع ، ويشير إلى هذا قوله سبحانه : (ثم رَدَدناه أسفل سافلين) فالمراد على ذلك من هاتين الآيتين الكريمتين بيانُ أن فطرة الله التى فطر الناس عليها تدعو إلى الرحمة والإيثار وَالْعدْل ، وترغب فى التآلف والتوادّ ، وتحثُّ على الصّلَة وعامة المكارم ، ولكن الإنسان نفسه يستشرى إلى الفساد وَيُمْعن فى سبُل الضلالة بسبب ما يتولّد فيه من المطامع الفاسدة ، وحينئذ ينسى فطرته التى فطر عليها وَيعُود إلى الحالة الحيوانية الدنيئة ، وليتصور الإنسانُ عهْداً كان الناسُ فيه وادعين آمنين ، وكانت العفة والأمانة وسائر خلال البر من خلق أكثر الناس ؛ إن لم تكن خلقهم أجمعين ، ثم ليتصور ماصار إليه أمر الناس فى عصر يسمونه عصر العلم والنور ، وهو عند التدبر عصر الهلاك والضلالة والتردّى فى هاوية الشرور ؛ فانه سيجد الإنسان جادا فى إهلاك أخيه الإنسان ، وسيجد الظلم والخيانة وسائر خلال الإثم والعدوان قد صارت

إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ [٦]

خلق أكثر الناس ؛ فاذا وازن المتدبر فى هاتين الحالتين تبين له أوضح البيان كيف ارتد الإنسان إلى أسفل دركات الحيوانية ، وحينئذ يعرف معنى قوله سبحانه : «لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين» وللمفسرين فى هذا المقام كلام أعرضنا عن ذكره ، قال الإمام رحمه الله : أى صيرناه أسفل من كثير من الحيوانات التى كانت أسفل منه ؛ لأن الحيوان المفترس مثلا إنما يصدر فى عمله عن فطرته التى فطر عليها ، لم ينزل عن مقامه ، ولم ينحطّ عن منزلته فى الوجود ؛ أما الإنسان فانه باهماله عقلَه وجهلِه بما ينبغى أن يعمل لتوفير سعادته وسعادة إخوانه ينقلب أرذل من سائر أنواع الحيوان ، ولكثُرُ ماقلتُ : إذا فسد الانسان فلا تَسَلْ عما يَصْدُر عنه من هَذَيَان أو عُدْوَان ، ثم إن الذين ارتدوا إلى أسفل سافلين منهم من هلك فى زمن نوح أو فى أزمان أخر ، ومنهم من سيهلك فى تلك المنزلة من الخسة فتدوم لهم كذلك فى الحياة الأخرى ، وللسافلين فيها منازل العذاب والخزى والهون . اهـ

ثم إنه سبحانه وتعالى بعد أن بين أن الإنسان بحسب فطرته التى فطره عليها قد خُلِقَ فى أحسن تقويم وأعْدَل صورة خَلْقية بجعله مَديد القامة مستويها ، وفى أجمل صورة خُلُقية بما ركب فيه من العقل والإدراك وجعله مستعداً له من العلوم والمعارف والآداب ، وأن الإنسان قد أهمل هذه الفطرة ودأب على الشر والآثام فانقلب بذلك وهوَى إلى أسفل دركة من دركات المخلوقات كلها حتى بلغ أن كان أقبح من سائر الحيوانات ، بعد أن بين سبحانه ذلك أراد أن يبين أن ليس كلُّ إنسان يبلغ هذا المبلغ ، بل إن منهم قوماً عصمهم الله تعالى فظلوا على فطرتهم التى فطرهم عليها ، فقال سبحانه : (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون) ومعنى

فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّين [٧]

هذا أن الذين أشربت قلوبهم عقيدة الإيمان بعد أن عرفوا أن لهذا الكون مُوجداً أوجده ودَبَّر أمره ووضع لخلقه شريعة يجرون فى أعمالهم على مقتضاها ، وعلموا أن عنده للشر جزاء ينال فاعله ، وللخير مثوبة تصل إلى فاعله ؛ فدعاهم ذلك العلم إلى الإتيان بالخيرات واجتناب جميع الموبقات ، فحفظوا بذلك أنفسهم ، وأبقوها على الفطرة التى فطر الله الناس عليها ؛ فهؤلاء الناس يعطيهم الله فى هذه الحياة الدنيا أجرَ صالح أعمالهم بأن يكرمهم ويُيَسِّرهم إلى اليُسْرَى ويشرح صدورهم للسير على المنهاج الذى يرتضيه لعباده المخلَصين ، ولا يقطع عنهم مثوبة أعمالهم إذا انتقلوا إلى الحياة الثانية ، وقوله سبحانه : « غير ممنون » معناه غير مقطوع ولا منقوص ؛ لأن الله وَصلَ ما أكرمهم به فى الدنيا بما يلاقونه فى قبورهم ، ثم وصل نعيم القبر بما أعده لهم يوم القيامة ، ويقال : معنى « غير ممنون » أنه ثوابٌ لا مِنَّة فيه ؛ لأن المنّ ينقص العطاء ، ولا يمتنع أن يكون المعنيان مرادين معا ؛ فان من تمام الأجر وكماله أن يكون متصلا غير مقطوع وأن يكون مع ذلك غير مُنغص بالامتنان

وقوله سبحانه (فما يكذبك بعد بالدين) اختلف المفسرون فى بيان المخاطب بهذه الآية ، فقال الأكثرون : المخاطب هو الإنسان الذى ذكر الله أنه خلقه فى أحسن تقويم ، على طريق الالتفات ، والمعنى على هذا الوجه أى شىء يحملك أيها الإنسان على التكذيب بالدين بعد أن عرفت أن الله خلق الإنسان على الفطرة السليمة وأنه قد جرى على خلاف هذه الفطرة ، ولم يحافظ عليها إلا من ذكرنا ، وهذا هو الوجه ، قال قوم : المخاطب بهذه الآية هو النبى صلى الله عليه وسلم ، وهذا وجه اختاره الفراء ، ويلزم على هذا الوجه أن تكون « ما » استفهاماً عن ذوات المكذبين ، فهى مستعملة فى موضع « من » ، والمعنى فمن يكذبك أيها الرسول من هؤلاء الكفار بعد أن ظهرت تلك الدلائل ووضحت هذه الحجج

أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ [٨]

على صحة ما أرسلت به من الدين ؛ والاستفهام على الوجهين استفهام إنكارى يتضمن معنى النفى ، وفيه مع ذلك معنى التعجب ، وكأنه سبحانه قد قال على الوجه الأول : إنه ما من سبب موجود يحملك أيها الإنسان على التكذيب بما ذكرنا لك ، وعلى الوجه الثانى إنه لا ينبغى أن يبقى أحد يكذبك أيها الرسول فيما تدعو إليه بعد أن وضح الأمر وتبين الحق ، ووجه العجب أن خلق الإنسان من النطفة وتقويمه بشرا سويًا وتدريجه فى مراتب الزيادة إلى أن يكمل ويستوى ثم تنكيسه بعد ذلك حتى ينسى فطرته التى فطره عليها خالقه ، وبقاء قوم منحهم الله طهارة الضمير وصفاء السريرة وخلوص الاعتقاد ، على ما فطرهم الله عليه ؛ كل ذلك دليل واضح على قدرة مدبر هذا الكون وتمكنه من فعل ما يشاء ، فمن شاهد ذلك وتدبره وأعمل فيه فكره ، ثم بقى مصرا على عناده فلا شىء أعجب من حاله

وقوله جل شأنه : (أليس الله بأحكم الحاكمين) تحقيق لما ذكر من خلق الإنسان ثم رده إلى أسفل سافلين ، وكأنه سبحانه يقول : إن الذى فعل ذلك كله لهو أحكم الحاكمين صنعا وتدبيرا ، ومتى ثبتت له الحكمة والقدرة بدلالة هذا الخلق صَحّ أنه قادر على فعل ما يشاء متمكن من إيجاد كل ما يريد ؛ ومن ذلك حشر الناس إلى ربهم ليجازيهم على ما قدموا ، وهذا من أهم ما تختلفون فيه ؛

ومن حكمته سبحانه أنه وضع الشرائع ، وأرسل بها رسله إلى خلقه ليبينوها لهم ويدعوهم إليها ؛ وفى ذلك من رحمته بخلقه ما ليس يخفى ؛ فإن فى وضع هذه الشرائع وإبلاغها إلى الخلق المحافظة على فطرة الناس التى فطرتهم عليها ، وحضّهم على ألا يفسدوها بما تزين لهم أنفسهم . سبحانه وتعالى ما أعدله وما أحكمه ، هو الرءوف الرحيم . والله سبحانه أعلى وأعلم

سورة العلق *

[وهى مكية ، وآياتها تسع عشرة آيةً ، وهى أول ما نزل من القرآن] (١)

* وتسمى سورة « القلم » كما سماها بذلك الإمام فخر الدين الرازى ، وتسمى أيضاً سورة « اقرأ »

(١) أجمع العلماء على أن هذه السورة مكية ، ولكن اختلفوا فى أنها أول مانزل من القرآن ؛ فقال قوم : هى أول مانزل من القرآن ، وقال آخرون : أول سورة نزلت من القرآن سورة الفاتحة ، وقال فريق ثالث : أول شىء نزل من القرآن صَدْرُ هذه السورة وأول سورة نزلت بأكملها هى سورة الفاتحة ، وبهذا القول يجمع بين القولين السابقين ، وكذلك اختلفوا فى عدد آياتها ؛ فعدّها قوم عشرين آية ، وعدّها آخرون تسع عشرة آيه ، وعدّها فريق ثالث ثمان عشرة آية .

حدثت عائشة رضى الله عنها قالت : أول مابدىء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحى الرؤيا الصادقة فى النوم ؛ فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حُبِّبَ إليه الخلاء ، فكان يأتى حراء فيتحنث فيه ، وهو التعبد ، اللّيالِيَ ذوات العدد ، ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها ، حتى فجأه الوحى وهو فى غار حراء ، فجاءه الملك فيه ، فقال : اقرأ ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فقلت : ماأنا بقارىء ، قال : فأخذنى فَغطّنى حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال : اقرأ ، فقلت : ماأنا بقارىء ، فغطّنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال : اقرأ ، فقلت : ماأنا بقارىء ، فغَطّنى الثالثة حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال : اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ

وربك الأكرم، الذى علم بالقلم، علم الإنسان مالم يعلم. قال: فرجع بها ترجف بوادره حتى دخل على خديجة فقال: زملونى زملونى، فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال: ياخديجة مالى، وأخبرها الخبر، وقال: قد خشيت على نفسى، فقالت له: كلا! أبشر، فوالله لايخزيك الله أبدا؛ إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكَلَّ، وتَقْرِى الضيف، وتعين على نوائب الحق، ثم انطلقت به خديجة حتى أتت به وَرَقَة بن نوْفَل بن أسد بن عبد العُزَّى بن قصى، وهو ابن عم خديجة أخى أبيها، وكان امرأ قد تنصَّر فى الجاهلية وكان يكتب الكتاب العربى وكتب بالعبرانية من الإنجيل ماشاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيرا قد عمى، فقالت خديجة: أى ابْنَ عَمِّ، اسمع من ابن أخيك، فقال ورقة: ابْنَ أخى، ما ترى؟ فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بما رأى، فقال ورقة: هذا الناموس الذى أنزل على عيسى، ليتنى فيها جَذَعاً، ليتنى أكون حياً إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أوَمُخْرِجِىَّ هم؟ فقال ورقة: نعم، لم يأت رجل قطُّ بما جئت به إلا عودى، وإن يدْرِكْنى يومك أنصُرْك نصراً مؤزرا، ثم لم ينشب ورقة أن توفى. رواه الامام أحمد عن عبد الرزاق عن مَعْمَر عن الزهرى عن عروة عن عائشة، ورواه البخارى ومسلم من حديث الزهرى، فَصَدْر هذه السورة الكريمة أول شىء نزل من القرآن، وأول رحمة رحم الله بها العباد، وأول نعمة أنعم الله بها عليهم، وهو أول خطاب إلهى وُجِّه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، أما بقية السورة فالظاهر أنه متأخر النزول، وأنه نزل بعد شيوع بعثته صلى الله عليه وسلم، و بعد مادعا قريشاً إلى الإيمان به، وآمن معه قوم منهم، وكان جمهرتهم يتحرشون بمن آمن معه و يؤذونهم و يحاولون رَدَّهم عن التصديق به والإيمان بما جاء به عن ربه، وتدبر فى قوله سبحانه: « أرأيت الذى ينهى عبداً

إذا صلّى ؟ أرأيت إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى ؟ أرأيت إن كذب وتولى » .

ووجه المناسبة بين هذه السورة والتى قبلها أنه سبحانه قد بين فى السورة السابقة خلق الإنسان فى أحسن تقويم ، وذلك فى قوله جل شأنه : « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين » وفى هذه السورة بين أنه خلق الإنسان من عَلَقٍ ، وذلك فى قوله جلت كلمته : « خلق الانسان من علق » فما فى السورة السابقة بيان للعلة الصورية وما فى هذه السورة بيان للعلة المادية ، ووجه آخر من المناسبة بين السورتين الكريمتين ، وذلك أن الله تعالى قد ذكر فى السورة السابقة بعض أحوال الآخرة ، وذلك فى قوله جل شأنه : « إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون ، وما يكذبك بعد بالدين أليس الله بأحكم الحاكمين » وذكر فى هذه السورة شيئاً من هذه الأحوال ، وذلك فى قوله : « كلا لئن لم ينته لنسفعاً بالناصية ناصية كاذبة خاطئة ؛ فليدع ناديه ، سندع الزبانيه ، كلا لاتطعه ، واسجد واقترب » ، وفى هذا من البَسْط ماليس فى السورة السابقة ، على ماهو ظاهر .

وقد ذكر قوم منهم البخارى فى صحيحه أن قوله تعالى : « أرأيت الذى ينهى عبداً إذا صلى — الآيات » نزل فى أبى جَهْل لعنه الله ، قال البخارى رحمه الله تعالى : عن ابن عباس قال : قال أبو جهل : لئن رأيت محمداً يصلى عند الكعبة لأطأن على عنقه ، فبلغ النبى صلى الله عليه وسلم فقال : لئن فعل لأخذته الملائكة ؛ وروى ابن جرير عن ابن عباس ، قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى عند المقام ، فمرّ به أبو جهل بن هشام ، فقال : يامحمد ، ألم أنهك عن هذا ؟ وتوعّده ، فأغلظ له رسول الله صلى الله عليه وسلم وانْتَهَرَهُ ، فقال : يامحمد ، بأى شىء تهددنى ؟ أما والله إنى لأكثر هذا الوادى نادياً ؛ فى هذا يقول تبارك وتعالى : « فليدع ناديه سندع الزبانية »

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

اقرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ [١] خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ [٢]

قوله تعالى : (اقرأ باسم ربك الذى خلق) قال الإمام : إن المتبادر من معنى هذه الآية كن قارئا باسم ربك ، من قبيل الأمر التكوينى ، فإن النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن قارئاً ولا كاتباً ، ولذلك كرر القول مراراً «ما أنا بقارىء» وبعد ذلك جاء الأمر الإلهى بأن يكون قارئاً و إن لم يكن كاتباً ؛ فانه سينزل عليه كتاب يقرؤه و إن كان لايكتبه ، ولذلك وصف الرب بالذى خلق ، اه .
والمراد من هذا الكلام أنه سبحانه وتعالى يقول لرسوله : صِرْ قارئاً بعد أن لم تكن كذلك ، فان ظننت أنك لا تكون كذلك لأنك نشأتَ أميا لاتقرأ ولا تكتب وأن هذا الحال يستحيل معه عليك أن تتحوّل فتكون قارئاً ؛ فاعلم أن الله أبدع هذه الكائنات وخلقها لا على مثال سابق ، وأن الذى خلق الإنسان من علقة لا حسّ فيها ولا حركة فَصَيَّرَه جسماً عظيما كثير الحركة وأودع فيه من الأسرار والعجائب هو نفسه الذى يصيرك قادراً على القراءة ويهبك العلم بما لم تكن تعلم أنت ولا قومك و ينزل عليك القرآن لتقرأه على الناس على مكث . وعلى هذا يكون المراد بقوله جل شأنه « باسم ربك » بقدرته و إرادته ، والتعبير بالاسم عن ذلك لأنه دال على ما تعرف به الذات . وقد حذف من هذه الآية مفعول « خلق » فإما أن يكون لتنزيل الفعل منزلة اللازم فلا تقدر له مفعولا ، وكأن المراد الذى حَصَل منه الخلقُ وانفرد به فلا خالق لشىء من الأشياء سواه ؛ و إما أن يقدر له مفعول ، وحينئذ يجب تقديره عاما ، والمعنى عليه الذى خلق كلَّ شىء وذلك نحو قولنا : « الله أكبر » معناه أنه سبحانه أكبر من كل شىء

وقوله سبحانه : (خَلَقَ الإنسانَ من عَلَقٍ) إنما خصَّص سبحانه الانسان

اُقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ [٣] الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ [٤]

بالذِّكرِ بعد أن ذكره فى ضمن جميع المخلوقات لأن الإنسان أشرف المخلوقات، ولهذا جعله الله تعالى مهيمناً على المخلوقات كلها، وآتاه القدرة على التسلُّط على كل شىء، أو لأنه المقصود بانزال القرآن الذى أمر النبى بقراءته فى صدر السورة، والْعَلَق: الدمُ الجامدُ، وهذا إشارة إلى حال الجنين فى أيامه الأولى؛ وكأن مراده تعالى من ذكر هذه الحاله ما قدمنا الإشارةَ إليه من بيان قدرته تعالى ونَفَاذِ إرادته، وكأنه يقول: إن من كان قادراً على أنه يخلق من الدم الجامد إنساناً حياً ناطقا، ويجعله يسود بعلمه على سائر المخلوقات الأرضية ويسخرها كلها لخدمته؛ قادر ألبتة على أن يجعل من الإنسان الكامل مثل النبى صلى الله عليه وسلم قارئاً وإن لم يسبق له تعلم القراءة

وقوله سبحانه: (اقرأ وربك الأكرم) إنما كرر الأمر بالقراءة لأن القراءة من الملكات التى لا تكسبها النفس إلا بالتكرار والتعوُّد، على هذا جرت عادة الناس، فأشار سبحانه بهذا إلى أن تكرار الأمر الإلٰهى ينوب مناب تكرار المقروء، وبذلك تصبح القراءة ملكة للنبي صلى الله عليه وسلم، وتدبر إن شئت فى قوله تعالى: « إن علينا جمعه وقرآنه، فاذا قرأناه فاتبع قرآنه » وتدبر فى قوله جل ذكره: « سنقرئك فلا تنسى» وجملة « وربك الأكرم » استئنافية يقصد بها بيان أن الله أكرم من كل من يرتجى منه الإعطاء؛ فليس من الصعب عليه أن يفيض عليك هذه النعمة التى هى نعمة القراءة، وذلك لأن بحار كرمه لاتنفد

وقوله سبحانه: (الذى علم بالقلم) معناه الذى أفهم الناس بواسطة القلم، وجعل القلم أداة للتفاهم بين الناس على بعد الشقة، وهذا بيان لمظهر من مظاهر قدرته سبحانه وتعالى الغرض منه أن يزيد النبي صلى الله عليه وسلم طمأنينة على

عَلَّمَ الْإِنْسَٰنَ مَالَمْ يَعْلَمْ [٥] كَلَّآ إِنَّ الْإِنْسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ [٦] أَنْ رَّءَاهُ اسْتَغْنَىٰٓ [٧]

أنه سيصير بقدرة مَنْ هذه مظاهِرُ قدرته قارئاً . واعلم أنه سبحانه قد وصف نفسه أولا بأنه خالق الإنسان من علق ، ثم وصف نفسه ثانياً بأنه علم بالقلم ، ووجه المناسبة بين هذين الوصفين أن الأول إشارة إلى أول أحوال الإنسان وذلك كونه علقة من أخس الأشياء وأحقرها ؛ والثانى إشارة إلى حال كمال الإنسان وتمام ترقيه فى إنسانيته ، وذلك بصيرورته عالما بحقائق الأشياء ، فكأنه سبحانه يقول : تدبر أيها الإنسان فى نفسك تدرك أنك قد انتقلت من أدنأ المراتب وأخسها إلى أعلى الدرجات وأرفعها ، ولو أنك أمعنت فى ذلك نظرك لعلمت أنه لا بد لك من مُدَبِّر قادر قد استطاع بقدرته أن ينقلك من هذه الحالة الخسيسة إلى تلك المرتبة الرفيعة فى الإنسانية الكاملة ، وفى هذا كما ترى إشارة لطيفة إلى الدلالة العقلية الدالة على كمال قدرة الخالق وحكمته وعلمه ورحمته

وقوله سبحانه : (علم الإنسان مالم يعلم) معناه علَّمه من الأمور الكلية والجزئية الجلية والخفية مالم يخطر له ببال ولا جرى له على خاطر ، وتأمل فى حذف المفعول من قوله سبحانه « علم بالقلم » ومن ذكره مبهماً و بعنوان عدم المعلومية فى قوله « علم الإنسان مالم يعلم » تدرك ما فى ذلك من الإشعار بأنه جل شأنه سيعلمه صلى الله عليه وسلم من العلوم مالا تحيط به العقول ولا تدركه الأفكار

وقوله سبحانه :(كلا إن الإنسان لَيَطْغَى أنْ رآه استغنى)اختلف المفسرون فى « كلا » التى صدرت بها هذه الآيات ؛ فقال جماعة : هى حرف ردع وزجر، والمراد ردع من كفر بنعمة الله عن طغيانه ، وقال آخرون : هى حرف بمعنى حقًّا

وذلك لأنه لم يتقدمها شيء تكون رَدْعاً عنه ، وقد ذهب قوم من المفسرين إلى أن المراد بالإنسان فى هذه الآية واحد بعينه من أفراد هذا النوع ، وهو أبو جهل ، وذهب آخرون إلى أن « ال » ههنا ليست للعهد ، وإنما هى ال الجنسية ، فالمراد جملة الإنسان ، وإنما حَمَلَ أهل الرأى الأول على ماذهبوا إليه أن نزول الآية كان فى شأن أبى جهل على ماذكرناه آنفاً ، وقد علمت أن سبب النزول لايخصِّصُ الآية ؛ فهى وإن كانت قد نزلت فى واحد معين عامةُ الحكم لايختص المراد منها بواحد دون واحد ، ويطغى : مضارع من الطغيان ، وهو التكبر والتمرد ، واستغنى : صار ذا مال وأعوانٍ يغنى بهما . واعلم أنه سبحانه لما ذكر فى مطلع هذه السورة دلائل التوحيد الظاهرة ومظاهر القدرة الباهرة وعلامات الحكمة ودقة صنعه ، وكان ذلك كله بحيث يبعد من العاقل ألا يلتفت إليه ولا يقف على كنهه وحقيقته أتبعه جل شأنه ببيان ماهو السبب الحقيقى فى طغيان الإنسان وتكبره وتماديه فى ذلك ، فبين أن منشأ ذلك على وجه الحقيقة هو حب الدنيا والاشتغال بها وجعلها أكبر همه والحرص الشديد على تحصيل الجاه والثروة والتمكن فى الأرض ، فمن ذلك كله يعمى قلب الإنسان فيغفل عن خالقه وما وجب له فى عنقه ، وفى هذا إشارة إلى أنه ينبغى للعاقل أن يعلم أنه عند الغنى والميسرة وكثرة الأعوان واتساع الجاه يكون أشد حاجة إلى الله تعالى منه فى حال الفقر والمسكنة ، وذلك لأنه فى حال فقره لايتمنى إلا سلامة نفسه وأعضائه ، فأما فى حال الغنى فانه يتمنى سلامة نفسه وأعضائه وماله ومماليكه وأتباعه

وتأمل فى صدر هذه السورة تدرك أن الله تعالى قد امتدح العلم وامْتَنَّ على الإنسان بأنه هو الذى علمه ، ثم تأمل فى هذه الآية تجد أن الله جلت قدرته قد أومأ إلى ذم المال وجعله سبباً لطغيان الإنسان وعتوه وتمرده على خالقه ، فاذا عرفت ذلك أدركت البون الشاسع فى المنزلة بين العلم والمال .

إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى [٨] أَرَءَيْتَ الَّذِى يَنْهَى [٩] عَبْدًا إِذَا صَلَّى [١٠]

وقوله سبحانه : (إن إلى ربك الرجعى) الرُّجْعَى : مثل المَرْجع والرُّجوع ثلاثتها مصادر لرَجَعَ ؛ ومعناها المصير والعودة والأوبة . وهذا الكلام التفات ، والمراد به خطاب الإنسان الذى سبق الحديث عنه ، وفيه من معانى التهديد وتحذير عاقبة الطغيان ماليس يخفى . والمراد أن هذا الطاغية المتمرد سيرجع إلى ربه فيشاهد بعينيه ماأعده الله له من أليم العقاب على تمرده وتكبره وطغيانه ؛ فلا يظننَّ أننا نتركه ونغفل عنه ، ومثل هذا فى المعنى قوله تعالى: «ولا تحسبنَّ الله غافلا عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخَصُ فيه الأبصار مُهْطِعين مقنعى رءوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هَوَاء » ، ويقال : المراد بقوله تعالى « إن إلى ربك الرجعى » أنه سبحانه سيرد هذا الطاغى ويرجعه إلى النقصان والفقر ليذوق وَبالَ أمره ويرى كيف ينقلب عزه ذلا وغناه فقرا واستغناؤه حاجةً وضعفا ، ومن كان بعُرْضة ذلك لم يجز له أن يتكبر ويأخذه الصَّلَف والاغترار .

وقوله سبحانه : (أرأيت الذى ينهى عبدا إذا صلى) هو خطاب مع النبى صلى الله عليه وسلم ، والمراد من الاستفهام التعجب ، ووجهه أن هذا الأحمق الذى يأمر وينهى وهو يعتقد أنه يجب على غيره طاعته مع أنه ليس بخالق ولا رازق ولا ذى يد ، كيف يستسيغ ذلك لنفسه ثم هو يُعْرِض عن طاعة ربه والائتمار بأوامره وتجنب نواهيه مع أنه الرازق له الذى لا يرزقه سواه ، والتنكير فى « عبدا » يدل على كمال العبودية ، حتى كأنه عبد لاتفى العبارة بشرح حاله وصفة إخلاصه وهذه الآية قد نزلت فى شأن أبى جهل على ما سبق ، وهى مع ذلك تحمل التخويف والتهديد لكل من نهى عن الصلاة ، وقد روى أن عليا رضى الله عنه رأى قوما يصلُّون قبل صلاة العيد، فقال : ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل

أَرَءَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى [١١] أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى [١٢] أَرَءَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى [١٣] أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللهَ يَرَى [١٤]

ذلك ، فقيل له : ألا تنهاهم ، فقال : أخشى أن أدخل تحت قوله تعالى : « أرأيت الذى ينهى عبداً إذا صلى »

وقوله سبحانه : (أرأيت إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى) خطاب مع النبي صلى الله عليه وسلم أيضا (١) ، وكأنه سبحانه يقول لنبيه : أرأيت إن صار هذا الكافر إلى الهداية فاهتدى واشتغل بأمر نفسه فان هذا هو اللائق بحاله ، لأن من كان له عقل ورأى ، وكان مع ذلك ذا ثروة وجاه وأعوان ، لو أنه اختار الهدى وتخلق بأخلاق المصلحين ، ودعا إلى البر وتقوى الله لكان ذلك خيرا له من الكفر بالله والنهى عن خدمته وطاعته ، فان هذا يفوّت عليه أعلى المراتب ويجعله فى أحطها وأدناها . والمراد بالهدى اهتداؤه فى نفسه وبالأمر بالتقوى دعاؤه غيره إلى جميع خصال البر والخير ، وقد كانت أحوال النبى صلى الله عليه وسلم لا تخرج عن أحد هذين ؛ فهو إما فى إصلاح نفسه بالصلاة ونحوها من العبادات وإما فى إصلاح غيره بأمره بالتقوى ودعائه إلى الله

وقوله سبحانه : (أرأيت إن كذب وتولّى ألم يعلم بأن الله يرى) هو خطاب مع النبى صلى الله عليه وسلم أيضا فى شأن ذلك الكافر ، والمعنى أرأيت إن كذب هذا الكافر بدلائل التوحيد الظاهرة وأمارات القدرة الغالبة وتمكن منه هذا التكذيب حتى أعرض عن دعوتك والاستماع إليك ودعا الناس إلى مثل ذلك

---

(١) ويقال : الخطاب للكافر ، وكأن الله تعالى خاطب النبى أولا ثم خاطب الكافر كما يخاطب الحاكم واحدا من طرفى الدعوى ثم يتوجه إلى الآخر فيخاطبه ، وإجراء النظم الكريم على منهج واحد أولى

كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ [١٥] نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ [١٦]

أفلا أرشده عقله إلى أن خالق هذا الكون القادر العالم الحكيم مطلع على عمله مراقب له فيمنعه علمُ ذلك عن عمله ويزجره خوفُ ربه عن طغيانه وتمرده . وكأنه سبحانه يقول : إن الله عالم بكل ما يحدث من هؤلاء وإنه حكيم لا يهمل عقابهم ، ولا يتركه ، وعالم لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، فلا بد من أن يعاقب هؤلاء على ما يقترفون ، ففى هذه الآية من التخويف للعصاة والمذنبين ما ليس يخفى

وقوله سبحانه : (كلا لئن لم ينته لنسفعا بالناصية ناصية كاذبة خاطئة) هو رَدْعٌ لمن يفعل أفعال هذا الكافر عن فعله ومنع له منها ، والناصية : هو شعر الجبهة ، أو هى الجبهة نفسها ، والسَّفع : الجذْبُ بشدة ، وقوله تعالى « لنسفعا بالناصية » مثل ، والمراد قهره وإذلاله وتعذيبه بأشد أنواع العذاب والتنكيل به ، ويحتمل أن يكون المراد منه إذلاله فى الدنيا والتنكيل به فى هذه العاجلة كما يحتمل أن يكون المراد به إهانته يوم العرض على الله وذلك يوم القيامة ، ولا يبعد أن يكون المراد أنه جل شأنه يفعل به ذلك فى الدنيا والآخرة جميعا ، وقوله تعالى : « ناصية كاذبة خاطئة » هو بدل من الناصية ، وجاز إبدال النكرة من المعرفة لأن النكرة قد وصفت فاستقلت بالفائدة ، وقرىء بالرفع ، على تقدير هى ناصية كاذبة خاطئة ، وقرىء بالنصب على تقدير أعنى ناصية كاذبة خاطئة ، والمراد على وجهى الرفع والنصب الذمُ والشتمُ ، وتأمل فى وصف الناصية بهذين الوصفين الكذب والخطأ تدرك المغزى المقصود بهما من زيادة التشنيع ، فكانه سبحانه يقول : هى ناصية كاذبة لغرورها بقوتها وظنها أنها تمتنع من القاهر فوق خلقه الذى لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء وهذا مزعم لا حقيقة له ، وهى

فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ [١٧] سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ [١٨]

ناصية خاطئة لأنها طغت عن حدها وعَتَتْ عن أمر ربها وأساءت إلى الأبرار الصالحين من قومها ، وإنما نسب الكذب والخطأ إلى الناصية مع أن الكاذب هو صاحبها والمخطىء هو صاحبها لأن الناصية مظهر الغرور والكبرياء ، ألا ترى المتكبر يميل رأسه ويصعر خده

وقوله سبحانه : (فليدع ناديه سندع الزبانيه) أصل النادى المكان الذى يجتمع فيه ، ولا يسمَّى المكان ناديا حتى يكون فيه أهله ، وإنما سمى ناديا لأن القوم يَنْدُون إليه ، ومنه دار النَّدْوة ، وهى دار كان أهل مكة يجتمعون فيها للتشاور فى كل ماينزل بهم ، ويقال : إنما سمى ناديا لأنه مكان النَّدَى والجود ، والمراد فى الآية الكريمة فليدع أهل ناديه ، وذلك مثل قوله تعالى : « وأسأل القرية التى كنا فيها » أى : أسأل أهل القرية ، فهو مجاز مرسل من باب إطلاق اسم المحل وإرادة الحال ، أو هو مجاز بالحذف ، والزبانية : جمع واحده زِبْنِيَة [١] وأصل اشتقاقه من الزَّبن وهو الدفع ، ويقال : الواحد زبانى ، ويقال : ليس له واحد من لفظه فى لغة العرب ، والمراد بالزبانية فى الآية الكريمة الملائكة الذين أقامهم الله على تعذيب العصاة من خلقه ، وإنما سموا زبانية لأنهم يزبنون الكفار فى النار : أى يدفعونهم إليها ويسوقونهم فيها . وقد روى أن أبا جهل قال للنبى صلى الله عليه وسلم حين أغلظ له القول : يامحمد ، بِمَنْ تهددنى ؟ وانى لأكثر هذا الوادى ناديا . والله تعالى يأمره بأن يدعو أهل الدفاع من قومه وذوى النجدة والبطش ، على سبيل التهكم والتوبيخ ، وكأنه يقول : ليفعل هذا العاتى الطاغية

(١) تقول : رجل زبنية ، مثل عفرية ، إذا كان متمرداً عاتيا شديدا ، وتقول : رجل زبنية عفرية ، أيضا

كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ [١٩]

ماذكره لك وليدع أنصاره وأعوانه ليستمين بهم عليك فانه إن فعل ذلك فإنا سندعو له من لاقبل له ولا لقومه بهم ، وقرى « سَتُدْعَى الزبانية »

وقوله جل شأنه : (كلا لاتطعه واسجد واقترب) كَلَّا : رَدْعٌ للكافرعن التصلف والكبرياء ، ويقال : المراد به نفى قدرته على ماتهدد به ، وكأنه قال : لن يَصل إلى زعمه من أنه يدعو ناديه ، ولئن دعاهم لاينفعوه ولن ينصروه ، إنه لأذلُّ وأحقر من أن يقاومك . وقوله « لاتطعه » مثل قوله سبحانه « فلا تطع المكذبين » وقوله « واسجد » المراد به توفَّرْ على عبادة ربك فعلاً وإبلاغاً للناس ، وقوله « واقترب » المراد منه ابتغ بعبادتك التقرب إلى الله . ويقال : كلا ههنا ردع للنبي صلى الله عليه وسلم عن الاستماع له ، كما قيل : إن[١] « واسجد » أمر للنبي بالمداومة على العبادة ، و « اقترب » أمر للكافر بأن يقرب من النبي ليرى بعينه أنه لا يقدر على ذلك ولا يُمَكَّن منه . والله سبحانه أعلى وأعلم

(١) وكأنه تعالى قد أمر نبيه بالسجود ليزداد غيظ الكفار الذين كانوا يتألمون لعبادته ويحاولون منعه منها ، وأمر الكافر بالاقتراب منه تنفيذا لما توعده به تهديدا لهذا الكافر وتهكما به واحتقارا لشأنه . والله أعلم .

سورة القدر *

[وهى مكية ، وآياتها خمسُ آيات ، ونزلت بعد سورة عَبَسَ (١)]

(١) اختلف العلماء فى مكان نزول هذه السورة ، واختلفوا أيضا فى عدّ آيها ؛ فأما عن الأول فقال الماوردى هى مكية عند أكثر المفسرين ، وقال الثعلبى : هى مدنية ، وذكر الواقدى أنها أول سورة نزلت بالمدينة ، ويروى القول بنزولها فى مكة عن ابن عباس وابن الزبير وعائشة رضى الله عنهم ؛ وأما عن الثانى فأكثر أهل العلم من المفسرين يعُدها خمس آيات ، ومنهم من عدها ست آيات ، والأول أرجح وأصح .

اعلم أنه سبحانه وتعالى قد أشار إلى زمان نزول القرآن على رسوله صلى الله عليه وسلم فى أربع آيات من كتابه العزيز : الأولى فى سورة القدر التى نحن الآن بصدد تفسيرها ، وذلك قوله جل شأنه : «إنا أنزلناه فى ليلة القدر» والثانية فى مطلع سورة الدخان وذلك قوله جل ذكره : «حم ، والكتاب المبين ، إنا أنزلناه فى ليلة مباركة إنا كنا منذرين ، فيها يفرق كل أمر حكيم . أمراً من عندنا إنا كنا مرسلين ، رحمة من ربك إنه هو السميع العليم ، رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين . لا إله إلا هو يحيى ويميت ربكم ورُبّ آبائكم الأولين» والثالثة فى سورة البقرة وذلك قوله تعالت كلماته : «شهرُ رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدًى للناس وبينات من الهدى والفُرقان» والرابعة فى سورة الأنفال وذلك قوله تعالى : «واعلموا أنما غنمتم من شىء فأن لله خُمُسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ [١]

الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير » . وأنت إذا تدبرت هذه الآيات تبينت أن الله تعالى قد بين أن نزول القرآن كان فى ليلة من ليالى شهر رمضان وأنها كانت ليلة اليوم الذى يوافق اليوم الذى التقى فيه جمع المسلمين بجمع المشركين ففرق الله بينهما بالحق ودمغ الشرك وأهله . وبيان ذلك أن آية سورة القدر صريحة فى أن إنزال القرآن كان فى ليلة القدر ، وستعرف المراد من القدر بعد الانتهاء من هذا البحث ، وآية سورة الدخان تؤكد ما استفيد من هذه الآية وأن النزول كان فى ليلة مباركة ، وآية سورة البقرة تدل على أن نزول القرآن كان فى شهر رمضان ، فالمستفاد إلى الآن أن نزول هذا الكتاب كان فى ليلة مباركة من ليالى شهر رمضان وأن هذه الليلة تسمى ليلة القدر ، وأما آية سورة الأنفال فقد قال قوم من المفسرين إن المراد أن الله أنزل القرآن على رسوله صلى الله عليه وسلم فى ليلة اليوم المماثل ليوم التقاء الجمعين فى غزاة بدر التى فرق الله فيها بين الهدى والضلال ونصر حزبه على حزب الشيطان ، وقد ثبت أن ذلك كان فى ليلة الجمعة لسبع عشرة خلت من رمضان ، إذا علمت هذا فاعلم أن قوله تعالى (إنا أنزلناه فى ليلة القدر) المراد به إنا أنزلنا القرآن فى ليلة القدر ، فأضمر القرآن وإن لم يجر ذكره قبل ذلك شهادةً له بنباهة الشأن وذيوع الأمر واشتهاره حتى إنه ليستغنى عن التصريح به ، والمراد بإنزاله الابتداء فى إنزاله على رسوله ، وليس المراد إنزاله كله جملة ، فان القرآن الكريم لم ينزل جملةً واحدة وإنما نزل نجوما بحسب الأحوال التى تقتضيه ، وقد كان مبعث النبى صلى الله عليه وسلم فى رمضان ، وفيه نزل أول ما نزل من القرآن وهو فى غار حراء ؛ والْقَدْرُ : مصدر قولك : قدرت

وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ [٢] لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ [٣]

الشيء أقدره قدرا ، إذا اعترفت بما فيه من العظمة وماله من الشرف والمنزلة الرفيعة ، وقد قال الزهرى : ليلة القدر ليلة العظمة والشرف ، من قولهم : لفلان قدر عند فلان : أى منزلة وشرف ، وقد بين سبحانه سبب إنزال القرآن فى سورة الدخان بقوله « إنا أنزلناه فى ليلة مباركة إنا كنا منذرين » أى إنما أنزلنا عليك الذكر لأننا حين خلقنا الإنسان وجعلناه نوعا ممتازا يفارق جميع أنواع الموجودات وجعلناه بغريزته محتاجا إلى التعليم والإرشاد مستعدا لهما ، كتبنا على أنفسنا أن نتعهده بالإنذار وذلك بإرسال الرسل وإعطائهم مايبلغونه قومهم ؛ فهذا القرآن إنما نُزِّلَ عليك جَرْياً على مااقتضته حكمتنا وما أوجبناه على أنفسنا لتنذر الناس أن لهم مَعَاداً يرجعون فيه إلى ربهم الذى خلقهم وأنهم سيلاقون عنده جزاء أعمالهم وما انعقدت عليه قلوبهم ؛ وكذلك بين الله تعالى شرف هذه الليلة المباركة فى سورة الدخان بقوله : « فيها يفرق كل أمر حكيم » والمراد أنه يفصّل فيها كل حكيم من أحكام هذا الدين ، وهى أحكام حكيمة يقف بك كل حكم منها عند الحق ويباعد بينك و بين الباطل ، ويهجم بك كل حكم من هذه الأحكام على السعادة فى دنياك وآخرتك ، ويجنبك الشقاء إن عملت به ، وإنما جعلت هذه الليلة لفرق كل حكيم لأنها مبدأ نزول ذلك الفرقان الذى فيه تفصيل كل شىء وفيه الهدى والرحمة ، ثم إن كل مانزل بعد أول مرة يُساوى مانزل فيها ، لأن كل القرآن على سواء فى الهداية والرشاد

وقوله سبحانه : (وما أدراك ما ليلة القدر ، ليلة القدر خير من ألف شهر) فيه أكبر الدلالة على نباهة شأن هذه الليلة وعظمتها ، يعنى ولم تبلغ درايتك غاية فضلها ومنتهى علو قدرها ، وتأمل فى تكرار ذكرها ثلاث مرات ، وفى الإتيان

تَنَزَّلُ الْمَلَٰٓئِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ [٤]

بالاستفهام فى عبارة دالة على أن شرفها ليس مما يسهل أن يحيط به علم العلماء ، ثم تأمل بعد ذلك فى الإخبار عنها بأنها خير من ألف شهر ، تدرك بعد ذلك مقدار ما يشير إليه الله سبحانه وتعالى من عظمة هذه الليلة ونباهة شأنها وارتفاع قدرها ، وأية عظمة أعلى من عظمة ليلة يبتدىء فيها نزول النور والهداية إلى الناس بعد أن مضت عليهم الحِقَبُ المتتالية وهم فى ظلام الشرك وضلال الوثنية ؟ وأى شرف أرفع من شرف ليلة يسطع فيها بَذْرُ المعارف الإلٓهية على قاب رسولٍ جعله الله رحمة للعباد يبشرهم وينذرهم ويهديهم الصراط المستقيم من بعد أن اختبطوا فى دياجير الجهالة وحاق عليهم الغضب وفشت فيهم الضلالة ؟ وأية منزلة أكبر من منزلة ليلةٍ قدَّر الله فيها إخراج خلقه من لَيْل الأوهام وعبادة الأصنام إلى صبح الحق وتوحيد الواحد الديان ؟

واعلم أنه سبحانه وتعالى قد بين شرف هذه الليلة على كل ليالى الدهر بذكر ثلاث مزايا : المزية الأولى أنها خير من ألف شهر ، ويمكن أن يكون تحديد هذا العدد مقصودا ، ويمكن أن يكون المراد منه التكثير وأن أقلّ عددٍ تفضله هذه الليلة هو ألف شهر ، فالعدد حينئذ لا مفهوم له ، وهى ليلة خير من الدهر كله ، والمزية الثانية ذكرها سبحانه فى قوله : (تنزل الملائكة والروح فيها باذن ربهم من كل أمر) والمراد بالروح فى هذه الآية أمين الوحى وهو جبريل عليه السلام ، وذكره بخصوصه بعد ذكر الملائكة من باب ذكر الخاص بعد العام لمزيد الفضل واختصاصه بأمورٍ لا يشاركها فيا ماعداه ، وذلك ظاهر كل الظهور ، ويقال : المراد بالروح القرآن لقوله تعالى : « وكذلك أوحينا إليك رُوحًا من أمرنا » ويقال : المراد بالروح الكرام الحفظة من الملائكة . وقوله تعالى « باذن ربهم » معناه أن

سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ [٥]

الملائكة إنما تتنزل باذن ربهم لقوله تعالى : «وما نتنزل إلا بأمر ربك» ومعنى تنزلها تجليها للنفس الطاهرة التى هيأها الله تعالى لقبول تجليها ، ومعلوم أن الملائكة لاتتجلى لكل أحد فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، ويقال : المراد بتنزلها نزولها إلى الأرض لمشاهدة ما يكون عليه الناس . وقوله سبحانه «من كل أمر» معناه أن الله يرسل ملائكته والروح إلى رسله عند كل أمر يريد إبلاغه إلى عباده . و«من» على ذلك بمعنى الباء . والمزية الثالثة قد ذكرها سبحانه بقوله : (سلام هى حتى مطلع الفجر) وسلام : مصدر بمعنى السلامة ، وهو خبر مقدّمٌ ، و«هى» مبتدأ مؤخر ، وإنما قدم الخبر تعجيلا للمسرة ، وقد أخبر عن هذه الليلة بالمصدر إما مبالغة ، وإما على تأويل المصدر باسم الفاعل ، وإما على تقدير مضاف ، وذلك مثل قول الشاعر :

* فإنَّمَا هِيَ إقْبَالٌ وَإدْبَارٌ *

والمعنى أن هذه الليلة سالمة من كل أذى وشر لايشوبها كدر ، بل الله تعالى قد فرج فيها عن نبيه كل كربة وفتح له فيها أعظم سبل الهداية ، ومطلع الفجر : طلوعه ، والمعنى أنه يدوم ذلك السلام إلى أن يطلع الفجر . والله سبحانه وتعالى أعلى وأعلم .

سورة البينة *

[مدنية، وآياتها ثمان آيات، ونزلت بعد سورة الطَّلَاقِ (١)]

* وتسمى أيضاً سورة « المنفكين »، كما تسمى سورة « القيامة »، وكما تسمى سورة « البرية »، وكما تسمى سورة « لم يكن »

(١) اختلف العلماء فى مكان نزول هذه السورة، وفى عدد آياتها؛ فأما عن الأول فقد روى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت: نزلت سورة « لم يكن » بمكة؛ وروى عن ابن عباس وجماعة أنها نزلت بالمدينة، وهو اختيار الجمهور، وأما عن الثانى فقد قيل: إنها ثمان آيات، وقيل: إنها تسع آيات.

أرسل الله تعالى رسله إلى قومهم يبشرونهم وينذرونهم، وآمن مع كل رسول من الرسل جماعة من قومه وأصَرَّ آخرون على كفرهم، وقد انتقم الله تعالى لرسله ممن كذبوهم، وكان الرسول إذا انتقل إلى جوار ربه انتهت رسالته، فكان قومه لا يستمرون على دينه الذى جاءهم به، بل يغيرونه ويبدلونه، ويزيدون فيه، وينقصون منه، وربما هجروه إلى الوثنية، وكان ممن أرسل الله من الرسل موسى عليه السلام الذى بعثه الله إلى بنى إسرائيل، وعيسى ابن مريم عليه السلام، وقد بعث إلى بنى إسرائيل أيضا، وكان شأنهم مع أممهم كشأن إخوانهم الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين؛ ولما اختار الله تعالى إلى جواره موسى بن عمران بقى قوم ممن اتبعوه على دينه، ثم طال عليهم الأمد فحرفوا وغيروا وَبَدَّلوا: إما لسوء فهم منهم فيما أنزل الله على نبيهم، وإما لأنهم استحسنوا بعقولهم أنواعا من البدع والضلالات فجعلوها من الدين وليست منه فى شىء؛ فلما جاء عيسى عليه السلام، كان النزاع بين هؤلاء وبينه شديداً، حتى إذا اختاره الله إليه قوى النزاع بين اليهود ممن يزعمون أنهم على دين موسى، وبين النصارى الذين

آمنوا بعيسى ، وكان من نتائج هذا النزاع أن أدخل كل فريق فى دينه ما ليس منه لإفحام خصومهم والرغبة فى الظفر عليهم ، ثم توالت الأزمان وكلما جاء قوم من بعدهم زادوا على ما وضعه أسلافهم ، إلى أن خفيت معالم الحق ، وانطمست أنوار اليقين . وكان إلى جوار هؤلاء جميعا المشركون من العرب وغيرهم الذين عبدوا الأوثان واستنصروا بها فى حوائجهم ، وقَضَوْا على هذا زمانا طويلا حتى مَرَنَت نفوسهم عليه واستطابته وزعمته دين أبيهم إبراهيم ، وأصبح إخراجهم عنه من أشقّ الأمور وأصعبها على المصلحين . وكان الجدال يثور بين المشركين واليهود تارة ، وبين المشركين والنصارى تارة أخرى ، وكان اليهود يذكرون للمشركين أن الله تعالى سيبعث نبيًا من العرب من أهل مكة وينعتونه لهم ويتوعدونهم بأنه متى جاء نصروه وآزروه واستنصروا به عليهم حتى يبيدهم ؛ فلما بعث الله رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم قام المشركون فى وجهه وَأَلَّبُوا عليه وعاندوه وأصروا على عنادهم وآذوا كل من اتبعه ممن أنار الله بصيرته وشرح صدره لمعرفة الحق والاستضاءة بنور الإيمان الصحيح ، وقام اليهود ينازعونه أيضاً ويزعمون أن ماجاء به من الدين ليس شيئا جديدا وأنه كان معروفاً لهم على لسان نبيهم مسطوراً فى كتابهم الذى بين أيديهم ، وأنه لا يصح لهم أن يتركوا ما هم عليه من الحق ليتبعوا رجُلاً ماجاء بشىء أفضل منه ، فكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا بهذا النبى الأمىّ الذى يجدون ذكره ونعته ووصف دينه عندهم فى التوراة ، وكانوا يعرفونه بهذه السمات والعلامات والأوصاف كما يعرفون أبناءهم ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ، وقاموا فى وجهه ، واشتدت عداوتهم له ، وكانوا يداً عليه مع المشركين الذين كانوا يعادونهم ويتهدّدونهم بأنهم سيتبعون هذا النبى ويشدون أزره حتى يفنيهم .

فى شأن هؤلاء جميعاً نزلت هذه السورة المباركة ، وفى الرد على مزاعم هؤلاء

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ [١]

الجاحدين الذين عميت بصائرهم عن الحق فلم تُبصر لامع ضوئه أنزل الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم هذه الآيات من كتابه الكريم ، وفى إبطال حجة هؤلاء المعاندين الذين أدركوا الحق واضحاً لا تشوبه مرية ولا شك ولكنهم أغمضوا أعينهم عن النظر إليه وأغلقوا قلوبهم دون تفهمه والتبصر فيه ؛ أنزل الله تعالى هذه السورة فى شأن أولئك الأقوام ، وللرد عليهم وتسفيه عقولهم و بيان وجه الفساد فى حججهم نزلت هذه السورة المباركة .

قوله تعالى : (لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة) كفروا : معناه جحدوا نبوّتَكَ وأنكروا رسالتك بعد أن تبين لهم أنها حقٌّ لاشك فيه ، و إنما كان كفرهم عناداً أو حَسَداً أُشربته قلوبهم ؛ وقد بين الله تعالى أن هؤلاء الكفار كانوا فريقين : أحدهما أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، و إنما كان كفرهم بسبب إحداثهم فى دينهم ما ليس منه مما يكفر به قائله كتحريفهم آيات الله وقولهم عُزَيْرٌ ابن الله والمسيح ابن الله ؛ وثانيهما المشركون ككفار أهل مكة الذين عبدوا الأوثان وجعلوا مع الله آلهة سَمَّوْهَا بأسماء مالهم بها من علم ولا لآبائهم ؛ وقد قدَّم الله تعالى ذكر أهل الكتاب فى البيان لأن كفرهم أشنع وأقبح ؛ إذ كانوا يقرأون الكتب و يعرفون أوصاف النبى الأمى الذى يرسله الله ؛ فكانت قدرتهم على معرفة صدقه صلى الله عليه وسلم أتم ، وانظر إلى تعبيره سبحانه عنهم بأنهم «أهل الكتاب» دون أن يقول اليهود و النصارى تدرك ذلك المعنى تمام الإدراك ، ومعنى « منفكين » مفارقين لكفرهم تاركين

رَسُولٌ مِنَ اللهِ يَتلُوا صُحُفًا مُطَهَّرَةً [٢] فيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ [٣]

ما هم عليه من الغفلة عن الحق والوقوف عندما كان عليه آباؤهم وإن كان آباؤهم لايعقلون، والبينة: هى الحجة الظاهرة التى يتميز بها الحق من الباطل، وأصلها من البَيَان بمعنى الظهور لأن بها يظهر الحق حقاً والباطل باطلا، أو من البينونة بمعنى الانفصال لأن بهما يمتاز الحق عن الباطل فينفصلان بعد التباس و يتباينان بعد غموض حالهما، والمراد من البينة فى هذه الآية النبى صلى الله عليه وسلم بدليل تفسيرها فى الآية نفسها بذلك فى قوله تعالى: (رسول من الله) وإنما سمى الرسول بينة لأنه صلى الله عليه وسلم كان فى ذاته برهانا على صحة ما ادعاه من النبوة؛ أفلا ترى أنه كان فى نهاية الجد فى تقرير الرسالة مع كمال العقل ووفور مكارم الأخلاق ومع توالى معجزاته وكثرتها، وقال قوم: البينة ههنا هى القرآن لأن الله تعالى سماه بينة فى قوله: «أولم تأتهم بينة ما فى الصحف الأولى» وهذا الوجه ليس بشىء لأنه يستوجب أن يكون قوله تعالى فى هذه السورة «رسول من الله» على تقدير مضاف محذوف: أى قرآن رسول من الله، أوما أشبه ذلك، وهو بعيد، وتسمية القرآن بينة فى سورة لا يستلزم أن يكون هو المراد ههنا مع ظهور خلافه، ولا يمتنع أن يكون القرآن بينة والرسول بينة لأن كلاً منهما سبب فى ظهور الحق ووضوحه. وقوله تعالى (يتلو صحفاً مطهرة) من صفات الرسول، والصحف: جمع صحيفة، ومعنى «مطهرة» منزهة عن الزور والضلال والباطل والحشو وتدليس المدلسين، نظير قوله سبحانه: «لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه» ومعنى تلاوته هذه الصحف قراءته مافيها؛ فانه صلى الله عليه وسلم مع كونه أميا كان يقرأ الكتاب حفظا. وقوله تعالى: (فيها كتب قيمة) من أوصاف الصحف المطهرة. والمراد بالكتب إما ماصح من كتب الأنبياء السابقين

كموسى وعيسى وغيرهما ، ودليل ذلك قوله تعالى : « وإنه لفى زُبُرِ الأولين » وقوله سبحانه : « إن هذا لفى الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى » ، وإما أن يكون المراد بالكتب سور القرآن وآياته ، فان كل سورة من سوره الكريمة كتاب قويم ، و إما أن يكون المراد بالكتب الأحكام والشرائع التى تضمنها كلام الله تعالى ، ومعنى « قيمة » مستقيمة لاعوج فيها يتبين بها الحق من الباطل ، ومثله قوله تعالى : « الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا ، قيِّما لينذر بأساً شديداً من لدنه — الآيات » ويقال : المراد بقيمة أنها مستقلة بالدلالة و إقامة الحجة ، ومنه تسمية القائم بأمر القوم الناهض بما حمَّلوه من أعبائهم القَيِّم ؛

فإن قلت : إن « حتى » فى قوله تعالى : « لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة » ، تَدُلُّ على أن مجىء الرسول لهم غاية لاستمرارهم على الكفر ، فكان ينبغى إذاجاء أن يؤمنوا ، مع أن حالهم بعد مجىء الرسول كان فيه الكفر والعناد والمشاقة ، فكيف جعل الله مجىء الرسول غاية لكفرهم ؟ فالجواب عن ذلك أن تقول لك : إن حالهم بعد مجىء الرسول مخالف لحالهم الذى كانوا عليه من قبل ، وإن هذه الغاية صحيحة لاشبهة فيها ، أفلا ترى أنهم قبل مجىء الرسول كانوا كلهم أجمعون كفارا يتيهون فى عَماية الأهواء والجهالات فلما بعث الله رسوله إليهم آمن به قوم منهم فلم يبق حال الجمع بعد مجىء الرسول كما كان قبله ، وقد يقال : إنهم كانوا قبل بعثة النبى جازمين بما كانوا عليه ، واثقين من صحته ، غير مترددين فيه ، فلما بعث الله رسوله إليهم تغيرت حال جميعهم ؛ فمنهم من آمن بالرسول فاعتقد أن ما كان فيه من قبل ضلال وباطل ، ومنهم من لم يؤمن ولكنه أصبح مترددا فى صحة ماهو عليه أو واثق من عدم صحته ولكن يمنعه العناد والتكبر والاقتداء بالآباء من متابعة الرسول

وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ [٤]

فحال القوم جميعا قد تغيرت بمبعث النبى ؛ فكان جعل مبعثه غايةً لما كانوا عليه من الإصرار على الكفر صحيحا بغير ريب

وقوله سبحانه : (وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعدما جاءتهم البينة) كلام مستأنف يُقصد به تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم على تفرق القوم فى شأنه فمنهم من آمن به ومنهم من ظلم نفسه وأوبقها فاستمر على كفره، ثم منهم من وصفه بالكذب ، ومنهم من وصفه بالجنون ، ومنهم من وصفه بالسحر ، ومنهم من وصفه بغير ذلك ؛ وكأنه سبحانه يقول لنبيه : لاتحزن لحال هؤلاء معك ولا يكن فى صدرك حرج فان هذا شأنهم الذى درجوا عليه وألفوه من قبل ، ولا تظن أن تفرقهم شيعاً فى أمرك ناشىء عن قصور حجتك أو خفاء شأنك عليهم ، بل هذه طبيعة فيهم انحدرت إليهم من أسلافهم الذين بدلوا دين الله وافتروا على أنبيائهم وآمنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعض واختلفوا فى تأويل مابين أيديهم من آيات الله وتفرقوا فى المذاهب حتى صار أهل كل مذهب يبطل ماعند غيره بغيامنهم وعدوانا واستكبارا على الحق وهجوما على القول بالهوى والشهوة والعصبية ، مع أن الله أرسل إليهم الرسل وآتاهم البينة الواضحة والحجة الظاهرة ، فان يجحدوا بينتك فقد جحدوا بينة أنبيائهم من قبل ، وإن ينكروا نبوتك ورسالتك فقد أنكروا آيات الله بعدما استيقنتها أنفسهم . وإنما خص الله تعالى فى هذه الآية أهل الكتاب بالذكر مع أن الكلام كان من قبل فيهم وفى المشركين لأن حال غيرهم يفهم بالطريق الأولى ؛ فهو من باب الاكتفاء : أى إذا كان أهل الكتاب قد فعلوا ذلك مع وضوح الحجة لهم وانكشاف الحال بما فى أيديهم من الكتب فما ظنك بالمشركين وهم قوم أعرق فى الجهالة من هؤلاء وأسلس مقادة للهوى

وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ [٥]

والعصبية ، والاستثناء فى الآية الكريمة استثناء مفرغ ، والمستثنى منه عموم الأوقات ، والمعنى لم يتفرق الذين أوتوا الكتاب فى وقت من الأوقات إلا فى الوقت الكائن بعد مجىء البينة لهم

وقوله سبحانه : (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة و يؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة) الواو فى قوله « وما أمروا » للحال ؛ فهذه الجملة حالية ، والغرض منها إفادة أنهم بلغوا النهاية فى قبح الأفعال ووصلوا إلى منتهى مايمكن أن يصل إليه الضلال وفساد العقل ؛ إذ تفرقوا واختلفوا فى حال أنهم لم يؤمروا إلا بما هو صالح لهم فى دينهم ودنياهم ، وبما هو جالب لسعادتهم ، وفى هذا من التقريع والتوبيخ على فعلهم ماليس يخفى ، والإخلاص : هو أن يأتى العبد بالفعل خالصا لداعية واحدة ولا يكون لغيرها من الدواعى تأثير فى إتيانه بها ، والدين : هو إذعان النفس لإلهها مع غاية الخضوع له وامتثال أوامره واجتناب نواهيه ، والمراد بإخلاص الدين لله تنقيته من أدران الشرك به ، والحنفاء : جمع حنيف ، وهو فى الأصل المائل المنحرف ، ثم قيل لمن يتبع ملة إبراهيم الخليل حنيف ، وذلك لأن زمان إبراهيم عليه السلام كان زمان وثنية وعبادة أصنام فانحرف إبراهيم عن أهل زمانه ومال إلى توحيد الله و إخلاص العبادة له فسمى حنيفا لذلك ؛ واقرأ قوله تعالى : « ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين » وقوله عز وجلّ : « ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما » وقوله تباركت كلماته : « وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين » وإقامة الصلاة :

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ

الإتيانُ بها مع إحضار القلب هَيْبَةَ المعبود ليعتاد الخشوع له ، وإيتاء الزكاة : صَرْفُهَا في مصارفها التي عينها الله تعالى في كتابه الكريم ، وقوله سبحانه : « وذلك دين القيمة » معناه هذا الذي ذكر من إخلاص العبادة للخالق والميل عن طرق الشرك والضلال ، مع إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ؛ هو الدين الذي جاء في الكتب القيمة ، فالكلام على تقدير مضاف : أي دين الكتب القيمة ، ويجوز تقديره بدين الأمة القيمة : أي المستقيمة السائرة في الطريق الذي لا اعوجاج فيه ؛ والمعنى كيف يكفر بك هؤلاء ويعاندونك ويحاولون تثبيط الناس عن اتباعك في حين أنهم لم يؤمروا إلا بما قد عرفوا أنه الحق وأيقنوا أن في فعله صلاحَ حالهم واستقامة أمورهم ، وذلك بأن يخلصوا لله عقائدهم وأعمالهم ولا يقلدوا في ذلك آباءهم ولا كبراءهم الذين أضلوهم ، وبأن يخشعوا لله في صلواتهم ويتذكروا هيبته وَجَلالَه ، وبأن يَصِلوا عِبَادَ الله بما أعطاهم الله من فضله ، وكُلُّ هذا ليس غريبا عن هؤلاء الذين كفروا بك من أهل الكتاب لأنهم يجدونه مسطورا في الكتب التي لم يدخلها التحريف ولا التبديل ،

ثم إنه سبحانه وتعالى بعد أن ذكر ما عليه الكافرون من الشقاق والاختلاف ، وبين الداعية التي دعتهم إلى ذلك ، وأنهم لم يختلفوا في شأن النبي صلى الله عليه وسلم لقصور حجته على ما ادعاه ولا لكونه يدعوهم إلى ما فيه ضررهم ، لأن حجته واضحة في غاية الوضوح ودلائل نبوته ظاهرة في أعلى درجات الظهور ، ولأن ما يدعوهم إليه مما لا يرتاب أحدٌ في نفعه ، وإنما كان اختلافهم وافتراقهم لطبيعة فيهم استوجبت ذلك ؛ بعد أن بين سبحانه هذا كله أخذ في ذكر جزاء من أصرَّ على كفره وبقي ملازما لعناده فقال سبحانه : (إن الذين كفروا من أهل الكتاب

وَالْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ [٦]

والمشركين فى نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية) وقد ذكر سبحانه من أحوال عذابهم أمرين : الأول أنهم خالدون فى النار ، والثانى أنهم شر البرية ؛ أما نار جهنم فهى الدار التى أعدها الله تعالى لعذاب الكفار فى الآخرة ، وقد أسلفنا أنه يجب علينا أن نؤمن بها وأن نصدق بأن العذاب فيها أشد وأقوى من كل أنواع العذاب فى الدنيا ، وليس علينا أن نبحث فيا وراء ذلك مما لم يذكره الله تعال فى كتابه ولا جاء على لسان نبيه فيا ثبت مما يروى عنه ، ومعنى « خالدين فيها » أنهم لايخرجون منها أبدا ؛ وأما أنهم شر البرية فمعناه أنهم شر من كل صنف من أصناف الأشرار ؛ فهم شر من اللصوص لأنهم سرقوا من كتب الله أوصاف النبى صلى الله عليه وسلم وأخفوها عمن يطلبها إليهم ، وهم شر من قطاع الطريق لأنهم قطعوا طريق الحق ومنعوا الناس من السير فيه ، وهم شر من الجهال الأجلاف لأنهم علموا ومنعهم الكبر والصلف عن العمل بما علموا ؛ و إنما قدم سبحانه أهل الكتاب فى هذا الوعيد لأن جنايتهم فى حق النبى صلى الله عليه وسلم كانت أعظم ؛ إذ كانوا يقرون فى أنفسهم برسالته و يستفتحون بها على المشركين ، فلما جاءهم أنكروه مع العلم به فكانت جنايتهم أشد ؛ ولا يقال : إن المشركين كانوا ينكرون الله ، وكانوا مع ذلك ينكرون النبوة ، و ينكرون البعث والحشر ، فأما أهل الكتاب فكانوا مقرين بهذه الأشياء إلا نبوة النبى صلى الله عليه وسلم ، فكيف يسوّى بين الفريقين فى العذاب ؟ لأنا بينا أن جناية أهل الكتاب أشد من جناية كفار مكة وأمثالهم .

ولما ذكر سبحانه صفة عذاب الكفار عقب ذلك بذكر ما أعد من النعيم المؤمنين ليكون ذلك أشد غيظاً للكفار وأبعث لهم على الموازنة بين الحالين ،

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّـٰلِحَـٰتِ أُولَـٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ [٧] جَزَآؤُهُمْ
عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا
رَّضِىَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُ [٨]

فقال سبحانه: (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية، جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضى الله عنهم ورضوا عنه، ذلك لمن خشى ربه) وقد ذكر جل ثناؤه من صفات جزائهم الذى أعده لهم أربعة أشياء: الأول كونهم خير البرية، والثانى أنه يدخلهم جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار، والثالث أنه لا يخرجهم منها أبداً، والرابع أنه سبحانه قد رضى عنهم كما رضوا عنه، أما الأول ففى مقابل كون الكفار شر البرية، وأما الثانى ففى مقابل إدخال الكفار نار جهنم، وأما الثالث وهو دوامهم فى الجنة واستمرارهم فيها فاعلم أن الكفار أيضا مخلدون فى النار غير خارجين منها أبدا، ولكنه سبحانه ذكر ههنا مايدل على الدوام والتأبيد ولم يذكره فى حال الكفار مع كونه مراداً للإشارة إلى أن رحمته سبحانه تفوق غضبه، ومعنى «رضى الله عنهم» أنه رضى أعمالهم التى عملوها، أو رضى أن يمدحهم ويعظمهم، ومعنى «رضوا عنه» أنهم رضوا بما جازاهم به من النعيم والثواب. وقوله سبحانه «ذلك لمن خشى ربه» معناه أن هذا الفوز بالنعيم الدائم والثواب العظيم يحصل لكل من خشى الله وخاف منه، وفى هذا من التحذير من خشية غير الله والتنفير من إشراك غيره سبحانه فى الأعمال ماليس يخفى، كما أن فيه الترغيب فى تذكر الله تعالى والرهبة منه عند كل عمل من أعمال البر حتى يكون العمل مخلصًا له سبحانه من كل شائبة؛ نعوذ بالله تعالى من أن نشرك معه أحدا، ونسأله أن يطهر قلوبنا وينور بصائرنا وأبصارنا حتى لانخشى سواه ولا نرى فى كل أعمالنا غيره. آمين.

سورة الزلزلة *

[مدنية ، وآياتها ثمان آيات ، ونزلت بعد سورة النساء] (١)

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا [١]

---

* ويقال : سورة « إذا زلزلت »

(١) اختلفت العلماء فى مكان نزول هـذه السورة ، وفى عدد آيها ؛ فروى عن ابن عباس وقتادة أنها مدنية ، وروى عن ابن مسعود وعطاء وجابر أنها مكية ، وَعَدَّ قوم آيانها ثمان آيات ، وعدها آخرون تسع آيات

وجه المناسبة بين هذه السورة والتى قبلها أنه سبحانه وتعالى لما ذكر فى السورة السابقة جزاء الكفار وجزاء المؤمنين تطلعت النفوس إلى معرفة الوقت الذى يكون فيه ذلك ، فذكره سبحانه ههنا بعلاماته التى تحدث عند حدوثه

كان الكفار يسألون كثيرا عن يوم الحساب بقولهم « أَيَّانَ يومُ القيامة » وأشباهه ، فذكرلهم الله تعالى فى هذه السورة علاماته ، وكأنه يقول لهم : لاسبيل إلى تعيين اليوم الذى يكون فيه العرض على الله وعقابُ العصاة والمذنبين و إثابة الطائعين والمؤمنين ، وإن يكن لابد لكم من معرفة شىء عنه فانى أذكر لكم العلامات التى تقع عند مجىء هذا اليوم

قوله سبحانه : (إذا زلزلت الأرض زلزالها) صَدَّرَ الكلام باذا لما كان الشرط أمراً محقَّقَ الوقوع . والزُّلزال : الحركة الشديدة مع الاضطراب ، وهو بفتح الزاى اسم لذلك ، وبكسرها مصدر بمعنى التحرك والاضطراب ، وقد اختلف العلماء فى

وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا [٢] وَقَالَ الْإِنْسَٰنُ مَالَهَا [٣]

المراد من هذه الآية ؛ فقال قوم : المراد أن الله تعالى يحرك الأرض حركة شديدة، وذلك نظير قوله سبحانه : « إذا رُجَّت الأرض رَجًّا » وقال آخرون : المراد أن الأرض نفسها تتحرك وتضطرب ؛ لأن الحديث فى بقية السورة عن الأرض وعن حدوث أشياء منها ، ونظير ذلك قوله تعالى : « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدّعا من خشية الله » والخطب فى هذا الاختلاف سهل ؛ لأن الأرض لا تتحرك بنفسها ألبتة ؛ فمن نظر إلى موجد الحركة على وجه الحقيقة نسبها إلى الله تعالى ، ومن نظر إلى مظهر الحركة نسبها إلى الأرض ؛ والمراد من هذه العبارة برأسها بيان شدة الحال يومئذ وأنها تبلغ الغاية فى الشدة ، والمغزى بعث الكفار على أن يتدبروا فى الأمر وينظروا فيه نظر المعتبر . وكأنه سبحانه يقول لهم : إن الجماد ليضطربُ لهول القيامة فهل آن لكم أن تتيقظوا من غفلتكم وترجعوا عن عنادكم

وقوله سبحانه : (وأخرجت الأرض أثقالها) الأثقال : جمع ثِقْل ، وهو فى الأصل متاع البيت ، ومنه قوله سبحانه : « وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس » والمراد به ههنا ما فى جوف الأرض من الدفائن ، سواء فى ذلك الموتى والكنوز ، قال أبو عبيدة والأخفش : إذا كان الميت فى جوف الأرض فهو ثقل لها ، وإذا كان فوقها فهو ثقل عليها ، وإنما سمى الجن والأنس الثقلين لأن الأرض تثقل بهم إذا كانوا فى بطنها ، ويثقلون عليها إذا كانوا فوقها . ويقال : أثقالها أسرارها ، لأن فى يوم القيامة تكشف الأستار وتظهر الأسرار .

وقوله تعالى : (وقال الإنسان مالها) اختلف المفسرون فى المراد بالإنسان ؛ فقال قوم : المراد به الكافر خاصة ، فهو الذى يقول : ما للأرض قد اضطربت

يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا [٤] بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا [٥]

ودارت ، وهو الذى يقول : من بعثنا من مَرْقَدِنَا ، وأما المؤمنون فلا يقولون ذلك لأنهم عرفوه واستيقنته أنفسهم ، وإنما يقولون : هذا ماوعد الرحمن وصدق المرسلون ، ويقولون : الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن ، وقال قوم : المراد بالإنسان هذا النوع بلا فرق بين مؤمن وكافر ؛ وذلك لأن الحال يومئذ شديدة الوقع وفى هذا اليوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ، وليس المراد أنه يستفهم ويسأل ، بل المراد أنه يعجب من الأحوال التى تحدث مما لم تسمع بها أذن ولم ترها عين ولم تخطر على بال

وقوله تعالى : (يومئذ تُحَدِّثُ أخبارها) أى : تحدثُ الأرضُ الخلائقَ أخبارها ، فأخبارها : مفعول ثان لتحدث ، والمفعول الأول محذوف ، والمراد من تحديث الأرض أخبارَهَا أنها يومئذ تشهد لمن أطاع الله على ظهرها وتشهد على من عصى ربه ، ويروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الأرض لتخبر يوم القيامة بكل عمل عُمِلَ عليها » ثم تلا هذه الآية ، ويقال : هـذا مثل ضربه الله تعالى ، والمقصود أن كل إنسان فى هذا اليوم سيتبين جزاء عمله وماأعده الله له على ماقدم فى حياته الأولى ، وذلك نظير قولنا : إن هذه الدار لتحدثنا أنها كانت مسكونة .

وقال الإمام : وتحديث الأرض تمثيل كما قال الطبرى وجماعة غيره : أى إن حالها وما يقع فيها من الانقلاب ومالم يُعْهَدُ من الخراب يُعَلِّم السائل ويفهمه الخبر وأنَّ مايراه لم يكن لسبب من الأسباب التى وضعتها السنة الإلهية حال استقرار نظام الكون . اه

وقوله تعالى : (بأن ربك أوحى لها) الباء سببية تتعلق بتحدث ، والمراد أنها

يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ [٦]

إنما تحدث أخبارها بسبب إيحاء ربك لها ، وتقول : أوحيت له ، وأوحيت إليه ، ووَحَى له ، ووَحَى إليه ، كل ذلك بمعنى واحد ، وقال العجاج :

* أَوْحَى لَهَا الْقَرَارَ فَاسْتَقَرَّتِ *

وقال الإمام : أى مايكون للأرض يومئذ إنما هو بأمر إلهى خاص ؛ قال لها : كونى خرابا ، كما قال لها عند إيجادها : كونى أرضا ؛ فهذا أمر من الأوامر التكوينية التى هى « كن » والأوامر التكوينية عبارة عن تعلق القدرة الإلهية بما هو أثرها ، وكثيرا ماتكون الأوامر الإلهيّة التكوينية بأسباب ، كتكوين الإنسان والحيوان والنبات فان كل كائن منها إنما يتكون بتكوين الله وقوله « كن » ولكنه وضع لذلك أسبابا من التناسل والتوالد ، ولامانع من أن يكون خراب الأرض فى آخر عمرها بسبب من الأسباب التى تهدم بناءها وتجعلها هباء منثورا ، ومعنى اختصاصه هذه الحالة باسم الوحى لأنها تأتى على خلاف ماعهد من أول نشأة الأرض . اه

وقوله جل ذكره : (يومئذ يَصْدُرُ الناس أشتاتا ليروا أعمالهم) يوم : بدل من « إذا » فى أول السورة ، ويَصْدُرُ : فعل مضارع من الصدر ، والصَّدَر : ضد الورود ، فالوارد هو الآتى الماء ليشرب أو يستقى ، والصادر هو الراجع عنه ، وأشتاتا : أى متفرقين مُتَمايزين لا يكون الصالح فى طريق واحد مع المسىء ويُرَوا : فعل مضارع مبنى للمجهول ماضيه المبنى للمعلوم أراهُ ، والمراد لكى يريهم الله تعالى جزاء أعمالهم ، والمعنى فى اليوم الذى تتبدل فيه أحوال الأرض فتصير خرابا يَصْدُرُ الناسُ عن الأرض إلى عرصات القيامة أشتاتا متفرقين كل إنسان منهم مشغول بنفسه ليريهم الله تعالى جزاء أعمالهم التى عملوها فى حياتهم الأولى وهم على ظهر الأرض

فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ [٧] وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ [٨]

وقوله سبحانه : (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) الذرة : أصغر النمل ، وقال ابن عباس: إذا وضعت راحتك على الأرض ثم رفعتها فكل واحد مما لصق بيدك من التراب مثقالُ ذرة . والمراد أنه ليس من مؤمن ولا كافر عمل خيراً أو شراً إلا أراه الله ذلك ، فأما المؤمن فيغفر الله سيئاته ويثيبه بحسناته ، وأما الكافر فتُرَدُّ حسناته ويعذَّب بسيئاته . ولا شك أن المقصود بالعمل الذى يثيب الله عليه ما كانت النية فيه خالصة لوجهه وكان غير مقصود به سواه سبحانه ، ولهذا إذا كان العمل قليلا وكانت النية فيه خالصة حصل عليه الثواب العظيم ، ولو كان العمل كثيراً ولم تكن النية خالصة لله تعالى ضاع ولم يجنِ صاحبه من ورائه إلا الحسرة والندامة .

وقال الإمام : أى أن من يعمل من الخير أدنى عمل وأصغره فإنه يراه ويجد جزاءه ، لافرق فى ذلك بين المؤمن والكافر ، غاية الأمر أن حسنات الكفار الجاحدين لاتصل بهم إلى أن تخلصهم من عذاب الكفر ، فهم به خالدون فى الشقاء ، والآيات التى تنطق بحبوط أعمال الكفار وأنها لا تنفعهم معناها هو ماذكرنا : أى أن عملا من أعمالهم لاينجيهم من عذاب الكفر وإن خفف عنهم بعض العذاب الذى كان يرتقبهم على بقية السيئات الأخرى ، أما عذاب الكفر نفسه فلا يخفف عنهم منه شىء ، كيف لا والله جل شأنه يقول : « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ؛ فلا تظلم نفس شيئاً ، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين » فقوله « فلا تظلم نفس شيئاً » أصرح قول فى أن المؤمن والكافر فى ذلك سواء وأن كلا يوفى يوم القيامة جزاءه ، وقد ورد أن حاتما يخفف عنه لكرمه ، وأن أبا لهب يخفف عنه لسروره بولادة النبى صلى الله عليه وسلم . اه

وقال الامام فخر الدين الرازى : فى الآية إشكال ، وهو أن حسنات الكافر

مُحْبَطَةٌ بكفرة ، وسيئات المؤمن مَغْفُورة : إما ابتداء ، وإما بسبب اجتناب الكبائر ؛ فما معنى الجزاء بمثاقيل الذر من الخير والشر ؟ واعلم أن المفسرين أجابوا عنه من وجوه : أحدها : قال أحمد بن كعب القرظى : فمن يعمل مثقال ذرة من خير وهو كافر فإنه يرى ثواب ذلك فى الدنيا حتى يلقى الآخرة وليس فيها شىء ، وهذا مروىٌّ عن ابن عباس أيضا ، ويدل على صحة هذا التأويل ماروى أنه عليه الصلاة والسلام قال لأبى بكر : «ياأبا بكر ، مارأيت فى الدنيا مما تكره فبمثاقيل ذر الشر ، وَيَدَّخر الله لك مثاقيل الخير حتى تُوَفَّاها يوم القيامة » وثانيها : قال ابن عباس : ليس من مؤمن ولا كافر عمل خيراً أو شراً إلا أراه الله إياه ، فأما المؤمن فيغفر الله سيئاته ويثيبه بحسناته ، وأما الكافر فَتُرَدُّ حسناته ويعذب بسيئاته ، وثالثها : أن حسنات الكافر وإن كانت مُحْبَطَة بكفره ، ولكن الموازنة معتبرة ، فتقدر تلك الحسنات انحبطت من عقاب كفره ، وكذا القول فى الجانب الآخر ، فلا يكون ذلك قادحاً فى عموم الآية ؛ ورابعها : أن نخصص عموم قوله سبحانه « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره » ونقول : المراد فمن يعمل من السعداء مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل من الأشقياء مثقال ذرة شرا يره . اه

ونقول : إن مثل هذه المواضع مما لاينبغى أن يؤخذ فيها بالاحتمالات العقلية ولا بالأقيسة المنطقية ، لأنها أمور غَيْبِيةٌ لاسبيل إلى التظنن فيها ، وإنما شأن أهل العلم أن يرجعوا فيها إلى الله ورسوله ، فما ثبت عنهما آمنَّا به واعتقدناه ، وقد صحّ أن الله تعالى يُخَفِّفُ عن بعض الكفار عقابَ ذنوبهم التى اقترفوها فى حياتهم الدنيا سوى الكفر فإنه سبحانه لايغفر أن يشرك به ولا يخفف عقابه ، فأبو لهب يخفف عنه كما ورد ، وحاتم يخفف عنه كما ورد ، وأبو طالب يخفف عنه كما ورد ؛ وهذا التخفيف هو جزاءمالهم من أعمال الخير ، وهو ماقاله الإمام فيما أسمعناك من كلامه . وقد قرىء « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يُرَهْ ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يُرَهْ » مطابقةً لقوله تعالى « لِيُرَوْا أعمالهم » ؛ والله سبحانه وتعالى أعلى وأعلم .

سورة العاديات

[وهى مكية، وآياتها إحدى عشرة آية ، ونزلت بعد سورة العصر(١)]

(١) لاخلاف بين أحد من العلماء فى عدد آى هذه السورة ، وقد اختلفوا فى مكان نزولها ؛ فروى عن ابن مسعود وجابر والحسن وعكرمة وعطاء أنها مكية ، وقد روى عن أنس بن مالك وقتادة أنها مدنية ، وهو المشهور من قول ابن عباس قال ابن عباس : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خيلاً ، فاستمرت شهرا لايأتيه منها خبر ، فنزلت « والعاديات ضَبْحاً » وفى بعض الروايات عنه أيضا قال: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سَرِيّةً إلى العدوّ ، فأبطأ خبرها ، فشقّ ذلك عليه ، فأخبره الله خبرهم وما كان من أمرهم فقال : « والعاديات ضبحا » ، فذلك مايروى عن سبب النزول .

ووجه المناسبة بين هذه السورة والتى قبلها أنه سبحانه وصف فى السورة السابقة ماتكون عليه الأرض عند قيام الساعة وقد جاء فى ذلك الوصف قوله سبحانه : « وأخرجت الأرضُ أثقالها» وقد قلنا : إنه أعم من كنوز الأرض المخبوءة فى جوفها ومن الموتى الذين تضمهم قبورها ، وقد أتى سبحانه فى السورة التى نحن بصددها ببعض أهوال البعث وفى ضمن ذلك قوله جل ثناؤه : « أفلا يعلم إذا بُعْثِر مافى القبُور » ؛ وهذا مطابق لذاك ؛ وشىء آخر من المناسبة بينهما ، و ذلك أنه سبحانه لما ذكر فى السورة السابقة الجزاء على الخير والشر أتْبَعَه فى هذه السورة بتعنيت الذين يؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة ولا يستعدون للحياة الدائمة بفعل الخير وتعويد أنفسهم الإتيان به

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

وَالْعٰدِيٰتِ ضَبْحًا [١] فَالْمُورِيٰتِ قَدْحًا [٢] فَالْمُغِيرٰتِ صُبْحًا [٣] فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا [٤] فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا [٥]

قوله تعالى: (والعاديات ضبحا، فالموريات قَدْحاً، فالمُغِيرات صُبْحًا، فأثرن به نَقْعًا، فَوَسَطْنَ به جمعا) العاديات: جمع عادية، والعادية: اسم فاعل من العَدْو، وهو المشى بسُرْعَة، وأصل الياء فى العاديات واو، فلما وقعت متطرفة إثر كسرة قلبت ياء، مثل الغازيات من الغزو، ومثل الساميات من السُّمُوّ، والضَّبْح: نَوْعٌ من السير، وهو أيضا نوع من العدو، وهو أيضا اسم لِصَوْتٍ، فان جعلت الضبح اسما لنوع من السير أو اسما لنوع من العدو كان مصدراً مؤكدا لاسم الفاعل أو مبينا لنوعه، وإن جعلت الضبح اسما لصَوْتٍ كان المصدر فى تأويل المشتق، وكان حالا من الضمير المستتر فى اسم الفاعل: أى العاديات حال كونها تضبَح فى عَدْوها، والموريات: جمع مُورِيَة، ومُورية اسم فاعل من الإيراء، وفعله أَوْرَى، وتقول: أَوْرَى فلانٌ، إذا أخرج النارَ بزَنْدٍ ونحوه، والْقَدْحُ: ضرب شىء بشىء ليخرج من بينهما شرار النار، والمغيرات: جمع مُغيرة، وفعله أغار، وتقول: أغار فلانٌ يُغيرُ إغارَةً، إذا باغت عدوه لقتل أو أسر أونهب، وَأَثَرْنَ: هَيَّجْنَ، والنَّقْع: الغبار، وتقول: أَثَرْتُ الغبار أُثيره، إذا هيجته، والنون فى «أَثَرْنَ» ضمير العاديات، وَوَسَطْنَ: أى تَوَسَّطْنَ، وتقول: وَسَطْت الْقَوْمَ أَسِطُهم وَسْطاً، إذا صرت فى وسطهم، ويقرأ فَوَسَّطْن بالتشديد.

وقد اختلف العلماء فى المراد بالعاديات فى هذه السورة الكريمة؛ فذهب قوم منهم ابن عباس رضى الله عنهما إلى أن المراد به الخيلُ فى القتال، وَضَبْحُها إما عَدْوُها الشديد السريع، وإما صوتها إذا عَدَت، ويقال: إن الخيل

إذا كعمت نفسها لئلا تصهل تتنفس بقوة ، وإيراؤها استخراجها النار حين تضرب بسنابكها ، والقدح هو ضربها بحوافرها ، وقال الزجاج : إذا عدت الخيل وأصاب حوافرها الحجارة انقدح منها النيران . وإغارتها : هجومها على الأعداء ، وإسناد الإغارة إليها مع أن المغيرة فى الحقيقة هم الفرسان لأن الخيول هى عدة الإغارة . وانتصاب « صبحا » على الظرفية . وإثارتها النقع : تهييجها التراب ، وأصل النقع الأرض الحرة الطين يستنقع فيها الماء ، ثم استعمل فى الأرض مطلقا ، ثم استعمل فيما يثور منها من الغبار إذا اشتد الوطء ، وزعم قوم منهم أبو عبيدة أن النقع رفع الصوت ، وهو مخالف لجمهرة أهل اللغة ، وليس له كبير معنى فى الآية الكريمة . ومعنى « وسطن به جمعاً » أن هذه الخيل توسطت جموع الأعداء وهن متلبسات بالغبار الذى أثارته سنابكهن . وذهب قوم منهم أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه إلى أن المراد بالماديات فى هذه السورة الإبل . والأوصاف المذكورة فى الآيات الكريمة تؤيد القول الأول من أن المراد بها الخيل ؛ فقد نقل أهل اللغة أن أصل الضبح للثعلب ثم استعارته العرب للخيل ، وعن ابن عباس أنه قال : ليس شىء من الدواب يضبح إلا الكلب أو الفرس ، ومن ذهب إلى أن المراد الابل اضطر إلى التمحل حتى تتفق هذه الصفات مع ماذهب إليه ، فذكر أن ضبح الابل نفسها ، وأن معنى إيرائها أنها تسفى الحصا بمناسمها فيضرب بعضه بعضاً فتخرج عنه النار ، فهى سبب للايراء وليست هى الفاعلة له كما كان فى الخيل .

فان قلت : فكيف أقسم الله تعالى بالماديات ؟ وأى شرف لها حتى يجعلها سبحانه بالمنزلة التى يقسم بها من أجلها ؟ وسواء أكان المراد بها الخيل أم الإبل فهى بحاجة إلى بيان وجه شرفها ورفعة منزلتها ، حتى يصح أن تكون قسماً ويمينا .

فالجواب عن ذلك أنا إذا حملنا العاديات على الخيل كما استظهرناه كان شرفها مافيها من المنافع العظيمة العائدة إلى الدين والدنيا ، أفلا ترى أن للخيل فى عدْوِها من الخلال الحميدة والنتائج المرغوب فيها ما ليس يحْصُره العدّ ؛ فهى تصلح للطلب ، وتصلح للهرب ، وتصلح للكر على الأعداء ، وتصلح للفرار والنَّجاء بالنفس ؛ فاذا ظن الفارس أن النفع والفوز فى طلب عدوه والسعى إليه تمكن بها من درك هذه البغية ، وإذا ظن أن المصلحة فى الهرب والنَّجاء قدر الفرسُ على أشد العدْوِ ، وفى إقسام الله تعالى بالفرس بعنوان كونه عاديا متصفا بما ذكر من الصفات إشارة عظيمة إلى أنه يجب على الإنسان أن يقتنى الخيل لهذه المنافع لا للزينة ولا للخيلاء والتفاخر ، وتأمل فى قوله سبحانه : « والخيلَ والبغال والحمير لتركبوها وزينة » تجده سبحانه قد أدخل لام التعليل على الركوب دون الزينة ، ففى هذا إشارة إلى أن الغرض الذى من أجله يجمل اقتناء هذه الأشياء هو الركوب لا الزينة ، ثم تأمل فى ذكرها ههنا بعنوان أنها عاديات ضابحة وأنها تغير صبحا والناسُ نيام وأنها تثير الغبار بشدة سيرها وأنها تتوسَّط الأعداء غير مبالية ولا وجلة تدرك أن الركوب المحمود هو ما يكون على هذه الحال . وإذا حملنا العاديات على الإبل كما هو مروى عن ابن مسعود وعلى رضى الله عنهما كان شرفها عظيم أوصافها التى ذكرناها فى تفسير سورة الغاشية [1] وفوق ذلك فهى مركب ذلول ، وهى الوسيلة المعروفة حينئذ لأداء مناسك الحج وهو من أعظم القربات إلى الله تعالى ؛ فذكر الإبل حينئذ إشارة إلى منافعها وإلى ما تستعمل فيه من القربات ، وهذا شرف عظيم لها

فان قلت : فعلى أى شىء يُعطف قوله تعالى « فأثرن به نقعا » ؟ فالجواب أنه معطوف على اسم الفاعل فى قوله سبحانه « فالمغيرات صبحا » وذلك أنه يجوز أن

---

(١) انظر ص ١٧٠ من هذا الجزء

إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ [٦] وَإِنَّهُ عَلَى ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ [٧] وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ [٨]

يعطف الفعلُ على الاسم الذى يشبه الفعلَ كاسم الفاعل ، كما يجوز عكسُ ذلك وهو أن يعطف الاسم الذى يشبه الفعل على الفعل ، ونظير هذه الآية قوله سبحانه : « إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله » فقد عطف « أقرضوا » على اسم الفاعل وهو «المصدِّقين» ، ومثل الآيتين فى هذا الأمر إلا أن فيه عطف الاسم الذى يشبه الفعل على الفعل قولُ الشاعر :

فَأَلْفَيْتُهُ يَوْماً يُبِيرُ عَدُوَّهُ ... وَمُجْرٍ عَطَاءً يَسْتَحِقُّ المَعَابِرَا

فعطف « مجرٍ » وهو اسم فاعل على « يبير » . ومثله قول الآخر :

بَاتَ يُغَشِّيهَا بِعَضْبٍ بَاتِرٍ ... يَقْصِدُ فِى أَسْوُقِهَا وَجَائِرِ

فعطف « جائر » وهو اسم فاعل على « يقصد » وإنما ساغ ذلك حينئذ لأن الاسم الذى يشبه الفعل هو فى الحقيقة فى تقدير فعلٍ ، ألا ترى أن « المصدقين » فى تقدير الذين تصدقوا ، وإلى أن « المغيرات » فى تقدير اللائى أغرْنَ ، وهكذا

وقوله تعالى : (إن الإنسان لربه لكنود . وإنه على ذلك لشهيد ، وإنه لحب الخير لشديد) هو المُقْسَمُ عليه ، وقد اشتمل ذلك على ثلاثة أمور : أولها ما يدل عليه قوله سبحانه : « إن الإنسان لربه لكنود » وأصل الكنود الأرض التى لا تنبت شيئا ، ثم شُبِّه بها الإنسان الذى يمنع الحق والخير ويجحد ما عليه من واجبات ، تشبيها بتلك الأرض . والمراد به الكفور أو العاصى ، ويقال : الكنود من لغة كندة وهى عندهم العاصى . وقد ذكروا فى المراد من هذه الكلمة عباراتٍ يجمعها ما ذكرنا ؛ فمن ذلك ماروى أبو أمامة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: « الكنود الذى يمنع رِفْدَه ، ويأكل وَحْدَه ، ويضرب عبده » ومنه ما روى

عن الحسن : الكنود اللوّامُ لربه بعد المحن والمصائب وينسى النعم والراحات . والمعنى على أية حالٍ أن طبع الإنسان وسجيته يحملانه عل نكران الحق وجَحْده ويَدْعُوانه إلى الصَّلَف والكبرياء وعدم الإقرار بما لزمه من شكر خالقه وعبادته والخضوع له ؛ إلا الذين عصمهم الله تعالى من ذلك . والأمر الثانى ما يدل عليه قوله تعالى : « وإنه على ذلك لشهيد » وقد اختلف المفسرون فى الضمير المتصل فى قوله « إنه » على أى شىء يعود ؟ فذهب قوم إلى أنه عائد إلى الإنسان ، والمعنى عليه أن الإنسان على كنوده وجحده لَيَشْهَدُ : إما لكون كنوده وجحده أمراً ظاهراً لا يستطيع أن ينكره ؛ فهو إذا لجّ فى الطغيان وتمادى فى الإنكار والبهتان يستطيع أن يجحد بلسانه ولكنه إذا خلى ونفسه رجع إلى الحق وأذعن إلى أنه ما شكر ربه على نعمه ولا قام بما يستوجبه شكران النعم من تمجيد الخالق والخضوع إليه وأيضاً فأعماله نفسها جَحْدٌ لنعم الله عليه فهى شهادة منه على كنوده ، وإما لأنه سيشهد على نفسه بذلك الكنود فى الآخرة يوم تشهد عليه جوارحه بما اقترف من الذنوب والآثام ، وذهب قوم إلى أن الضمير فى « إنه » عائد إلى الرب ، والمعنى عليه إن ربه الذى خلقه وأنعم عليه وهو العالم بما يأتى وما يذر لشهيد عليه بأنه ما أدّى شكر النعمة ولا قام بما عليه من واجبات وما لزمه من حقوق ، ويكون ذلك بمثابة تهديد للانسان وزَجْر له عما يقترف من الذنوب والآثام ، وهذا وإن كان صحيح المعنى لايتفق مع اتساق الآى ونظامها ؛ ألا ترى أن الضمير فى قوله سبحانه « وإنه لحب الخير لشديد » راجع إلى الإنسان لامحالة ؛ فالنظام يقتضى أن تتحد مراجع الضمائر . قال الامام : أى وإن الإنسان لشهيد على كنوده وكفره لنعمة ربه ؛ لأنه يفخر بالقسوة على مَنْ دُونه ، وبقوة الحيلة على مَنْ فوقه ، وبكثرة مافى يده من المال مع الحذق فى توفيره ، وقلَّمَا يفتخر بالمرحمة وكثرة البذل والحذق فى اختيار المواضع للانفاق ، اللهم إلا أن يريد غشا

للسامع ، وفى ذلك كله شهادة على نفسه بالكنود ؛ لأن ما يفتخر به ليس من حق شكر النعمة ، بل من آيات كفرها اه . والأمر الثالث مايدل عليه قوله سبحانه : « وإنه لحب الخير لشديد » والخير فى هذه الآية المراد به المال ، ومثل ذلك قوله سبحانه : « كتب عليكم إن حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً » وقوله جل ثناؤه : « وإذا مسّه الخيرُ منوعا » وأصل الخير عام فى كل ماهو بصدد أن يجلب مصلحة ويدفع مضرة ، وهو هنا قد خُصَّ ببعض أفراده ، وهذا لأن الناس يعدون المال فيما بينهم خيراً . و « شديد » معناه بخيل مُمْسِكٌ . يقال : فلان شديد ، وفلان متشدد ، إذا كان ممسكا على مافى يده شديد الضن به والحرص عليه ، وقال طرفة ابن العبد :

أرَى المَوْتَ يَعْتَامُ الكِرَامَ وَيَصْطَفِى عَقِيلَةَ مَالِ الفَاحِشِ المُتَشَدِّدِ

والمعنى حينئذ إن الإنسان بسبب محبته المال وشغفه به وتعلقه بجمعه وادخاره بخيلٌ شديدٌ فى بخله ، حريصٌ متناهٍ فى حرصه ، مُمْسِكٌ مبالغ فى إمساكه . ويقال : الشديد (١) القوىُّ ، والمعنى حينئذ إن الانسان لكونه محبا للمال مؤثراً الدنيا بالطلب والتوجه إليها قوىٌّ مُطيق لاحتمال مايناله فى هذا السبيل من الآلام والمتاعب ؛ فى حين أنه ضعيف العزيمة واهن القوة فى عبادة الله وشكر نعمه عليه ؛ وقال الفراء : يجوز أن يكون المعنى وإنه لحب الخير لشديد الحب ، يعنى أنه يحب المال ويحب كونه محبا له ، إلا أنه اكتفى بالحب الأول عن الثانى ،

---

(١) قال الامام : وأطلق الحب وأراد به الكسب ، لأن كسب الشىء والسعى فى تحصيله إنما يكون كما ينبغى إذا كان منشؤه حبه ، فقوة الانسان واقتداره على تحصيل المال وتوفيره إنما جاءت له من شدة محبته له ؛ لهذا جعل الشدة وقوة الاحتمال لحب المال وهى فى الحقيقة لكسبه .

أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى الْقُبُورِ [٩] وَحُصِّلَ مَا فِى الصُّدُورِ [١٠]
إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ [١١]

كما قال « اشتدت به الريح فى يوم عاصف » أى : فى يوم عاصف الريح ، فاكتفى بالأولى عن الثانية . اه

وقوله سبحانه : (أفلا يعلم إذا بُعْثِر مافى القبور وحُصِّل مافى الصدور إن ربهم بهم يومئذ لخبير) بُعْثِر : بُعث وأُثير وأُخرج . وقرىء « بُحْثِر » بالحاء . وحُصِّل : أُظهر مُحصَّلا مجموعاً ، والمراد ببعثرة مافى القبور إخراج الموتى وكنوز الأرض ، والمراد بتحصيل مافى الصدور إظهار ما كانت تخفيه وإبراز ما كان مستورا فيها بحيث لايبقى لهاسبيل إلى إخفاء شىء منه .

فان قلت : لم قال سبحانه « مافى القبور » ولم يقل « مَنْ فى القبور » ثم قال بعد ذلك « إن ربهم بهم » ولم يقل « إن ربها بها » مع أن هذا هو الموافق فى ظاهر الأمر لما أتىَ به أولا ؟ فالجواب عن ذلك أنَّ مافى الأرض من الجمادات أكثر مما فيها من الانسان فأخرج الكلام على الأغلب الأكثر . وشىء آخر هو أن الموتى حين يبعثرون من قبورهم لايكونون أحياء فهم حينئذ كالجماد فساغ التعبير عنهم بما ، ثم يصيرون بعد أحياء فلذلك قال « إن ربهم بهم يومئذ لخبير »

فان قلت : فأين مفعول « يعلم » فى قوله سبحانه « أفلا يعلم إذا بعثِر مافى القبور ـ الآيات » قلت : المفعول محذوف ، وإنما حذف لتذهب فيه النفس كُلَّ مذهب ويجول الفكر فى استحضاره وتقديره وذلك لأنه لو ذكر لاكتفى بدلالة العبارة عليه فربما غفل السامع عنه . ويحتمل أن يكون المفعول هو قوله سبحانه « إن ربهم بهم يومئذ لخبير » فهذه الجملة هى مفعول يعلم عُلِّق عن العمل فيها لمكان اللام ، والمعنى أفلا يعلم هذا الانسان المنكر لنعم الله عليه الجاحد لفضله

وأياديه أنه سبحانه عليم بما تنطوى عليه نفسه وأنه مجازيه على جحده ونكرانه يوم يُحَصَّل مافى الصدور و يبعثر مافى القبور ؟

وقوله سبحانه : (إن ربهم بهم يومئذ لخبير) معناه أنه خبير بهم يومئذ فيجازيهم جزاء العالم الخبير الذى لايعزب عن علمه شىء وحينئذ ينال هذا الكنود الجاحد مايستحقه من العقاب على ماقدمت يداه . فكنى سبحانه عن مجازاتهم على ما كسبوا بالخبرة بهم والعلم المحيط لأعمالهم ،وذلك كثير فى العربية؛ فأنت تقول لشخص فى معرض التهديد : سأعرف لك عملك الذى تعمله ، مع أنك عارف به حين الكلام . وتدبر فى قوله تعالى : « سنكتب ماقالوا » مع أن كتابة أقوالهم حاصلة فعلا . والله سبحانه وتعالى أعلى وأعلم .

سورة القارعة

[وهى مكية ، وآياتها إحْدَى عَشْرةَ آيةً ، ونزلت بعد سورة قريش [1]]

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

الْقَارِعَةُ [١] مَا الْقَارِعَةُ [٢] وَمَآ أَدْرٰكَ مَا الْقَارِعَةُ [٣]

---

(١) اتفق العلماء على أن هذه السورة نزلت بمكة ، واختلفوا فى عدد آياتها ؛ فقال قوم : هى ثمانُ آيات ، وقال آخرون : هى عشر آيات ، وقال الجمهور : هى إحدى عشرة آية

وجه المناسبة بين هذه السورة والتى قبلها أظهر من أن يُدَلّ عليه ، أفلا ترى أن آخر السورة السابقة كان فى وصف يوم القيامة ، وهذه السورة بأسرها فى وصف ذلك اليوم وما يكون حال الناس فيه

قوله سبحانه (القارعة ما القارعة وما أدراك ما القارعة) القارعة فى الأصل اسم فاعل من القَرْع ، والقَرْع هو الضربُ بشدة ، ثم سميت الحادثة العظيمة من حوادث الدهر قارعة ، وعلى هذا جاء قوله سبحانه وتعالى : « ولا يَزَال الذين كفروا تُصيبهم بما صنعوا قارعة » أى حادثة عظيمة تقرعهم وتصُك أجسادهم فيتألمون لها ، ثم سميت القيامة قارعة لأن الأجرام العلوية والسفلية يصطك بعضها ببعض بسببها اصطكاكا شديدا ، أو لأنها تقرَع الناسَ بالهَول والفزع ، أو لأنها تقرع أعداء الله بالعذاب والخزى والنكال ، وتسمية القيامة قارعة مثل تسميتها صاخة وطامة وحاقة وغاشية . وقوله « ما القارعة » استفهام عن حقيقتها يقصد به تهويل أمرها وتفظيع حالها وتنبيه النفوس إلى ما يكون فيها من الأهوال التى تفزَع لها

يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ [٤] وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ

النفوس وتدهَش منها العقول ، حتى إنه ليصعب تصورها ويستحيل على العقل إدراك كنهها . والقارعة : مبتدأ ، وما : مبتدأ ثان ، والقارعة : خبر المبتدأ الثانى ، وجملة المبتدأ الثانى وخبره فى محل رفع خبر المبتدأ الأول ، وهذا أولى الأعاريب وأحسنها . وقوله سبحانه « وما أدراك ما القارعة » معناه أى شىء يعرفك بها ويعلمك حقيقتها ؛ أو أنت لا تعلم كنهها لأنها فى الشدة بحيث لا يبلغ إلى معرفتها وهم واهم ولا يُدْرِك حالها فهم فاهم ، وأنت مهما قدرتها وحَدَسْت شأنها فهو أعظم من تقديرك ، وكأنه سبحانه يقول : إن قوارع الدنيا كثيرة ، وإنها لمختلفة المناحى ، وإنها مع كثرتها واختلافها إذا نسبت إلى تلك القارعة تعود كلا شىء ، وذلك الإبهام يدل على أن تفصيل شأن القارعة مما لا سبيل إلى معرفته والعلم به إلا من طريقه سبحانه

ولما بَيَّنَ سبحانه أن معرفة كنهها وإدراك حقيقتها مما لا سبيل إليه أخذ فى بيانها بزمانها الذى تكون فيه لا على التعيين بل بما يحدث للناس فى ذلك الوقت فقال :(يوم يكون الناس كالفراش المبثوث وتكون الجبال كالعهن المنفوش) الفراش: هو الحيوان الذى يتهافت فى النار ، وسمى فراشا لأنه يتفرش، وينتشر، والمبثوث : المفرَّقُ ، تقول: بثثتُ الشىء ، إذا فرقته ، وقد شبه الله تعالى الناس وقت البعث فى هذه الآية بالفراش المبثوث لأن الفراش إذا ثار لم يتجه لجهة واحدة، بل كل فراشة منه تذهب إلى جهة غير الجهة التى تذهب منها الأخرى ، فدل هذا على أن الناس إذا بعثوا فزِعوا واختلفوا فى المقاصد والجهات ، وشبههم سبحانه فى آية أخرى بالجراد المنتشر فى كثرتهم وتتابعهم ، فلا يقال : إن الجراد كبار والفراش

صغار فكيف يشبه الشىء الواحد بما هو كبير وبما هو صغير؛ لأن التشبيه ليس فى الحجم وإنما هو فى الذى ذكرنا من اختلاف التوجه ومن الكثرة، ويقال: بل وجه التشبيه بالفراش أن الناس فى الآخرة همج رعاع غير عالمين، والفراش يضرب به المثل فى الجهالة لأنه يلقى نفسه فى النار فيحترق، ويقال: بل وجه التشبيه أنهم يومئذ أذلاء لا يؤبه بهم ولا يعنى بشأنهم، ومثل ذلك قوله تعالى: «كالأنعام بل هم أضل سبيلا» والعهن – بكسر العين المهملة وسكون الهاء – الصوف ذو الألوان، والمنفوش: الذى قددك بالمِدك حتى انتفش، والمراد أنه سبحانه يفرق أجزاءها ويزيل التأليف والتركيب عنها فيصير ذلك مشابها للصوف إذا صار منفوشا، وإنما ذكر سبحانه حال الجبال تنبيها على أن تأثير تلك القارعة فى الجبال شديد حتى إنها لتصير كالصوف الذى نُفش، فكيف يكون حال الإنسان عند حدوثها وهو هذا الجسم الضعيف السريع الانحلال؟ وقد كثر فى القرآن الكريم ذكر حال الجبال يوم القيامة، وذكرها سبحانه على وجوه مختلفة؛ فمنها أنه ذكر أن الجبال تصير قِطعاً، وذلك فى مثل قوله «ودكت الجبال دكا» ومنها أنه ذكر أنها تصير كثيبا مَهيلا وذلك فى قوله سبحانه «فكانت كثيبا مهيلا» ومنها أنه ذكر أنها تمر وتضطرب بعد سكون واستقرار وذلك فى نحو قوله تعالى: «وترى الجبال تحسَبها جامدة وهى تمر مَرَّ السحاب» ومنها أنه ذكر أنها تصير كالعهن المنفوش كما فى هذه الآية التى نحن بصددها، ومنها أنه ذكر أنها تصير سرابا كما فى قوله سبحانه: «وسُيِّرَت الجبال فكانت سرابا» كل ذلك للإيماء إلى أن الجسم العظيم الذى من طبعه الاستقرار والثبات تؤثر هذه القارعة عليه أشد تأثير حتى يتغير حاله أعظم تغيير، وفى هذا من التحذير للإنسان وتخويفه ما ليس يخفى، وكأنه سبحانه يقول للانسان: إذا كان هذا هو ما يصير إليه أعظم الأجسام صلابة وأشدها استقرارا وأقواها على احتمال الزعازع والصمود لها فكيف يكون حالك أيها المخلوق الضعيف الذى لا قوة لك ولا احتمال معك

فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ [٦] فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ [٧] وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ [٨] فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ [٩]

ثم إنه سبحانه وتعالى بعد أن ذكر هذا اليوم بصفاته وبما يكون فيه من أحوال الناس وبعض الخلائق عقَّبَ ذلك بذكر الجزاء الذى أعده هناك لأهل الخير وأهل الشر جميعا فقال : (فأما من ثقلت موازينه فهو فى عيشة راضية) وهذا إشارة إلى جزاء أهل الخير ، واعلم أن العلماء قد اختلفوا فى بيان وزن الأعمال فقال المتكلمون : إن نفس الحسنات والسيئات لايصح وزنهما خصوصا وقد تقضيا وانتهيا ، فالذى يوزن هو الصحف التى كتبت فيها الحسنات والسيئات ، ومنهم من قال: تمثل الحسنات بصورة حسنة وتمثل السيئات بصورة قبيحة ، ومن الناس من قال : إن ذكر الميزان وثقله كناية عن عظم المنزلة وسموّ القدر بسبب أعمال الخير التى عملها فى الدنيا ؛ ومنه يقال : ثقلَ ميزانك ، إذا كان لك قدر ومنزلة وقيمة ، وكأنك إذا وضعت فى كفة ميزان كان لها بك رجحان ، وإنما يكون المقدار والقيمة لأهل الأعمال الصالحة والفضائل الراجحة . وقوله سبحانه « فهو فى عيشة راضية » معناه أنه يصير فى حالٍ يرضاها وتُسَر نفسه بها ، والمعنى أن من كان من أهل الخير والبر وكانت أعماله التى قدمها فى حياته الأولى أعمالا صالحة فانه يصير فى الآخرة فى حالٍ تقر بها عينه وتطمئن إليها نفسه ويثلج بها صدره فيصبح راضيا مغتبطاً .

ثم لما ذكر سبحانه نعيم أهل الخير عقبه بعقاب أهل الشر فقال : (وأما من خفت موازينه فأمه هاوية) والكلام فى خفة الميزان كالكلام فى ثقله ، وقد قال أبو بكر رضى الله عنه : إنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه باتباعهم الحق وثقله عليهم فى الدنيا وحُقَّ لميزان لايوضع فيه إلا الحق أن يكون ثقيلا ، وإنما خفت موازين

وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَاهِيَهْ [١٠] نَارٌ حَامِيَةٌ [١١]

من خفت موازينه باتباعهم الباطل فى الدنيا وخفته عليهم ، وحُقَّ لميزان يوضع فيه الباطل أن يكون خفيفا . وهو رضى الله عنه يشير إلى أن الحق ثقيل على النفس فلذلك كان الميزان ثقيلا ، وأن الباطل خفيف على النفس فلذلك كان الميزان خفيفا . واعلم أنه يجب علينا أن نؤمن بما ذكره الله تعالى من الميزان فى نحو هذه الآية وفى نحو قوله سبحانه : « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة » وليس علينا أن نبحث فيما وراء ذلك مما لم يثبت عن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، ونكل ماوراء ذلك إلى علام الغيوب ، على أن وزن الأعمال أو وزن صحائفها أو وزن الصور الجميلة ، كل ذلك أمر ممكن لايترتب على فرض وقوعه محال ؛ فوقوع شىء من ذلك لايعجز الله ولا يقف أمام قدرته الغالبة ، وقوله سبحانه : « فأمه هاوية » معناه مرجعه الذى يأوى إليه النارُ الحامية التى سماها سبحانه الهاوية ، وأصل الهاوية المَهْوَاة السحيقة ، وسميت النار هاوية مع أن الانسان يهوى فيها كما وصفت العيشة براضية مع أن الإنسان يرضى بها . ومعنى قوله سبحانه : (وما أدراك ماهيه) معناه أى شىء يخبرك بما هى تلك الهاوية ويعلمك أنها أى شىء تكون . وقوله سبحانه : (نار حامية) بيان لها بعد إبهام أمرها ، والمراد أنها نار ملتهبة يهوى فيها ليلقى جزاء ماقدم من عمل وما أزلف من سيئات . وفيه إشارة إلى أن سائر النيران بالنسبة إليها مهما اشتدت وقويت كأنها ليست حامية إذا قيست إليها ووُزِنت بها ، وهذا القدر كافٍ فى التنبيه على قوة حرارتها وشدة استعارها ، نعوذ بالله تعالى من النار الحامية ومن جميع أنواع العذاب ، ونسأله أن يمن علينا بنعمة التوفيق إلى العمل الذى ينجينا منها ؛ إنه سبحانه ولى التوفيق والمعونة آمين .

سورة التكاثر

[وهى مكية ، وآياتها ثمانُ آياتٍ ، ونزلت بعد سورة الكوثر [(١)]]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ [١]

---

(١) لا خلاف بين العلماء فى أن عدد آيات هذه السورة ثمانُ آيات ، وقد اختلفوا فى مكان نزولها ؛ فقال قوم : هى مكية ، وقال آخرون : هى مدنية ؛ وقال أبو حيان : هى مكية عند جميع المفسرين ، وقال السيوطى : هى مكية على الأشهر ، وهو الحق

أخرج ابن أبى حاتم عن أبى بريدة ، قال : نزلت « ألهاكم التكاثر » فى قبيلتين من قبائل الأنصار ، فى بنى حارثة وبنى الحارث ؛ تفاخروا وتكاثروا ؛ فقالت إحداهما : فيكم مثل فلان وفلان ؟ وقال الآخرون مثل ذلك ، تفاخروا بالأحياء ، ثم قالوا : انطلقوا بنا إلى القبور ، فجعلت إحدى الطائفتين تقول : فيكم مثل فلان ، وتشير إلى القبر ، ومثل فلان ، وفعل الآخرون مثل ذلك . فأنزل الله تعالى « ألهاكم التكاثر »

ووجه المناسبة بين هذه السورة والتى قبلها أظهر من أن يُشَار إليه ؛ أفلا ترى أن السورة السابقة كانت فى وصف القيامة وذكر بعض أهوالها ، وفيها ذكر جزاء الأخيار والأشرار جميعا ؛ وفى هذه السورة ذكر الجحيم — وهى الهاوية التى ذكرت فى السورة السابقة — وذكر السؤال عما قدَّم المرء من الأعمال فى هذه الحياة الدنيا ، وهذه بعض أحوال الآخرة

قوله تعالى : (ألهاكم التكاثر) أصل اللهو الْغَفْلَةُ ، ثم شاع استعماله فى كل

حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ [٢] كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ [٣]

ما يشغل الإنسان ، سواء أكان مما يُسَر به أم لم يكن ، ثم خصّصه العرف بعد ذلك بما يشغله مما يُسَرُّ به . والتكاثر : التبارى فى الكثرة والتباهى بها وذلك بأن يقول هؤلاء : نحن أكثر ، ويقول الآخرون : نحن أكثر ، ونحو ذلك . والمعنى شغلكم التفاخر والتباهى بكثرة الأنصار أو الأشياع وصرفكم ذلك عن الجد فى العمل فكنتم فى لَهْو بالقول عن الفعل وفى غفلة بالغرور والإعجاب بالآباء والأعوان ، فانصرفتم بذلك كله عن أن تصرفوا جهودكم وقواكم فيما خلقها الله له وفيما فرضه عليكم من العمل الصالح ، وما زال هذا دأبكم الذى استمررتم عليه (حتى زرتم المقابر) أى : حتى صرتم من الموتى ، والمعنى على ذلك أنكم بقيتم على ذلك طول حياتكم فلم تقلعوا عنه ، ويقال : المعنى أن الأمر فى التكاثر قد ارتقى بكم من ذكر الأحياء وتعداد مفاخرهم من كثرة المال والولد وسائر ما يكون به الجاه فى الدنيا إلى أن انتقلتم إلى القبور فتكاثرتم بالأموات . وقد بينا فى سبب نزول هذه الآية ما يستفاد منه هذا المعنى .

وقوله سبحانه : (كلا سوف تعلمون) كلا ردع لهم ولكل إنسان عن الاشتغال بما لا يَعنيه ، وهو مع ذلك تنبيه على الخطأ لأن عاقبته وخيمة ، فكأنه سبحانه يقول : ارْتَدِعُوا عن مثل هذا العمل الباطل الذى لا تكون مغبته إلا التفرقة والقطيعة وهو مجلبة للأحقاد والضغائن ، ولا يفوز الإنسان بالتكاثر ، وإنما النصر الحقيق والفوز الذى لاشك فيه بالتناصر على الحق والتكاتف على أعمال البر والتضافر على ما فيه حياة الأفراد والجماعات من تقويم الأخلاق وتطهير الأعراق . وقد حذف المفعول من قوله سبحانه « سوف تعلمون » وتقدير الكلام سوف تعلمون مغبة ما أنتم عليه من التكاثر إذا ما استمر حالكم عليه ، والعلم ههنا بمعنى المعرفة فلا يحتاج إلا إلى مفعول واحد ، وهو الذى قدرناه

ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ [٤] كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ [٥]

وقوله سبحانه: (ثم كلا سوف تعلمون) تكرير للكلام السابق، وصَدَّرَ هذه الجملة بثم للدلالة على أن الجملة الثانية أبلغ فى الزجر عما لاينبغى

وقوله سبحانه: (كلا لو تعلمون علم اليقين) معناه لو تعلمون ما أنتم عليه وعاقبته الوخيمة علما يقيناً لاشك فيه ولا ارتياب، فإضافة « علم » إلى « اليقين » من إضافة الموصوف للصفة، ويقال: بل إضافة العلم إلى اليقين من إضافة المصدر إلى مفعوله، واليقين: فعيل بمعنى مفعول؛ وكأنه قيل: لو تعلمون ما أنتم عليه من سوء الحال عِلْمَ الأمر الميقون الموثوق به؛ وجواب « لو » محذوف لقصد التهويل: أى لو تعلمون عاقبة ذلك لشغلكم هذا العلم عن التكاثر وصرفكم إلى صالح الأعمال، ونحو ذلك، وإنما ذكر سبحانه هذه العبارة زيادة فى رَدْعِهم عما هم عليه من تغريرهم بأنفسهم، فقد جرت عادة الغافلين أنك إذا نبهتهم إلى ما هم عليه من الغفلة وذكرتهم بعواقب حالهم زعموا لك أنهم يعلمون العواقب ويدركون ما يؤدى إليه حالهم، وزعموا فوق ذلك أنهم لايفعلون ما يفعلون إلا وهم فى منتهى اليقظة والرشاد وسداد الفكرة، وأنهم يرتقبون لأنفسهم منزلةً رفيعةً ومكانةً عالية تكون نتيجة صحيحة لما هم عليه. وكأنه سبحانه يقول لهم: ارتدعوا عما أنتم عليه، ولا تحسبوا لأنفسكم أنكم تعلمون عواقبه، فان هذا الذى تظنونه علما ليس على التحقيق علما، بل هو وهم وظن لايلبث أن يتبدد ويصير هباء إذا صدمتكم الحقيقة

ثم إنه سبحانه بعد أن وصل بهم إلى هذا الحد استأنف القول فى ذكر بعض ما ينتهى إليه هذا اللهو، وهو العذاب الذى أعده لمن يفعل ذلك الذى لو علمته النفس علم اليقين لارتدعت عما تأتيه مما يجلبه عليها ويوقعها فيه، فقال جل

لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ [٦] ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ [٧] ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ [٨]

ثناؤه : (لَتَرَوُنَّ الجحيم) وهوجوابُ قسم مقدر قُصد به تأكيد الوعيد والتشديد في التهديد ، وأوضَحَ به ماأنذروه بعد إبهامه ، والمعنى أن النار تكون دائما في نظركم لاتغيب عنكم ، وقوله سبحانه : (ثم لتروُنَّهَا عين اليقين) أى سترونها رؤية هى نفس اليقين ، وذلك لأن انكشاف الأشياء بالرؤية والمشاهدة فوق سائر الانكشافات فهو أحق بأن يكون اليقين عَيْنَه ، قال الإمام : وعلمُ الْعِيانِ والمشاهدة من أفراد اليقين يُسَمَّى « عين اليقين » لأنه هو الذى تنتهى إليه جميع العلوم اليقينية ؛ لأن العلم البرهانى إن لم ينته إلى علم عيانى لا يُعَدُّ يقينا ، فالعيان هو ذات اليقين ، وبقيةالعلوم تضاف إليه متى اسْتُوفيت شرائطها، وكنى برؤية الجحيم عن ذوق العذاب فيها ، وهى كناية شائعة فى الكتاب العزيز؛ فاذا كان اللاهون بالتفاخر لابد أن يَصْلَوْا نارالجحيم إلى أىّ دينٍ أوإلى أىّ شخص كانت نِسْبَتُهُمْ فلم يبق عليهم إلا أن يتقوا الله فى أنفسهم و ينتهوا عما يقذِف بهم فى ذلك العذاب الأليم ، و ينظروا إلى ماهم فيه من نعمة فيرعوا حق الله فيها و يستعملوها فيما أمر الله أن تستعمل فيه ، ولا يكتفوا منها بالتمتع باللذات ثم التفاخر بها . اه

وقوله سبحانه : (ثم لَتُسْأَلُنَّ يومئذ عن النعيم) معناه أن هذا النعيم الذى أنعم الله تعالى به عليكم فانصرفتم عن شكره وصرتم تتفاخرون به و يكاثر بعضكم بعضا به ؛ سيكون يوم القيامة سؤالكم عنه ، فيسألكم الله عن كل نعمة أنعمها عليكم هل أديتم واجبها من الشكر له ، فمن كان منكم قد أدى حقَّ النعمة وعرف

فضل الله عليه فسيكون من أهــل السعادة ، ومن يكن قد استبد بنعم الله ولم يؤد حق السائل والمحروم فيها فهو من أهل العذاب الأليم

روى عن عمر رضى الله عنه أنه قال : أيُّ نعيم نسأل عنه يارسول الله وقد أُخْرِجْنَا من ديار نا وأموالنا ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ظلال المساكن والأشجار ، والأخبية التى تقيكم من الحر والبرد ، والماء البارد فى اليوم الحار »

وروى أنه صلى الله عليه وسلم قد قال : « مَنْ أَصْبَحَ آمنا فى سِرْبِهِ مُعَافًى فى بَدَنِهِ وعنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها»

اللهم اجعلنا ممن أنعمت عليه فعرف لنعمتك حقها وأدّى ماوجب عليـه من شكرها ، آمين.

سورة العصر

[وهى مكية ، وآياتها ثلاثُ آياتٍ ، ونزلت بعد سورة الشَّرْح](1)

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالعَصْرِ [١]

(١) لاخلاف بين أحـد من العلماء فى أن آى هذه السورة ثلاث آيات ، وقد اختلفوا فى مكان نزولها ؛ فروى عن مجاهد وقتادة ومقاتل أنهامدنية ، وروى عن ابن عباس وابن الزبير أنها مكية ، وهو مااختاره الجمهور

وجه المناسبة بين هـذه السورة والتى قبلها أنه سبحانه قد ذكر فى السورة السابقة أنهم قد اشتغلوا بالتـكاثر والمفاخرة بالمال والحسب وَالْعَدَد الـكثير وكل ماشأنه أن يلهى الإنسان عن طاعة ربه والأخذ فى أسباب شكره على وافر نعمائه، وقد ذكر فى هذه السورة أن شأن الإنسان وطبيعته التى جُبل عليها داعية له إلى البوار ، ومُوقعة له فى أعمق بحار الدمار ؛ فـكأَنَّ هـذا تعليلٌ لمـا ذكر عنهم فى سورة التـكاثر ، وكأنه سبحانه يقول : إنما حدث منـكم ماحدث من التـكاثر والتفاخر والتباهى لأن ذلك أمر مستقر فى طبيعة الإنسان إلا من عصمه الله تعالى وأزال عنـه شرور نفسه ووقاه نوازعها الأخاذة به إلى مالايليق ، وشىء آخر من المناسبة بين السورتين ، وذلك أنه سبحانه قد ذكر فى السورة السابقة صفة من اتبع نفسه وهواه وجرى مع شيطانه حتى وقع فى التَّهلُـكة ، وذكر فى هذه صفة من تجمل بأحسن الطباع فآمن بالله وعمـل الصالحات وتواصى مع إخوانه على الاستمساك بعرى الحق والاصطبار على مشَاقَة ومكارهه ، والشىء إذا قوبل بضده تميز أكبر تميز ؛ فلا جرم ذكر صفة المؤمنين بعد ذكر صفة اللاهين الغافلين

قوله تعالى : (والعصر) قد اختلف العلماء فى المراد من هذه الـكلمة ؛ فروى

عن ابن عباس رضى الله عنهما أن المراد بالعصر الدهر ، وإنما أقسم سبحانه بالدهر لما فيه من العبر التى يُسْتَدَلُّ بها على عظيم قدرة الله وبالغ حكمته وواسع علمه ؛ أَلَسْتَ ترى أن فيه يتعاقب الليل والنهار ، وهما من آيات قدرة الله ، ثم ألست ترى أن الإنسان يتداول عليه فى الدهر ماليس يُحْصَى من سَرَّاء وضراء ، ومن صحة وسَقَم ، ومن غنى وفقر ، ومن راحة وتعب ، ومن فرح وحزن ، وغير ذلك مما يتنبه به العاقل إلى أن للكون رَبًّا هو خالقه وهو مُدَبِّر أمره وهو المستحق للتوجه إليه بالعبادة والطلب . وشىء آخر يقتضى أن يُقْسِم الله تعالى بالدهر ، وذلك أنَّ الكفار كانوا يضيفون مايحدث لهم من سوء إلى الدهر ، وكانوا يقولون : هذا دهر سوء ، وهذا زمان بلاء ، وهذه نائبة من نوائب الدهر ، فأراد الله أن يبين لهم خطأ هذا الذى ذهبوا إليه فأقسم بالدهر ، وكأنه سبحانه يقول لهم : إن الدهر خَلْق من خلق كما أنكم أنتم خلق من خلق ، وإنه ظرف تقع فيه الحوادث خيرها وشرها كما أن فيكم من هو من أهل الخير ومَنْ هو من أهل الشر ؛ فان وقعت لأحدكم مصيبة فليس للدهر فيها من سبب ولكنها بما كسبت أيديكم وبما جرتم على أنفسكم . ومن العلماء مَن ذهب إلى أن المراد بالعصر أحدُ طرفى النهار ، وكأن قائلَ ذلك قد نظر إلى أنه سبحانه قد أقسم بالضحى وهو جزء من النهار ، وأقسم بالليل وهو مقابل للنهار كله ؛ قال الأستاذ الإمام : وكان من عادة العرب أن يجتمعوا وقت العصر ويتحادثوا ويتذاكروا فى شئونهم ، وقد يكون فى حديثهم مالا يليق ، أو مايؤذى به بعضهم بعضا ؛ فيتوهم الناس أن الوقت مذموم ، فأقسم الله به لينبهك إلى أن الزمان فى نفسه ليس مما يذم ويسب ؛ كما اعتاد الناس أن يقولوا : زمان مشئوم ، ووقت نحس ، ودهر سوء ، وما أشبه ذلك ، بل هو عادٌّ للحسنات كما هو عادٌّ للسيئات ، وهو ظرف لشئون الله الجليلة من خَلْق ورَزْق وإعزاز وإذلال وخَفْض ورفع ، فكيف يُذَمُّ فى ذاته ، وإنما قد يذم مايقع فيه من

إِنَّ الْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ [٢]

الأفاعيل المقوته . اهـ . ومن العلماء مَنْ ذهب إلى أن المراد بالعصر فى هذه السورة صَلاَةُ هذا الوقت ، وهذا القول مروى عن مُقَاتل ، وإنما أقسم سبحانه بصلاة العصر لفضلها وشرفها ، لأنها هى الصلاة الوُسْطَى المأمور بالمحافظة عليها فى قوله سبحانه : « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى » . وعلى أية حال فهذا قَسَمٌ أقسم الله سبحانه به على ماذكره بقوله : (إن الإنسان لفى خسر) والمراد بالإنسان هذا الجنسُ من المخلوقات [(١)] والخسر مثل الخسران ، كالكفر والكفران ، وأصل معنى الخسر النقصان وذهاب رأس المال ، والمراد به هُهُنَا ما ينغمس فيه الإنسان من الأسباب المُرْدية والآفات المهلكة. وتنكير « خُسْر » للدلالة على تعظيم خُسْرانه وأنه بلغ مبلغاً لا يدرك كنهه ولا يتوصل إلى معرفة حقيقته ، وذلك أن الذنب يَعْظُم بعظم من يقع فى حقه الذنبُ ، فذنب المرء مع بعض إخوانه ليس مثل ذنبه فى حق سلطانه ، فكيف إذا كان فى حق خالقه ورازقه والقادر على أن يأخذه ويبطش به من غير أن يقدر على الدفاع عن نفسه ، وشىء آخر يدل على تعظيم خسران الإنسان ، وذلك أن الذنب قد يَهُون أمره إذا كان فى مقابلة ذنبٍ حدث ممن يقع الذنب فى حقه ، فإذا وقع الذنب من المرء فى حق مَنْ لم يذنب إليه كانت جريرته أشد وذنبه أقوى، فكيف إذا وقع الذنب منه فى مقابلة ما يمُنُّ به ربه عليه من نعمه الجليلة وآلائه

---

(١) وذهب ابن عباس إلى أن المراد بالانسان ههنا أفراد معينة منهم الوليدبن المغيرة والعاص بن وائل والأسود بن عبد المطلب ؛ وذهب مقاتل إلى أن المراد به أبو لهب ، ويقال : المراد به أبو جهل ، وكل هذه الأقوال بعيدة عن سياق السورة أفلا ترى أنه سبحانه قد استثنى من الانسان الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، والاستثناء دليل على أن المراد العموم .

الجسيمة ؟ ! و التعبير بفى خسر يدل على أن الإنسان كالمغمور فى الخسران وأن هذا الخسران قد أحاط به من كل جانب . وانظر إلى تأكيد ذلك بإنَّ و باللام تدرك مقدار ثبوت ذلك للانسان . قال الأستاذ : يقسم الله بالزمان مطلقا أو بذلك الوقت المخصوص إن الإنسان لفى خسر إلى آخر السورة ليؤكد بالقسم تلك القضية، وهى أن جميع مَنْ يطلق عليه اسم الإنسان ممن هو معهود للمخاطبين — وهو الإنسان العاقل البالغ — خاسر فى أعماله ضرباً من الخسران ، إلا من يستثنيهم ؛ فأعمال الإنسان هى مصدر شقائه ، لا الزمان ولا المكان ، وتصوير الاستغراق بما قدمت لا ينافى الشمولَ والعمومَ ، كما رأيت ، فإن هذا هو الفرق بين الاستغراق بكل والاستغراق بأل ؛ فالاستغراق بأل إنما هو لما عُهد عند المخاطبين من الأفراد ، يخطر بالبال عند ذكر الاسم مقروناً بها ، ولو قيل « كل إنسان فى خسر إلا الذين آمنوا » لم يصح ، لأن من الإنسان الصبى الذى لا يميز ، وهو لا خسران له ولا ربح . اهـ . وقال الامام الرازى : واعلم أن هذه الآية كالتنبيه على أن الأصل فى الانسان أن يكون فى الخسران والخيبة ، وتقريرُهُ أن سعادة الانسان فى حب الآخرة والإعراض عن الدنيا ، ثم إن الأسباب الداعية إلى الآخرة خفية ، والأسباب الداعية إلى حب الدنيا ظاهرة وهى الحواس الخمس والشهوة والغضب ؛ فلهذا السبب صار أكثر الخلق مشتغلين بحب الدنيا مستغرقين فى طلبها ؛ فكانوا فى الخسران والبوار . فإن قيل : إنه تعالى قال فى سورة التين « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين » فهناك يدل على أن الابتداء من الكمال والانتهاء إلى النقصان ، وههنا يدل على أن الابتداء من النقصان والانتهاء إلى الكمال ، فكيف وجه الجمع ؟ قلنا : المذكور فى سورة التين أحوال البدن[1]

---

(١) هذا على ما اختاره هو فى تفسير قوله تعالى : « لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين » من سورة التين ، ولم نرتض نحن هذا

إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ [٣]

وهمنا أحوال النفس ؛ فلا تناقض بين القولين . اه .

وقوله سبحانه : (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) هو استثناء مما سبق ، وفيه تسلية للمؤمن بأن العمل الصالح يوصله إلى ما يرغب من رضوان ربه ، كما أن فيه تنبيها على أن كل ما دعاك إلى طاعة الله فهو صلاح وكل ما شغلك عن الله تعالى فهو فساد ، والتعبير عنهم بالموصول وصلته للدلالة على أن هذه الصفات التى ذكرت فى الصلة هى سبب ما وصلوا إليه ، فكأنه سبحانه يقول : إن هؤلاء القوم ناجُونَ وليسوا ممن حكم عليهم بالخسار والبوار ؛ لأنهم صدقوا بأصل الخير والشر واعتقدوا اعتقادا صحيحاً بالفرق بين الفضيلة والرذيلة و بأن لأنفسهم وللعالم كله خالقاً قادرًا وحاكما يرضى عن المطيع ويغضب على العاصى ويثيب أهل الطاعة ويعاقب أهل المعصية . ثم لم يكن تصديق هؤلاء بذلك كله إلا ليدفعهم إلى أعمال البر والخيرات ، فلم يكونوا ليعملوا عملا يخالف ما عليه اعتقادهم ولم يكونوا ليتركوا عملا تدعو إليه عقيدتهم .

وقوله سبحانه : (وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) هو من تكملة الصلة ، والحق :

التفسير ، بل رأينا أن المراد به أحوال النفس أيضا ، فلا يندفع الاشكال الذى ذكره بما قاله ، ووجه اندفاعه على ما اخترناه أن نقول لك : إن الذى ذكره سبحانه فى سورة التين هو بيان للفطرة التى فطر الله الناس عليها ، وأنه خلقهم مستعدين لأكرم الخلال وأجمل الأعمال وأفضل الأفعال ، وما فى هذه السورة بيان لما اختاروه لأنفسهم وسلكوه من عند أنفسهم وأنهم استحبوا العمى على الهدى ، وانظر ص ٢٥١ وما بعدها من هذا التفسير .

ماتقرر به وثبت مما أرشد إليه دليل قاطع أو مشاهدة من حقيقة ثابتة أو شريعة صحيحة ، والصبر : قوة للنفس تدعوها إلى احتمال المشقة فى العمل الطيب وتُهَوِّن عليها احتمال المكروه فى سبيل الوصول إلى شريف الأغراض ، فالتواصى بالحق يدخل فيه الدين كله من علم وعمل . والتواصى بالصبر يدخل فيه حمل النفس على مشقة التكليف فى القيام بما يجب وفى اجتناب ما يحرم . وقد اشتملت هذه السورة الكريمة على شديد الوعيد ، وذلك لأنه سبحانه حكم بالخسار على جميع الناس إلا من كان متصفاً بهذه الأشياء الأربعة ، وهى الإيمان والعمل الصالح والتواصى بالحق والتواصى بالصبر ، فدل ذلك على أن النجاة معلقة بمجموع هذه الأمور ، وأنه كما يجب على الانسان أن يأتى من الأعمال ما فيه الخير والنفع يجب عليه أن يدعو غيره إلى الدين وينصحه بعمل الخير والبر ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويحبَ لأخيه ما يحبُ لنفسه وأن يثبت على ذلك فلا يحيد عنه ولا يُزَحْزِحه عن الدعوة إليه ما يلاقيه من مشقة و بلاء . والله سبحانه وتعالى أعلى وأعلم .

سورة الهمزة

[وهى مكية ، وآياتها تِسْعُ آياتٍ ، ونزلت بعد سورة القيامة] (١)

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ [١]

---

(١) أكثر المفسرين على أنه لاخلاف بين أحد من العلماء فى أن هذه السورة مكية ولا فى أن آيها تسع آيات ، إلا شيئا ذكره صاحب « فتح البيان » عن المحلى من أنه قيل إنها مدنية .

وجه المناسبة بين هذه السورة والتى قبلها أنه سبحانه لما ذكر فى السورة السابقة أن جميع أفراد الإنسان ممن عهدهم المخاطبون منغمسون فى الضلال ذكر فى هذه السورة بعض صفاتِ بعض أهل الضلال .

قال عطاء والكلبى : نزلت هذه السورة فى الأخنس بن شريق ، كان يلمز الناس ويغتابهم ، وخاصة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال مقاتل : نزلت فى الوليد بن المغيرة ، كان يغتاب النبى صلى الله عليه وسلم من ورائه ، ويطعن عليه فى وجهه . وقال محمد بن إسحاق : مازلنا نسمع أن هذه السورة نزلت فى أُمَيَّة بن خلف . وقد علمتَ مما ذكرناه مراراً أن سبب النزول لايخصص ، وأن العبرة بعموم اللفظ لابخصوص السبب .

قوله سبحانه : (ويل لكل همزة لمزة) الويل : لفظ يدل على الذم والسخط والتقبيح ، والمقصود به التنبيه على قبح مايذكر من الأفعال ؛ والهمزة : مأخوذ من الهَمْز وهو الكَسْر ، واللمزة : مأخوذ من اللمز وهو الطعن ، ويقال : الهمز

الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ [٢]

ما يكون من حركات باليد والعين والشدق تدل على الهزء والسخرية ، واللمز ما يكون باللسان ، واعلم أن وزن فُعَلَة — بضم الفاء وفتح العين — يؤتى به للدلالة على أن الموصوف به مُعْتَاد للاتيان بهـذا الوصف والاكثار من فعله ، فتقول : فلان ضُحَـكَة لُعَنَة ، إذا كان يكثر من الضحك واللّعْن ، ولا تقولهما لمن أتى بذلك مرة واحدة ؛ وبناءُ فُعْلَة — بضم الفاء وسكون العين — يؤتى به للدلالة على أن الموصوف به يكثر أن يُفْعَل به ذلك ؛ فتقول : رجل ضُحْـكة ، إذا كان الناس يتخذونه أُضْحُوكة ؛ ولا تقولها لمن يُضحك منه مرة واحدة ، فالبناء الأول لوصف الفاعل ، والبناء الثانى لوصف المفعول ، وكلاهما يختص بمن حاله وشأنه واعتياده ذلك . والمراد ههنا بالهمزة واللمزة الذى يطعن فى أعراض الناس ويغُض من شأنهم ويحقر من أعمالهم وصفاتهم وينسب إليهم السيئات وينفى عنهم المـكارم ، يتلذذ بالحطّ منهم ويجد فى نفسه من الرغبة مايدفعه إلى النيل من كرامتهم والازدراء بهم ليظهر للناس أنه أرفع منهم شأنا وأسمى مكانة وأعلى منزلة .

وقوله سبحانه : (الذى جمع مالا وَعَدَّده) يَجْرِى مَجْرَى السبب والعلة فى الهمز واللمز ، فـكأنه سبحانه يقول : إنما دعاه إلى عيب الناس والحط منهم إعجابه بمـا جمع من المال وظنه أن الْفَضْلَ فى الناس إنما يكون بالمال لا بالمـكارم والأخلاق . ومعنى « عَدَّدَه » جعله عُدَّةً وذخيرة ، تقول : أعْدَدْت السيف للحرب ، وَعَدَّدْته له ، إذا جعلته عُدَّة وذخيرة له : ويقال : عَدَّده مثل عَدَّه ، ومعناها أحصاه بِالْعَدّ ، والفرق بينهما أن عَدَّدَ تدل على كثرة المعدود ، ويقال : عَدَّدَه معناه كثّره ونمّاه ،

يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ [٣] كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ [٤]

وقوله سبحانه : (يحسب أن ماله أخلده) معناه أن هذا الهمّاز العيّاب قد ظن أن ماله الذى جمعه قد ضمن له الخلود فى الدنيا وأعطاه الأمان من الموت فهو لذلك يعمل عمل مَنْ يظن أن يبقى حيا أبد الدهر . قال الأستاذ : أى أن الذى يحمله على الحط من أقدار الناس هو جمعه المال وتعديده : أى عَدُّه مرة بعد أخرى شغفا به وتلذذاً باحصائه لأنه لايرى عزاً ولا شرفاً ولا مجدا فى سواه ، فكلما نظر إلى كثرة ماعنده منه انتفخ وظن أنه من رفعة المكانة بحيث يكون كل ذى فضل ومزية دونه ، فهو يهزأ به ويهمزه ويلمزه ثم لايخشى أن تصيبه عقوبة على الهمز واللمز وتمزيق العرض ، لأن غروره بالمال أنساه الموت وصرف عنه ذكرى المآل فهو يحسب أن ماله أخلده : أى يظن أن ماعنده من المال قد حفظ له حياته التى هو فيها وأرصدها عليه فهو لايفارقها إلى حياة أخرى يعاقب فيها على ما كسب من سيء الأعمال . اه

ثم إنه سبحانه لما بين قبح هذه الأفعال وشناعتها ، وذكر أن صاحبها ومرتكبها من المقبوحين المرذولين ، وتوعَّد مرتكبها بأليم العذاب وشديد العقاب ، وبين مع ذلك السببَ الذى حمله على ارتكاب هذه الخلال الممقوتة وأنه ظن كاذب وحُسبان لاحقيقة له ولاثبات ؛ أخذ جل ذكره فى بيان العقاب الذى أعَدَّه له بيانا يشتمل على نوع من التفصيل مع تصدير هذا البيان بالقسم للدلالة على أنه أمر ثابت مُحَقَّق الوقوع ؛ فقال سبحانه : (كلا لينْبذَنَّ فى الحطمة) وكلا : حرف رَدْع وزَجْر يُراد به كفُّ هذا الفحّاش العيّاب عن ظنه الفاسد وحسبانه الكاذب ، وكأنه سبحانه يقول له : ارتدع عما ظننت ولا تَدُمْ عليه فليس الأمر كما خُيِّل لك من أن المال يخلدك ويبقيك ، بل الذى تبق

وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ [٥]

به وإن انقضى أجلك هو العلمُ والعمل الصالح ؛ لأن خُزّان الأموال يموتون وهم أحياء إذ يمقتهم الناس ويكرهونهم لأنهم لا ينالون منها شيئاً ، وأما العلماء والعاملون فذكرهم باقٍ ببقاء الدهر والثناء عليهم مستمر ما بقى على الأرض إنسان ينتفع بعلمهم ، ويقال : كلا فى هذا الموضع بمعنى حَقًّا وتفيد معنى القسم ولذلك أُتى بلام الجواب بعدها ، ولا دليل فى الاتيان باللام لأنه يجوز تقدير قسم بعد كلا ، وكأنه سبحانه بعد أن زجره وكفَّه عن البقاء على ظنه قد قال والله لينبذن فى الحطمة . والنَّبْذ : الطرح مع الاهانة والتحقير والتصغير من شأن المطروح ، والحطمة فى أصل اللغة من الحَطْم ، وهو الشدة ، ويقال : رجل حُطَمَة ، إذا كان شديداً لا يبقى على شىء ، وقد قالوا : شَرُّ الرِّعاء الحُطَمَة ، وهو الذى يحطم الماشية ويكسرها بشدة سوقها و بعظم عنفه ، وقال الراجز :

قَدْ لَفَّهَا اللَّيْلُ بِسَوَّاقٍ حُطَمْ ... لَيْسَ بِرَاعِى إِبِلٍ وَلَا غَنَمْ

وَلَا بِجَزَّارٍ عَلَى ظَهْرِ وَضَمْ

والمراد بالحطمة فى الآية الكريمة النارُ ، قال مقاتل : هى تحطم العظام ، وتأكل اللحوم ، حتى تهجم على القلوب ، ومعنى قوله تعالى « لينبذن فى الحطمة » ليُطْرحن فى النار الشديدة الإحراق طرح الذليل المهان الذى لا يؤبه به ولا ينظر إليه ولا يبالى بشأنه

وقوله سبحانه : (وما أدراك ما الحطمة) استفهام عنها يقصد به تعظيم أمرها وإكبار شأنها و بيان أنها مما لا تدركه العقول ولا يوقف عليها إلا بعد التعريف فكأنه سبحانه يقول لنبيه : إن هذه الحطمة مما لا تحيط به المعرفة ولا تقف على

نَارُ اللهِ الْمُوقَدَةُ [٦] الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ [٧]

حقيقته عقول البشر فمن ذلك الذى يُعْلمك بمقدارها و يبين لك حالها و يقفك على كنهها غير الذى أعدَّها وهيأها لمن يستحقها

ثم بين سبحانه هذه الحطمة بعد إبهام أمرها فقال : (نارالله الموقدة) و إضافة النار إلى الخالق جل شأنه للتفخيم والتعظيم والمعنى أنها النار التى لا يجوز أن تنسب وتضاف لغير الله سبحانه وتعالى لأنه هو الذى أنشأها وأعدَّها لعقاب هذا النوع من العصاة والمذنبين . ووصفها بالموقدة يفيد أنها لا تخمد أبدا فهى ملتهبة التهابا لا يدرك كنهه غيره سبحانه ولا يعتريها بعده خمود ولا فتور

ثم لما وصف الله سبحانه هذه النار بالاتقاد و بين أنها ناره ولا يصح نسبتها إلى غيره ، وذلك يدل على أنها تخالف نيران الدنيا المعروفة لنا أخذ فى وصفها بأوصاف أخرى تخالف أوصاف نيران الدنيا ليؤكد مخالفتها لها فقال : (التى تطلع على الأفئدة) وقد اختلف العلماء فى معنى « تطلع » فقال قوم : المراد أنها تتغلب على الأفئدة وتقهرها وتعلوها ، ومعنى ذلك أن هذه النار تدخل فى أجوافهم حتى تصل إلى صدورهم فتأكل أفئدتهم ، وقد علمت أنه لا شىء ألطف فى بدن الإنسان من الفؤاد الذى هو القلب ، وأنه أشد أجزاء البدن تألما ، فاذا استولت النار عليه فأحرقته فقد بلغ العذابُ بالإنسان أعظم مبلغ ووقع عليه منه أكبر نصيب ، وقال قوم : الاطلاع ههنا بمعنى العلم والمعرفة ، وكأن هذه النار تدرك ما فى أفئدة الناس يوم البعث فتعرف العاصى من الطائع ، وتميز بين الطيب والخبيث ، وتعرف فرق ما بين أهلها الذين اجترحوا السيئات فى حياتهم الأولى وأهل الجنة الذين أحسنوا أعمالهم ؛ فاذا عرفت النوعين وميزت بينهما أخذت من يستحقها ممن هو من أهلها ؛ وأنت خبير بأن النار التى تدرك من يستحق العقاب ممن يستحق المغفرة والمرحمة

إنها عليهم مؤصدة [٨]

لا تكون من نيران الدنيا المعروفة لنا ولا من أشباهها ؛ فذلك وصف يميز هذه النار عما نعرفه من النيران ، وعلم حقيقتها وكنهها عند علام الغيوب الذى له ما فى السموات ومافى الأرض وما بينهما ، والذى لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى السماء ولافى الأرض ، والذى خلق الطاعة وخلق لها أهلها وخلق لهم النعيم المقيم جزاء عليها وخلق المعصية وخلق لها أهلها وخلق لهم العذاب المقيم جزاء عليها ؛ كما أنه لا يخفى عليك أن الكلام على تفسير الاطلاع بالادراك والمعرفة لا يخلو من تجوُّز

فان قلت : فما السر فى تخصيص الأفئدة باطلاع النار عليها سواء أكان الاطلاع بمعنى الغلبة أم كان بمعنى الإدراك ؟

فالجواب عن ذلك أنه إذا كان الاطلاع بمعنى التغلب فالسر فى تخصيص الأفئدة بالذكر القصد إلى وصف هذه النار بقوة الغلبة لأنها إذا كانت تصل إلى القلوب التى أودعت باطن الإنسان فى أخفى مكان منه فهى إلى غيره أشد وصولا ، وإن كان الاطلاع بمعنى المعرفة والادراك فالسر فى تخصيص الأفئدة أنها مواطن الكفر والعقائد الخبيثة والنيات الفاسدة وهى منشأ الأعمال السيئة التى استحق بسببها الانسان العقابَ

ثم وصف سبحانه هذه النار بوصف آخر فقال : (إنها عليهم مُؤصَدَة) ومُوصدَة بمعنى مُطْبَقَة ، وهو اسم مفعول من قولك : أَوْصَدْتَ البابَ ، إذا أغلقته وأطبقته ، وقال الشاعر :

تَحِنُّ إلَي أَجْبَالِ مَكَّةَ نَاقَتِي ... ومِنْ دُونِهَا أَبْوَابُ صَنْعَاء مُوصَدَهْ

والمراد بذ ر إيصادها على أهلها بيان أنهم لايخرجون منها ولا يستطيعون الخروج إن أرادوه كلما أردوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها ، وقد تضمنت

فِى عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ [٩]

هذه الآيات المبالغة فى العذاب و بيان أنه عذابٌ شديد أليم ، وذلك من وجوه : أحدها يدل عليه قوله تعالى « لينبذن » والنَّبذ معناه الطرح ، وإنما يكون الطرحُ إذا كان المكان الذى يطرح فيه بعيد القعر شديد العمق ، والثانى تسمية هذا المكان بالحطمة وهذا يفيد بأصل اشتقاقه أنها تكسر أجسامهم وتحطمها ، والثالث جعلها ذات باب مُوصَد عليهم ، فوجود الباب يلفت أذهانهم إلى الخروج منها لأن الباب إنما يجعل ليتوصل به من داخل إلى خارج ومن خارج إلى داخل وهم إذا تذكروا الخروج وهموا به لم يستطيعوا السبيل إليه ، فذلك أشد تنكيلا بهم وأبعث إلى الحسرة والأسى فى قلوبهم

وقوله سبحانه : (فِى عَمَدٍ مُمَدَّدَة) معناه كما قال مقاتل أن الأبواب أُطْبقت عليهم ثم شُدَّت بأوتادٍ من حديدٍ فلا يفتح عليهم باب ولا يدخل عليهم روح . ومعنى كون العمد ممددة أنها مطولة تمتد من أول الباب إلى آخره

وقد قرىء « فى عَمَد » بفتح العين والميم جميعا ، وقرىء «فى عُمُد» بضم العين والميم جميعا ، أما العُمُد بضمتين فلا خلاف فى كونه جمع عَمُود ، مثل سرير وسُرُر وزَبُور وزُبُر وكتاب وكُتُب ورسول ورُسُل وصحيفة وصُحُف ، وذلك لأن فعلاً من جموع التكسير يطرد فى جمع كل اسم على أربعة أحرف ثالثها مدة ، بشرط أن تكون اللام صحيحةً ، وإذا كانت المدة ألفا اشترط أن تكون اللام غير مضاعفة نحو هلال وسنان ؛ وأما عَمَدٌ بفتح العين والميم جميعا فقال الفراء : هو أيضا جمع عَمُود مثل أديم وأَدَم ، وقال أبو عبيدة : هو جمع عماد ، وقيل : هو اسم جمع لعمود وليس جمعاً له

والمقصود من الآية الكريمة تصوير شدة إطباق النار على هؤلاء وإحكام

إطباقها عليهم وتأكيد ذلك كله والمبالغة فيه ليودع قلوبهم اليأس من الخلاص منها

ومما ينبغى أن تعلمه فى هذا المقام أن كون هذه العمد من نار أو من حديد ، وأنها مشبهة لعمد الدنيا التى تطبق بها الأبواب فى كونها تمتد عرضا أو طولا ، وغير ذلك من الصفات التى يمثلها لك الوهم والخيال ، مما لم يذكره الله تعالى فى كتابه ولا تعرض له رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيانه ؛ كل أولئك مما لا يسوغ أن تتعرض له أو تتدخل فيه ، فانك إن فعلت ذلك كنت ممن يفترى على الله الكذب ، وليس أشنع جرما من أن تفعل ذلك

نسأله سبحانه أن ينجينا من النيران ومن عذاب النيران ، وأن يوفقنا إلى العمل الصالح ويجعله ذخيرتنا يوم لقائه ، آمين .

سورة الفيل

[وهى مكية ، وآياتها خمس آيات ، ونزلت بعد سورة الكافرين] (١)

---

(١) لاخلاف بين أحد من العلماء فى أن هذه السورة مكية ، كما أنه لاخلاف بينهم فى أن آيها خمس آيات

حدث ابن إسحاق فى السيرة (١) قال : بنى أَبْرَهَةُ الأشرمُ الْقُلَّيْسَ (٢) بصنعاء ، فبنى كنيسة لم يُرَ مثلُها فى زمانها بشىء من الأرض ، ثم كتب إلى النجاشىّ : إنى قد بنيت لك أيها الملك كنيسةً لم يُبْنَ مثلها لملك كان قبلك ، ولست بمُنْتَهٍ حتى أصرف إليها حَجَّ العرب . فلما تحدثت العربُ بكتاب أبرهة ذلك إلى النجاشىّ غضب رجل من بنى فُقَيْم بن عدى بن عامر بن ثعلبة فأتى الْقُلَّيْسَ فقَعَدَ فيها (٣) ثم خرج فلحق بأرضه ، فأخبر بذلك أبرهة ، فقال :

---

(١) انظر كتاب سيرة النبي صلى الله عليه وسلم لابن هشام (ج ١ ص ٤٣ وما بعدها) .

(٢) قال السهيلى : وكان أبرهة قد استذل أهل اليمن فى بنيان هذه الكنيسة ، وجشمهم فيها أنواعا من السخر ، وكان ينقل إليها العددمن الرخام المجزع والحجارة المنقوشة بالذهب ، من قصر بلقيس صاحبة سليمان عليه السلام وكان من موضع هذه الكنيسة على فراسخ وكان فيه بقايا من آثار ملكها ، فاستعان بذلك على ماأراده فى هذه الكنيسة من بهجتها وبهائها ، ونصب فيها صُلبانا من الذهب والفضة ، ومنابر من العاج والآبنوس ، وكان أراد أن يرفع من بنائها حتى يُشْرِف منها على عدن . اه

(٣) قعد فيها : أحدث

من صنع هذا ؟ فقيل له : صنع هذا رجل من العرب من أهل هذا البيت الذى تحجّ العرب إليه بمكة ، لمَّا سمع قولك أصرف إليها حج العرب غضب فجاء فقعد فيها ، فغضب عند ذلك أبرهة وحلف ليَسيرَنَّ إلى البيت حتى يهدمه ، ثم أمر الحبشة فتهيأت وتجهزت ، ثم سار وخرج معه بالفيل ، وسمعت بذلك العرب فأعظموه وفَظِعُوا به ورأوا جهاده حقا عليهم ، حين سمعوا بأنه يريد هدم الكعبة بيت الله الحرام ، فخرج إليه رجل كان من أشراف أهل اليمن وملوكهم يقال له ذو نَفْرٍ ، فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة وجهاده عن بيت الله الحرام وما يريد من هدمه وإخرابه ، فأجابه إلى ذلك من أجابه ، ثم عرض له فقاتله ، فهزِمَ ذو نَفْرٍ وأصحابُه ، وأخذ له ذو نفر فأتى به أسيراً ، فلما أراد قتله قال له ذو نَفْرٍ : أيها الملك ، لا تقتلنى فانه عسى أن يكون بقائى معك خيراً لك من قتلى ، فتركه من القتل وحبسه عنده فى وُثاق ، وكان أبرهة رجلا حليما ثم مضى أبرهة على وجهه ذلك يريد ما خرج له ، حتى إذا كان بأرض خَثْعَمٍ عرض له نُفَيْلُ بن حبيب الخثعمى فى قبيلَىْ خثعم شَهْرَان وناهسٍ (١) ومن تبعه من قبائل العرب ، فقاتله ، فهزمه أبرهة وأخذ له نفيلٌ أسيرا ، فأتى به ، فلما هم بقتله قال له نفيل : أيها الملك ، لا تقتلنى فانى دليلك بأرض العرب وهاتان يداىَ لك على قبيلى خثعم شهران وناهس بالسمع والطاعة ، فخلَّى سبيله ، وخرج به معه يدُلُّه ، حتى إذا مرَّ بالطائف خرج إليه مسعود به مُعتِّب بن مالك بن كعب ابن وعمر بن سعد بن عوف بن ثقيف فى رجال ثقيف ، فقالوا له : أيها الملك ، إنما نحن عبيدك سامعون لك مطيعون ، ليس عندنا لك خلاف ، وليس بيتنا هذا

---

(١) ويقال : قبائل خثعم ثلاث : شهران ، وناهس ، وأكلب . لكن الراجح هو ماذكره ابن إسحاق لأن أكلب عند أهل النسب هو ابن ربيعة بن نزار ، ولكنهم دخلوا فى خثعم فانتسبوا إليهم

البيتَ الذى تريد (يعنون اللاتَ) إنما تريد البيت الذى بمكة ، ونحن نبعث معك من يدلك عليه ، فتجاوز عنهم ، فبعثوا معه أبا رِغَالٍ يدله على الطريق إلى مكة ؛ فخرج أبرهة ومعه أبو رِغَالٍ حتى أنزله المُغَمَّسَ ، فلما أنزله به مات أبورغال هنالك : فرجمت قبرَهُ العربُ ، فهو القبر الذى يرجُمُ الناسُ بالمغمس . فلما نزل أبرهة المغمس بعث رجلا من الحبشة يقال له الأسود بن مقصود على خيل له ، حتى انتهى إلى مكة فساق إليه أموال تهامة من قريش وغيرهم ، فأصاب فيها مائتى بعير لعبد المطلب بن هاشم ، وهو يومئذ كبير قريش وسيدها ، فهمت قريش وكنانة وهذيل ومن كان بذلك الحرم بقتاله ، ثم عرفوا أنهم لا طاقة لهم به ، فتركوا ذلك . وبعث أبرهة حُناطة الحميرىّ إلى مكة وقال له : سَلْ عن سيد أهل هذا البلد وشريفها ، ثم قل له : إن الملك يقول لك : إنى لم آت لحربكم ، وإنما جئت لهدم هذا البيت ، فان لم تعرّضوا لنا دونه بحرب فلا حاجة لى فى دمائكم ، فان هو لم يُرِدْ حربى فَأْتِنِى به ؛ فلما دخل حُناطَة مكة سأل عن سيد قريش وشريفها ، فقيل له : عبد المطلب بن هاشم ، فجاءه ، فقال له ما أمره به أبرهة ، فقال له عبد المطلب : والله ما نريد حربه ، وما لنا بذلك من طاقة ؛ هذا بيت الله الحرام ، وبيت خليله إبراهيم عليه السلام ؛ فان يَمْنَعْهُ منه فهو بيته وحرمه ، وإن يُخَلِّ بينه وبينه فوالله ما عندنا دَفْعٌ عنه ، فقال حُناطة : فانطلق معى إليه فانه قد أمرنى أن آتيه بك ، فانطلق معه عبد المطلب ومعه بعض بنيه ، حتى أتى العسكر فسأل عن ذى نَفْرٍ ، وكان له صديقا ، حتى دخل عليه وهو فى مَحْبِسه ، فقال له : ياذا نَفْرٍ ، هل عندك من غناء فيما نزل بنا ؟ فقال له ذو نفر : وما غناء رجل أسيرٍ بيدَىْ ملك ينتظر أن يقتله غُدُوًّا أو عشيًّا ؟ ما عندى من غناء فى شىء مما نزل بك ، إلا أنَّ أُنَيْسًا سائسَ الفيل صديقٌ لى وسأرسل إليه فأوصيه بك وأعظّم عليه حقك وأسأله أن يستأذن لك على الملك فتكلمه بما بدا لك ويشفع

لك عنده بخير إن قدر على ذلك ، فقال : حسبي ، فبعث ذو نفر إلى أنيس فقال له : إن عبد المطلب سيد قريش وصاحب عير مكة ، يطعم الناسَ بالسهل والوحوشَ فى رءوس الجبال ، وقد أصاب له الملك مائتى بعير ، فاستأذن له عليه ، وانفعه عنده بما استطعت ، فقال : أفعلُ . فكلّمَ أنيس أبرهة فأذن لعبد المطلب ، وكان عبد المطلب أوسمَ الناس وأجملهم وأعظمهم ؛ فلما رآه أبرهة أجلَّه وأعظمه وأكرمه عن أن يُجْلِسه تحته ، وكره أن تراه الحبشة يجلِس معه على سرير ملكه ، فنزل أبرهة عن سريره فجلس على بساطه وأجلسه معه عليه إلى جنبه ، ثم قال لترجمانه : قل له حاجتك ، فقال له ذلك الترجمانُ ، فقال : حاجتى أن يرد على الملك مائتى بعير أصابها لى ، فلما قال له ذلك قال أبرهة لترجمانه : قل له : قد كنت أعجبتنى حين رأيتك ثم قد زهدت فيك حين كلمتنى ، أتكلمنى فى مائتى بعير أصبتها لك وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك قد جئتُ لهَدْمه لا تكلمنى فيه ؟ فقال له عبد المطلب : إنى أنا رب الإبل وإن للبيت ربًّا سيمنعه ، قال : ما كان ليمتنع منى ، قال : أنت وذاك . فرَدَّ أبرهة على عبد المطلب الإبلَ التى أصاب له . ثم انصرف عبد المطلب إلى قريش فأخبرهم الخبر وأمرهم بالخروج من مكة والتحرُّز فى شَعَف الجبال والشِّعاب ، تخوفا عليهم من معرة الجيش ، ثم قام عبد المطلب فأخذ بحَلْقة باب الكعبة وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده ، فقال عبد المطلب وهو آخذ بحلقة باب الكعبة :

لَاهُمَّ إنَّ العَبْدَ يَمْـــنَعُ رَحْلَهُ فَامْنَعْ حِلَالَكْ
لَا يَغْلِبَنَّ صَلِيبُهُـــمْ وَمِحَالُهُمْ أَبَدًا مِحَالَكْ
إنْ كُنْتَ تَارِكَهُمْ وَقِبْـــلَتَنَا فَأَمْرٌ مَا بَدَا لَكْ

ثم أرسل عبد المطلب حَلْقة باب الكعبة وانطلق هو ومن معه من قريش

إلى شَعَف الجبال فتحرَّزوا فيها ينتظرون ماأبرهةُ فاعل بمكة إذا دخلها . فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة وهيأ فيله وعَبَّأ جيشه ، وكان اسم الفيل محموداً ، وأبرهة مُجْمِعُ لهدم البيت ثم الانصراف إلى اليمن ، فلما وَجهُوا الفيل إلى مكة أقبل نفيل بن حبيب الخثعمى حتى قام إلى جنب الفيل ثم أخذ بأذنيه فقال : أُبْرُكْ محمود أو ارجع راشداً من حيث جئت فانك فى بلد الله الحرام ، ثم أرسل أذنه ، فبرك الفيل ، وخرج نفيل بن حبيب يشتد حتى أصعد فى الجبل ، وضربوا الفيل ليقوم فأبى ، فضربوا رأسه بالطَّبَرْزِين ليقوم فأبى ، فأدخلوا محَاجنَ لهم فى مَرَاقه فبزغوه بها ليقوم فأبى ، فوجَّهُوهُ راجعا إلى اليمن فقام يهرول ، ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك ، ووجهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك ، ووَجَّهُوه إلى مكة فبرك ؛ فأرسل الله تعالى عليهم طيرا من البحر أمثال الخطاطيف والبَلَسَانِ مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها : حجر فى منقاره ، وحجران فى رجليه ، أمثال الحمص والعدس ، لاتصيب منهم أحدا إلا هلك ، وليس كلَّهُم أصابت ، وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق الذى منه جاءوا ويسألون عن نفيل بن حبيب ليدلهم على الطريق إلى اليمن . فخرجوا يتساقطون بكل طريق ، ويهلكون بكل مَهلِكٍ على كل مَنْهَل ، وأصيب أبرهة فى جسده ، وخرجوا معه يسقط أُنْمُلَةً أنملةً ، كلما سقطت أنملة أتبعتها منه مِدَّةٌ تَمُثُّ قيحًا ودَمًا ، حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر ، فمامات حتى انصدع صدره عن قلبه . وحدثنى يعقوب بن عُتْبَة أنه حُدِّثَ أن أول مارؤيت الحَصْبة والجُدَرى بأرض العرب ذلك العام وأنه أول مارؤى بها مرائر الشجر الحرملُ والحنظلُ والعُشَرُ ذلك العام اهـ كلام ابن إسحاق

وهنا أمران نريد أن ننبهك إليهما : الأول أنا خالفنا عادتنا فى تفسير الآيات الكريمة بالوقوف عند ماتدل عليه من غير أن نتعرض لذكر شىء

من القَصَص الذى يذكره المفسرون ، فجئنا ههنا بقصة طويلة مفصلة ؛ ولهذا سرٌّ ينبغى أن تعلمه ، وهو أن شأن قصة أصحاب الفيل ليس كشأن غيرها من القصص ، فان قصة أصحاب الفيل قريبة عهد برسالة النبى صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه عليه السلام قد وُلد فى نفس العام الذى حَدَثَتْ فيه ، وقد كان أمرها مستفيضاً وذكرها ذائعاً شائعاً عند مبعث الرسول الأكرم صلوات الله وسلامه عليه وكان العرب يعرفونها معرفة المتحقق المتثبت ويروونها رواية الواثق الخبير ، وكانت عندهم من أمهات الحوادث وجسامها ، حتى لقد كانوا يؤرخون بها قبل التأريخ بالهجرة النبوية ؛ فكانوا يقولون : حدث الأمر الفلانى لسنة مضت من عام الفيل ونحو ذلك . فقرب عهدها واشتهار أمرها وذيوعها بالروايات المستفيضة كل أولئك جعلنا لا نتحرج من ذكرها على وجه التفصيل ، وليس شأن غيرها من القصص بهذه المثابة فلذلك أعرضنا عن الخوض فى تفصيلاتها التى لا يشير إليها كتاب الله ولا ما صح عن رسوله من الموثوق به من الأخبار . والأمر الثانى أن العلماء قد اختلفوا فى إهلاك الله أصحاب الفيل أكان بقَذْفِ حجارة عليهم تنفُذ فيهم كما هو ظاهر النص أم كان بمرض فتاك من الأمراض المعروفة بشدة الفتك كالجُدَرى والحَصْبَة ونحوهما من أنواع الأمراض ؛ فذهب قوم إلى الأول ، وأنكره جماعة فقالوا : لو جوزنا أن يكون فى الحجارة الصغيرة التى تكون مثل العدسة من الثقل ما يقوى به على أن ينفُذ من رأس الإنسان ويخرج من أسفله لجاز أن يكون الجبل العظيم خالياً عن الثقل وأن يكون فى وزن الريشة ، وذلك يرفع الثقة عن المشاهدات ويضعف الأمان بها[1] ، وذلك أنه متى جاز أن تنقلب المشاهدات ويبطل ما يثبت عند الانسان من أوصافها فانه يجوز أن نتصور أنَّ بحضرتنا مشاهدات أخرى لا نراها

(١) قال الامام الرازى : واعلم أن كل ذلك جائز على مذهبنا إلا أن العادة جارية بأنها لاتقع . اﻫ

ولا نحس بها بحاسة ما ، وكل ذلك مما تبطله بديهة العقل ، فيجب أن يكون ما يؤدى إليه باطلا بالبداهة . وهؤلاء الذين ذكروا ذلك ذهبوا يتلمسون سبباً معقولا وعلةً مما جرت به العادة لإهلاك هؤلاء القوم ؛ فمنهم من قال : إنما أهلكهم الله تعالى بمرض الجدرى والحصبة ، وهذه الطير التى أرسلها الله تعالى عليهم هى البعوض الذى يحمل ميكروب هذين المرضين وهذه الحجارة التى كانت الطير تقذفهم بها هى ميكروبات هذين المرضين ، وفى آخر عبارة ابن إسحاق التى نقلناها لك ما يصح أن يؤخذ منه ذلك . وإلى ذلك ذهب الأستاذ رحمه الله ، قال : وفى اليوم الثانى فشا فى جند الحبشى داء الجدرى والحصبة ، قال عكرمة : وهو أول جُدَرِىٍّ ظهر ببلاد العرب ، وقال يعقوب بن عتبة فيما حدث : إن أول ما رؤيت الحصبة والجدرى ببلاد العرب ذلك العام ؛ وقد فعل ذلك الوباء بأجسامهم ما يندر وقوع مثله ، فكان لحمهم يتناثر ويتساقط ، فذُعِر الجيش وصاحبه وولوا هاربين وأصيب الحبشى ولم يزل يسقط لحمه قطعة قطعة وأنملة أنملة حتى انصدع صدره ومات فى صنعاء . هذا ما اتفقت عليه الروايات ، ويصح الاعتقاد به ، وقد بيَّنتْ لنا هذه السورة الكريمة أن ذلك الجدرى أو تلك الحصبة نشأت من حجارة يابسة سقطت على أفراد الجيش بواسطة فِرَق عظيمة من الطير مما يرسله الله مع الريح ؛ فيجوز لك أن تعتقد أن هذا الطير من جنس البعوض أو الذباب الذى يحمِل جراثيم بعض الأمراض وأن تكون هذه الحجارة من الطين المسموم اليابس الذى تحمله الرياح فيعلق بأرجل هذه الحيوانات فإذا اتصل بجسد دخل فى مَسَامّه فأثار فيه تلك القروح التى تنتهى بإفساد الجسم وتساقط لحمه ، وإن كثيرا من هذه الطيور الضعيفة يُعَدُّ من أعظم جنود الله فى إهلاك من يريد إهلاكه من البشر ، وإن هذا الحيوان الصغير الذى يسمونه الآن بالمكروب لا يخرج عنها ، وهو فرق وجماعات

لا يحصى عددها إلا بارئها ، ولا يتوقف ظهور أثر قدرة الله تعالى فى قهر الطاغين على أن يكون الطير فى ضخامة رءوس الجبال ، ولا على أن يكون من نوع عنقاء مغرب ؛ ولا على أن يكون له ألوان خاصة به ، ولا على معرفة مقادير الحجارة وكيفية تأثيرها ، فلله جند من كل شىء

وفى كل شىء له آية تدلُّ على أنه الواحدُ

وليس فى الكون قوة إلا وهى خاضعة لقوته ؛ فهذا الطاغية الذى أراد أن يهدم البيت أرسل الله عليه من الطير مايوصل إليه مادة الجدرى أو الحصبة فأهلكته وأهلكت قومه قبل أن يدخل مكة ، وهى نعمة من الله غمر بها أهل حرمه على وثنيتهم حفظا لبيته حتى يرسل من يحميه بقوة دينه صلى الله عليه وسلم ، وإن كانت نقمة من الله حلت بأعدائه أصحاب الفيل الذين أرادوا الاعتداء على البيت بدون جرم اجترمه ولا ذنب اقترفه . اهـ . ولا شك أن هذا الذى ذهبوا إليه أمر مقبول موافق لما جرت به العادة ولما يكثر وقوعه ويشاهده الناس فى كل جهة ، فالذباب يحمل كثيرا من جراثيم الأمراض ووقوع ذبابة واحدة ملوثة بالمكروب على الإنسان كافٍ فى إصابته بهذا المرض ، ثم هو نفسه كفيل بأن ينقل هذا المرض إلى الجم الغفير من الناس ، فاذا اقتضت إرادة الله أن يهلك جيشا كثير العدد وافر العدد ببعوضة واحدة لم يكن ذلك بعيدا عن الإلف والعادة ، وذلك أقوى فى الدلالة على قدرة الله وعظيم سلطانه من أن يكون هلاكهم بكبار الطيور وغرائب الأمور ؛ وهو أدل على ضعف الإنسان وذله أمام القهر الإلهى والجبروت العلوى وكيف لا هو مخلوق تبيده ذبابة وتقضُّ مضجعه بعوضة ويؤذيه هبوبُ الريح ، وإذا عرفت كله ذلك فاستمع لتفسير كلمات السورة الكريمة .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحٰبِ الْفِيلِ [١] أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ [٢]

قوله تعالى : (ألم تر) معناه فى الأصل ألم تُبْصِرْ ، والمراد به هٰهُنَا ألم تَعْلَمْ ، وإنما عَبَّر عن العلم بالرؤية إشارة إلى أن الخبر بهذه القصة متواتر مستفيض فالعلم الحاصل به علمٌ ضرورى مُسَاوٍ فى قوة الثبوت وجلائه ووضوحه للعلم الناشىء عن الرؤية والمشاهدة (كيف فعل ربك) أى الحالةَ والكيفية التى وقع عليها عملُ الله الذى يتولَّى أمرك و يتعهدك بالتربية ، وإنما وقع الاستفهام عن رؤية الكيفية التى وقع عليها الفعل ، لا عن الفعل نفسه ، لأن الكيفية هى التى تدل على قدرة الصانع وعلمه وحكمته ، ألست ترى أنه سبحانه وتعالى يقول فى معرض توجيه أنظار الكفار إلى الاستدلال على وجود الصانع وتمام قدرته : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها » فالكيفية التى يقع الفعل عليها هى التى تكون طريق الدلالة على ماذكرنا ، وكيفية صنع الله تعالى بأصحاب الفيل من هذا القبيل ، ألست ترى أنه ليس فى شىء من الطبائع والحيل و إيجاد العلل والأسباب أن يجىء طير فيقصد إلى قوم دون قوم معهم فى جهة واحدة ، فذلك أمارة أنه من صنع الله القادر الحكيم (بأصحاب الفيل) الذين قصدوا تخريب مكة وهدم البيت ، والفيل : حيوان معروف . والهمزة للاستفهام التقريرى والمعنى إنك قد علمت ذلك علماً جليًّا واضحاً لا لَبْسَ فيه

ثم أخذ سبحانه فى بيان تلك الحالة التى وقع عليها فعلُه بهم بياناً إجمالياً فقال : (ألم يجعل كيدهم فى تضليل) والكيد : هو إرادتُكَ وقوعَ ضررٍ بغيرك

وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ [٣] تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِن سِجِّيلٍ [٤]

على خفاء ، وإنما سمى الله تعالى عمل أصحاب الفيل كيداً مع أن أمرهم لم يكن خافياً وقد كان أبرهة يصرح بأنه جاء ليهدم البيت الحرام لأن مافى قلبه مما لم يظهر على لسانه أكثر مما ظهر ، فقد كان يُضْمر لأهل مكة من الحقد والحسد على ما امتازوا به من الشرف بسبب الكعبة الشىء الكثير . والتضليل : التضييع والابطال ، تقول : ضَلَّلْتُ كيدَ فلانٍ ، إذا جعلته باطلا ضائعاً . والهمزة للاستفهام التقريرى مثل التى قبلها ، والمراد لقد جعل ربك كيد هؤلاء فى ضياع و بطلان .

وقوله سبحانه : (وأرسل عليهم طيراً أبابيل) الطير : اسم لكل ما طار فى الهواء ، صغيراً كان أو كبيراً ، مرئياً كان أو غير مرئى ، والأبابيل : الجماعات ، وقد اتفقوا على أن هذا اللفظ جمعٌ لأنه على وزن من أوزان جموع الكثرة ، ثم اختلفوا فقال الفراء والأخفش : لا واحد من لفظه ، وفى اللغة كثير من الجموع التى لا واحد لها من لفظها مثل الشماطيط والعباديد والمذاكير والملامح ، وقال أبو جعفر الرواسى : واحده إبَّالةٌ ، ومنه قولهم : زادنى ضِغثاً على إبالة ، وأصل الإبَّالة الحُزْمَةُ الكبيرة من الحطب ونحوه ، سميت الجماعة من الطير فى نظامها بهذا اللفظ ، على التشبيه ، وقال الكسائى : واحده إبَّوْل ، مثل عِجَّوْل وعجاجيل ، وقيل : واحده إيبالة(١) مثل دينار ودنانير

وقوله سبحانه (ترميهم بحجارة من سجّيل) السِّجيلُ : الطين الذى تحجَّر ، قال ابن عباس : السجيل المطبوخ كما يطبخ الآجرُّ ، وهو معرب عن سنك وكل ، فيفيد أنه جمع إلى الطين يبوسة الحجر

(١) وأصل إيبالة إبالة ، كما فى قول الرواسى ، فقلب أحد المثلين ياء ، كما أن أصل دينار دنّار — بتشديد النون — ومثله قيراط وديوان فى قول

فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ [٥]

وقوله سبحانه : (فجعلهم كعصف مأكول) العصف : ورق الزرع الذى يبقى فى الأرض بعد الحصاد وتعصِفه الرياح فتأكله الماشية ، وقيل : العصف هو التِّبْنُ ، ويقال : العصف هو أطراف الزرع قبل أن يدرك السنبل ، ويقال : العصف هو الحَبّ الذى أكل لُبُّهُ وبقى قِشره ، ومعنى كونه مأكولا أنه مما تأكله الدواب . ويقال لكل شىء صالح للأكل : هذا مأكول ، والمعنى أنه جلت قدرته قد جعل هؤلاء القوم كعصف تأكله الدواب ، ويقال : معنى مأكول أنه قد وقع فيه الأكال ، وهو السُّوس ، ويقال : معنى مأكول أن الدواب قد أكلت بعضه وتناثر بعضه الآخر من بين أسنانها . والله سبحانه وتعالى أعلى وأعلم

سورة قريش *

[وهى مكية ، وآياتها أربع آيات ، ونزلت بعد سورة التين] (١)

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ [١] إِۦلَٰفِهِمْ

---

* ويقال : سورة لإيلافِ قريش

(١) اختلف العلماء فى عدد آى هذه السورة ، وفى مكان نزولها ؛ فأما عن الأول فقد عدّها الحجازيون خمس آيات ، وعدّها غيرهم أربع آيات ؛ وأما عن الثانى فقد روى عن الضحاك وابن السائب الكلبى أنها مدنية ، وروى عن غيرهم أنها مكية ، وهو اختيار الجمهور .

ووجه المناسبة بين هـذه السورة والتى قبلها أظهر من أن يدل عليه أو يشار إليه ، أفلا ترى أن هذه السورة مثل التى قبلها فى أن كلا منهما قد تضمن ذكر نعمة من نعم الله تعالى على أهل مكة ، فالسورة السابقة تضمنت نعمة إهلاك عدوهم الذى جاءهم يبغيهم الغوائل ويحاول هدم بيتهم الذى هو أساس مجدهم وَدِعَامَةُ عزهم ، وفى هذه السورة ذكر نعمة أخرى هى إيلافهم واجتماع أمرهم والتئام شملهم ليتمكنوا من الارتحال صيفا وشتاء فى تجاراتهم وجلب الميرة لبلادهم . ولشدة الارتباط بين السورتين ووثيق الاتحاد بينهما كان أبى بن كعب يعتبرهما سورة واحدة حتى روى عنه أنه لم يفصل بينهما بيسملة

قوله تعالى : (لإيلافِ قريش إلافِهِمْ) الإيلاف : مصدر آلفت الشىء كالإلف مَصْدَرِ أَلِفتهُ ، وتقول : أَلِفْتُ الشىء إلفاً وإلافا وآلَفْتُه إيلافا ، ومعناه لزمته وعكفت عليه ، ويقال : الإيلاف اجتماع الشمل مع الالتئام . وقد

اختلفت كلمة العلماء فى متعلق اللام التى فى قوله سبحانه « لايلاف » فذهب سيبويه والخليل وتبعهما جار الله فى الكشاف إلى أن اللام متعلقة بقوله سبحانه « فليعبدوا رب هذا البيت » الذى يأتى فيما بعد ؛ وتقدير الكلام على هذا فليعبدوا رب هذا البيت لايلاف قريش ، والمعنى على هذا ليجعلوا عبادتهم شكراً لله على هذه النعمة التى أسداها إليهم واعترافا بما آثره سبحانه عليهم . فان قلت : فكان من حق الكلام على هذا ألاّ تدخل الفاء فى « فليعبدوا » ولايُفْصَل بها بين العامل والمعمول ، فالجواب أن هذه الفاء عندهم دخلت الكلام لأنه تضمن معنى الشرط ، وكأن أصل النظم : إن كان هؤلاء لايعبدون ربهم لسبب من الأسباب فليعبدوه لأنه آلفهم . وذهب قومٌ إلى أن اللام متعلقة بشىء فى السورة السابقة وهؤلاء اختلفوا فى تحديد هذا المتعلق ؛ فذهب الزجاج وأبو عبيدة إلى أن المتعلق هو قوله سبحانه « فجعلهم كعصف مأكول » والمعنى أن الله أهلك أصحاب الفيل لتبقى قريش مؤتلفة مجتمعة الشمل وليتيسر لهم الارتحال إلى اليمن والشام ؛ وذهب غيرهما إلى أن المتعلق هو « فعل ربك بأصحاب الفيل » وكأنه قد قال : كل مافعلنا بأصحاب الفيل فقد فعلناه لايلاف قريش . فان قلت : فكيف يصح هذان القولان وهو سبحانه إنما فَعَلَ بأصحاب الفيل مافعل لكفرهم وطغيانهم وتجبرهم وما ذكرتم يدل على أنه فعل بهم مافعل لايلاف قريش ؟ فالجواب أن نقول لك : إنا لانسلم لك مازعمت من أنه تعالى فعل بهم مافعل لكفرهم لأن عقاب الكفر مؤخر إلى يوم القيامة بدليل قوله سبحانه « اليوم تجزى كل نفس بما كسبت » وقوله : « ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ماترك على ظهرها من دابة » ولئن سلمنالك أنه سبحانه فعل بهم مافعل لكفرهم فإن ذلك لايمنع أن يكون قد فعل بهم مافعل لايلاف قريش أيضا ؛ فيكون سبب فعله بهم مجموع الأمرين ؛ فان قلت : فكيف صار مافعله الله بأصحاب الفيل سببا فى إيلاف قريش ؟

رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ [٢]

فالجواب أن نقول لك : إنك تعلم أن مكة و ما حولها بلاد خالية عن الزرع وأسباب المعيشة ، ويدل لذلك قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام : « ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » وتعلم أن هذه الحالة اقتضت أن يرتحل أشراف أهل مكة للتجارة إلى اليمن تارة و إلى الشام تارة أخرى ، وهم إنما كانوا يربحون فى تجاراتهم وأسفارهم لأن الناس كانوا يعظمونهم ويحترمونهم لأنهم جيران بيت الله وسكان حرمه وولاة الكعبة ، فلو أنه تم لأهل الحبشة ما كانوا قد عزموا عليه من هدم البيت لضعف احترام الناس لهم وزال عنهم عزهم و بطلت الأسباب الموجبة لتعظيمهم وتبجيلهم ، فلما أهلك الله أصحاب الفيل ورد كيدهم فى نحرهم ازداد شرف أهل مكة وعظمت منزلتهم فى القلوب فزادت بذلك منافعهم وعظم ربحهم ، وقريش : هم أبناء النضر بن كنانة ، وسموا بذلك أخذاً من القَرْش وهو الكسب لأنهم كانوا كاسبين بتجاراتهم وضربهم فى البلاد

وقوله سبحانه : (رحلة الشتاء والصيف) الرحلة : اسم لارتحال القوم : أى شدّهم الرحال للمسير ، ونصب « رحلة » بالمصدر الذى قبله . وقد اختلف العلماء فى المراد برحلة الشتاء والصيف ؛ فقال الجمهور : كانت لقريش رحلتان : رحلة بالشتاء إلى اليمن ، ورحلة بالصيف إلى الشأم ، وكان تجارهم يذهبون فيهما للكسب واجتلاب الربح واستدرار الرزق والاستكثار من الميرة ، ووجه الامتنان عليهم بذلك ما قدمنا من أن قوافلهم كانوا يعتمدون فى معاملاتهم مع الناس على ما أودعه الله قلوب الناس من احترامهم لكونهم سكان مكة وجيرانَ بيت الله وحَجَبَتَه فلو نزلت منزلة البيت من نفوس العرب ونقصت حرمته

فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هٰذَا الْبَيْتِ [٣] الَّذِى أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ [٤]

عنـــدهم لاستطالت الأيدى بالتعدّى على سُفَّارهم فكانوا لا يرتحلون ولا يتجرون فتقل حينئذ وسائل الكسب عندهم فيتفرقون ويتركون بلادهم لكونها بلاداً قاحلة لاتنبت زرعا ولا تقام فيهـا صنائع مما يحتاجه الناسُ فتصير حالهم كحال اليهود الذين قطعهم الله فى الأرض أمما . ومن العلمـاء من ذهب إلى أن المراد برحلة الشتاء والصيف رحلة الناس إلى أهل مكة ؛ فرحلة الشتاء الحج ، ورحلة الصيف العمرة التى تكون فى رجب ، ووجه الامتنان عليهم بذلك أن فى وفود الناس عليهم منافع لهم ، ولو أنه تم لأهل الفيل هدمُ البيت لانقطع الناسُ عنهم فتزول عنهم هذه المنفعة

ولما ذكر سبحانه نعمته عليهم أتبع ذلك بأمرهم بعبادته لأن العبادة شكر للنعمة وقد تقرر أن الانعام لابد من مقابلته بالشكران ، فقال جل شأنه : (فليعبدوا رب هـذا البيت) أى : ليوحّدوا الله وليخصوه بالتوجه إليه والصمود نحوه كما خصوه بالتوجُّه حين حزبهم الأمر وخافوا سطوة عدوهم ، وهو الذى حفظ لهم بيتهم الذى به عزهم وعليه مَدَار مجدهم ، ولا يَدَ للأوثان التى يدعونها فى حفظه ومنعه

وقوله سبحانه : (الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف) هو من أوصاف رب هذا البيت الذى يستحق بها العبادة ، ومعنى إطعامهم أنه أوسع لهم الرزق وَمَهَّد لهم سبيله وآمن طريقهم إليه وأورثهم القبول عند الناس فاستطاعوا بذلك أن يجدوا أقواتهم ، ولو أنه لم يجعل لهم ذلك لعاشوا فى ضيق وضنك شديدين ، ومعنى « آمنهم من خوف » أنه سبحانه جعلهم فى مأمن من التعدى عليهم والتطاول إلى أموالهم وأنفسهم ، ولولا ذلك لأخذهم الخوف من كل مكان . وتنوين « جوع » و« خوف »

للتعظيم : أى أطعمهم من جوع شـديد لايقادر قدره وآمنهم من خوف عظيم لايدرك مَدَاه . وإنما أفرد « رحلة » فى قوله « رحـلة الشتاء والصيف » مع أنهما رحلتان بدليل المضاف إليه وماعطف عليه لأن ذلك معروف فى لسان العرب ، انظر إلى قول المسيَّب بن زيد مناة الْغَنَوِىّ :

لَاتُنْكِرِ الْقَتْلَ وَقَدْ سُبِينَا فى حَلْقِكُمْ عَظْمٌ وَقَدْ شجِينَا

أفلا تراه قد قال « فى حَلْقِكم » فأفرد المضاف مع أن المضاف إليه جمع ، ثم انظر إلى قول علقمة بن عبدة :

بِهَا جِيَفُ الْحَسْرَى ، فَأَمَّا عِظَامُهَا فَبِيضٌ ، وَأَمَّا جِلْدُهَا فَصَلِيبُ

أفلا تراه قد قال « وأما جلدها » وهو يريد الجمع بدليـل قوله قبل ذلك « فأما عظامها » ، ثم انظر إلى قول الشاعر :

* حَمَامَةَ بَطْنِ الْوَادِيَيْنِ تَرَنَّمِى *

فانك تجده قد قال « بطن الواديين » فأفرد المضاف مع أن المضاف إليه مثنى ، وانظر إلى قول الآخر :

كُلُوا فِى بَعْضِ بَطْنِكُمُ تَعِفُّوا فَإِنَّ زَمَانَكُمْ زَمَنٌ خَمِيصُ

فانك تراه قد قال « بطنكم » ولم يقل بطونكم ؛ فدل ذلك على أن هـذا الاستعمال سائغ جائز فى العربية لانكر فيه ولا شذوذ . والله سبحانه وتعـالى أعلى وأعلم

سورة الماعون *

[وهى مكية ، وآياتها سبع آيات ، ونزلت بعد سورة التكاثر] (١)

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِالدِّينِ [١]

---

* ويقال : سورة أرأيت ، وتسمى أيضاً سورة الدين ، كما تسمى سورة التكذيب

(١) اختلف العلماء فى عدد آى هذه السورة وفى مكان نزولها ، أما عن الأول فعدَّها قوم ست آيات ، وعدها آخرون سبع آيات ، وعليه الجمهور ، وأما الثانى فروى عن الجمهور وابن الزبير أنها مكية ، وروى عن قتادة والضحاك أنها مدنية ، واختلفت الرواية عن ابن عباس ؛ فذكر فى الدر المنثور أنها عنده مكية ، وذكر فى البحر أنها عنده مدنية ، وقال هبة الله الضرير : نزل نصفها بمكة فى العاص بن وائل ونصفها فى المدينة فى عبد الله بن أبى المنافق ، وهذا هو الذى اختاره مصححو مصحف الحكومة المصرية حيث قالوا : « مكية ثلاث الآيات الأول مدنية البقية » ، وقال العلامة الشهاب : وقيل : نصفها الأول مكى والثانى مدنى ورجحه بعض المفسرين والمحدثين . اه

وجه المناسبة بين هذه السورة والتى قبلها أنه سبحانه لما ذكر فى السورة السابقة « أطعمهم من جوع » ذمَّ فى هذه السورة من لم يحضّ على طعام المسكين ، وأيضاً لما قال سبحانه فى السورة السابقة « فليعبدوا رب هذا البيت » ذمَّ هنا من سها عن صلاته ؛ ووجه آخر من المناسبة ، وذلك أنه سبحانه لما عدَّد نعمه على قريش ، وكان ذلك الامتنان لا يصرفهم عما هم عليه من إنكار البعث وجحد الجزاء على الأعمال ؛ أتبعه سبحانه بتهديدهم وتخويفهم من عذابه

قوله سبحانه : (أرأيت الذى يكذب بالدين) الهمزة للاستفهام ، والمراد به

تشويق السامع إلى تعرف مايذكر بعدُ ، وهو أيضا يتضمن التعجيب منه ؛ مثل أن تقول لصاحبك : أرأيت فلانا ماذا صنع ، أو تقول : أرأيت فلانا كيف عَرَّضَ نفسه للمخاطر ، فأنت تريد بذلك وما أشبهه أن تبعث المخاطب على العجب ممن تذكره بعد الاستفهام ؛ والمراد بالخطاب هو النبي صلى الله عليه وسلم أولاً ثم ينصرف إلى كل من يرى ، والدين ههنا هو البعث والجزاء والحساب ، ويقال : المراد به الإسلام ، والتكذيب بالدين على الأول إنكار أن الله يبعث الناس ليوم تشخص فيه الأبصار ، وجحد أنه سبحانه يجازى الناسَ على ماقدمت أيديهم ويحاسبهم على ما أزلفوا فى هذه الحياة الدنيا ، وعلى الثانى معناه إنكار عقائد الإسلام كتوحيد الخالق ونبوة رسوله صلى الله عليه وسلم . هكذا قال المفسرون ، والأولى أن تحمل الدين بمعنى يعم ذلك كله وهو الخضوع لما وراء المحسوس من الشئون الإلٰهية التى لايمكن للانسان أن يدركها ويعرف حقيقتها وإنما يجد آثارها مشهودةً فى الكون باعثة على التصديق والإذعان ، ومن ذلك وجود الصانع ووحدانيته وحكمته وعلمه وإرادته ، ومنها بعثة الرسل مبشرين ومنذرين مؤيَّدين بالمعجزات الباهرة والآيات الخارقة الدالة على صدقهم فيما يدعون ، ومنها ما أخبر به الرسلُ عن ربهم من أن للناس حياةً أخرى يُعْرَضُون فيها على ربهم فيجازيهم ويحاسبهم . ومعنى الآية هل عرفت ذلك الذى يكذب بما وراء إدراكه من الأمور الإلٰهية بعد أن ظهر له بالدليل القاطع ووضح أمام عينه بالبرهان الساطع ؟ أهو يفعل ذلك لغير غرض أو يفعله لغرض دنيوى ؟ فان كان يفعله لغير غرض فهو من الجهالة وشناعة الحال بالمكان البعيد ؛ لأن العاقل لاينبغى أن يعرض نفسه لسخط خالقه وعقوبته الأبدية لغير غرض ، وإن كان يفعل مايفعل لأجل منفعة دنيوية وليِنالَ عَرَضا تافها من أعراض الحياة الزائلة فهو أيضاً جاهل مغرور ؛ لأن العاقل لاينبغى له أن يبيع الكثير الباقى بالقليل الفانى ؛ وإن كنتَ لاتعرفه

فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ [٢] وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ [٣]

بذاته فنحن نعرفه لك بصفاته ، وذلك قوله سبحانه : (فذلك الذى يدعُّ اليتيم ولايحض على طعام المسكين) ومعنى « يدعّ اليتيم » يدفعه ويزجره زجرا عنيفا إن جاءه يطلب منه حاجة ؛ احتقاراً له ، واستصغاراً لشأنه ، وتكبراً عليه ، ودعُّه شامل لدفعه عن ماله وحقه ظلما وهضما ، وتَرْكِ المواساة له وإن لم تكن المواساة واجبة ، وزجْره وضربه والاستخفاف به . وقد قرىء « فذلك الذى يَدَعُ اليتيم » ومعناه يترك اليتيم ولا يَدْعُوه بدعوة : يعنى أنه يدعو الناسَ ويتركه ، وقوله سبحانه « ولايحض على طعام المسكين » معناه لايحث عليه ولايدعو الناس إليه ، وإذا كان لايحث غيره عليه ولا يدعو سواه إليه فانه لايفعله عادةً ، ولهذا كان ذلك كناية عن كونه لايطعم المساكين ولايجود لهم بشىء من ماله ، والسر فى الاتيان بهذه الكناية الارشاد إلى أنه إذا عرَضَ لك مسكين ولم تجد ماتعطيه كان عليك أن تطلب إلى غيرك معاونته وتدفعه إلى ذلك وتحثه عليه ؛ فقد ذكر سبحانه فى وصف المكذب بالدين صفتين : إحداهما التى أشار إليها قوله « فذلك الذى يدع اليتيم » والثانية التى يشير إليها قوله « ولايحض على طعام المسكين » فكان المكذب بالدين هو الذى يحتقر الضعفاء ويتكبر عليهم ، ويأخذه الصلف والعتو حتى يدفعاه إلى زجر الضعفاء وتعنيفهم وإهانتهم ، وهو الذى يبخل بماله على الفقراء والمحاويج ، ويبخل مع ذلك بسعيه لدى الأغنياء ، حتى يُعينوا الفقراء ويَسُدُّوا حاجاتهم

ثم إنه لما كانت الصلاة عُنواناً للخشوع لبارىء السموات والأرض، ودليلا على قَهْرِ النفس لعظمة مَنْ بيده ملكوت كل شىء ؛ حتى تنطبع النفس على الذل له سبحانه والاستكانة لجبروته وكبريائه ، وذلك يستدعى أن يصير الانسان

فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ [٤] الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ [٥] الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ [٦] وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ [٧]

خاضعاً منكسرا متواضعاً فلا يتكبر على الفقراء ولا يتعاظم عليهم ، ولا ينهر المساكين ولا يزجرهم ، لما كان ذلك شأن الصلاة ، وكان مَنْ يصلى الصلوات كلها من غير أن تنهاه صلاته عن التكبر والتعاظم وتدعوه إلى المرحمة و الاشفاق فهو مُرَاءٍ فى عمله كاذب فى دَعْوَاهُ التديُّنَ ، فلهذا كله ناسب أن يقول الله سبحانه وتعالى بعد وصف المكذب بيوم الجزاء : (فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون) فكأنه سبحانه يقول : إنَّ من يؤدى الصلوات بجسمه ولسانه من غير أن يكون لها أثر فى نفسه ومن غير أن تؤتى ثمرتها التى شرعت من أجلها ، لا ثواب له عليها ، بل هو مُعَاقَبٌ عليها عقاباً شديداً ، أولئك هم الذين غفلت قلوبهم وَلَهَتْ أفئدتهم عما تقول ألسنتهم وتفعل جوارحهم ؛ فأحدهم يركع وهو لاهٍ عن ركوعه ، ويسجد وهو ذاهل عن سجوده ، ويكبر وهو لا يعى ما يقول ، ويسبح وهو بعيد عن تدبر معنى التسبيح ، ويتشهد وهو غير متفكر ولا منتبه ؛ وإنما هى حركات اعتادها وكلمات حفظها فهو يأتى بها كما يدور الدولاب وكما تسير الآلات ؛ فمن ثَمة لا تدرك نفسه معناها ولا تصل إلى ثمرتها .

وقوله سبحانه : (الذين هم يراءون) معناه أنهم يفعلون أفعالا ظاهرة بقدر مايرى الناس من غير أن تستشعر قلوبهم ونفوسهم بها وتَسْتَكْنِهَ حكمها وأسرارها

وقوله سبحانه : (ويمنعون الماعون) قد اختلف العلماء فى بيان الماعون ؛ فروى عن أبى بكر وعلى وابن عباس وابن عمر وابن الحنفية والحسن وسعيد بن جبير وعكرمة وقتادة والضحاك أن المراد بالماعون الزكاة ، وكأنهم ذهبوا إلى ذلك لأنه ذكر بعد الصلاة ، وذكر أكثر المفسرين أن الماعون اسم لما لم تجر عادة الناس بمنعه ، وقد جرت العادة بأن يسأله الفقيرُ والغنىُّ ويُنسب من يمنعه إلى

سوء الخلق ولؤم الطبع، مثل القِدْر والدَّلو والفأس والمِقْدَحَة والقدُوم، وحكى الفراء أن الماعون هو الماء، وقيل: الماعون هو حسن الانقياد، ومنه يقال: رُضْ بعيرك حتى يعطيك الماعون؛ قال الأستاذ: فأولئك الذين يُصَلُّون ولايأتون من الأعمال إلا ما يُرَى للناس مما لا يكلفهم بذلَ شيء من مالهم ولا يخشون منه ضرراً يلحق بأبدانهم أو نقصاً يُلِمُّ بجاههم، ثم يمنعون معونتهم ولاينهضون بباعث الرحمة إلى سد حاجتهم وتوفير مايكفل راحتهم وأَمْنَهُمْ وطمأنينتهم، أولئك لاتنفعهم صلاتهم، ولا تخرجهم من حد المكذبين بالدين، لافرق فى ذلك بين مَنْ وَسَمُوا أنفسهم بسِمَةِ الاسلام أو غيره، فان حكم الله واحد، لامحاباة فيه للأسماء المنتحلة التى لاقيمة لها إلا بمعانيها الصحيحة المنطبقة على مراده تعالى من تحديد الأعمال وتقرير الشرائع. فخاصة المصدق بالدين التى تميزه عن سواه من المكذبين هى العدل والمرحمة وبذل المعروف للناس، وخاصة المكذب التى يمتاز بها عن المصدقين هى احتقار حقوق الضعفاء، وقلةُ الاهتمام بمن تلذعهم آلام الحاجة، وحُبُّ الأثرة بالمال، والتعزز بالقوة. ومنع المعروف عمن يستحقه من الناس. اهـ. وقال جار الله: ولا يكون الرجل مُرائياً بإظهار العمل الصالح إن كان فريضة، فمن حقّ الفرائض الإعلانُ بها وتشهيرها؛ لقوله عليه السلام: «ولا غمة فى فرائض الله» لأنها أعلام الإسلام وشعائر الدين، ولأن تاركها يستحق الذم والمقْت، فوجب إماطة التهمة بالاظهار؛ وإن كان تطوعاً فحقه أن يخفى؛ لأنه مما لا يلام بتركه ولا تهمة فيه، فإن أظهره قاصداً للاقتداء به كان جميلا، وإنما الرياء أن يقصد بالإظهار أن تراه الأعين فيثنى عليه بالصلاح، وعن بعضهم أنه رأى رجلا فى المسجد قد سجد سجدة الشكر وأطالها فقال: ما أحسن هذا لو كان فى بيتك!! وإنما قال هذا لأنه توسَّم فيه الرياء والسمعة، على أن اجتناب الرياء صعب إلا على المرتاضين بالاخلاص، ومن ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الرياء أخفى من دبيب النملة السوداء فى الليلة الظلماء على المِسْح الأسود» اهـ. والله أعلم

سورة الكوثر *

[وهى مكية ، وآياتها ثلاث آيات ، ونزلت بعد سورة العاديات] (١)

---

* وتسمى أيضاً سورة النحر

(١) لاخلاف بين العلماء فى عدد آى هـذه السورة ، فكلهم مجمعون على أنها ثلاث آيات وأنها أقصر سورة فى القرآن ، وقد اختلفوا فى مكان نزولها ؛ فروى عن ابن عباس والكلبى ومقاتل أنها مكية ، ونسبه صاحب البحر إلى الجمهور ، وروى عن الحسن وعكرمة وقتادة ومجاهد أنها مدنية ، وذكر فى الاتقان أن هذا هو الصواب ، وذكر الخفاجى أن من العلماء مَنْ رجح أنها نزلت مرتين وحينئذ يزول الإشكال .

وجه المنـاسبة بين هذه السورة والتى قبلها أن الله تعـالى وصف فى السورة السابقة الذى يكذب بالدين بأربعة أمور : البخل ، والإعراض عن الصلاة ، والرياء ، ومنع المعونة ؛ وقد ذكر سبحانه فى هذه السورة مامنحه رسوله صلى الله عليه وسلم من الخير والبركة ، فذكر أربعة أشياء ، وهى الكوثر الذى هوالخير الكثير على ماسيأتى بيانه ، والحرص على الصلاة والدوام على فعلها ، والاخلاص المستفاد من قوله « لربك » ، وَالتصدُّق الذى يشير إليه قوله سبحانه « وانحر » فكانت هذه السورة فى مقابلة السورة السابقة

كان الكفار من أهل مكة والمنافقون من أهل المدينة يعيبون النبى صلى الله عليه وسلم ويلمزونه بأشياء منها أن أتباعه من الفقراء الذين ليس لهم بينهم مكانة ، وكانوا يقولون : لوكان ماجاء به محمد صحيحا لاتبعه السـادة والكبراء ولما كان أنصاره من ضعاف الناس وذوى الحاجة منهم ؛ وهذه حجة لجأ إليهـا من قبلهم

كثير من الأمم مع أنبيائهم ، فقد قصّ الله تعالى علينا فى قصة نوح مع قومه قولَهُمْ له : « مانراك إلا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا باديَ الرأى وما نرى لكم علينا من فضل ، بل نظنكم كاذبين » وقص علينا سبحانه جواب نوح عليه السلام لهم على ذلك فقال: «قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده فعُمِّيَتْ عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون وياقوم لاأسألكم عليه مالا إن أجرِيَ إلا على الله وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقو ربهم ولكننى أراكم قوما تجهلون ، وياقوم من ينصرنى من الله إن طردتهم أفلا تذَكَّرُونَ ، ولا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ، ولا أقول إنى مَلَكٌ ، ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا الله أعلم بما فى أنفسهم إنى إذا لمن الظالمين » فهذه سنة الله فى خلقه ، كلما أرسل رسولا كان أسْرَعَ الناس اتباعاً له هم الضعفاء والمهضومون ذلك بأنهم لايملكون مالا فهم يخافون عليه أن يضيع فى سبيل الدعوة الجديدة ، وليس لهم جاهٌ ولانفوذ ولاسلطان فهم يخافون أن يضيع جاههم ونفوذهم وسلطانهم أمام الجاه الذى منحه الله صاحب الدعوة الجديدة ، وإذا اتبعه أحد من كبراء القوم وعليتهم وذوى الجاه فيهم كان ذلك لسمو أنفسهم وزهدهم فى متاع الدنيا وزينتها ، ومن سنة الله فى خلقه أن يبقى كبراء القوم وسادتهم متخلفين عن الايمان حرصاً وبخلا وضَنًّا ، حتى يدخلوا فى دين الله وهم كارهون ، أو يأخذهم الله بعذابه فيصبحوا من الهالكين . ومن سنة الله فى خلقه أن يظل الجدال بين هؤلاء السادة والكبراء ورسل الله وأن يأخذوا فى انتقاصه وكيل التهم له تهمة بعد تهمة ، والله يؤيد رسله وينصرهم ، ومن ينصره الله فلا غالب له . وعلى هذه السنن كلها جرى أهل مكة مع النبى صلى الله عليه وسلم ، فقد تخلف سادتهم وكبراؤهم وأهل اليسار منهم عن اتباعه ، حسداً له ولقومه الأدنين أن تكون فيهم النبوة ، وحرصاً على نفوذهم واستبدادهم أن يزول ويصبحوا سواسية مع عبيدهم وأتباعهم ، وكانوا يعيرون

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَعْطَيْنَٰكَ الْكَوْثَرَ [١]

الرسول بفقر أتباعه وضعفهم ، وأحيانا يطلبون إليه أن يطرد هؤلاء الأتباع الفقراء فيأمره الله بالابقاء عليهم والصبر معهم فى نحو قوله سبحانه : « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، ولا تَعْدُ عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ، ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فُرُطاً » وكانوا إذا رأوا أبناءه يموتون قالوا : قد انقطع ذِكْرُ محمد وصار أبتر ، يحسبون ذلك عَيْبًا فيأخذون فى الطعن عليه ولَمْزه ويحاولون بذلك تنفير الناس من أتباعه ، وكانوا إذا رأوا شدة نزلت بالمؤمنين طاروا بها فرحا وانتظروا أن تدول الدولة عليهم وتذهب ريحهم فتعودَ لهم مكانتهم التى زعزعها الدين الجديد ، وكان إلى جوار هؤلاء قومٌ حديثو عهدٍ بإيمان تمرُّ بأنفسهم خواطر السوء عند ماتشتد عليهم حلقات الضيق من إعنات الكفار فلا يجد ذلك من قوة النفس وصلابة اليقين مايزيله ويعفى آثاره

أمام هذه العوامل كلها وفى وسط هذه الزعازع الهوجاء أنزل الله تعالى على رسوله سورة الكوثر ليؤكد لرسوله أن مايُرْجِفُ به المشركون وهم لاحقيقة له ، وليمحص من نفوس الذين لم تصلُبْ قناتهم ، وليكبت الكفار ويرد كيدهم إلى نحورهم ، ويعلمهم فى أدق عبارات التأكيد أن الرسول هو الفائز المنتصر ذو الخير الكثير والفضل العميم ، وأن أتباعه هم الظافرون المفلحون الناجحون ، وأن أعداءه هم الخائبون الذين تذهب ريحهم وينزل بهم الفشل فينمحى ذكرهم ويزول عن الوجود أثرهم ؛

وذلك قوله سبحانه : (إنا أعطيناك الكوثر) وأصل الكوثر فى لغة

العرب بمعنى المُفْرِط فى الكثرة ؛ وقد قيل لأعرابيةٍ رجع ابنها من السفر : بم آب ابنك ؟ فقالت : آب بكوثر ؛ ويقال للرجل الكثير العطاء : كوثر ، ومن ذلك قول الكميت بن زيد الأسدى :

وَأَنْتَ كَثِيرٌ يَا ابْنَ مَرْوَانَ طَيِّبٌ وَكَانَ أَبُوكَ ابْنُ العَقَائِلِ كَوْثَرَا

وقد اختلف العلماء فى المراد من الكوثر فى هذه الآية ؛ فقال قوم : الكوثر هو النبوة ، وهى خير فوق كل خير وعزّة دونها كل عزة ؛ وقال قوم : الكوثر هو القرآن الذى لاتحصى فضائله ؛ وقال قوم : الكوثر الأتباع والأشياع وذلك أن له عليه الصلاة والسلام من الأتباع مالا يحصيهم إلا الله تعالى وهم لايزالون فى ازدياد إلى يوم القيامة ، وهو عليه الصلاة والسلام مُباهٍ بأتباعه الأممَ يوم القيامة ، وقال قوم : الكوثر الفضائل التى حباه الله بها مما لم يجتمع مثله ولا مايقرب منه فى أحد سواه ، وقال قوم : الكوثر رفعة الذكر التى ذكرها سبحانه فى قوله : « ورفعنا لك ذكرك » وقال قوم : الكوثر هو العلم ، وذلك لأن العلم هو الفضل والخير الكثير ، وقد امتن الله تعالى على رسوله به فى قوله : « وعلمك مالم تكن تعلم » وأمره بطلب الزيادة منه فى قوله : « وقل رب زدنى علما » وجعل الحكمة خيراً كثيرا فى قوله : « ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا » وقال قوم : الكوثر هو المقام المحمود الذى هو الشفاعة ، وقال قوم : المراد من الكوثر جميع نعم الله تعالى على رسوله ، من النبوة والقرآن والذكر الحسن وفضائل الأخلاق والنصرة على الأعداء ودوام دينه إلى قيام الساعة وغير ذلك مما لايحصيه العد ، والمعنى إنا أعطيناك من المواهب الشىء الذى يعجز التعدادُ عن البلوغ إلى نهايته ، ومنحناك من الفضائل مالا سبيل إلى استكناهه والوصول إلى حقيقته ، وإن استخف أعداؤك به واستقلوه فانما هو من فساد عقولهم وضعف إدراكهم

فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ [٢] إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ [٣]

وقوله سبحانه : (فصل لربك وانحر) معناه اجعل صلاتك وخضوعك وتوجُّهكَ لله الذى رَبَّاكَ وانحر ذبيحتك وما هو نُسُكٌ لك لله أيضا ؛ وذلك على حدّ قوله تعالى : « قل إن صلاتى ونسكى ومَحْيَاىَ ومماتى لله رب العالمين لاشريك له ، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين »

فان قلت : فما الارتباط بين هذه الآية والتى قبلها ؟

فالجواب عن ذلك أن تقول لك : إنه سبحانه بعد أن أكد لنبيه الخبر بأنه أعطاه الخير الذى لايُقْدَرُ قدره ولا يبلغ مَدَاه ، ومنحه من الفضل مايتضاءل بجانبه كل فضل ، ورزقه من الفواضل ماتُعَدُّ كل منقبة إذا قيست إليها حقيرة ؛ لما أكد له الخبر بذلك طالبه بشكر نعمته عليه ، ولما كان أفضلُ الشكر الاخلاصَ فى العبادة وجَعْلَهَا له وحده بحيث لايشرك مع الله أحداً فى التوجه إليه ، وأظهرُ مايتمثل فيه التواضع والخشوع الصلاة ، لما كان الأمر كذلك طالبه بالصلاة ، ولما كان من تمام شكر الله على نعمه بذلُ الموجود للفقراء والمحتاجين من خلقه عطف الأمر بالنحر على الأمر بالصلاة

ثم إنه سبحانه لما بَشَّر رسوله صلى الله عليه وسلم بأعظم البشارة ، وأخبره أنه منحه الفضل العميم والخير الكثير وطالبه بشكره على ذلك ، وكان من تمام النعمة وكمال المنة أن يصبح عدوُّه الذى يبغيه الغوائلَ مقهوراً ذليلا مردوداً كيدُه فى نحرِه ؛ لاجرم عقب الله تعالى ذلك بقوله : (إن شانئك هو الأبتر) والشانىء : المُبْغض ، والأبتر فى الأصل : هو الحيوان المقطوع الذنب ، والمراد به هينا الذى لا يبقى له ذِكْرٌ ولا يدوم له أثر ، شبه بقاء الذكر الحسن واستمرار الأثر الجميل بذَنَب الحيوان لأنه تابع له وهو زينة ، وشبه الحرمان من ذلك ببتر

الذنب وَقطعه . وأنت تعلم أن شانئيه صلى الله عليه وسلم ما كانوا يشنأون ذاته الكريمة ولا كانوا يبغضون شخصه؛ لأن شخصه قد كان محبباً إلى أنفسهم معظماً عندهم حتى لقد كانوا يلقبونه بالصادق الأمين ، وإنما كانوا يبغضون ما جاء به من الهدى والحكمة لأنه سَفَّه أحلامهم ، وعاب عباداتهم ، وضَلَّل آباءهم ، ونادى بفراق ما ألفوه ونشأوا عليه ووجدوا أسلافهم يعكفون عليه ويؤثرونه ، فأحسن ما يُحمَل عليه قوله سبحانه « إن شانئك هو الأبتر » ماقاله الحسن رحمه الله : عنى الكفارُ بكون النبي صلى الله عليه وسلم أبتر أنه ينقطع عن المقصود قبل بلوغه والله تعالى بَيَّنَ أن خصمه هو الذي يكون كذلك اﻫ. وقد صدق الله رسوله ماوعده به ، فانه جعل ذكر رسوله باقياً ببقاء السموات والأرض ، ورفع منزلته فوق كل منزلة ، ونصر أتباعه ، وجعل كلمتهم هي العليا ، وقهر أعداءه وأذلَّهم وجعل الدبرة عليهم ، والله عزيز ذو انتقام .والله سبحانه وتعالى أعلى وأعلم .

سورة الكافرون *

[وهى مكية ، وآياتها ست آيات ، ونزلت بعد سورة الماعون][1]

---

* وتسمى أيضا سورة المنابذة ، كما تسمى سورة الاخلاص ، وكما تسمى سورة العبادة ، وتسمى المُقَشْقِشة : أى المُبْرِئة

(١) لاخلاف بين أحد من العلماء فى عدد آى هذه السورة ، فكلهم مجمعون على أنها ست آيات؛ وقد اختلفوا فى مكان نزولها ؛ فهى عندابن عباس والجمهور مكية ، وروى عن ابن الزبير أنها مدنية ؛ واختلف النقل عن قتادة ، فذكر فى البحر أنها عنده مدنية كقول ابن الزبير ، وذكر فى مجمع البيان أنها عنده مكية كقول ابن عباس والجمهور ، ولا صحة لما قيل : إنها مكية بالاجماع

وجه المناسبة بين هذه السورة والتى قبلها أن الله تعالى أمر رسوله صلى الله عليه وسلم فى السورة السابقة بعبادته والشكر له على نعمه الضافية وقد تضمن هذا الأمر الإشارة إلى إخلاص العبادة له سبحانه ، وفى هذه السورة التصريح بما أشارت السورة السابقة إليه

روى أن الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل والأسود بن عبد المطلب وأمية ابن خلف وغيرهم من صناديد المشركين ورؤسائهم أتوا النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا له : تعالَ حتى نعبد إلٰهكَ مدة وتعبد آلهتنا مدة فيحصل بذلك الصلح بيننا و بينك وتزول العداوة من بيننا ؛ فإن كان أمرك رشيدا أخذنا منه حظا ، و إن كان أمرنا رشيدا أخذت منه حظا ، فنزلت هذه السورة رداً عليهم ، كما نزل فى هذا الشأن أيضاً قوله تعالى : «قل أفغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون . ولقد أوحى إليك و إلى الذين من قبلك لئن أشركت ليَحْبَطَنَّ عملك ولتكونَنَّ من

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ [١] لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ [٢] وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ [٣]

الخاسرين ، بل الله فاعبد وكن من الشاكرين ، وما قدروا الله حقّ قدره والأرضُ جميعا قبضتُه يوم القيامة ، والسموٰات مطويّات بيمينه ، سبحانه وتعالى عما يشركون » .

هؤلاء الناس نشأوا على ماوجدوا عليه آباءهم : من عبادة الأصنام ، ودعائهم إذا نزلت بهم نازلة ، واتخاذهم شفعاء إلى الله ، مع ثقتهم بأنه لا يخلق ولا يرزق إلا الله تعالى ، فلما دعاهم الرسول إلى إفراد الله بالعبادة والتوجه إليه والصمود نحوه والاخلاص له عزّ عليهم فراقُ ما ألفوه ، وشق على أنفسهم أن يتركوا ما ألفوا عليه آباءهم وإن كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون ؛ فلما قرَعَتْهم الحجة ولزمهم الدليل وأصبح الانكار مع وضوح الشواهد عارا وسُبَّة أخذوا يتلكأون ويحاورون ويداورون ، والتمسوا لأنفسهم الخروج من المأزق فراحوا يعرضون على الرسول أن يشاركهم فيما هم عليه لئلا يتركوا ماوجدوا عليه آباءهم ويشاركوه فيما هو عليه ليكون لهم نصيب من الفوز ؛ وهم جدُّ واثقين أنه لن يوافقهم على ذلك ، ولكنها المُداوَرَة عن الحق وارتكاب الشطط ، فهم يقولون قول الجهّال وإن كانوا عالمين ، ولهذا وصفهم الله تعالى بالجهل فى الآية التى تلونا عليك ، وإنما قلوبهم فى إصرار على عباداتهم الباطلة ، ولهذا وصفهم الله بالكفر فى هذه السورة بيانا لحقيقتهم ، وأكد أنهم لا يقلعون عما هم عليه ولا يتركونه ، فقال سبحانه : (قل يأيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد) ومعنى ذلك أن الإله الذى تزعمون أنكم تعبدونه ليس هو الذى أعبده ، وذلك لأنكم تعبدون

من يتخذ الشفعاء أو الولد أو يظهر فى شخص أو يتجلى فى بعض الصُّوَر ، وأنا أعبد إلهاً لا مثيل له ولا ندَّ له ولا ولد له ولا صاحبة له ولا يحلُّ فى جسمٍ ولا تدرك كنهه العقول ولا تحويه الأمكنة ولا تمر به الأزمنة ولا يُتقرب إليه بالشفعاء ولا تُقدَّم له الوسائل ، فبين معبودى الذى أعبده ومعبودِكم الذى تعبدونه فرق عظيم وبَوْن شاسع ، وأنتم تصفون معبودكم بصفاتٍ لا يجمُل بمعبودى أن يتصف بها ؛ ومحال أن يكون هذا هو ذاك للاختلاف العظيم بينهما ، وكيف يكون الذى يتوسَّل إليه بالشفعاء هو الذى لا يتوسل إليه إلا بالعمل الصالح والإخلاص له فى العمل وإفراده بالتقرب إليه ، وكيف يكون من يظهر فى شخص أو يتجلى فى صورة هو الذى لا يحويه المكان ولا يحتاج إلى المحل أو المخصص ؟ ! وكيف نلتقى فى العبادة مع اختلاف المعبود ؟ !

واعلم أن « ما » فى قوله سبحانه : « قل يأيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد » موصولة بمعنى الذى ، والغرض من هذه العبارة بيان الاختلاف التام بين الذى يعبده النبيُّ صلى الله عليه وسلم والذى يعبده الكفار ؛ وهذا المعنى واضح تمام الوضوح مما قررناه فى شرح الآية ؛ فإن قلت : فكان حق الأسلوب أن يقال « لا أعبد مَنْ تعبدون ولا أنتم عابدون مَنْ أعبد » لأن «من» هى الموضوعة لأولى العلم ، فالجواب عن ذلك أن تقول لك : إنهم ما كانوا يشكون فى ذات الذى يعبدونه وذات الذى يعبده النبى صلى الله عليه وسلم ، وإنما كانوا يشكون فى أوصاف هذا المعبود ، فهم كانوا يزعمون أنه يُتقرَّبُ إليه بالوسائل والشُّفعاء وكانوا يقولون : « وما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » ويقولون : «هؤلاء شفعاؤنا عند الله » ونحو ذلك ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم يصف ربَّه بما يليق بعظمته من التفرد والكبرياء والعظمة والبعد عن مشابهة الحوادث ، وينعى عليهم التوسل له بغير صالح الأعمال ، فلما كان الاختلاف بينهم وبينه على الصفات

وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَاعَبَدْتُمْ [٤] وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَاأَعْبُدُ [٥] لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ [٦]

التى يوصف بها المعبود لاجرم أتى بما التى هى لصفات أولى العلم ، وأما « ما » فى قوله سبحانه : (ولا أنا عابدٌ ماعبدتم ولا أنتم عابدون ماأعبد) فليست اسما موصولا كالتى فى الآيتين السابقتين ، ولكنها حرف مصدرى يسبك مابعده بمصدر وكأنه قيل : ولا أناعابدٌ عبادَتكم ولاأنتم عابدون عبادتى ؛ فهاتان تدلاَّن على الاختلاف التام بين النبى صلى الله عليه وسلم والكفار فى نفس العبادة ، والآيتان السابقتان دالَّتان على الاختلاف بين الفريقين فى المعبود ؛ فالمعنى على ذلك إنا لسنا سواء لأن الذى تعبدونه غيرالذى أعبده ولأن عبادتكم غيرعبادتى ، فكيف نتفق ولا وَجْهَ من المناسبة بيننا ؟ أفلستم ترون أن معبودى هو ذلك الإله الواحد الأحد الفرد الصمد الذى تنزه عن الأشباه والأمثال وتعالى عن الوسائل والشفعاء وتقدس عن الظهور فى شخص أو المحاباة لأحد ، وهو الذى يبسط فضله على كل من أخلص له العبادة ، وهو القاهر فوق عباده الآخذ بناصيتهم ، ومعبودكم على خلاف معبودى فى ذلك كله ، ثم ألستم ترون أن عبادتى مُخْلَصة لله وحده لايشوبها شرك ولا تصحبها غفلة عن المعبود ، وعبادتكم مَشُوبة بالشرك مصحوبة بالغفلة ؟ ؟

وقوله سبحانه : (لكم دينكم ولى دين) معناه أن الدين الذى أدعو إليه ويتضمن الاقرار لله تعالى بالوحدانية ونَفْى الشركاء والأنداد عنه سبحانه ويستوجب العملَ له وحده ، هو الدينُ الذى يُنْسَبُ إلىَّ لأننى أبلغه عن ربى ، ولا يُنْسَب لى سَواهُ ، والدينُ الذى تُصِرُّون عليه وتلزَمونه ويتضمن اتخاذ الشفعاء إلى الله هو دينكم الخاصُّ بكم الذى لاأقركم عليه ولا أُشاركُكم فيه .

وقد قيل : إن الدين فى هذه الآية بمعنى الحساب ، وإن المعنى لكم حسابكم

على أعمالكم ولى حسابى على أعمالى ، ولا يرجع إلى كل واحدٍ منا من عمل صاحبه أثر البتة . وقيل : إن الدين باقٍ على معناه وإن الكلام على حذف مضاف ، والتقدير لكم جزاء دينكم ولى جزاء دينى . ويقال : الدين معناه العادة ، والمعنى لكم عادتكم المأخوذة عن أسلافكم وعن شياطين الانس والجن الذين يزينونها لكم ، ولى عادتى التى أتلقاها عن الله تعالى

والتقديم مع معونة لام الاختصاص فى قوله سبحانه « لكم دينكم ولى دين » يفيد الحصر ، وكأنه قيل : لكم دينكم لا لغيركم ولى دينى لا لغيرى ؛ فان كان على المعنى الذى ذكرناه أولا فالأمر ظاهر ، وإن كان على مابعده فهو مثل قوله تعالى: « وأن ليس للانسان إلا ماسعى وأن سعيه سوف يرى » وقوله « ولا تزر وازرة وزر أخرى » . والله سبحانه وتعالى أعلى وأعلم .

سورة النصر *

[وهى مَدَنية، وآياتها ثلاث آيات، ونزلت بعد سورة التوبة][1]

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ [١]

---

* ويقال : سورة إذاجاء ، وتسمى أيضا سورة التوديع ، وهذا الاسم مروى عن ابن مسعود .

(١) لاخلاف بين أحد من العلماء فى أن عدد آى هذه السورة ثلاث آيات ، ويقال : نزلت هذه السورة بمنًى فى أوسط أيام التشريق والنبيُّ صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع ، ويقال : بل نزلت عند مُنْصَرَف النبى صلى الله عليه وسلم من غزاة خيبر ، وعلى كل حال تكون هذه السورة مدنية ، بناء على أن المدنى هو ما نزل على النبى صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة ، سواء أنزل فى المدينة أم فى غيرها .

وجه المناسبة بين هذه السورة والتى قبلها أنه سبحانه لما بين اختلاف دين الرسول الذى يدعو إليه ودين الكفار الذى يلازمونه ويعكِفون عليه أشار فى هذه السورة إلى أن دينهم سيضمحل ويزول ، وأن دين الله ورسوله سيظهر ويتغلب عليه وسيكون هو دين السواد الأعظم من سكان الأرض

قوله سبحانه : (إذا جاء نصر الله والفتح) أصل النصْر فى اللغة العَوْنُ ، وهم يقولون : قد نصَر الغيثُ الأرضَ ، يريدون أنه أعان على إظهار نباتها ، ويقولون : نصر فلان فلانا على عدوه ، إذا أعانه عليه ، ويقولون : استنصر فلان فلانا ، إذا

سأله أن يُعينه عليه ، والمراد به ههنا إعانة الله رسوله على المشركين و إمداده إياه حتى يظهر عليهم ، والفتح يحتمل معنيين : الأول أن يكون من فتح البلاد ، ومعناه الظفر بها عَنْوَةً والتغلب على أهليها ، والثانى أن يكون من الفتح فى القضية ، ومعناه الْفَصْلُ والحكم بين المتخاصمين ومنه قوله سبحانه وتعالى : « ربنا افتح بيننا و بين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين » وقد اختلف العلماء فى بيان المراد منه ههنا ؛ فذهب قوم إلى أن المراد به فتح البلاد ، وهؤلاء اختلفوا ؛ فمنهم من قال : المراد فتح مكة ، ومنهم من قال : المراد فتح خيبر ، ومنهم من قال : المراد فتح الطائف ، ومنهم من قال : المراد فتح بلاد الشرك على الاطلاق ؛ وذهب قوم إلى أن المراد مافتح الله على رسوله من العلوم والمعارف ، وذهب قوم إلى أن المراد بالفتح الفصلُ بينه و بين أعدائه والحكم عليهم له باعزاز دينه و إظهار كلمته ، وهذا أحسن الوجوه .

وقوله سبحانه : (ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا) رأيت : معناه أبصرت ، وعلى ذلك تكون جملة « يدخلون » فى محل نصب حال من الناس ، والأفواج : جمع فوج ، وهو الجماعة والطائفة ، والمعنى عندما ترى نَصْر الله لدينه وفصله بينك و بين قومك بأن يجعل الغلبة لك عليهم وترى عند ذلك الناسَ يدخلون فى دينك جماعاتٍ ، لا أفراداً كما كان ذلك فى مبدأ أمرك (فسبح بحمد ربك) أى : فنزه ربك وقَدِّسْه عن أن يُهْمِل الحق ويَدَعه للباطل يتغلب عليه ونزهه كذلك عن أن يُخلِف وعده الذى وعدك به من أن يجعل كلمتك هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى ويتم نوره ولو كره الكافرون ؛ وليكن تنزيهك لربك وتقديسُك له بحمده على ما أولاك وشكرِه على مامنحك والثناء عليه بما هو

وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا [٣]

له أهل فانه القادر الذى لا يقف فى سبيله أحد الحكيم الذى لا يُضيع عباده المخلصين الخبيرُ الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور (واستغفره) أى اسأله أن يغفر لك [١] ولقومك الذين اتبعوك فى أول الأمر ما كان منكم من القلق والضجر والحَزَن لتأخر النصر والفتح ، ويقال : إن المعنى أستغفر ربك لمن يدخلون فى دينك ، واسأله أن يعفو عنهم ولا يعاقبَهم على تأخرهم فى اعتناق دينه ، وقيل : المراد استغفره لأمتك لما يحدث منهم من تقصير .

وقوله سبحانه : (إنه كان توابا) معناه أن ربك لا يزال موصوفا بأنه كثير القبول لتوبة عباده . قال الأستاذ : وكأن الله يقول : إذا حصل الفتح وتحقق النصر وأقبل الناس على الدين الحق فقد ارتفع الخوف وزال موجب الحزن ، فلم يبق إلا تسبيح الله وشكره والنزوع إليه عما كان من خواطر النفس ؛ فلن تعود الشدة تأخذ نفوس المخلصين ماداموا على تلك الكثرة فى ذلك الاخلاص ومن هذا أخذ النبى صلى الله عليه وسلم أن الأمر قد تم ولم يبق له إلا أن يسير إلى ربه فقال فيما روى عنه : إنه قد نعيت إليه نفسه . اه . والله سبحانه أعلى وأعلم .

---

(١) قال فى فتح البيان : أى اطلب منه المغفرة لذنبك ، وسله الغفران هضما لنفسك واستقصارا لعملك واستدرا كا لما فرط منك من ترك ماهو الأولى ، وقد كان صلى الله عليه وسلم يرى قصوره عن القيام بحق الله و يكثر من الاستغفار والتضرع وإن كان الله قد غفر له ماتقدم من ذنبه وماتأخر ، وقيل : إن الاستغفار منه صلى الله عليه وسلم ومن سائر الأنبياء هو تعبد تعبدهم الله به لا لطلب المغفرة لذنب كائن منهم ، وقيل : إنما أمره الله سبحانه بالاستغفار تنبيها لأمته وتعريضا بهم فكأنهم هم المأمورون . اه

سورة المَسَدِ *

[وهى مكية ، وآياتها خمس آيات ، ونزلت بعد سورة الفاتحة] (١)

* وتسمى سورة أبى لهب ، كما تسمى سورة تَبَّتْ .

(١) لا خلاف بين أحد من العلماء فى أن آى هذه السورة خمس آيات ، كما أنه لا خلاف بين أحد منهم فى أن هذه السورة مكية .

وجه المناسبة بين هـذه السورة والتى قبلها ما ذكره الإمام الرازى بقوله : اعلم أن الله تعالى قال : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » ثم بين فى سورة « قل يأيها الـكافرون » أن محمدا عليه الصلاة والسلام أطاع ربه وصرح بنفى عبادة الشركاء والأضداد وأن الـكافر عصى ربه واشتغل بعبادة الأضداد والأنداد ، فـكأنه قيل : إلٰهنَا ، ما ثواب المطيع ؟ وما عقاب العاصى ؟ فقال : ثواب المطيع حصول النصر والفتح والاستعلاء فى الدنيا والثوابُ الجزيل فى العقبى ، كما دل عليه سورة « إذا جاء نصر الله » ، وأما عقاب العاصى فهو الخسار فى الدنيا والعقاب العظيم فى العقبى ، كما دلت عليه سورة « تبت » .

ذكروا أن رسول الله صلى الله عليه وسـلم كان فى أول المبعث يكتم أمره فـكان يخرج إلى شِعاب مكة يتعبد فيها ، حتى نزل عليه قوله تعالى « وأنذر عشيرتك الأقربين » فصعِد الصفا ونادى : يا آل غالب ، فخرجت إليه غالب من المسجد ، فقال أبولهب : هذه غالب قد أتتك فما عندك ؟ ثم نادى : يا آل لؤى ، فرجع مَنْ لم يكن من لؤى ، فقال أبو لهب : هذه لؤى قد أتتك فما عندك ؟ ثم قال : يا آل مرة ، فرجع مَنْ لم يكن من مرة ، فقال أبو لهب : هذه مرة قد أتتك فما عندك ؟ ثم قال : يا آل كلاب ، ثم قال بعده : يا آل قُصَى ، فقال أبو لهب :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ [١]

هذه قصى قد أتتك فما عندك ؟ فقال : إن الله أمرنى أن أُنذر عشيرتى الأقربين ، وأنتم الأقربون ، اعلموا أنى لا أملك لكم من الدنيا حظا ولا من الآخرة نصيباً إلا أن تقولوا لا إله إلا الله فأشهد بها لكم عند ربكم ، فقال أبو لهب : تبًّا لك أَلِهٰذَا دَعَوْتنا ؟ فنزلت هذه السورة . وفى رواية للبخارى عن ابن عباس قال : خرج النبي صلى الله عليه وسلم إلى البطحاء فصعِد الجبل فنادى « يا صبَاحاه » فاجتمعت إليه قريش ، فقال : أرأيتم إن حدَّثتكم أن العدو مُصَبِّحُكم أو مُمَسِّيكم أكنتم تصدقونى ؟ قالوا : نعم ، قال : فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد ، فقال أبو لهب : ألهـذا جمعتنا ؟ تبالك !! وفى رواية أنه قام ينفُض يديه وهو يقول : تبًّا لك سائر اليوم ! ألهذا جمعتنا ؟ فأنزل الله « تبت يدا أبى لهب وتبَّ » فهذا بعض ما روى عن سبب نزول هذه السورة .

قوله تعالى : (تبت يدا أبى لهب وتبَّ) التبَاب فى الأصل : الْهَلاكُ والخسران ، ومنه قوله تعالى : « وما كَيْدُ فرعون إلا فى تبَاب » وقوله جل شأنه : « ومازادوهم غيرَ تتبيب » وفى آية أخرى « ومازادوهم غيرَ تخسير » وقد ذكروا فى المراد من « تبت يدا أبى لهب » عباراتٍ كلها يرجع إلى هذا المعنى ؛ فقيل : المراد خسِر خُسراناً يُفضى به إلى الهلاك ، وقيل : المراد خابتا ، وقيل : المراد غُلِبتا ، وقيل : المراد صَفِرتا من كل خير ، وأبو لهب : هو أحد أعمام النبى صلى الله عليه وسلم ، واسمه عبدُ العزى بن عبد المطلب بن هاشم ، ويقال : اسمه هو كنيته ، فإن قلت : فما سرُّ ذكر اليدين ؟ فالجواب عن ذلك أنه إما أن يكون قد ذكر اليدين وأراد جملته كلها ، من باب إطلاق اسم الجزء وإرادة الكل ،

مَاأَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ [٢]

مثل إطلاق العين على الجاسوس ، وهـذا استعمال شائع فى لغة العرب ، ومنه قولهم « يَدَاكَ أَوْ كَتَا » ومنه قوله تعالى : « ذلك بما قدَّمَت يداكَ » وقوله « مما عملت أيدينا » ، وإما أن يكون المراد اليدين على الحقيقة ، وذلك لأن أبا لهب كان يقول : يَعِدُنِى محمدٌ أشياء لا أرى أنها كائنة يزعم أنها بعد الموت فلم يضَعْ فى يَدَىَّ شيئاً من ذلك ، ثم ينفُخ فى يديه ويقول : تبا لكما ما أرى فيكما شيئاً ، فأنزل الله الدعاء عليه على وفق ما اختاره لنفسه ، ويقال : اليدان عبارة أول أمره وآخره ، فكأنه قيل : خسِر أبو لهب فى أول أمره وخسر فى آخر أمره ، فإن قلت : فإذا كان ذكر اليدين مراداً به جملته كلها على ما هو الوجه الأول فكيف قال بعد ذلك « وتَبَّ » وهل هو من باب التكرار للتأكيد ؟ فالجواب عن ذلك أن الجملة الأولى وهى قوله سبحانه « تبت يدا أبى لهب » دُعاء على أبى لهب بالخسران والهلاك ، والجملة الثانية إخبارٌ عن وقوع هـذا الدعاء وحصوله ، والدليل على ذلك أن ابن مسعود قد قرأ « تبت يدا أبى لهب وقد تَبَّ » فذلك مثل قول الشاعر : —

جَزَانِى جَزَاهُ اللهُ شَرَّ جَزَائِهِ   جَزَاءَ الْـكِلَابِ الْعَاوِيَاتِ وَقَدْ فَعَلْ

ويجوز أن يكون كل من الجملتين خبرا ، ولكن المقصود بالأول هلاكُ أعماله والمقصود بالثانى هلاك ذاته .

ثم استأنف سبحانه الكلام لبيان أن ما كان أبو لهب يتعزز به من ماله وجاهه لم يمنع عنه ما أراده الله به من الهلاك والخسار ، فقال جل شأنه : (ماأغنى عنه ماله وما كسب) والمعنى أنه لم يُفِدْهُ ماله الكثير وأعماله التى عملها مُعَادَاةً للرسول وتنفيرا منه وإبعاداً للناس عنه ، ولم يُجْدِ ذلك عليه شيئا ؛ فإنه لم يتغلب على الرسول ولم يستطع أن يقطع ما أراد الله أن يُوصَل .

وقد كان أبو لهب هذا شديد المداوة للنبى صلى الله عليه وسلم شديد التحريض عليه شديد الصدّ عنه ، روى أحمد بن حنبل بسند له عن ربيعة بن عباد قال : رأيت النبى صلى الله عليه وسلم فى الجاهلية فى سوق ذى المجاز وهو يقول : يأيها الناس ، قولوا لا إله إلا الله تفلحوا ، والناسُ مجتمعون عليه ، ووراءه رجل وضىء الوجه أحول ذو غديرتين يقول : إنه صابىء كاذب ، يتبعه حيث ذهب ، فسألت عنه فقالوا : هذا عمه أبو لهب ، وروى محمد بن إسحاق باسناد له عن ربيعة بن عباد أيضا قال : إنى لَمَعَ أبى رجل شاب ٌ أنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يتبع القبائل ووراءه رجل أحول وضىء الوجه ذو جُمَّةٍ ، يقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على القبيلة فيقول : يابنى فلان ، إنى رسول الله إليكم آمركم أن تعبدوا الله لاتشركوا به شيئاً وأن تصدقونى وتمنعونى حتى أُنفِذَ عن الله مابعثنى به ، وإذا فَرَغ من مقالته قال الآخر من خلفِهِ : يابنى فلان ، هذا يريد أن تسلخوا اللات والعزى وحلفاءكم من الجن من بنى أقيش إلى ماجاء به من البدعة والضلالة فلاتسمعواله ولاتتبعوه ، قال ربيعة : فقلت لأبى : مَنْ هذا ؟ فقال : عمه أبو لهب ؛ ومن هنا تعلم أن أبا لهب ما كان يعادى النبى صلى الله عليه وسلم و يكيدله و يجاهر بذمه والتنفير منه لكراهة شخصه ، وكيف يكره شخصه وهو ابن أخيه والعصبية العربية ماهى ؟ وإنما كان يكره ما جاء به عن ربه مما سماه أبو لهب بدعة ، فاذا ماذمه الله تعالى ونعى عليه فانما يذُم أعماله التى كان يعملها فى الصد عن الدين وتنفير الناس من اتباع الرسول ؛ فالدعاء الذى تضمنته هذه الآية الكريمة وإن توجه إلى أبى لهب بذاته لايقتصر عليه ، بل هو موُجَّه إلى كل من يصُد عن الدين الحق وينفر عن اتباعه و يأمر بمخالفته ، وقد جُعل أبو لهب مثلا لذلك لأنه كان قد اشتهر به وذاع عنه تكذيب الرسول وتحدّيه واتباعه فى خُطواته كلها ليحلّىء الناسَ عنه .

سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ [٣] وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الحَطَبِ [٤]

وقوله سبحانه : (سَيَصْلَى ناراً ذاتَ لهب) يَصْلَى النارَ : يجدحرها ويذوقه ؛ ولهبُ النار : مايَسْطَع منها عند اشتعالها وتوقدها

وأراد سبحانه من وصف النار بأنها ذات لهب أنها نار شديدة الحرارة ، والمراد من هذه النار التى يصلاها نار الآخرة التى أعـدها الله تعالى لعذاب الـكفار والمعـاندين .

والمعنى خسر أبو لهب وضل عمله و بطل سعيه الذى كان يسعاه للصَّدّ عن دين الله ولم يُغْنِ عنه ماله الذى كان يتباهى به ولا جِدُّه وَاجتهادُه ؛ فإن الله أعلى كلمة رسوله ونشر دعوته وأذاع ذكره ، وإن أبا لهب سيعذب يوم القيامة بنارٍ ذات شرر ولهيب و إحراق شديد أعدها الله لمثله من الـكفار والمعاندين ، فوق تعذيبه فى الدنيا بابطال سعيه ودَحْض عمله ، وسيعذب معه امرأته التى كانت تعاونه وتساعده على كفره وجحده ، وكانت عَضُدَه فى معاكسة الرسول صلى الله عليه وسلم و إيذائه وكانت تمشى بالنميمة والوقيعة للإفساد و إيقاد نار الفتنة والعِداء ، وذلك قوله تعالى: (وامرأته حمالة الحطب) وارتفاع « امرأته » بالعطف على الضمير المستتر العائد إلى أبى لهب فى قوله سبحانه « سيصلى » وانتصاب « حمالةَ الحطب » بفعل مضمر واجب الحذف لأن المقصود به ههنا الذم ، واسم امرأة أبى لهب أَرْوَى بنت حَرْب بن أمية ، وكنيتها أم جميل ، وهى أخت أبى سفيان بن حرب بن أمية ، وهى عمة معاوية بن أبى سفيان ، وقوله سبحانه « حمالة الحطب » إما حقيقة فقد روى أنها كانت تحمل حُزمة من الشوك والحَسَك وَالسَّعْدَان فتنثِرها بالليل فى طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم لايذائه به ، و إما مجاز والمراد به أنها كانت تمشى بالنميمة ، ويقال لمن يمشى بالنميمة ليفسد بين الناس : هو يحمل

د. ر. ا.ل. دركل

فى جيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ [٥]

الحطب بين الناس : أى أنه يوقد بينهم النائرة ويُوَرِّثُ الشر ، ومنه قول الشاعر :

مِنَ الْبِيضِ لَمْ تَصْطَدْ عَلَى ظَهْرِ لَامَةٍ ... وَلَمْ تَمْشِ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَطَبِ الرَّطْبِ (١)

وقد زاد سبحانه وتعالى فى تبشيع صورتها بقوله : (فى جيدها حبلٌ من مَسَدٍ) والجيد : العنقُ ، والمْسَد : الليف ، وهو أيضا الخُوصُ ، وهو أيضاً جلد الابل ، ويقال : المسد ما فتل فتلا شديدا ، والمعنى فى جيدها حبلٌ مما مُسِد من الحبال وأحكم فتله ، بَيَّنَ سبحانه أنهـا تحمل تلك الحزمة من الشوك وتربطُها فى جيدها كما يفعل الحطابون ؛ تخسيساً لحالهـا ، وتحقيرا لها ، وتصويرا لها بصورة بعض الحطابات من الممتهنات ؛ لتمتعض من ذلك ويمتعض بعلها . ويحتمـل أن يكون المراد أن حالها فى نار جهنم تكون على الصورة التى كانت عليها حين كانت تحمل حُزمة الشوك ، وأنها لا تزال فى النار تحمل حزمة من حطب النار ولا يزال فى جيدها حبل مما مُسِد من سلاسل النار ، وذلك أن كل مُجْرِم يعذب يوم القيامة بما يجانس حاله فى جرمه . وهذا المعنى الذى أشرنا إليه أخيرا مروى عن جماعة من العلماء ؛ فقد روى عن سعيد بن المسيب أنه قال : كانت لأم جميل قِلَادة فاخرة فقالت : لأنفقنها فى عداوة محمد ، فأعقبها الله منها حبلا فى جيدها من مسد النار .

قال بعض العلماء : وفى هذه السورة معجزة ظاهرة ودليل واضح على النبوة ؛ فانه منذ نزل قوله تعالى : « سيصلى ناراً ذات لهب وامرأته حمالة الحطب فى جيدها حبل من مسد » فأخبر عنهما بالشقاء وعدم الإيمان لم يقيِّض لهما ولا لأحدهما أن يؤمن ، لا باطنا ولا ظاهرا ، ولا مُسِرًّا ولا مُعْلنا ، بل بقى الشقاء مكتوبا لهما جميعا حتى فارقا هذه الحياة على مايفارقها الجاحد الـكنود ؛ فـكان هذا من أقوى الأدلة وأبهر الآيات على صدق الرسول فيما جاء به عن ربه ؛ والله أعلى وأعلم .

---

(١) قال جار الله : جعل الحطب رطبا ليدل على التدخين الذى هو زيادة فى الشر .

سورة الإخلاص

[وهى مكية، وآياتها أربع آيات، ونزلت بعد سورة الناس] (١)

* لهذه السورة أسماء كثيرة ؛ فيقال : سورة الاخلاص ، ويقال : سورة التفريد ، ويقال : سورة التجديد ، ويقال : سورة التوحيد ، ويقال : سورة النجاة ، ويقال : سورة المعرفة ، ويقال : سورة الأساس ، ويقال : سورة النور ، ويقال غير ذلك ،

(١) اختلف العلماء فى عدد آى هذه السورة وفى مكان نزولها ؛ فأما عن الأول فقد عدّها المكيون خمس آيات وعدها الشاميون أربع آيات ، وأما عن الثانى فعن الحسن وعكرمة وعطاء ومجاهد وقتادة أنها مكية ، وعن محمد بن كعب وأبى العالية والضحاك أنها مدنية ، وذكر صاحب البحر عن ابن عباس أنها مدنية ، واستظهر بعض العلماء عنه أنها مكيــــة ، وذهب بعض العلماء إلى أنها نزلت مرتين إحداهما بمكة والثانية بالمدينة ، وزعم الدوانى أنها مكية بالاتفاق ، وهو قول مَنْ لم يطلع على شىء مما ذكرنا.

روى الضحاك أن المشركين أرسلوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عامِرَ ابن الطُّفَيْل ، فقال له عنهم : شَقَقْتَ عَصَانا ، وَسَبَبْتَ آلهتنا ، وخالفت دين آبائك ، فان كنت فقيرا أغنيناك ، وإن كنت مجنونا داويناك ، وإن كنت قد هويت امرأة زوجنا كها ؛ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : لستُ بفقير ، ولا مجنون ، ولا هويت امرأة ، أنا رسول الله أدعوكم من عبادة الأصنام إلى عبادته ، فأرسلوه ثانية وقالوا : قل له بَيِّنْ لنا جنس معبودك ، أمن ذهب أو فضة ، فأنزل الله تعالى هذه السورة ؛ وروى عطاء عن ابن عباس قال : قدم وَفْد نَجْرَان فقالوا :

صف لنا ربك أمِنْ زَبَرْجَدٍ أو ياقوت أو ذهب أو فضة ، فقال : إن ربى ليس من شىء لأنه خالق الأشياء ، فنزلت «قل هو الله أحد» فقالوا : هو واحد وأنت واحد ، فقال : ليس كمثله شىء ، قالوا : زدنا من الصفة ، فقال «الله الصمد» فقالوا : وما الصَّمَد ؟ فقال : الذى يَصْمَدُ إليه الخلق فى الحوائج ، فقالوا : زدنا ، فقال « لم يَلِدْ » أى كما وَلَدَتْ مريم « ولم يُولَدْ » أى كما وُلد عيسى ؛ « ولم يكن له كفوا أحد » يريد أنه ليس له نظير من خلقه . وكان وفد نجران من النصارى .

هكذا رَوَوا فى سبب نزول هذه السورة ، وقال الأستاذ : هذه السورة تشتمل على أهم الأركان التى قامت عليها رسالة النبى صلى الله عليه وسلم ، وهى ثلاثة ، الأول : توحيد الله وتنزيهه ، والثانى : تقرير الحدود العامة للأعمال ببيان الصالحات وما يقابلها ، وذلك هو الشريعة ، والثالث : أحوال النفس بعد الموت من البعث وملاقاة الجزاء من ثوابٍ وعقاب ، وأول هذه الأركان هو التوحيد والتنزيه لإخراج العرب وغيرهم من الشرك والتشبيه ، وهو ركن الأركان ، وأول مأمور به من أصول الإيمان ، فيصح أن يكون الأمر بتبليغ مافى هذه السورة صادرا من الحق جل شأنه تحقيقاً لأمر رسالته صلى الله عليه وسلم ولإرشاد الناس إلى مايجب أن يعتقدوه فى جانب الله ، ولا حاجة إلى أن يسأل بعضُ العرب النبى صلى الله عليه وسلم ماهو نسب الله حتى تنزل السورة جوابا لهذا السؤال ، وإنما حاجة القوم ، بل العالم الانسانى ، كانت ماسةً إلى بعثة النبي صلى الله عليه وسلم لدعوة المشركين من العرب وأهل الكتاب فى سورة واحدة ، وتعريفهم بالله فى أوجز عبارة وأجزلها ، ولما بيّنّا لا يستغرب ماورد فى الخبر من أنها تعدل ثلث القرآن (١) ؛ لأن من عرف معناها حق

(١) لأبى العباس تقى الدين أحمد المعروف بابن تيمية جزء لطيف سماه «جواب

المعرفة وأدرك ما أشارت إليه إدراك صاحب البصيرة المستنيرة لم يكن بقية ماجاء فى التوحيد والتنزيه عنده إلا تفصيلا لما علم وشرحا لما حَصَّل . اه

وفى عبارة جار الله الزمخشرى فى الكشاف إشارة إلى استنباط تفاصيل التوحيد من السورة قال : سألوه أن يصفه لهم ، فأوحى إليه مايحتوى على صفاته ، فقوله « هو الله » إشارة لهم إلى من هو خالق الأشياء وفاطرها ، وفى طى ذلك وصفه بأنه قادر عالم ؛ لأن الخلق يستدعى القدرة والعلم لكونه واقعا على غاية الإحكام والاُتساق والانتظام ، وفى ذلك وصفه بأنه حى سميع بصير ، وقوله «أحد» وصف بالوحدانية ونفى الشركاء ، وفى قوله «الصمد» وصف له بأنه ليس إلا مُحْتاجاً إليه ، وإذا لم يكن إلا محتاجا إليه فهو غنى ، وفى كونه غنياً مع كونه عالما أنه عَدْل غير فاعل للقبائح لعلمه بقبح القبيح وعلمه بغناه عنه ، وقوله « لم يولد » وصف بالقدم والأوّلية ، وقوله « لم يلد » نفى للشبه والمجانسة ، وقوله « ولم يكن له كفوا أحد » تقرير لذلك وبَتٌّ للحكم به . اه .

أهل العلم والايمان بتحقيق ماأخبر به رسول الرحمن من أن قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن » وقد استهل هذا الكتاب بذكر الطرق التى روى بها هذا الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وروى معه أحاديث أخرى رويت فى شأن سور أخرى تماثل هذا الحديث ، كالحديث الذى روى فى سورة الزلزلة « أنها تعدل نصف القرآن » والحديث الذى روى فى شأن سورة الكافرون « أنها تعدل ربع القرآن » ثم عقد فصلا استوفى فيه الكلام على كلام الله تعالى وهل يفضل بعضه بعضا ، ثم ذكر بعد كلام طويل أقوال العلماء وتوجيهاتهم فى هذه المسألة ، والأساس الذى درج عليه جمهورهم هو تقسيم الأصول التى هى محور الدين والتى تعرض القرآن الكريم لبيانها إلى ثلاثة اقسام ، وبيان أن سورة الاخلاص قدشرحت قسما من هذه الأقسام الثلاثة ؛ فلاجرم كانت عَدْل ثلث القرآن ، ولكن العلماء يختلفون نوع اختلاف فى ذكر الأقسام الثلاثة ، والمؤلف يناقشهم فى الأقسام ، وإن أفضل هذه الوجوه وأبعدها عن الاعتراض هو ما جاء فى كلام الأستاذ الذى تراه فى صدر هذا المبحث .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللّٰهُ أَحَدٌ [١] اللّٰهُ الصَّمَدُ [٢]

قوله تعالى : (قل هو الله أحد) هذا الضمير هو المسمى عند النحاة ضمير الشأن ، وهو مبتدأ ، والجملة التي بعده خبرعنه ، والأحد : هوالواحد الذي لا كثرة له في ذاته ، نعني أنه ليس مركبا من جواهر مختلفة ، ومعنى هذه العبارة : قل لهم : الخبرُ المؤيَّدُ بالدليل القاطع والبرهان الذي لايقع معه الريب ولا يشوبه شائبة شك هوالله واحد في ذاته ليس مركبا من جواهر تكون له أجزاء مادية ولا هو من أصول متعددة غير مادية ، والسر في تصدير هذه الجملة بضمير الشأن التنبيه من أول الأمر على فخامة مضمونها مع مافيه من زيادة التحقيق والتقرير ، وذلك أن الضمير لايفهم منه من أول الأمر إلا شأنٌ مبهم له خطر جليل ، فيبقى الذهن مترقبا لما يأتي بعده مما يفسره ويوضحه ويزيل مافيه من الإبهام ، فاذا جاء ذلك تمكن المراد منه عند ورود التفسير أبلغ تمكن ، وجيء بالخبر نكرة وهو « أحد » لأن المقصود هو الإخبار عن الله بأنه واحد ، ولو قيل « الله الأحد » لأفاد أنه لاواحد سواه ، وليس ذلك مقصودا ، ألست ترى أن الذي كان يعتقده المخاطبون بهذا الكلام هو أنه متعدد في ذاته ، فالمقصود إنما هو نفي هذا التعدد المزعوم وإثبات أنه واحد ،

وقوله سبحانه : (الله الصمد) قال ابن الأنباري : لاخلاف بين أهل اللغة في أن الصَّمَدَ هو الذي ليس فوقه أحد وهو الذي يَصْمُدُ إليه الناس في حوائجهم وأمورهم ، وقال الزجاج : هو الذي ينتهي إليه السؤدد ويقصده كل شيء ، ومن ذلك قول الشاعر :

أَلاَ بَـكَّرَ النَّاعِي بِخَيْرِ بَنِي أَسَدْ بِعَمْرِو بْنِ مَسْعُودٍ وَبِالسَّيِّدِ الصَّمَدْ

وقول الآخر :

عَلَوْتُهُ بِحُسَامٍ ثُمَّ قُلْتُ لَهُ خُذْهَا إِلَيْكَ وَأَنْتَ السَّيِّدُ الصَّمَدُ

وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : الصمد هو السيد الذى قد كمل فى سؤدده والشريف الذى قد كمل فى شرفه والعظيم الذى قد كمل فى عظمته والحليم الذى قد كمل فى حلمه والعليم الذى قد كمل فى علمه والحكيم الذى قد كمل فى حكمته وهو الذى قد كمل فى أنواع الشرف والسؤدد ؛ وقال الأستاذ : وهذه القضية « الله الصمد » من الكلمات الجامعة التى تملأ النفس مما قصد بها بدون جهد ولا تعب ؛ لأن تعريف الصمد مع العلم بأن لفظ الجلالة معرفة صيّر الجملة مُعرَّفة الطرفين ، وهى تفيد الحصر ، كما تقول : زيد العالم ، إذا كان مخاطبك يعتقد أن غيره يشاركه فى العلم ، فتدفع ظنه بذلك ، تريد لا عالم سواه ؛ فهذه الآية تقول لك : إن حاجة ما فى الوجود لاتتوجه إلى غيره ، وإن محتاجاً لا يجوز له أن يتوجه فى طلب حاجته إلى سواه ، فقد أفادتنا أن جميع المسببات تنتهى إليه وجميع مايسرى فيها من الوجود فهو من إيجاده ، وإن صاحب الاختيار كالإنسان إذا أراد أن يُحَصِّل مُسَبَّبًا من سبب فعليه أن يبحث عن طريقة ارتباطه به على حسب ما أمره الله بالبحث والنظر والتدبر فى مخلوقاته ليعلم كيف يسرى الوجود الموهوب من واجب الوجود من الأسباب إلى المسببات ، ثم يذهب بها حتى يسندها إلى مبدئها وهو الأمر الإلهى ، هذا فيما يظهر فيه السبب والمسبب ويظهر فيه أثر الكسب وعمل الإرادة والقوى الممنوحة البشرية ، أما ما هو وراء ذلك مما لا دخل للإدارة فيه فعلى صاحب الحاجة ألا يتوجه فى المعونة عليها بعد الأخذ بالأسباب إلا إلى الله وحده فهو المستأثر بالعمل فيما وراء ماجعل لك فيه عملا ، وقوله « الصمد » يشعر بأنه الذى ينتهى إليه الطلب مباشرة بدون واسطة ولا شفيع

لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ [٣] وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ [٤]

وقوله سبحانه : (لم يلد ولم يولد) تنزيه له سبحانه عن أن يكون له ولد أو بنت ، وعن أن يكون له أب أو أم ؛ فليس هو والدا ولا مولودا ، والأول ردٌّ لمزاعم مشركى العرب الذين زعموا أن الملائكة بنات الله ، والثانى رد على ماذهب إليه النصارى من أن ابنا لله يكون هو أيضا إلٰها فيعبد عبادة الإله وَيُقْصَدَ فى قضاء الحوائج ويتوجه إليه . واقرأ إن شئت قوله تعالى « وقالوا اتخذ الرحمن ولدا ، لقد جئتم شيئا إدًّا ، تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدًّا ، أن دَعَوْا للرحمن ولدا ، وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا ، إنْ كلُّ مَنْ فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عَبْدًا ، لقد أحصاهم وَعَدَّهم عَدًّا ، وكلهم آتيه يوم القيامة فردا » واقرأ كذلك قوله سبحانه : « فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون ، أم خلقنا الملائكة إناثا وهم شاهدون ، ألا إنهم من إفكهم ليقولون وَلَدَ اللهُ وإنهم لكاذبون ، أصطفى البنات على البنين ، مالكم كيف تحكمون ، أفلا تذكرون ، أم لكم سلطان مبين ، فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين ، وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا ولقد علمت الجنة إنهم لَمُحْضَرُونَ ، سبحان الله عما يصفون »

وقوله سبحانه : (ولم يكن له كفوا أحد) الكفؤ : معناه المكافىء والمماثل والنظير فى العمل والقدرة ، وهذا ردٌّ لما زعمه المشركون من أن لله تعالى ندًّا فى أفعاله

وقد تضمنت هذ السورة نفى الشرك بجميع أنواعه ؛ فقد نفى الله تعالى عن نفسه أنواع الكثرة بقوله « الله أحد » ، ونفى عن نفسه النقصَ والاحتياج والمغلوبية بقوله « الله الصمد » ، ونفى عن نفسه العليَّة والمعلولية بقوله « لم يلد ولم

يولد » ونفى عن نفسه الأنداد والأشباه والأضداد بقوله « ولم يكن له كفوا أحد » ؛ وتضمنت السورة من ناحية أخرى إبطال مذاهب المشركين كلهم ؛ فقوله سبحانه « الله أحد » إبطال لمذهب الثَّنَوِيَّة القائلين بالظلمة والنور ، و إبطال لمذهب النصارى القائلين بالتثليث ، و إبطال لمذهب الصابئة فى الأفلاك والنجوم ، وقوله سبحانه « الله الصمد » إبطال لمذهب بعض مشركى العرب الذين زعموا أن غير الله يُقْصَد فى طلب الحوائج ، وقوله سبحانه « لم يلد ولم يولد » إبطال لمذهب اليهود فى عُزَيْر حيث قالوا : عزير ابن الله ، و إبطال لمذهب النصارى فى المسيح حيث قالوا : المسيح ابن الله ، وفى مريم حيث قالوا : هى أم الله القادرة ، و إبطال لمذهب بعض مشركى العرب فى الملائكة حيث قالوا : الملائكة بنات الله ، وفى الجن حيث جعلوا بينها وبين الله نسبا ؛ وقوله سبحانه « ولم يكن له كفوا أحد » إبطال لمذهب بعض مشركى العرب حيث جعلوا الأصنام شركاء لله وأكفاء له ، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا . والله سبحانه أعلى وأعلم .

سورة الفلق

[وهى مكية ، وآياتها خمس آيات ، ونزلت بعد سورة الفيل] (١)

---

(١) لاخلاف بين أحد من العلماء فى عدد آى هذه السورة ، وقد اختلفوا فى مكان نزولها ؛ فعن الحسن وعطاء وعكرمة وجابر أنها مكية ، وعن قتادة وجماعة أنها مدنية ، واختلف النقل عن ابن عباس ؛ فروى عنه كريب أنها مكية ، وروى عنه أبو صالح أنها مدنية ، واختلف العلماء فى الترجيح ؛ فرجح قوم أنها مكية ، وهو الذى اعتمده ناشرو المصحف الكريم فى مصر ، ورجح قوم أنها مدنية ، وهذا هو الذى عليه الثقات الأثبات من العلماء ، وهو الذى يوافق ماذكروه فى سبب النزول وإن كنا لا نقر هذا السبب على ماسيأتى لنا بيانه .

روى المفسرون أن لبيد بن أعصم اليهودىَّ سَحَرَ النبى صلى الله عليه وسلم ؛ فمرض رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث ليال ، واشتد عليه ذلك حتى كان يُخَيَّل له أنه يفعل الشىء وهو لايفعله ، ثم أتاه جبريل فأخبره بالسحر وبموضعه الذى وضع فيه ، وتلا عليه المعوذتين ، وأرسل النبى صلى الله عليه وسلم عليا وطلحة فأتياه بالسحر ؛ فقرأ المعوذتين ؛ وكان كلما قرأ آية انحلت عقدة من عقد السحر ووَجَدَ بعض الخِفَّة والراحة ، حتى إذا انتهى من تلاوتهما عاد إليه نشاطه ، ورجعت له حالته

وهذا كلام لاينبغى أن يقال فى حق الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكيف يجوز أن يقال مثل ذلك فى حقِّ المعصوم من الناس بنص قوله تعالى : « والله يعصمك من الناس » ؟ وهل ذلك القول إلا أبعد مارماه به أعداؤه الذين كانوا يكيدون له فى قولهم « إن تتبعون إلا رجلا مَسْحُوراً » وكيف والقولُ إنه عليه الصلاة والسلام قد سُحِر حتى خيل له أنه يفعل الشىء وهو لايفعله تكذيبٌ لقوله تعالى :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ [١] مِن شَرِّ مَا خَلَقَ [٢] وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ [٣]

« ولا يفلح الساحر حيث أتى » ولو جاز ذلك لكان بابا من أبواب القدح فى النبوة لا يقدر أحد على إيصاده وسد ثلمته ؟ ! !

قوله سبحانه : (قل أعوذ برب الفلق) أصل الفَلْق شق الشىء وإبانة بعضه عن بعض ، تقول : فلقت الشىء فانفلق ، ومنه قوله تعالى : « إن الله فالق الحب والنوى » وقوله تعالى : « فالق الإصباح » وقوله : « فانفلق فكان كل فِرْق كالطود العظيم » والشىء المفلوق يقال له فَلَق ، ومنه قيل للمطمئن من الأرض بين رَبْوَتَين فَلَق ، واختلف العلماء فى المراد منه فى هذه الآية ، فقيل : المراد من الفلق الصبح ، وقيل : المراد به كل ما يفلقه الله كالأرض التى تنفلق عن النبات والجبال التى تنفلق عن عيون المياه والسحاب التى تنفلق عن ماء الأمطار والأرحام التى تنفلق عن الأولاد ، وأنت إذا تأملت تبين لك أن أكثر العالم يحدث عن انفلاب وانفلاق ، فكأنه قيل : قل أعوذ برب جميع الممكنات ومُبْدِع كل المحدثات والمبتدعات .

وقوله سبحانه : (من شر ما خلق) معناه من كل شر وأذى يصيبك من أى شىء من خلقه ؛ سواء أكانوا من المكلفين أم لم يكونوا

وقوله سبحانه : (ومن شر غاسق إذا وقب) الغاسق : الليل إذا اعتكر ظلامه وذلك من قوله سبحانه : « إلى غَسَق الليل » ووُقُوبه : دخول ظلامه فى كل شىء ، ويقال : وقبت الشمس ، إذا غابت ، والاستعاذة من الليل المظلم الذى يغطى كل شىء بظلامه لأنه مَخُوف باعث للرَّهْبة وهو سِتارٌ يتستر تحته ذوو الإجرام

وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِى الْعُقَدِ [٤] وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ [٥]

فاذا قصدوك بأذى لم تتبينهم ؛ فكان بذلك جديرا بأن يُستعاذَ منه بالله الواقى من شروره .

وقوله سبحانه : (ومن شر النفاثات فى العقد) أصل النفاثات جمع نَفَّاثة، وهى صيغة مبالغة من النَّفْث، وهو النفخ مع ريقٍ يخرج من الفم ، والعُقَد : جمع عُقْدة، وهى معروفة ، وقد اختلف العلماء فى المراد من النفاثات فى العقد ؛ فقيل : المراد به الساحرات ، وهو مبنى على ماذكرنا مما رُوى فى سبب النزول ، وقيل : المراد النساء اللائى يَكِدْنَ للرجال تشبيها لكيدهن بالسحر ، وقيل : المراد بالنفاثات فى العقد النَّمَّامون المقطّعون[1] لروابط المحبة المحرقون لأواصر الألفة المبددون لشمل المودة ، تشبيها لعملهم بالنفث ولرابطة الوداد بالعقدة ، أفلست ترى أنهم يُضْرِمون بين المتحابَّيْنِ نيرانَ التفرقة حتى تنفصم عروة ودادهما ؟ ثم ألست ترى أن الارتباط الوثيق يسمى عُقْدة ، ومنه تسمية الله تعالى ما بين الرجل وزوجه «عُقْدة النكاح»

وقوله سبحانه : (ومن شر حاسد إذا حسد) الحاسد : هو الذى يتمنى زوال نعمة المحسود ، ولا شك أن الحاسد إذا حسدك وعمل بمقتضى حسده لك فبغى لك الغوائل ، وأراد بك السوء ، وأعمل لذلك الحيلة ، ونصب شباكه لإيقاعك فى المضايق ، وألقى حبال الضِّغْن والكيد ، وتمرَّس بالذى تتفتقُ عنه حيلته من وسائل الأذى ؛ لم يكن فى وُسْعك أن تترضّاه لأنه لا يرضى إلا بزوال النعمة عنك ؛ كما لم يكن فى طَوْقك أن تدفع كيده وترد عَوَادِيَهُ ؛ فلم يبق إلا أن تستعين عليه بالخالق الأكرم فهو الذى يردُّ كيده إلى نحره ويدفع ضَبَّ ضغنه إلى صدره

نسأله تعالى أن يعيذنا من شرور الحاسدين ويدفع عنا كيدهم ويرد عدوانهم عليهم ؛ إنه السميع المجيب . والله سبحانه أعلى وأعلم

(١) وعلى ذلك تكون التاء فى النفاثة للمبالغة مثل علامة وفهامة ، لا للتأنيث

سورة الناس

[وهى مكية ، وآياتها ست آيات ، ونزلت بعد سورة الْفَلَق] (١)

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ [١] مَلِكِ النَّاسِ [٢] إِلٰهِ النَّاسِ [٣]

---

(١) قد اختلف العلماء فى عدد آى هذه السورة ، وفى مكان نزولها ؛ فأما الأول فقال قوم : آياتها سبع ، وقال آخرون : آياتها ست ؛ وأما الثانى فإن الخلاف فى مكان نزولها هو نفس الخلاف فى سورة الفلق ؛ لأن الاتفاق على أنهما نزلتا معا على الترتيب بينهما كما فى المصحف

قوله سبحانه : (قل أعوذ برب الناس ملك الناس إله الناس) أعوذ به : أى ألجأ إليه وأستعين به وأستمد منه العَوْن ، والرب : الذى قام بتدبير أمرك وإصلاح حالك ، والربوبية من أوائل نعم الله تعالى على عباده ولذلك بدأ بها ، وثنى بذكر المالك لأنه إنما يدرك ذلك بعد أن يصير عاقلا مدركا ، وختم بذكر الألوهية لأن الإنسان بعد أن يدرك ويتعقل يعلم بالاستدلال أنه عبد مملوك لربه الذى أنشأه وصوره وحفظه فى جميع أدوار حياته ومن ثمة يدرك أن الذى فعل به ذلك كله مستوجب للخضوع لقهره وعزته مستحق لعبادته ، وإنما خصّ هذه الصفات بالاضافة إلى الناس مع أن الله رب كل شىء وملك كل شىء وإله كل شىء لأن الناس هم الذين أخطأوا فى صفاته ، وارتكبوا فيها طريق الشطط ، وضلوا فيها الصراط السوىّ ، وجهلوا حقيقة معانيها ، وذلك لأنهم جعلوا لهم أربابا ينسبون إليهم بعض النعم ، ويضرعون إليهم فى استدرار بعض النعم ، وانظر إلى قوله تعالى : « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيحَ ابنَ مريم ،

مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ [٤]

وما أُمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو ، سبحانه عما يشركون » ثم انظر إلى قوله جل ذكره : « قل يأهل الكتاب تعالَوْا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فان تولَّوْا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » ثم انظر إلى قوله تعالت كلمته : « ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحُكْم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لى من دون الله ، ولكن كونوا ربَّانِيِّينَ بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرُسون ، ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا ، أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون » تُدْرِكْ كيف أن الناس اتخذوا بعض الخلائق أربابا من دون الله ، وكيف كان ذلك مخالفاً لما أمرهم الله به ، وكيف أن هذا يخرج بهم عن الحدود التى رسمها الله لهم وبين لهم أن مخالفتها تخرج بهم عن الدين الذى ارتضاه لهم ؛ والناسُ قد تخيلوا لهم ملوكا روحانيين ظنوا أنهم هم الذين يدبرون حركاتهم ويرسمون لهم حدود أعمالهم ، وآثروا رضا هؤلاء ، وساروا خلفهم لا يخالفون لهم رأيا ولا يترسَّمون غير ما يرسمونه لهم من الطرق ؛ فكانوا آلهتهم وإن لم يخلعوا عليهم هذا الاسم ، فأراد الله تعالى باضافة هذه الصفات إلى الناس أن يوبخ هؤلاء الذين حادوا عن الطريق المستقيم باثبات أن رب الناس وملك الناس وإله الناس هو الذى لا إله إلا هو الحى القيوم الذى فَلَقَ الحبة وبرأ النَّسَمَة .

وقوله سبحانه : (من شر الوسواس الخناس) الْوَسْوَاس : اسم للوَسْوَسَة ، والمصدر الوِسْوَاس بالكسر ، والمراد به هٰهنا الوَصْفُ ؛ فإما أن يكون من باب إطلاق اسم المصدر على الفاعل ، وإما أن يقال : هو وصف مثل الثَّرْثار ، والخناسُ : صيغة مبالغة من الخنوس ، وهو الرجوع والتأخر ، والمراد الذى يلق

الَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ النَّاسِ [٥] مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ [٦]

فى نفس الإنسان أحاديث السوء ، وقد وصفه سبحانه بقوله : (الذى يوسوس فى صدور الناس من الجنة والناس) وقوله سبحانه « من الجنة والناس » بيان للوسواس الخناس ، وكأنه سبحانه يقول : إن الوسواس الخناس قد يكون من الجنة وقد يكون من الناس، كما ورد قوله سبحانه : « شياطين الإنس والجن » وكما أن شيطان الجن قد يوسوس تارةً ويخنُس أخرى فشيطان الإنس يكون كذلك ، وذلك لأنه يُريك نفسه ناصحاً شفوقاً فإذا زجرته خنس وترك هذه الوسوسة ، وإذا أصغيت إلى كلامه بالغ فيه واستمر ؛ قال الأستاذ : فالموسوسون قسمان : قسم الجنَّة وهم الخلق المستترون الذين لا نعرفهم وإنما نجد فى أنفسنا أثراً ينسب إليهم ، ولكل واحد من الناس شيطان ، وهى قوة نازعة إلى الشر يَحْدُث منها فى نفسه خواطر السوء ، وإنما جعل الوسوسة فى الصدور على ما عهد فى كلام العرب من أن الخواطر فى القلب ، والقلبُ مما حواه الصدر عندهم ، وكثيراً ما يقال : إن الشك يحوك فى صدره ، وما الشك إلا فى نفسه وعقله ، وأفاعيلُ العقل فى المخ وإن كان يظهر لها أثر فى حركات الدم وضربات القلب وضيق الصدر وانبساطه ، اه

***

اللهم إنى ألجأ إليك وأستعيذ بك من شر نفسى ومن شر شياطين الجن والإنس . وأسألك أن تجعل رضاك غاية ما نسعى إليه ، وصلاة الله وسلامُه على ختام المرسلين وإمام المتقين سيدنا محمد رسول رب العالمين .

فهرست

تفسير جزء «عَمَّ يتساءلون»

ص	الموضوع
٣	خطبة مؤلف التفسير
٦	تفسير سورة النبأ
٢٣	« « النازعات
٤٣	« « الصاخة
٥٩	« « التكوير
٧١	« « الانفطار
٨٢	« « المطففين
١٠١	« « الانشقاق
١١٦	« « البروج
١٣١	« « الطارق
١٤٤	« « الأعلى
١٦٠	« « الغاشية
١٧٥	« « الفجر
١٩٦	« « البلد
٢١٠	« « الشمس
٢٢١	« « الليل
٢٣٣	« « الضحى
٢٤١	« « الشرح
٢٤٨	« « التين
٢٥٦	تفسير سورة العلق
٢٦٨	« « القدر
٢٧٣	« « البينة
٢٨٣	« « الزلزلة
٢٨٩	« « العاديات
٢٩٨	« « القارعة
٣٠٣	« « التكاثر
٣٠٨	« « العصر
٣١٤	« « الهمزة
٣٢٢	« « الفيل
٣٣٣	« « قريش
٣٣٨	« « الماعون
٣٤٤	« « الكوثر
٣٥٠	« « الكافرون
٣٥٥	« « النصر
٣٥٨	« « المسد
٢٦٥	« « الإخلاص
٣٧٠	« « الفلق
٣٧٣	« « الناس

DATE DUE

JAFET LIB.
2 8 [illegible] 1978

JAFET LIB.
* 14 FEB 2012 *
Circulation Dept.

297.207:A133tA:c.1
عبد الحميد ،محمد محى الدين
تفسير القرآن العظيم، جزء عم يتساءلون
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01009128

297.207:A133tA
عبد الحميد ، محمد محي الدين .
تفسير القرآن العظيم .
BIND
9. 8. 77
74-1362

297.207
A133tA